الفتاوى

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الفتاوى الفتاوى الفتاوى الفتاوى الفتاوى الفتاوى الفتاوى

الفتاوى

العقيدة

لسماحة الشيخ العلامة
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان

الإعداد والمراجعة
قسم الفتوى بمكتب الإفتاء
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

الجزء الأول


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين:

أما بعد:

فهذا هو الكتاب السابع من سلسلة فتاوى سماحة الشيخ العلّامة / أحمد بن حمد الخليلي ـ حفظه الله ـ المفتي العام لسلطنة عُمان، ويحوي هذا الكتاب فتاوى العقيدة وبعض القضايا المتعلقة بجانب الإيمان والفكر.

ولا ريب أن العقيدة هي الموجّه الرئيس لأفعال الإنسان وهي التي تربط مسيره بمصيره ومبدأه بمنتهاه، وتربطه بخالقه جلَّ وعلا؛ لذلك عني الإسلام ببناء الجانب العقدي والمنظومة الفكرية للمسلم كي يسير على منهج الله ويحقق معنى العبودية الحقيقية لله ﷻ التي هي الغاية من خلق الإنسان؛ يقول المولى جلَّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقد قام مكتب الإفتاء بوزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان بالتنسيق مع الأجيال للتسويق التي تفضلت مشكورة بإعداده وكان العمل في هذا الكتاب جرياً على القاعدة السابقة في ترتيبه وتنسيقه ومراجعته وعرضه على سماحة الشيخ حفظه الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل وأن يعيننا على إخراج بقية الفتاوى وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه هو ولي ذلك والقادر عليه..

والله الموفق لما فيه الخير والصلاح..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

قسم الفتوى

بمكتب الإفتاء

مدخل
إلى علم العقيدة



ما حكم التَّقليد في العقيدة؟

الأصل في العقيدة أن يَتَّبع الإنسان الدليل، اللهم إلا إذا كان عاجزاً عن معرفة الدليل وسأل من يُبصره به، وقد نصب الله تعالى الأدلة على المُعتقدات فمنها الأدلة العقلية كما نَبَّه القرآن عليها في مواضع متعددة كقوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله بعد إثبات توحيده تعالى بقوله:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤]، ومن غيرها من الأدلة النَّصية من الكتاب العزيز ومِن السُّنَّة المتواترة عن النبي ﷺ وهي أدلة واضحة على العقيدة، ويُسْتَأنَسُ بِما كان دون المتواتر على إثبات الشيء الذي دَل عليه دليل متواتر.

فأمر العقيدة أصعب من أمر الفروع، فيَجب على الإنسان أن يَتَثَبَّت فيه أكثر مِمَّا يَتَثَبَّت في الفروع والله أعلم.

ما هو الدليل على أنَّه لا تقليد في الأصول؟ وما هي الأصول؟

الأصول هي أصول الدين، فالقضايا التي تكون الأدلة فيها شَاهرة والحق فيها ظَاهر لا يَجوز لأحد أن يقلد فيها، أي ما كان مَنصوصا عليه نَصًّا قطعيا في كتاب الله أو ما كان دلالة العقل عليه واضحة جلية فلا يجوز للإنسان في ذلك أن يرجع إلى التقليد ويتعامى عن النص القرآني أو البرهان العقلي، وكذلك ما ثبت بالتواتر عن الرسول ﷺ وكانت الدلالة عليه دلالة نصية فإنه لا يجوز التعامي عن هذه الدلالة وتقليد غير المعصوم في ذلك، والله أعلم.

عن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤] من هم أهل الذكر ؟

هم الذين عندهم علم من الكتاب وبإمكانهم أن يبينوا الحقيقة والله أعلم.

عما يروى عن النبي ﷺ أنه كان مع أصحابه فسمعوا جلبة أو صوتاً قوياً فقال: أتـــدرون ما ذلك الصوت ؟ فأجابوا بالنفـــي. قال عليه السلام : هذا صوت حجر ألقاه الله في جهنم منذ سبعين خريفا وقد وصل الآن.

نحن نؤمن بأن النبي ﷺ لا يقول إلا حقا ولكـــن هذه الروايات وصلتنا من طرق آحاديّة لا يقطع بها، والعلماء المحققون يقولون: إن الرواية الآحادية توجب العمـــل[١] ولا تفيد العلم[٢]، ولا تبنى الأمـــور العقدية على الروايات الآحادية والله أعلم.

هل يجوز لـــي أن أعتقد ما أراه فـــي المنام من حقائق وأمـــور الآخرة، فمثلاً رأيت ذات ليلة قبراً من القبور تشتعل منه نارٌ شـــديدة، ورأيت أن لهذا القبر مدداً أو طريقاً إلى جهنم يســـتمد منه العذاب، كذلك هل يجوز لي أن أعتقد بمصير ناس رأيت أن عاقبتهـــم النار، فمثلاً أحضر لي فـــي المنام ذات ليلة إنســـان قد مات قريباً، فســـألته عن مصيره فأخبرني أنه في النار. وسألته عن فرعون وأمثاله فقال إني أجدهم في النار، فهل يجوز لي أن أعتقد بما رأيت ؟

الاعتقاد ثمرة اليقين، وإذا كان الاعتقـــاد لا يثبت بالنقول غير المتواترة، أو بالنقول التي هي غير ناصة على مدلولاتها، فلا يســـوغ أن يســـتنتج منها

(١) توجب العمل: أي حديث الآحاد مقبول غير مردود يفيد العمل في جميع أبواب الشـــريعة إلا في باب العقائد.

(٢) لا تفيد العلم: يراد بذلك الأمور العقدية والتي لا تثبـــت إلا بنص قطعي الدلالة والثبوت لأن العقائد ثمرة اليقين فيعقدُ القلب على الثبات الذي لا يطرأ عليه خطأ ولا وهم.

المعتقد بطريق الاستنباط، فكيف يعول في الاعتقاد على ما يشهده الإنسان في النوم، ومن المحتمل أن يتصور له الشيطان فيلقي عليه ما يلقيه من الشبهات التي هي بمنأى عن الحقيقة، فكيف مع ذلك يعول على هذه الشبهات فيجزم بذلك، نعم يمكن للإنسان إذا رأى خيراً في النوم أن يتفاءل بذلك الخير، فإذا رأى ميتاً في النوم يخبره بأنه سعيد وأنه من أهل الخير وأن الله ﷻ أكرمه بحسن الخاتمة، وأن الله ﷻ أكرمه بالتوبة والمغفرة، يرجو له الخير، ولكن بجانب ذلك لا يقطع بأن هذا الميت من أهل السعادة، وكذلك إذا رأى العكس يعتبر بهذه الرؤيا ويخشى الله ﷻ، ويسأل الله حسن الخاتمة، وأن يجيره من النار، ولكنه لا يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الواقع كما رأى والله أعلم.

الرسول ﷺ أرسل معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن، وهو واحد يعلمهم أمور دينهم، فلم يرفضوا ذلك بحجة أنه واحد، فدل هذا على وجوب قبول خبر الآحاد، فكيف يرد على مثل هذا القول؟

نعم أرسل النبي ﷺ معاذاً رضي الله تعالى عنه إلى اليمن، ليبلغ أهل اليمن ما استقر وثبت من الدين الذي عرف بقواطع الوحي، وذلك لأنهم كانوا يعرفون أن النبي ﷺ مرسل من عند الله سبحانه، وقد قامت عليهم الحجة بالقرآن الكريم، وهو لم يتلق من طرق آحادية، فمعاذ رضي الله تعالى عنه يعلمهم أمور دينهم الفرعية، أما العقيدة فقد استقرت مما وصلهم من كتاب الله ﷻ، والأحاديث الآحادية يعول عليها في الأمور الفرعية بشرط ألا تكون متعارضة مع النصوص القطعية، ناهيك أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا حريصين على التدقيق عندما يتلقى بعضهم من بعض رواية عن النبي ﷺ مع كونهم خير القرون وأبعد الناس عن الكذب، وقد سمعوا قول النبي ﷺ «من كذب عليّ متعمداً فليتبؤا مقعده من

النار»[١]، إذ هو من المتواتر القطعي فقد قيل بأنه رواه نحو ثمانمائة صحابي، وهذا قدر عَالٍ في التواتر، ولذلك يضرب به المثل في متواتر الخبر، ولا ريب أنه بتواتره رسخ معناه في نفوس جميع الصحابة، فكانوا أبعد ما يكونون عن الافتراء على رسول الله ﷺ ولا ريب أنهم كانوا قمة في الثقة والعدالة، ومع ذلك كان أحدهم ـ وهم في ذلك العصر ـ إذا تلقى رواية يشم منها مخالفة لكتاب الله ﷻ لم يبال بردها، مع وثوق بعضهم ببعض وتبرئة بعضهم بعضاً من الكذب، ولكن يحمل ما سمعه على الوهم، كما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها ردت رواية ابن عمر رضي الله عنهما عندما روى عن النبي ﷺ «أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»، وقالت: يغفر الله لأبي عبدالرحمٰن أما إنه لم يكن ليكذب على رسول الله ﷺ ولكنه لعله سها أو وهم، عندما سمع النبي ﷺ يقول في اليهودية التي مر على أهلها وهم يبكون عليها: «إنها ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها» ثم قالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤][٢] وكذلك كان موقف عمر رضي الله عنه من حديث فاطمة بنت قيس فقد قال: لا نترك كتاب الله لقول امرأة لا ندري أذكرت أم نسيت»[٣]، ولا ريب أنها كانت امرأة صحابية عدلة، وقد روت عن النبي ﷺ حكما يتعلق بها، لكن عمر رضي الله عنه لم يأخذ بروايتها هذه لأنه شم منها مخالفة للقرآن الكريم، وهكذا كان موقف ابن عباس رضي الله عنهما من حديث الحكم بن عمرو الغفاري في تحريم الحمر الأهلية[٤]، مع أن هذا تخصيص لعموم، ونحن نقول بأن حديث الآحاد يخصص عموم القرآن، غير أن ابن عباس رضي الله عنهما كان له موقف آخر من

(١) رواه الربيع (٧٣٨) والبخاري (١٠٤) ومسلم (٤).
(٢) رواه مسلم (١٥٤٣).
(٣) رواه مسلم (٢٧١٩).
(٤) رواه البخاري (٥١٠٣).

ذلك، فقد قال: لا نترك كتاب الله لروايتــه، وذكر الآية الكريمة ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، ولم يعرف نكير لهذا المنهج من الصحابة، وهو يدل على أنهم تواطأوا عليه، وإذا كان ذلك مســلك خير القرون مع قرب عهدهم برسول الله ﷺ وانتشار الأمانة والصدق بينهم فكيف بالعصور المتأخرة وقد تطاولت القرون وتنوســيت العهود وغشيت هذه الأمة غواش من الأهواء والفتن والعياذ بــالله، وتعرضت لما تعرضت له من البلاء، واندس في صفوفها من اندس من المغرضيــن، كيف مع ذلك كله يمكن أن يكون الحديث الآحادي حجة تعارض القرآن ؟!!! والله أعلم.

هل توجد فلسفة إسلامية ؟

توجد فكرة إسلامية وعقيدة إسلامية وإن سميت بالفلسفة، فهي لا تعدو أن تكون ـ كما قلت ـ فكرة إسلامية وعقيدة إسلامية والله أعلم.

ما هي الفلسفة وهل تتعارض مع العقل ؟

كلمة الفلســفة دخيلة على الإســلام، وهي في الأصل منهج تفكير من أجل إبراز الشيء على حقيقته، فنفس هذا التفكير موجود، ولا ريب أن منهج التفكير السليم جاء به الإسلام من غير أن يسميه فلسفة فلذلك ما كانت هذه التســمية معهودة في عهد الرسول ﷺ، ولا في عهد الصحابة ولا في القرون الأولى، فلا نجدها في كتاب الله ولا في ســنة رســول الله ﷺ ولا في أقوال السلف الصالح.

غير أن هــذا التفكير لا يلــزم أن يكون بنفــس الطريقة التــي يفكر بها الفلاســفة، فالفلاســفة ضلَّت عقولهم وهامــوا؛ وبلغ بهــم ـ والعياذ بالله ـ تفكيرهم الفلســفي إلى الإلحــاد؛ فمنهم من كان لا يؤمــن بوجود الله ﷻ،

ويقول: إن الطبيعة هي الخالقة المبدعة المصرفة، وقد مضى على هذا من مضى من الفلاسفة حتى جاء سقراط. وهو الذي حاور أستاذه في هذه القضية، إذ سأله: هل أعجبت بأحدٍ من الكتّاب أو الأدباء أو الصنّاع أو المفكرين؛ قال له: نعم؛ فقال له: بمن أُعجبت؛ قال: أعجبت بفلان وأعجبت بفلان وفلان وأخذ يذكر أسماء رجال من المبدعين؛ فقال له: ماذا صنع فلان؛ قال: صنع كذا وفلان صنع كذا وفلان صنع كذا؛ قال له: هل أحرى بك أن تُعجب بمن صنع الجسم الميت الذي لا حراك له ولا إرادة له ولا وعي فيه ولا إحساس، أو الأحرى بك أن تُعجب بالذي صنع هذا الإنسان العاقل المدبر المفكر البصير؟ فقال: لو ثبت عندي أن الإنسان صنعه صانع لكان أحرى بي أن أُعجب بمن صنعه؛ قال: وإذا أقمت عليك شاهداً من نفس الإنسان على أنه مصنوع مخلوق؟؛ قال: هات هذا الشاهد؛ قال له فكر في الإنسان وأحواله تجده بحاجة إلى غذاء يمده بالطاقة وتستمر به حياته إلى حين، وكيف أُعد هذا الإنسان إعدادا لاستعمال هذا الغذاء واستهلاكه، فقد جعل الله ﷻ فيه معدة تطحن ما يلقى إليها من الغذاء، وجعل له إفرازات لإخراج الفاضل منه عن حاجة الجسم، بينما جوهره يبقى في الجسم وهو الخلاصة التي يحتاج إليها وهي تتطور من طور إلى آخر حتى تُصلح الجسم وتنميه وتعوضه عما يحترق من خلاياه، وجعل وسيلة إيصال هذا الطعام إلى المعدة الفم والأسنان، وجعل طبيعتها متلائمة مع هذه الوظيفة التي خلقت من أجلها حيث جعل الأسنان في الأمام كالسكاكين التي تقطع اللحم، ثم جعل الأضراس الخلفية كالرحى التي تطحنه، ثم أوجد له منفذاً حتى يصل إلى المعدة وهكذا، ثم فكر في سمع الإنسان؛ فالإنسان يسمع من خلال هاتين الأذنين ما لا يحصى من الأصوات، وهما على صغرهما لا تلتبس عليهما الأصوات وإن تباينت وتعددت، ولا تمتلئان بكثرة ما تسمعان، وفكر

في بصره الذي يُبصر به؛ فإنه يبصر بعينية وهما جارحتان صغيرتان ولكن لا تلتبس عليهما المرئيات على اختلافها، ولا تَكِّل عن إبصار المرئيات على كثرتها، أما يكفيك ذلك كله دليلاً على وجود الخالق للإنسان.

فدخل الفلاسفة من ذلك التاريخ منعطفاً جديداً ولكنهم ما اهتدوا إلى الإيمان الصحيح، لأن العقل ـ كما قلت ـ لا يكفي وحده لأن يرشد الإنسان إلى الحق، وإنما الإنسان بحاجة إلى وحي الله، ولذلك كان تكليف الله تبارك وتعالى منوطاً بالوحي، لا بالعقل فحسب، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وحكى الله عن أهل النار ـ والعياذ بالله ـ أنهم يُسألون يوم القيامة عن سبب تعذيبهم وجوابهم على هذا السؤال، يقول تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، فيكون جوابهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩]، وهو دليل على أن التكليف مرتبط بالوحي وإنما العقل شرط من شروط صحة التكليف، لأنه وسيلة من وسائل إيصال هداية الدين أو هداية الحق إلى الإنسان، فغير العاقل غير مكلف، والعاقل لا بد من أن يؤدي الواجبات التي فرضها الله عليه لأنه عقل أحكام الله تعالى.

والعقل أيضاً يوصل إلى بعض الحقائق ولكنه لا يقضي في ذلك حكماً، فهو يوصل إلى معرفة الله، وإلى معرفة صفاته تعالى، لأن الإنسان إذا فكر في هذا الكون وأمعن فيه النظر لرأى أن هذا الكون صادر عن إرادة وقدرة وهيمنة، فلا بد من أن يكون وراءه من يصرفه ويدبره بعد أن خلقه وقدره، وخلقه هذا الكون وتقديره ثم تصريفه وتدبيره أدلة قاطعة على أنه متصف بجميع الكمالات، ومنزه عن جميع النقائص، وهذا سبيل إلى معرفة أن هذا الخالق الذي خلق هذا الكون لا بد من أن يكون عليماً بكل شيء، فلو كان يفوته شيء من العلم لما أمكنه أن يسيطر على هذا الكون، وأن ينظمه هذا

التنظيم الدقيق، ويجعله متناسقاً بجميع أجزائه، وأنه لا بد أن يكون قديماً، لأنه لو كان محدثاً لافتقر كغيره إلى محدث أحدثه وهكذا في معرفة سائر صفاته كالحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر فالعقل إذا يهديه إلى معرفة الله وصفاته. ولكن لا يوجب عليه حكما وإنما الحكم بوجوب اعتقاد ذلك يعود إلى الشرع، كما قال نور الدين السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فحاكم الشرع قضى بما جرى لا العقل يا ذا فاتركن عنك المرا
فإنه وإن يكن يستحسن أشيا وأشياء لها يستهجن
فذاك باعتبار ما للطبع ملائمٌ لا باعتبار الشرع

على أن العقول تتأثر بمؤثرات شتى، لذلك لا يصح أن يكون الاحتكام إليها، فإن التربية لها أثر على صناعة الفكر الذي يفرزه العقل، وكذلك البيئة لها أيضاً أثر كبير في توجيه عقل الإنسان، ولذلك نجد أناساً كثيرين يستحسنون أشياء بينما آخرون يستقبحونها وذلك قد يعود إلى اختلاف بيئاتهم التي نشأوا فيها واستمدوا منها تصوراتهم، وقد تجد هذا الاختلاف بين فردين ناشئين في بيئة واحدة، على أنه قد يكون ذلك بين الأخ وأخيه، فتجد أحدهما يستحسن ما يستقبحه الآخر نتيجة المؤثرات النفسية المتفاوتة، وترى كثيراً من العادات مستحسنة عند طائفة من الناس، وهي عند طائفة أخرى مستهجنة، وذلك لأن العقول تتأثر بمؤثرات مختلفة، وإنما الشرع الشريف هو الذي وحد هذه الاتجاهات وواءم بين هذه العقول، وبصرها جميعا بالحق الذي يجب أن تتبعه.

أما بالنسبة إلى الفلسفة اليونانية فهناك طائفة من العلماء شددوا في دراستها ومنعوها منعاً باتاً، لأنها تؤدي إلى الضلال، وطائفة أخرى أجازتها، ولكن منهم أيضاً من غلا وبالغ في قبول هذه الفلسفة حتى أصبح يقيس

القضايا الإيمانية بمقاييسها اليونانية، والذي أراه يجوز للإنسان أن يتعلم الفلسفة إذا كان متمرساً بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ بصيرا بأمر دينه، متمكنا في عقيدته حتى يرد الباطل بمثل منطقه، والله أعلم.

هل يجب علينا الإيمان بكل ما يذكره العلماء من أجرام وأفلاك ونجوم وحجمها وسرعتها وحرارتها وما إلى ذلك إيماناً يقيناً؟

لا يجب ذلك إذ لم يأت بذلك نص شرعي، ولا دلت عليه ضرورة العقل، وإنما هذه أشياء اكتشفها العلماء المتخصصون فتحدثوا عنها، وحديثهم يحتمل الصدق والكذب، وإنما يترجح الصدق بالشواهد التي تدل عليه، ويقال مع ذلك لعل وراءها ما لم يفهموه، فالتصديق إنما هو من باب الاطمئنان فحسب، والله أعلم.

ذكر الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ في مشارقه[1]، أن الاعتقاد هو: «وصول النفس إلى المعنى الذي يحتمل النقيض».. إلخ، فهل عقيدة المرء تحتمل النقيض؟ وما الفرق بين العقيدة والاعتقاد؟ وإن لم يكن هنالك فارق فكيف لنا أن نجزم بصحة معتقد وفساد آخر؟

مراده بهذا أن الاعتقادَ في أصله يمكن أن يكون صحيحاً ويمكن أن يكون فاسداً، وذلك بالنظر إلى مفهوم الاعتقاد لا إلى عين الْمُعْتَقَد، فإنه عرفه بأنه: «وصول النفس إلى المعنى الذي يحتمل النقيض لو ذكر»، إذ لو لم يكن محتملاً للنقيض لما اختلف الناس في معتقداتهم، حتى جعل كثير من الناس من الباطل حقاً ومن الحق باطلاً، فإن وصول النفس ـ أيّاً كانت ـ إلى معنى من المعاني لا يعني ذلك أن ذلك المعنى هو الحق، حتى

(١) مشارق أنوار العقول للإمام عبدالله بن حميد السالمي (١/١٧ دار الجيل).

يتأيد هذا الوصول بالأدلة العقلية أو النقلية القاطعة فعندئذ يكون الْمُعْتَقَد لا يحتمل النقيض وإن ادعى من ادعى أن نقيضه هو الحق، وقد بين الإمام السالمي هذا بقوله على أثر تعريفه هذا: «وهو حق إن طابق الواقع وباطل إن لم يطابق» وهذا كما عرّف من عرّف من أهل العلم الخبر أنه: ما كان من الكلام محتملاً للصدق والكذب لذاته، مع أن من الكلام الخبري ما لا يحتمل الكذب بحال، وذلك هو كلام الله وكلام رسوله وسائر رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ولكن ليس ذلك لصيغته الخبرية وإنما ذلك لكون مصدره لا يصدر عنه إلّا الحق، ومن الأخبار ما لا يحتمل أن يكون صدقاً، وذلك ما علم بطلانه بنص الشرع أو بدلالة العقل، والله أعلم.

يعزف بعض الطلبة عن التعمق في دراسة قسم العقيدة، وذلك لما يرونه من عدم أهمية هذا القسم في الحياة الدينية والعملية، ومن بين استدلالاتهم على ما يرون أن كثيراً من العلماء في معرض حديثهم يهيبون بالتعمق في دراسة الفقه، حتى وصل الحال إلى وجود أفكار تنبعث من بين الطلبة داعية للابتعاد عن التخصص في هذا القسم، بين لنا جزاكم الله خيراً تلك المكانة التي يحتلها هذا القسم بين أقسام الشريعة الإسلامية، دامغاً تلك الأفكار، مع إيماننا بأن الدين الإسلامي الحنيف كل متكامل يكمل بعضه بعضا؟

العزوف عن دراسة العقيدة خطأ كبير؛ فإن العقيدة هي قاعدة العمل وأساس الاستقامة، ومصدر كل خير يأتي به العبد، وحسبكم أن القرآن الكريم عُني بالعقيدة أكثر مما عُني بالفقه، فما تَحَدُّثُه عن آيات الله في الأنفس وفي الآفاق إلا لترسيخ العقيدة وتعميق جذورها، وكثيراً ما تتخلل آيات الأحكام آيات ترتبط بالعقيدة، بل نجد نفس آيات الأحكام كثيراً ما

تختم بفواصل عقدية، وما ذلك إلّا لأهميــة العقيدة، كيف والإيمان هو أهم سبب من أســباب النجاة كما يدل عليه تصديره على العمل فيما لا يحصى من آيات القرآن، فلينتبــه أولئك الذين يَزْهَدُون أو يُزَهِّــدُون في هذا العلم، وليرجعوا إلى صوابهم، والله أعلم.

قال رســول الله ﷺ: «من رآني في المنــام فكإنما رآني فــي اليقظة فإن الشيطان لا يتمثل بي»[١]؟

وقال ﷺ: «من رآني في المنام دخل الجنة»[٢]

وقال ﷺ: «من رآني في المنام فلن يدخل النار»[٣]

وقال ﷺ: «من رآنــي في نومه رآني يوم القيامة، ومــن رآني يوم القيامة تشفعت له، ومن تشــفعت له شرب من حوضي، ومن شرب من حوضي حرم الله جســده على النــار». هل يحكم بالظــن على أن رائــي النبي الأمي محمد ﷺ في المنام أنه من أهل الجنة، للبشــارات السابقة الذكر بالأحاديث الواردة أعلاه؟

من رآه ﷺ بحالة مبشــرة رجي له الخير، ولكن لا يقطع له بأنه من أهل الجنة، إذ القطع بذلك يتوقف على الأدلة القطعية، والله أعلم.

ما معنى «ما علم من الدين بالضرورة»؟

ما علم مــن الدين بالضرورة هو الأمر الشــائع الــذي أصبحت معرفته ضرورية، لأن الناس جميعا اشتهر عندهم ككون فريضة الظهر أربع ركعات،

(١) رواه البخاري (١٠٧) ومسلم (٤٢٠٦).
(٢) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات.
(٣) رواه ابن عساكر وإسناده واهٍ.

وفريضة العصر أربع ركعات وفريضة المغرب ثلاث ركعات، وفريضة العشاء أربع ركعات وفريضة الفجر ركعتين والله أعلم.

ذكرتم أن النبي ﷺ لم يكن يحكم على المسلمين في عهده إلا بالظاهر، وهذه الطريقة التي اتبعها عند المنافقين، فلماذا أخبر أصحابه أن مدعماً قد سرق الشملة التي لم تصبها المقاسم، رغم أن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ كانوا يحسنون به الظن، بدليل قولهم فيه عند وفاته هنيئاً له الجنة؟

النبي ﷺ يوحى إليه وأراد بذلك أن يقطع كلام القائلين بغير علم فيما لم يأذن به الله، فلا يشهدوا لأحد بالجنة إلا بحجة، ولا يشهدوا على أحد بالنار إلا بحجة، فليس للإنسان أن يخوض في هذا الأمر لأنه من أمور الغيب والله أعلم.

ما هي الأمور المعلومة من الدين بالضرورة؟ وهل هي متفق عليها، أم مختلف فيها؟

الأمور المعلومة مِن الدين بالضرورة هي كل ما كانت الدلالة عليه دلالة قطعية لا تَحُوم حولها رَيبة قط، ومِن ذلك الإيمان بوجود الله، والإيمان بصفاته التي دلت عليه آياته التنزيلية والتكوينية، وكذلك الإيمان بالمعاد: أي بيوم القيامة وبِمَثوبة المطيع وعقوبة العاصي. فإن كل ذلك مِن الأمور التي علمت مِن الدين بالضرورة، والله أعلم.

ما أهمية السؤال؟

إنّ الإنسان مطالَب بأن يكون على بيِّنة من أمره، وبصيرة من دينه، بحيث لا يتقدم خُطوة في شيء جاء فيه شرع الله تعالى إلّا وهو على بيّنة من كون تلك الخطوة التي يخطوها صوابا، ذلك لأنّه لم يُخلق هَمَلا، ولم يُترك سدى، يقول الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، فالإنسان خُلق

ليضطلع بأمانة كبرى، لا يستطيع أن يقوم بواجباتها ويؤديها حق الأداء إلّا إذا كان على معرفة وبصيرة، وإذا كان النظام البشري الذي يُنشئه بشر مثلنا في هذه الأرض لا بد لمن أراد تطبيقه من دراسته حتى يكون على بيّنة من أمره لئلا يقع في خطأ في شيء منه، فإنّ النظام الربّاني هو أوْلى بالدراسة، وأجدر بأن يعكِف الإنسان عليه حياته كلها، ذلك لأنّ الحياة تتجدد، وأطوارَها تتقلب، وهي مع كل هذا لا تخرج عن إطار حكم الله، فحكمه يتناول الكليات والجزئيات والدقائقَ والجلائل من أعمال الإنسان، وقد فرض الله السؤال بقوله: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧]، والنبي ﷺ عندما أَقدم قومٌ على أمرٍ خالفوا فيه الشرع وبَّخهم على ذلك ثم قال: (هلّا سألوا؟! فإنّ شفاء العِيّ السؤال)[1]، فالإنسان مأمور بالسؤال عن دينه حتى لا يتخبط في مسلكه.

ولا ريب أنّ الإنسان خُلِق جاهلاً بطبعه، فالله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨]، وإنما الجهل يتبدّد بالسؤال، وطلب المعرفة، وقد أجاد الشاعر عندما قال:

إذا أنت لم تدر ولم تك بالذي يسائل من يدري فكيف إذن تدري

فالسؤال أمر لا بد منه من أجل الوصول إلى استجلاء حكم الله تعالى فيما يقدم عليه الإنسان أو يدعه، وفي استظهار ما يغمض ويشكل من الأمور؛ وبقدر حال المسؤول عنه يكون حكم السؤال، فإن كان المسؤول عنه واجبا فعله أو واجبا اتقاؤه، وقد كان ذلك أمرا حاضرا، فالسؤال من الفرائض اللازمة أو الواجبة ـ على حسب اختلاف العلماء هل الفرض هو الواجب أو الواجب أعم من الفرض؟ وذلك بأن يحمل الفرض على ما ثبت بدليل قطعي،

(١) رواه أبو داود (٢٨٤).

والواجب أعم منه بحيث يشمل ما ثبت بالدليل الظني، وإن كان المسؤول عنه من الأمور التي هي أوسـع من كونها واجبا فعلها أو واجبا اتقاؤها فذلك من الأمر المندوب إليه إن كان مما يتعلق بجانب الدين؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

هناك حديث عن النبي ﷺ يقول: «أعظم الناس جُرما من سأل عن شيء لِيَحْرُم»[١]، نريد إطلالة مختصرة حول ماهية السؤال، ومعنى الحديث.

هذا يرجع إلى التنطع المذموم شرعا، وذلك أن يأخذ الإنسان في السؤال عن شـيء لم يأت به حكمٌ من الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ويتعمق في السؤال حتى يَرِد شرعٌ بتحريمه، فإن هذا من التنطع، فلذلك كان النبي ﷺ إشفاقا على أمّته يأمرهم أن يتركوه ما تَركَهم[٢]، بحيث لا يسـألون عن أشـياء لم يرِد فيها حكم بتحريمها؛ فالأصـل فيما خلقه الله ـ تبارك وتعالى ـ، وجعل فيه منافع للعباد أنه مبـاح لهم، إلّا إن دَلَّ الدليل الشـرعي على رفع هذه الإباحة بتحريم، ثم من ناحية أخرى إنّ الأمور التي حُرِمت في الإسلام هي غالباً أمور محدودة يسيرة، بخلاف الحِل، فإنّ الحِلَّ هو الأصل، ولذلك كان الحِل لا ينضبـط ولا يتقيد بقيد، والحرمة هي التي تتقيد وتنضبط.

فالله ـ تبارك وتعالـى ـ عندما ذكر المطعومات اسـتثنى أربعة أنواع من حكم الحل فـي المطعومات، ثم جاءت نصوص أخرى فـي القرآن الكريم تدل على تحريم بعضها، وجاءت أيضاً نصوص قليلة من السـنّة النبوية على

(١) رواه البخاري (٦٧٤٥) ومسلم (٤٣٤٩).

(٢) من ذلك قول النبي ﷺ: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» (رواه البخاري (٦٧٤٤)).

صاحبها ـ أفضل الصلاة والسلام ـ: تدل على تحريم بعضها، وإلّا فالأصل أنّ كل مطعوم نافع، هو حلال ولا يحرم.

كذلك المنكوحات من النساء، فالله ـ تبارك وتعالى ـ بعدما بيّن ما يحرم نكاحه منهن أطلق الإباحة بقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] وإنما جاءت السنّة بتحريم البعض اليسير مما لم يذكر في القرآن منه، وهو مخصص لهذا العموم.

كذلك أيضاً أنواع اللباس أباح الله ـ تبارك وتعالى ـ الانتفاع بما خلقه في هذه الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ومن بين ذلك الملبوسات، وإنما جاء تحريم الذهب والحرير على الرجل وتحريم لُبْسَة الخيلاء وهو مما يؤكد أن المحَرَّمات من جميع الأجناس معدودة، والأصل في الحِل الإطلاق بخلاف الحرمة فالأصل فيها التقييد.

فلذلك يُمنع الإنسان وهو يرى هذه الأدلة التي تدل على إطلاق الحل وتقييد الحرمة أن يأتي ويأخذ في التنقير والبحث حتى يترتب على سؤاله أن يَرِد نصّ شرعي بتحريم ما لم يكن حراماً من قَبْل، فهذا هو الممنوع؛ والله تعالى أعلم.

كيف نوفق بين أهمية السؤال وبين ما ورد في بعض الأحاديث من التحذير من كثرة السؤال، والنبي يقول في حديث آخر مبيّنا أنّ هلاك بعض الأمم إنما كان بسبب كثرة سؤالهم؟

يجب علينا أوّلاً أن نعرف معنى «السؤال» لغة وشرعا، فإنّ الشّرع كثيرا ما يستخدم الألفاظ في أصولها اللغوية، وذلك كالصَّلاة مثلا، فـ«الصلاة» نُقِلت في الشرع إلى معنى أخص من المعنى اللغوي، ولكن مع ذلك قد

تُستعمل شرعا في المعنى اللغوي، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].. فالمقصود بالصلاة هنا الدعاء، وهو الأصل في معنى «الصلاة» لغة، كما يدل على ذلك قول الشاعر:

عليكِ مثل الذي صليتِ فاغتمضي جفنا فإنّ لجنب المرء مُضطجَعا

ونجد كثيرا من النصوص الشرعية استعمال الألفاظ التي نقلها الشرع إلى معاني أخص من معانيها اللغوية تستعتمل في معانيها الأصلية، كما في قول الله ـ تعالى ـ في قصة مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا﴾ [مريم: ٢٦].

و«السؤال» من حيث اللغة هو الطلب، يقال: «سأل» بمعنى طلب، ولذلك نجد في القرآن الكريم الأمر بإعطاء السائلين، وجعل ذلك من جملة ما شرعه الله من البر في قوله:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فإنّ «السائلين» هم الذين يطلبون المال لسد عوزهم وجبر كسرهم، وقولُ النبي: (إنّ الله كرِه لكم قيل وقال، وكثرةَ السؤال)[1] يجوز أن يُحمل على هذا المعنى؛ كما حمله على ذلك بعض الشرّاح؛ ويجوز أن يكون المراد بذلك السؤال الذي فيه تنطّع، كما كان من بني إسرائيل عندما أُمِروا أن يذبحوا بقرة حيث قال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] فأخذوا يُدقِّقون في السؤال عن وصف تلك البقرة تدقيقا عجيبا، فضُيِّق عليهم بقدر ما ضيَّقوا على أنفسهم، فلو أنهم عندما قيل لهم: «اذبحوا بقرة» تناولوا أيّ بقرة كانت فذبحوها لكان ذلك مجزيا وكافيا، ولكنهم تنطعوا كما

(١) رواه البخاري (١٣٨٣) ومسلم (٣٢٣٦) ونحوه عند الربيع (٥٦٧).

حكى الله ـ تعالى ـ عنهم بقولـه: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨].

ولم يكتفوا بهذا فقالوا:

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩].

ولم يكتفوا بهذا أيضاً فقالوا:

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]؛ وهكـذا كان النبي ﷺ يكره مثل هذه الأمور، كسؤال بعض الناس عندما سأله: «الحج واجب علينا في كل عام؟» فاشتد النبي وغضب حتى احمرّ وجهه؛ لأنّه لو قال: «نعم» لكان ذلك واجبا، وهم لا يقدرون على أن يفعلوا ذلك[1]، والله أعلم.

هل يصح للإنسان أن يسأل عالماً عن مسألة ما ثم يسأل عنها غيره؟

إن كان يلتمس الرخصة فلا ينبغي له ذلك، لأنه يبحث عن الرخصة ولو كانت بزلة لسان. والله أعلم.

ما هي آداب السؤال؟

إنّ السـائل إنّما يطلب مِمّن يُجيبه عن سـؤاله أن يوضح له حقيقة ما غَمَض على فهمه، وهذا يعني أنه يطلب بسـؤاله هـذا أن يمنحه المجيب علما في القضية التي يسأل عنها، لذلك كان الواجب أوّلا أن يكون سؤاله بأسلوب يدل على تواضعه وعلى حرصه على الاستفادة، لا أن يكون سؤال

(١) رواه الإمام الربيع (٣٩٤).

متعالم، ولذلك قال الإمام أبو علي موسى بن علي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنّ العالِم لَيَسأل سـؤال الجاهل ويفهم فهم العاقل». أي من أدب السـؤال ـ حتى ولو كان السائل من أهل العلم ـ إذا سـأل من هو أعلم منه أن يكون سؤاله كسؤال الجاهل الذي لا يعرف شـيئا من تلك المسـألة، لا أن يكون سؤاله سؤال متعالم وسؤال تَقَعُّر وتَنَطُّع، وقد نَظَم هذا المعنى الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في قوله:

مـن أَدَب السـؤالِ لِلعفيـف أن يَسـأَل العالِـمُ كالضعيف

وعلى السائل أن يتفادى ما يؤدي بسؤاله إلى السقوط وعدم الاعتداد به كالتناقض فـي نحو قوله: مـا الدليل على أن العرض جـرم والحركة جسـم؟! مع أنّ الحقيقة هي خـلاف ذلك فالعرض ليـس من الأجرام، والحركة ليسـت من الأجسـام، وآخـر السـؤال ينقض أولـه، وكذلك الاضطراب وذلـك أن يُدخِل الأعمّ فـي الأخصّ، كأن يسـأل عن العلة في كون الحادث جسـما والعرض حركة؟ مع أن الحـادث يصدق على الأعراض والأجسـام، والعرض تدخل فيه الحركـة وغيرها، أو أن يكون السؤال فيه إثبات لشـيء ينفيه المجيب، كأن يسأل عن الحجة في إثبات قِدَم العالَم، مع أنّ المجيب لا يقول بقدمه، أو أن يجمع عن سؤالين معا، كأن يقول ـ مثلاً ـ: ما الدليل الذي صار من أجله العرَض عرَضا وصار من أجله الجسم جسما؟ بحيث يجمع السؤالين ويطلب لهما إجابة واحدة أو أن يثبت السائل في سـؤاله ما ينفيه المجيب، كأن يسأل عن الحجة على استقلال الإنسان بخلق أفعاله مع أن المسؤول لا يقول ذلك! فإن هذا كله مما يؤدي إلى إسقاط سؤاله؛ وكذلك إن كان سؤال تعنّت بحيث لا يريد السائل إلا أن يوقع المجيب في حرج حتى يشمت به، فمثل هذه الأسئلة لا إجابة عليها، والله ـ تعالى ـ أعلم.

الذي يردد أنّ الاختلاف بين العلماء رحمة، هل الاختلاف في المسائل الفقهية أم ـ أيضاً ـ يشمل المسائل العقائدية ؟

الاختلاف في المسائل الفقهية هو اختلاف رحمة، وإن كانت بعض المسائل العقدية لا تصل إلى القطع لعدم وجود دليل قطعي يدل على ما هو الحق، كالاختلاف في الجنة التي كان فيها آدم، هل هي جنة الخلد أو جنة في الأرض ؟ وإنما كان القول الأمثل يتأيد بحجج ظنية لا تصل إلى درجة القطعية، فإن الاختلاف في ذلك لا يعدو أن يكون من باب الاختلاف في الرأي الذي يحمد ويعد رحمة، أما إن كان الأمر بخلاف ذلك بحيث يَرُدُّ المخالف دليلا قطعيا ثابتا في كتاب الله ـ تعالى ـ أو في سنّة رسوله ﷺ المتواترة وكانت دلالته على الحكم نصية فإنّ هذا الاختلاف مذموم ولا يعد رحمة بل هو نقمة، وذلك حتى في المسائل الفقهية لو رَدّ أحد من الناس حكما فقهيا منصوصا عليه في كتاب الله ـ تعالى ـ أو في السنّة المتواترة عن النبي ﷺ فإنه لا يعدُّ ذلك الاختلاف رحمة.. فالاختلاف الذي هو رحمة إنما هو الاختلاف في فهم الأدلة إذا كانت ليست نصية، وكذلك يكون الاختلاف رحمة عندما يكون في ترجيح دليل على دليل آخر إذا كانت هذه الأدلة في نفسها ظنية من حيث ثبوتها وذلك كالأحاديث الآحادية أو تكون ظنية من حيث دلالاتها، وذلك في الأدلة غير النصية؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] ما حدود هذه الآية ؟ هل يقف المسلم عند كل حركة فلا يقدم على أي أمر حتى يسأل عنه ؟

إن أشد ما يكون حرمة أن يقدم الإنسان على القول بغير علم، فإن الإقدام على القول بغير علم أمر قرنه الله تعالى بالإشراك به عندما قال سبحانه: ﴿ قُلْ

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وبين أن ذلك مما يدعو إليه الشيطان لعنه الله والعياذ بالله من شره ومن دعوته فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وجاء في الحديث الذي أخرجه الإمام الربيع رَحِمَهُ اللَّهُ في مسنده الصحيح عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد مرسلا عن النبي ﷺ أنه قال: «من أفتى مسألة أو فسر رؤيا بغير علم كان كمن خر من السماء إلى الأرض فصادف بئراً لا قعر له ولو أنه أصاب الحق»[١] وإذا كان هذا فيما لو وافق الحق، فكيف إذا خالف الحق، لذلك كان التقول على الله بغير علم أمراً محرماً؛ أما الفعل فإن كان الإنسان في نفسه ريبة من الأمر، وحرج من الإقدام عليه فليس له أن يقدم حتى يسأل ليتبينه قبل أن يقدم عليه، ففي الحديث عن النبي ﷺ: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»[٢]. وفي الحديث عنه: «البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في الصدر»[٣]؛ وفي الحديث ـ أيضاً ـ «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٤]. فليس للإنسان أن يقدم على شيء من غير أن يكون على بينة منه أو تكون في نفسه ريبة منه، أما إن لم تكن في نفسه ريبة وأقدم على شيء وهو لا يعلم حكمه ووافق الحق ولم يخالفه ففي هذه الحالة لا يكون مسؤولاً أمام الله لأنه وافق الحق وإن كان الأولى له أن يتعلم، غير أنه لا يستطيع أن يحيط علما بحكم كل ما يقدم عليه من الأعمال فإن ذلك أمر عسير فما لم تكن هنالك ريبة وكانت النفس مطمئنة ترجى له السلامة إن وافق الحق؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

---

(١) رواه الإمام الربيع (٣٥).

(٢) رواه أحمد (١٧٣٢٠) بنحوه.

(٣) رواه أحمد (١٧٣٢٠) ونحوه عند مسلم (٤٦٣٢).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٤٢).

في بعض الأحيان يتعرض الأبوان لأسئلة محرجة من الأبناء فيما يخص العقيدة وكذلك فيما يخص الحياة الأسرية والحياة الجنسية فربما يسأل الولد أباه: أين الله؟ ولماذا لا نراه؟ وكيف شكله؟ وهلم جرا ـ تعالى الله ـ وربما يسألهما مِن أين أتيت أنا؟ وهلم جرا.. فكيف يتعامل الوالدان مع هذه الأسئلة المحرجة؟

بالنسبة إلى السؤال عن الله تبارك وتعالى فالجواب ينبغي أن يكون بقدر عقليّة هذا الطفل بحيث يُغذَّى بالعقيدة السليمة، ويقال له بأنّ الله تعالى هو أجلُّ من أن تكتنِفَه الأقطار، وأسمى من أن يَحُلَّ في مكان، فهو تعالى كان قبل خلق الزمان والمكان، وإن كنتَ أيها الطفل لا ترى عقلك ولا ترى روحك وأنت ترى هذه الروح يسري أثرها في جسمك وهو هذه الحياة التي تدِبّ في أوصالك فأنّى لك أن تستطيع أن تتوصل إلى إدراك خالقك العظيم؟! فالعجز عن الإدراك هو الإدراك، فينبغي أن يُلقَّن هذه العقيدة بقدر المستطاع؛ أما «من أين أتيت؟» فيعرف بأنّ الذي خلقه إنما هو الله، ولكن وَلدَته أمه، وأبوه هو الذي يرعاه، ولا يُخبَر بالأمور الجنسية التي قد تكون فوق مستوى عقله وتفكيره، وإنما يتدرَّج في إخباره بالحقائق التي كانت خافية عليه شيئا فشيئا بقدر نمو مداركه واستيعاب ذهنه، حتى يتوصل إلى دَرْك الحقيقة؛ والله ـ تعالى ـ الموفِّق.

في كثير من الأحيان يرتكب الآباء أخطاء فادحة في مسألة العقيدة نفسِها، فعندما يريد بعض الآباء أن يُصوِّر لابنه يوم القيامة وأن يبيِّن له أنّ هناك جنة وأنّ هناك نارا، وهلم جرا من هذه الأمور.. يستغل هذا في التربية، فيزجر الولدَ بالنار ويقول له: «إن فعلتَ هكذا فإنك ستصطلي بالنار» والعياذ بالله.. فدائما ما يُخوِّف الولد بالنار، حتى صارت هذه عادة عند الأطفال، فإذا رأى طفلا يُخالفه في الأمر يقول له: «إنك ستكون

من أهل النار» والعياذ بالله، فانكسر حاجز الخوف من النار بسبب هذه الأمور التي تتردد على ألسنة الآباء مع أطفالهم حتى غدت العملية سهلة.. فإذا أراد الوالد أن يبيّن لولده صورة الجنة والنار ويوم القيامة، ما هي الطريقة المثلى حتى تبقى هذه الأمور مخوفة عند الولد في جانب النار ـ والعياذ بالله ـ ومَرغوبة في جانب الجنة ؟

مما ينبغي أن يغرس في نفس الطفل أنّ الجنة ونعيمها أجلّ من أن يستطيع تصوُّر ما فيها من السعادة أحدٌ، وهذا هو الواقع، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] فإذا انغرس في نفس الطفل أنّ هنالك نعيما أعظم من مدارك البشَر، وأسمى من أن تَكْتَنِهَهُ عقول الناس يكون دائما متشوِّقا إلى ذلك النعيم، ويغرس في نفسه بأنه لا أحد يستطيع أن يقطع لنفسه بالسلامة والنجاة من النار والفوز بالجنة، ولا أن يحكم عليها بأنها من أهل الشقاء وأنها من أهل الحرمان، وذلك لأجل أن يكون هنالك توازن بين الخوف والرجاء.. بين خوف العقاب ورجاء الثواب، وبالنسبة إلى عذاب النار فيُذكِّره بضَعْفَ القوى البشرية عن احتمال الأذى ولو كان يسيرا، فالإنسان يتأذى بلسعة بعوضة، ولا يحتمل بحال لَفْح نار الدنيا ولهيبها، فكيف لو صَلِيَ نارَ يوم القيامة، وهي أشدّ، وعذابها أكبر، ومن دخلها خُلّد فيها: ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٦] كل ذلك مما يجعله يعيش بين التعلق بالجنة والرغبة في نعيمها والخوف من النار والإشفاق على نفسه من جحيمها، مع غرس العقيدة الصحيحة فيه، وهي أنه لا يُقطع في أحد بعينه ـ من غير نص قطعي ـ بأنه من أهل الجنة أو أنه من أهل النار، وبهذا يعتاد أن لا يُهدِّد غيرَه بأنه من أهل النار، لأنّ ذلك تدخُّل سافِر في أمر الله تعالى، إذ الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يعلم خواتيم عباده، وهو وحده الذي يعلم السعداء والأشقياء منهم، والله أعلم.

ما هو السـنّ الأمثل الذي يكون فيه الطفل قادرا على استيعاب التربية العَقَدِيَّة ؟

ذلك يختلف باختلاف مدارك الأطفال، فمن الأطفال من يكونون مهيئين في مرحلة مبكرة لإدراك مثل هذه القضايا، ومنهم من يكونون بليدي الأذهان فتراعى هذه المدارك وتفاوتها، فمن كان ألمعيّا قادرا على الاستيعاب يُغذَّى بالمعارف في مرحلة مبكرة، ومن كان بخلاف ذلك يراعى فيه ـ أيضاً ـ هذا الجانب ويعطى من الجرعات بقدر ما تحتمله مداركه والله أعلم.

كيف يكون اخْتِلاف علماء المسلمين رَحْمَة للأمَّة الإسلامية ؟

نعم، اختلاف عُلَمَاء المسلمين هُو رَحْمَة بالأمَّة الإسلامية فيما إذا كان هذا الاختلاف في الفُرُوع، أيْ لَم يُصَادِم نَصا قَطْعِي الدلالة والمتن، أمَّا إن صَادَمَ نَصا قطعي الدَّلَالَة والمَتْن ففي هذه الحالة يكون هذا الاختلاف منشأً للنِّقْمَة لأنَّه لا يَجوز لأَحَدٍ أيا كَان أن يُخَالِف أمر الله، أو أن يُخَالِف أَمْرَ رسوله ﷺ، فالله تعالى يقول:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقد أمر الله تعالى عِبَاده بِأن يُطِيعُوه وأن يُطِيعُوا رسوله ﷺ، ثُم أن يُطِيعُوا أولياء أُمُورهم، ولكن مع ذلك نَبَّه أنَّه عند الاختلاف والتَّنَازُع يَجِب أن يُرَدَّ الأمر كُلُّه إلى الله وإلى رسوله ﷺ، فقد قَال الله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فأمر الله ـ تعالى ـ إنَّما هو أَمْرُ رَبِّ السَّمَاوَات وَالأرض خَالِقِ الكَوْن ومُصَرِّف الوُجُود الذي أَسْبَغَ على العَبْد نِعْمَه ظَاهِرَة وَبَاطِنَة وَمِنْه مَبْدَؤُه وإليه مُنْتَهَاه،

فهو جَدِير أن يُطَاع ولا يُعْصَى، وَأمر رسوله ﷺ إنَّما هو أَمْرُ الـمُبَلِّغِ عن الله، المَعْصُوم مِن الخطأ والزَّلَل الذي وَصَفَه الله تعالى بِقوله:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقد جَعَل الله طاعته ﷺ مِنْ طاعته سبحانه فقال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠]، فلَا يَجُوز أن يرد أحد أياً كان حُكماً جاء عن الله تعالى أو جاء عن رسوله مع ثبوت ذلك الحكم وصحته.

وهذا ـ كما قلنا ـ عندما يكون النَّص قطعي الدلالة والثبوت، أمَّا عندما يكون غير قطعي الدلالة كَأَنْ يكون عاماً فإنَّه قد يَختلف العلماء في تَخْصِيصه بالمخَصِّصَات الـمُتَنوِّعة، فهناك مُخصصات كثيرة تُخصص العمومات حَتى قيل: «ما من عُمُوم إلا وقد خُصِّص» ما عَدَا الأشياء التي لا يَجُوز أن تُخَصَّص وهيْ التي يَقْتَضِي العقل استحالة تَخْصِيصِها، كقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن: ٣]، فلا يَجوز أبداً أن يُخَصَّص هَذَا العموم بحال، وكقوله سبحانه: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص: ٣]، فَلَا يَجُوز ـ أيضاً ـ أن يُقَال بِأَنَّ هَذَا العموم مَخْصُوص وأنَّ الله ـ تعالى ـ وَلَدَ أحداً أو وَلَدَه أحد تعالى الله عن ذلك، وكذلك قوله:

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]، وكذلك قوله:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، إلى غير ذلك مِن الآيات التِي يقتضي العقل استحالة تَخْصِيصِها.

أمَّا العمومات التي تَتَعَلَّق بأفعال العباد فإن هذِهِ هي التي خُصِّصَت، ونَجد القرآن يُخَصِّص القرآن، وحديث النبي ﷺ يُخَصِّص ـ أيضاً ـ عمومات القرآن حَتى وَلَوْ كان آحادياً لأن دلالة العام دلالة ظنية.

وقد يَختلف العلماء في تَخصيص المخصِّصَات لِهذه العمومات وذلك بأن يرى بعضهم أن هذا المخصص جاء لِسَبَب، وأن هذا السَّبَب قد زال وَلا يعدُّ مُخَصِّصاً للعموم، ويرى بعضهم أنَّه لَم يَأت لسبب خَاص وأنَّه لا يَزَال على تَخْصِيصِه للعموم.. مثال ذلك أن الله تعالى قال:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٤٥]،

هذا عام وقد جاء تَخْصِيصُه بكثير مِن المخصصات كتَحْرِيم الصَّيد على المحرم وتَحريم الخمر لأن الخمر من ضمن المطعومات، فهما مُخَصِّصان لِهَذَا العموم، ولكن مَعَ هَذَا كُلِّه هناك مُخَصِّصات اختلف العلماء فيها، كَتَخصيصه بتحرِيم الحُمُر الأَهْلِيَّة لأنَّه وَرَدَ النَّهي عنها، ولكن كثيراً مِن العلماء قالوا بأن هَذَا النَّهي إنَّما هو لأجْلِ حَمْلِهَا متاع الناس وحاجة الناس إليها وإلا لَمَا نُهِيَ عَنهَا، وكذلك تَخْصِيصه بتحريم ذوات النَّاب مِن السِّبَاع والمَخَالِب مِن الطَّير.

وَمثل هذه المخصِّصات ـ أيضاً ـ المخصصات التي طَرَأَت على قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤]، هنالك مُخَصِّصَات مُجْمَع عليها لَا يَجُوز الخلاف فيها بأيِّ حَال مِن الأحْوَال، كَتَخصيصه بتحرِيم كل ما هو حَرام مِن قبل النَّسَب إذا كان تحريمه مِن جهة الرَّضَاع، بناء على إلحاق الرَّضاع بالنَّسب فقد جاءت بذلك أحاديث أُجْمِع عليها وبسبب هذا الإجْمَاع عليها لا يَسُوغُ لأحد أن يُخَالِف ما دلت عليه.

وما كان الاختلاف فيه بسبب الرُّجُوع إلى الأدِلَّة الظَّنية فإنَّه لا يَسُوغُ التَّفسِيق فيه، وفي هَذَا تكون الرَّحْمَة بالعِبَاد، أمَّا أنْ يُخَالِفَ أحد نصاً قطعياً في كتاب الله أو ما تواتر من سنة رسول الله ﷺ بدعوى الاجتهاد والنظر فَذلك مِمَّا لا يَسُوغُ أبداً، والله ـ تعالى ـ أعلم.

هناك مَن يَتَمَسَّك بِهذه المقولة وهي أن اختلاف العلماء رَحْمَة، ثم يُرْدِف هذه المقولة بِمَقولَة أخرى: «من أخذ بقول مِن أقوال المسلمين فهو سالِم»، ألا ترون أنَّ هذه المقولة مَعَ تلك تُؤَدِّي إلى نوع مِن الانسياب في سلوك المسلم؟

لا ريب أن اختلاف العلماء رَحْمَة، وَلَكن لا يَعْنِي هَذَا أن تَتَسَيَّبَ الأُمَّة، بِحَيْث تَتَتَبَّع الرُّخَص فيأخذ المسلم تارة بِهذا الرَّأي وتارة بِهَذا الرأي وأخرى بالرأي الآخر، حَتى يُرَكِّبَ مِن عَمَلِه مَجْمُوعَة مِن آرَاء لا تَعُود هذه الآراء إلى قول أحد مِن علماء الأمَّة.. فهَذَا مِمَّا لا يَسُوغ، وَلذلك ضَبط كثير مِن العلماء مِثْل هذه الأحوال، بِوُجُوب أن يَرْجِع العَامِّي الجاهل الذي لا يستطيع أن يُرَجِّح رَأْياً على رَأي إلى رأي العالِم المعاصر القادر على الترجيح والنظر والاستدلال، حتى يُوَجِّهَهُ إلى الأخذ بالدَّلِيل الرَّاجِح فَلَعَلَّه يُبَيِّن لَه الدَّليل، فيكون بذلك العَامِّي قَدَ أخذ بالدَّليل مُتَابَعَة لذلك العالِم الذي بَيَّنه له، أما أن يُترك الحبل على الغَارِب ويُفْسَح المجال لأي أحد يأخذ بِما شاء مِن الآراء، ويَدَعُ ما يشاء، فقد يُفْضِي هذا الأمر إلى الفوضى في العبادات والأعمال، بحيث يَجمع الإنسان شَتِيتاً من الآراء، فيتَّبع هذا العالِم فيما ترخَّص فيه ويترك تشَدُّدَاتِه، ويأخذ بِرُخصَة العالِم الآخر وَيَدَعُ ـ أيضاً ـ تَشَدُّدَاتِه، ويأخذ بِرُخْصَة العَالم الآخر في المسألة الأخرى وَيَدَع تَشَدُّدَاتِه، فيجمع مزيجاً غريباً وخليطاً عجيباً من الآراء الشَّاذة التي لا ينبغي لأحد أن يُعَوِّل عليها، فإن كان هذا العامِّي مقلِّداً لعالِم فليأخذ بقوله في المسائل الفَرْعِيَة مِن غير أن يَخرج عَن رَأيه هكذا ينبغي؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

ما حكم مَن يَهْزَأ مِن آراء من خالفه في الرأي في المسائل الفرعية بحجة أن الصواب والسُّنَّة مع العالم الذي يتبعه؟

مسائل الرأي يَجب ألّا يَهْزَأ أحد فيها مِن رأي غيره، ما دام كل ذي رأي منها ينشد الحق ويحرص على اتباع ما يراه أرجح، وليست أدِلَّة شيء من تلك الأقوال قطعية حتى يقطع عذر من خالفها، فإن الاختلاف فيها اختلاف مَحمود، وعلى الإنسان أن لا يَدَّعِيَ العصمة لنفسه، بل عليه في مسائل الرأي أن يقول: «قَولِي صَوَاب يَحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يَحْتَمِل الصَّواب» لأنَّه يَرَى أن قَوْلَه صَوَاب بسبب ما ترجح عنده من الدليل، ويرى قول غيره خطأ بسبب أنَّه يرى الدليل يعضد غير ذلك القول، ولكن صَوَابُه الذي يراه يَحْتَمِل الخطأ، وَمَا يَرَاه عند غيره مِن خَطَأ يَحْتَمل الصواب، فهكذا مسائل الرأي[1]، ليس للإنسان أن يَهْزَأ فِيها مِن رَأي غَيْرِه، أو أن يسفهه، والله ـ تعالى ـ أعلم.

الثوابت الإسلامية والمبَادئ الرَّصِينَة، هل تَخْضَع لِظروف الزمان والمكان أم هي ثابتة لا يَجوز للمسلم أن يتَخَلَّى عنها؟

عقيدة المسلم يَجب أن لا تَتَزعزع لأي شيء كان، لأن العقيدة المتَزَعْزِعَة ليست من الحق في شيء، ولا تعدُّ إسلامية، فإن عقيدة المسلم أرسخ من أن تزعزعها الزعازع أو تعصف بها الأعاصير فضلا عن أن تجتثها.

وقد بيّن الله تعالى أنَّ المسلم يجب أن يكون راسخ الإيمان، فهو تعالى يقول وهو أصدق القائلين: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] يعني الذين يتوعَّدُهُم الله هم الذين بَدَّلُوا

(١) مسائل الرأي: هي المسائل التي لم تُبن على دليل قطعي وإنما بنيت على دليل ظني قابل للنظر والاجتهاد ولذلك تختلف نظرة العلماء إليه.

إيمانَهم كفرا، ولكن من أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان بِحيث لم تتزعزع عقيدته وإنَّما صَرَفَ الشر عنه بتَلَفُّظِهِ بِما يَتَنَافَى مَعَ هَذِهِ العَقِيدَة في حَالَة الضَّغط الشديد عليه عندما يَخْشَى من عَدُو بَطْشَه فإنَّه يَدْرَأ عن نفسه هذا البطش بِما يقوله بلسانه مع طُمَأنينة قلبه بالإيمان ثم يقول تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٦] يعني أن مَن شَرَح صدره بالكفر فإنه مغضوب عليه مِن قِبل الله تعالى.

والمسلم يجب أن يعيش بالمبادئ التي يؤمن بها في عالَم الواقع بِحيث تَتَجَسَّد في تَصَرُّفَاته وأعماله، ويدل على هذا ما وصف الله تعالى به الإيمان مِن خلال وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، ويقول تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]،

وبين ـ تعالى ـ ما هو الإيمان الحق الذي ينجي صاحبه عند الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

﴿وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم أتبع ذلك بيان أوصاف أولئك المؤمنين بقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

والنبي ﷺ يقول: «الإيمان بِضع وستون شُعْبَة أعلاها كلمة لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى مِن الطريق، والحياء شُعْبَة مِن الإيمان»؛ فالنبي ﷺ في هذا الحديث مثل للعقيدة وللقول وللعمل وللأخلاق، فتَمثيله للعقيدة بذِكْرِ كلمة «لا إلٰه إلا الله» لإنَّها تُجَسِّد العقيدة الصحيحة والكَلِم طَيِّبَات القَوْل، وتَمْثِيلُه لِلعَمَل بقوله: «وَأَدْنَاهَا إماطة الأذى مِن الطريق» وهذا مِن أَهْوَن الأعمال التي يقوم بِهَا المؤمن، وتَمْثِيله للأخلاق مِن خلال قوله: «والحياء شُعْبَة مِن الإيمان»[١]؛ وكذلك يقول النبي ﷺ: «ثلاث مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَة الإيمَان أَنْ يَكُون الله ورسوله أحَبَّ إليه مِمَّا سواهُما، وأن يُحب المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النار»[٢] ويقول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أَحَبَّ إليه مِن والده وولده والناس أجْمعين»[٣] ويقول: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه مِن والده وولده»[٤]، ومِنَ المعلوم أنَّ المُحِبَّ يُسارع في هوى مَحْبُوبِه، ومن

(١) رواه مسلم (٥١) ونحوه عند الإمام الربيع والبخاري (٨).
(٢) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٦٠).
(٣) رواه البخاري (١٤).
(٤) رواه البخاري (١٣).

شأن الـمُحِب أن يَحرص على اتباع مَحْبُوبِه وتَرَسُّم خُطُوَاته والاقتداء به وإيثار رِضَاه على هَوَى نفسه، فمن أحبَّ الله ـ تعالى ـ ورسوله كان ذلك داعياً له إلى طاعتهما، وداعياً إلى أن يَقْتَدِي بالرسول ﷺ مِن غير أن يفرِّط في شيء من أمر دينه.

هذا ونَجد أنَّ حديث أنس الذي سَبَقَ فيه: «وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله» وهو يشير إلى التواد ما بين المؤمنين وأن يُحب أحدهم أخاه المسلم لا يُحبه إلا لله، وفيه ـ أيضاً ـ «أن يكره أن يَعُود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار» وذلك بأن يَكره معصية الله لأن المعصية هي بريد الكفر هذا مِن ناحية، ثم إن الكفر هنا يتناول كفر النعمة أيضاً، وكفر النعمة هو الإصرار على معصية الله تعالى أياً كانت، فإن الإصرار داخل في كفر النعمة والعياذ بالله، فمن شأن المؤمن أن يَحرص على طاعة الله وتَجنُّب معصيته، وأن لا يُفرِّط في أمر الله كيف ما كانت الظروف وكيف ما كانت الأحوال، والله أعلم.

ما قولكم في الفرضية القائلة إن الأرض كانت جزءًا من الشمس فانفصلت عنها؟

هذه نظرية والنظرية غير الحقيقة العلمية، وبعض المفسرين فسروا بموجب هذه النظرية قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ثم جاءت بعدها نظرية دالاس التي تقول: بأن الكون كله كان سديما ثم انفصلت أجزاؤه فتكونت الأجرام، وهذه النظرية أقرب إلى مدلول قوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وهذه كلها نظريات وليست حقائق ثابتة يقينية، فلربما تناسخت النظريات فحلت واحدة مكان الأخرى، لذلك لا يمكن التعويل عليها في تفسير آيات القرآن ولا في تقرير حقائق الاعتقاد لئلا يعرض الإيمان أو

القرآن لما يزعزعهما، أما الحقائق اليقينية الثابتة كالجاذبية التي تربط بين الأجرام الفلكية فلا تتحول، والله أعلم.

هل يجوز الإيمان قطعا بوصول الإنسان إلى سطح القمر؟

هذه أشياء لا تعود إلى نصوص من الكتاب حتى نقول بوجوب الإيمان بها، فهي أمور ترد إلى أهلها، فترد إلى التجارب وإلى الخبرات من ذوي الاختصاص، والله أعلم.

رجل قال الجنة تحرم على من ضاغنه أخوه أو جاره؟

الجنة والنار أمرهما إلى الله، لا يتصرف فيهما أحد من خلقه، فلا معنى لأن يتجاوز الإنسان ما ورد به النص في أمرهما، والله أعلم.

ذكر الشيخ السالمي «الرحمٰن الرحيم: ليسا بعلمين لأن كل واحد منهما كليّ ينحصر فيه فرد» من بهجة الأنوار.

ما معنى هذه العبارة؟

الظاهر أن الصواب من العبارة: لأن كل واحدٍ منهما كلى ينحصر في فرد. والمراد بها أن هذا وصف مشتق بحيث يصلح من حيث الوضع اللغوي أن يطلق على كل ما كان فيه أصل ذلك الوصف المشتق ولكنه بسبب الدلالة الشرعية ينحصر في فرد وهو الله تعالى، والله أعلم.

ما هي الكتب التي تنصحوننا بمطالعتها؟ وتعود علينا بالنفع؟ في مجال أصول الدين والفقه؟

هي عقيدة التوحيد وشروحها ونونية أبي نصر وشروحها ومشارق الأنوار ومعالم الدين والموجز وما أشبهها وفي الفقه الوضع والقواعد

والإيضاح وحواشيها والنيل وشرحه وجامع ابن بركة وجامع أبي الحسن وجامع ابن جعفر والمعارج ونثار الجوهر وما أشبهها ومن كتب قومنا بداية المجتهد وما أشبهه من الكتب المؤصلة للمسائل التي تقرنها بأدلتها، والله أعلم.

نسمع ونقرأ بأن عقيدة الإسلام واضحة لا غموض فيها ومع ذلك حينما نسأل الكثيرين من أهل المذهب للتعليم عن مكان وجود الله؟ نجدهم يقولون بأنه فوق في السماء وتصدر أحياناً منا حركات لا إرادية عند ذكر الله سبحانه حيث تشخص أبصارنا إلى أعلى وكذلك حينما نسأل العوام عن الميزان يصفونه بميزان محسوس به كفتان وهذا هو الذي يترسم في عقولنا حينما نقرأ كلمة (ميزان) في القرآن الكريم بل حينما نسأل بعض مدعي المعرفة عن رجل ـ مثلاً ـ مات ومعه عشر حسنات وسيئة واحدة أين يكون مصيره في اعتقادك يجيب بأنه في الجنة مستشهداً بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وغيرها من الآيات والخلاصة أن عقيدتنا أي أهل الاستقامة ـ لا يدركها إلا كبار العقول وذوو الإطلاع حيث أننا نجد لا يدخل مذهبنا أحد إلا بعد كثير تفكير وطويل بحث والعكس من جهة أهل مذهبنا المندرجين حيث أنهم لا يندرجون إلا عن جهل؟

الهداية لا يتوصل إليها إلّا بجهاد فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وكفى بذلك شاهداً على أن النظر والاعتبار من الأمور الضرورية في مثل هذا، والله أعلم.

الجملة وتفسيرها

نرجو أن تحدثنا عن مصطلح «جملة التوحيد» فقد أشكل علينا؟

مصطلح «جملة التوحيد» لا يوجد في الكتب الكلامية وغيرها من الكتب التي ألفها غير الإباضية، فهو مصطلح خاص بالإباضية، وعندهم للجملة أحكام ولتفسيرها أحكام، وتفسير الجملة ينقسم إلى قسمين تفسير اعتقادي وتفسير عملي.

فجملة التوحيد هي شهادة «ألا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله»، هذه الجملة هي أول ما يطالب به الإنسان لأنها تفصله عن أهل الشرك وتخرجه من متاهات الكفر وعليها يبنى الدين كله، كما ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[1]، وبعد أن تقوم عليه حجتها لا ينفس له أن يسأل عنها، لأن الإنسان إذا قامت عليه الحجة، عليه أن يؤمن ويشهد «ألا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله» ﷺ، فالإيمان بـ«ألا إلٰه إلا الله» إنما هو إيمان بالله ـ تعالى ـ الحق، فليس هنالك معبود يعبد بحق إلا الله، وسائر المعبودات كلها تعبد بباطل، سواء كانت هذه المعبودات من جنس البشر أو كانت ملائكة أو جنا أو أحجاراً أو أشجاراً أو أوهاماً وأساطير، فهذه المعبودات كلها تعبد بباطل، وإنما كانت عبادة الله سبحانه هي الحق وعبادة غيره باطلة، لأن الله ـ تعالى ـ هو المنفرد بالربوبية، فتوحيد الألوهية مبني على توحيد الربوبية، فاستحق الله ـ تعالى ـ العبادة دون غيره من الكائنات

(١) رواه البخاري (٢٤)، ونحوه عند الإمام الربيع.

بأسرها لأن جميع الكائنات مخلوقة لله، والله ـ تعالى ـ وحده هو الرب، فما من شيء في هذا العالم ظاهراً كان أو باطناً، دقيقاً كان أو جليلاً، صغيراً كان أو كبيراً، عاقلاً كان أو غير عاقل إلا وهو مربوب لله، لأن الله هو الذي خلقه وهو الذي يربيه التربية التكوينية بحسب نواميس الكون التي سنها الله ﷻ، ولما كان كل شيء مربوبا لله فإن كل ما سوى الله لا يستحق أن يعبد، وإنما العبادة هي لله، فالإله بمعنى المألوه ككتاب بمعنى المكتوب، والعماد بمعنى المعمود، ومعنى المألوه أي المعبود، وأَلَهَ بمعنى عبد، ومن هذا الباب ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي وعبادتك، فإذا اعترف الإنسان بأن الله وحده هو الإله الحق وأن ما عداه مما يعبد إنما هو باطل آمن بصفات الله، ومنها القدم والبقاء المطلق الذي لا يقيد، والقدرة والإرادة وجميع الصفات التي تليق بجلال الله ﷻ، والتي تخالف صفات المخلوقين. وإذا آمن بأن محمدا رسول الله فقد آمن أن محمداً جاء برسالة حقة من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وهي مشتملة على أركان الإيمان فالإيمان برسول الله ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله سبحانه هو إيمان بالمعتقد الصحيح كله.

والإنسان إذا لم تقم عليه الحجة بمعرفة شيء من تفسير هذه الجملة فهو في فسيح العذر، فإذا قامت عليه الحجة بتفسيرها فقد اختلف العلماء فيه، فمنهم من قال بأنه ينفس له في السؤال حتى يتأكد، ومنهم من قال لا ينفس له، هذا إذا كان ما قامت عليه الحجة بمعرفته عرفه بخاطر البال وأما إذا كانت حجته قامت بطريق السمع من خلال ما سمعه من قبل غيره من الناس، الذين اطمأن إلى صدقهم، فعليه أن يؤمن مباشرة، لأن الحجة قائمة عليه بما وعاه من كلامهم، وبعض العلماء فرق بين ما يتعلق بصفات الله وما يتعلق بالمرسلين وصفاتهم والملائكة وغير ذلك، فجعل خاطر العقل

حجة فيما يمكن أن يدركه بالعقل إذا فكر، وذلك أن يفكر مثلا في كون الله الذي خلقه هل هو عالم، فجعل هذا الخاطر حجة فيما يتعلق بصفات الله لاستحالة أن يبدع هذا الكون ويدبره إلا من هو عالم؟ أما إذا كانت الخواطر هذه أدته إلى أن يفكر في المعاد ففي هذه الحالة ينفس له أن يسأل لأن المعاد لا يمكن أن يجزم فيه الإنسان من غير أن تقوم عليه الحجة من طريق السمع، وكذلك سائر أفعال الله ـ سبحانه ـ التي لا تتضح ولا تتبين من التفكير بمجرده، والله أعلم.

هل يعتبر كل من نطق بالشهادتين من إخواننا المسلمين وما هي حقوقهم علينا، وإن حدث خلاف فما المرجع الذي يدحض هذا الخلاف، ومع وجود هذا الخلاف هل يعد الدعاء لهم جائزاً إن كانوا في محنة أو في قتال ضد أعداء الله والإسلام؟

من نطق بالشهادتين فقد خلع ربقة الشرك من عنقه، وتزين بطوق الإيمان إلا إن نقضهما بإنكار أمر علم من الدين بالضرورة، أو جهله أو الشك فيه بعد قيام حجته، ففي هذه الحالة ينتقل من واحة الإيمان إلى فيفاء الكفر المخرج من الملة، ويحكم عليه بالارتداد، فيفرق بينه وبين زوجه ولا يبقى توارث بينه وبين أهل التوحيد حتى يعود إلى حظيرة الإيمان فيقر ما أنكره أو يعلم ما جهله أو يوقن بما شك فيه.

وقد يكون نقضهما بعمل مجانف لهديهما وذلك بارتكاب المحظورات، أو ترك المفروضات من غير إنكار لأصل حكمهما، أما إن أنكر حكماً قطعياً دل عليه دليل قطعي المتن والدلالة فإنه يخلع بذلك أيضاً ربقة الإسلام من عنقه، ويخرج من حظيرته رأساً، وإن خالفه عملاً ولم ينكره اعتقاداً، فهو في حكم الفساق ويعد منافقاً نفاقاً عملياً لا اعتقادياً، ويسمى كافر نعمة،

ولا ينفصل بذلك عن الأمة فيبقى بينه وبين قرابته حكم التوارث، وكذلك لا يفرق بينه وبين زوجه إذ العلاقة الزوجية لا تنفصل بذلك، وإنما يحرم من الولاية التي هي اصطفاء لا يستحقه إلا من استوفى خصال الخير، ولم يصر على شي من الباطل، بدليل قوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، فإن الولاية إنما تمنح من جمع بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله ورسوله في كل ما أمرا به أو نهيا عنه.

هذا؛ وإذا خالف مخالف ما دلت عليه أدلة قطعية متأولاً لم يخرج بذلك من حيز الأمة وإن كان ينفصل عن منظومة الاصطفاء الذي تترتب عليه الولاية في الدين.

وعند الاختلاف والتنازع فإنما يجب الرجوع إلى الكتاب العزيز والسُّنَّة الثابتة عن النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، على أن هؤلاء ببقائهم في حيز الأمة تبقى لهم حقوق الأمة العامة، فهم يستوجبون المناصرة إن اعتدى عليهم معتدٍ، كما يستحقون الدعاء بالنصرة والتأييد عندما يصطدمون بحرب مع أعداء الأمة هم فيها غير معتدين، والله أعلم.

مَن دخل حديثاً في الإسلام هل يلزَم أن يُغَيِّر اسْمُه السَّابِق إلى اسمٍ عَرَبِي أو نَحو ذلك، فهُنَاك من ينظُر إلى مثل هذا السلوك الذي يكون عادةً فيمن يقومُون بِإِدخَال الناس في الإسلام ومن قِبل المسلمين على

أنَّه اجْتِثَاث للشـــخص وقطْعِه عن كل ما كان لَه من سابق عهد وينظُرون إلى أنَّ هذا الموقف يعتَبَر موقفاً سلبياً ؟

النبي ﷺ ما كان يُغيِّر أسْمَاء الناس الذين دَخَلُوا في الإسلام إلا أن تكون هذه الأسْماء تُوحِي بِكُفر كـ«عبد العُزَّى» و«عبد اللَّات» وأَمثال هذه الأسْمَاء التـــي تُوحِي بالكفـــر والعبودية لِغَيـــر الله تعالى، فإنَّه ـ عليـــه أفضل الصلاة والسلام ـ كان يُغيِّرُهَا ولا يُقِرُّهَا، أمَّا مَا كان مِن بَقِيَّة الأسْمَاء فقد أَبْقَاها كما كانت ما لَم يكن فيها قُبْح أو تنْفِير.

ثُم الإســـلام ليس عربِيّاً فحســـب حتى يَلْزَم أن يكون التَّسَمِّي بالأسْماء العربِيَّة، وهناك شعوب كثيرة دَخَلَت في الإســـلام ومنها عُلَمَاء بَارِزُون، وقد كان هؤلاء العلماء لَهم أسْمَاء أعجَمِيَّة لَيست عربية فمثلاً «سِيبَوَيْه» ليس هو اسْماً عربيّاً، وكـ«الشَّلَوْبِين» وأَمثالهما فهي أسْمَاء غير عربِيَّة، فالإسلام ليس عنصُرِيّاً ولا ينحَصِر في العرب وحدهُم ولا يُخضِع الإســـلام الشـــعوب من أجل العرب بل الإسلام للكل.

نعم يَجِبُ أن ندرك أن اللُّغَة العربِية لُغة جَميع المسلمين لأنَّ القرآن نزل بِهَا وقد خاطب الله بِها جَميع عباده وأمَرَهُم أن يُخَاطِبُوه بِها لأنَّ الكل يقِفُون أمام الله لِيَقُولوا بِلِســـانٍ واحد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإذن اللُّغة العربية ينبغِي بل يَجب أن يُعتَنَـــى بِهَا ويُحافَظ عليها إذ لا يتوَصَّل إلى فهم القرآن إلا بِهَا، ولكن ذلك لا يعنِي أن تكون هنالك عُنصُرِيَّة عربية، فإن العنصرية لا يُقِيم لَهَا الإســـلام وَزْناً، بل جاء بِمَبْدَأ الـمُســـاواة ما بين جَميع الشُّعُوب، وأنَّه لا تَفَاضُلَ إلا بالتَّقْوَى فالله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، والله أعلم.

ما الحكمة في تشبيه كلمة التوحيد بالنور والنار؟

في كلمة التوحيد الخير والرحمة وهي بمثابة الشجرة الطيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] هذه هي الكلمة الطيبة كلمة «لا إله إلا الله» إذ يَنْبَنِي عليها كل خير من الصلاح والاستقامة والرشد وجَميع أعمال الخير، وكذلك بالنسبة إلى تشبيه نور الله تعالى في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

فهذا التشبيه مِنْ أجل التقريب إلى الأفهام وإلا فنور الله تعالى أَجَلُّ من ذلك، نوره هذه الهداية التي بَسَطَهَا لِخلقه مِن خلال آياته التي تَتَجَلَّى في الأنفس والآفاق حتى أنَّ أحد العلماء قال بأن كل ذرة من ذرات الوجود كلمة من كلمات الله ناطقة بتوحيده ـ سبحانه ـ وما زاد عليها فهو بِمثابة الشرح لتلك الكلمة، فكل ذرة من ذرات هذا الكون تشع نورا يملأ آفاق الوجود لأنها هادية إلى الله، فلذلك شبه الله ﷻ نوره الذي يتجلى في هذا الكون بِمَا شبهه به حيث قال:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥] لأجل التقريب إلى الأفهام، والله أعلم.

يقول الرسول ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس ...»[1] الحديث فكيف يمكن الأخذ بظاهر الحديث على حرمة أموال المسلمين؟

نعم، جاء في هذه الرواية «فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم

(١) رواه البخاري (٢٤).

إلا بحقها»، وفي الرواية الأخرى «فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله» فهاتان الروايتان تدلان على أن الأموال تصبح معصومة بكلمة التوحيد كما أن الدماء تصبح معصومة بها، وإنما يستثنى من دماء الموحدين ما يبيح الإسلام سفكها وذلك فيمن زنى بعد إحصان أو ارتد عن الإسلام أو قتل النفس المحرمة بغير حق، والله أعلم.

إذا ادعى رجل الإسلام زوراً، فما هو الحد الفاصل بين معاملته بأحكام المسلمين ومعاملته بأحكام غير المسلمين؟

إذا تظاهر بالإسلام فإن ذلك يكون عاصماً لماله ولدمه ولذريته، كما يعطى أحكام المسلمين في الموارثة وفي المناكحة، وفي دفنه في مقابر المسلمين والصلاة عليه إن مات، إلى غير ذلك من الأحكام، بخلاف ما إذا تبين منه الشرك، وثبت عليه بحجة واضحة لا غبار عليها ففي هذه الحالة يعامل بأحكام غير المسلمين.

وما قيل بأن من ينضم إلى لواء هذه الأمة يعامل معاملة المسلمين، فإن ذلك لا يعني أنه يتولى الولاية الاصطفائية، فإن ذلك خاص بأهل الصفوة المتقين الأبرار، الذين تعرف منهم الاستقامة كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١] فمن استجمع هذه الخصال كان حقيقاً بالولاية وإلّا فلا، والله أعلم.

ما الكيفية التي يُعلَّم بِها الأَبْكم المسائل التي لا يَسَعُه جَهلها فِي الشَّرع؟

إن كان يُمكن أن يَستوعب تعاليم الإسلام بالإشارة أو بالكتابة إنْ عُلِّمَ الكتابة فتعلَّمها فإنَّه يُشار إليه أو يُكتب له حتى يَتَمكن مِن فَهم المراد،

وكَثيرٌ مِن البُكم هُم مِن الفِطنة والذَّكاء بِحَيث يَفهمون الإشـــارة، وَكَثيرٌ مِنهم يَتَمكنون مِن مَعرفـــة الكِتابة فَمَن كان مُتَمكنا مِن معرفـــة الكتابة فإنَّه يُكتب له حتى يتبيـــن ما يجب عليه، ومَن كان يَفهم الإشـــارة ولَم يتمكن مِن تعلم الكتابة فإنَّه يُشار إليه بالواجب عليه؛ والله أعلم.

من المعلوم أن الأمور العقائدية لا يجوز الاجتهاد فيها فكيف نوفق بين هذه القاعدة وبين الاختـــلاف الموجود بين العلماء فـــي بعض العقائد كمسألة الصراط ونظيراتها ؟

الأمور العقدية القطعية لا يجوز الاجتهاد فيها ويقطع فيها عذر المخالف لأجل مخالفته نصا صريحا قطعي المتن والدلالـــة في آن واحد، أما إذا كان بخلاف ذلك بأن لم يكن النص قطعياً في ثبوته أو في دلالته فإن من اجتهد فيه لا يعنف ولا يضلل، نعم يعتبر مخطئـــا إذا خطّأ غيره ممن لم يقل بقوله لأنه هنا تجاوز الحدود؛ فنَصَبَ الرأي ديناً، ومسائل الرأي لا يجوز أن تُنصب ديناً يقطع فيه عذر المخالف، ولهذا كانت العقيدة ثمرة اليقين لأنها لا تبنى إلا على الدليل القطعي ثبوتاً ودلالة، والله أعلم.

الإسلام والإيمان



مدلول الإيمان

هل يجوز أن يطلق على غير المستقيم مؤمن بحجة أنه يؤمن بالله واليوم الآخر؟

لا مانع من ذلك، وفي القرآن ما يدل عليه كقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] غير أن هذا الإيمان لا يعدو أن يكون إيمانا عرفيا مبنيا على مفهوم الإيمان اللغوي، أما الإيمان الشرعي الذي تترتب عليه النجاة من النار والفوز بالجنة فهو الوفاء بأمر الله تعالى، وقد دلت عليه نصوص كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] وقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١ - ١١٢] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١] وتؤكد هذا نصوص كثيرة من السُّنَّة النبوية والله أعلم.

كيف يكون الرد على من يدعى بأن الإيمان في قلبه وليس في تطويل اللحية وتقصير الثوب والامتناع عن سماع الأغاني ومشاهدة المسلسلات التي تظهر النساء فيها مفاتنها؟

هذه إيحاءات من الشيطان، ومخادعة للنفس، فإن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، فمن كان مؤمناً حقاً فلا بد له من التكيف مع مقتضى إيمانه والله أعلم.

ما علامات إيمان المرء؟

أن يؤثر طاعة ربه على هوى نفسه، وآخرته على دنياه، وأن يزين سريرته للحق كما يزين علانيته للخلق والله أعلم.

الفرق بين الإيمان والإسلام

ما المعنى الصحيح لقوله تعالى الذي ورد فيه لفظ الإيمان والإسلام في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]؟

الإسلام والإيمان من حيث المدلول اللغوي مختلفان؛ إذ الإسلام يدل على الاستسلام والانقياد، والإيمان يدل على التصديق، ولكنهما من حيث المدلول الشرعي متحدان، فهما يدلان على الالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه، ولا إشكال في استعمال القرآن الكريم واستعمال السُّنَّة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الألفاظ في مدلولاتها اللغوية وإن نقلت شرعا إلى مدلولات أخرى، كاستعمال الصوم بمعنى مطلق الإمساك مع أن

الشارع نقل الصوم إلى إمساك مخصوص وهو الامساك عن الأكل والشرب وسائر المفطرات من لدن طلوع الفجر إلى الليل، ومع ذلك جاء لفظ الصوم في القرآن الكريم بمعنى مطلق الإمساك وذلك قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] كذلك كلمة الكفر هي لغة بمعنى التغطية كما في قول الشاعر:

يعلو طريقة متنها متواترا في ليلة كفر النجوم غمامها

إنما أطلق لفظ الكافر شرعاً على المصر على مخالفة أمر الله سواء كان كفره مليا وهو من أنكر ما علم من الدين بالضرورة من غير تأويل أو كان كفره عملياً وهو من أصر على كبيرة لأنه في كلا حاليه هو مغطٍ للحقيقة، ونجد في كتاب الله عز وجل إطلاق الكافر على غير المدلول الشرعي، فالله تعالى يقول: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠] والمراد بهم الزرَّاع لأنهم يكفرون البذر أي يغطونه في الأرض، وكذلك الصلاة نقلت شرعا إلى هذه الكيفية المخصوصة التي فيها مثول العبد بين يدي الله ابتغاء مرضاته مع أن الصلاة لغة بمعنى الدعاء كما في قول الشاعر:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي عينا فإن لجنب المرء مضطجعا

فقوله: «عليك مثل الذي صليت» أي مثل الذي دعوت، والقرآن استخدم الصلاة في المدلول اللغوي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] إذ الصلاة من المؤمنين دعاء للرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ.

وكذلك جاء الإيمان والإسلام في الآية الكريمة ملاحظاً فيهما المعنى اللغوي، من حيث إن الإيمان الذي هو التصديق ما دخل في قلوب هؤلاء

فلذلك نفي عنهم وأثبت لهم الإسلام وهو الاستسلام الظاهر بقوله تعالى سبحانه: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: ١٤] وعند التحقيق في مدلولهما الشرعي نجد أنهما شيء واحد غير أن له صورة ظاهرة وحقيقة باطنة، وعليه فإن الإسلام هو الصورة الظاهرة للإيمان والإيمان هو الحقيقة الباطنة للإسلام والله أعلم.

ذكرتم أن للإسلام معنيين معنى شرعيا وآخر لغوياً، لماذا لا يكون المعنى اللغوي هو المعنى المراد من الإسلام في الشرائع السابقة؟

المعنى اللغوي هو مجرد الانقياد؛ فإذا أسلم أحد لأحد فقد انقاد له، ولكن هل هذا هو المطلوب أو أن المطلوب أن يكون الإنسان خاضعا لله لا يتلقى إلا منه ولا يعمل إلا بأمره ولا يحكم إلا بشرعه، وبذلك يكون مسلما وجهه لله تبارك وتعالى كما قال إبراهيم عليه السلام:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] والله أعلم.

كيف نستطيع أن نوفق بين قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] وبين قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦]؟

ذكرت من قبل بأن قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ [الحجرات: ١٤] ملتفت فيه إلى معنى الإيمان اللغوي، وقوله:

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ ملتفت فيه إلى معنى الإسلام اللغوي أيضاً وهو (الإسلام الظاهري)، بينما قوله:

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

[الذاريات: ٣٥-٣٦] الوصفان فيه للذين آمنوا إيمانا حقيقيا امتلك مشاعرهم وأحاسيسهم ووجدانهم فأسلموا الجسم والروح والعقل والوجدان لله تعالى والله أعلم.

أيهما أرفع مرتبة: مرتبة الإيمان أم مرتبة الإسلام؟

الإيمان والإسلام ليسا بمختلفين فإنهما من حيث الجوهر متحدان وإن كانا من حيث اللفظ مختلفين، فإن مؤداهما واحد وهو الاستقامة الظاهرة والباطنة، وإن كان الإسلام أدل على الظاهر والإيمان على الباطن، وإنما هما مختلفان باعتبار معنييهما اللغويين، ويدل على ذلك أن الله تبارك وتعالى يقول في قرية لوط:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦] فأولئك المسلمون هم المؤمنون، وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤] فيه التفات إلى مدلول الإسلام من حيث اللغة وهذا كثيراً ما يقع في القرآن الكريم فالله تعالى يقول: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] والمقصود فيه بالكفار الزرّاع، ويقول ﷻ حكاية عن مريم عليها السلام: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] أي إمساكاً عن الكلام، والله أعلم.

زيادة الإيمان ونقصانه

هل من فرق في المعنى الشرعي بين قولنا إن الإيمان يزيد ولا ينقص وقولنا يقوى ويضعف، فهل الزيادة والنقصان غير القوة والضعف؟

الإيمان يزيد ولا ينقص باعتبارين؛ باعتبار كون الإيمان عقيدة، وباعتبار

كونه عقيدة يجسدها العمل، أما كون الإيمان يزيد ولا ينقص باعتباره عقيدة فلأن الإنسان مطالب بأن يأتي بالجملة فإن جاء بها من غير أن يخل بشيء منها وكانت نابعة من سويداء قلبه وملامسة لشغافه فإنه يعد مؤمنا كامل الإيمان غير ناقص لأن هذا أقصى ما وصل إليه علمه وغاية ما وجب عليه حكمه، أما إذا قامت عليه الحجة بمعرفة شيء من تفسير هذه الجملة الاعتقادي فإن ما قامت عليه الحجة به عليه أن يعتقده ولا يرخص له ولا يتسامح معه في ترك الإيمان به، فإذا قامت عليه الحجة مثلاً بمعرفة صفات الله أو معرفة أفعاله فعليه أن يعتقد ذلك وكذلك إذا قامت عليه الحجة بسائر ما جاء في القرآن أو أخبر به الرسول ﷺ من أمور الآخرة وسائر قضايا الغيب فعليه أن يؤمن بجميع ذلك، أما إذا رجع فجحد ما آمن به فإنه يكون هادما لعقيدته إذ لا يمكن أن تكون العقيدة مرقعة تجمع بين الإيمان والكفر، فلا يمكن أن يؤمن بشيء يجب الإيمان به ثم ينقلب بعد ذلك ويجحده مع بقائه مؤمناً إذ جحد ما آمن به من قبل يهدم إيمانه، فلذلك كان الإيمان بهذا الاعتبار يزيد ولا ينقص.

أما بالاعتبار الآخر وهو كون العقيدة تحتاج إلى أن تتجسد في الواقع؛ فالإيمان أيضاً يزيد ولا ينقص؛ لأن الإنسان يطالب أولاً بأن يؤمن بهذه الجملة، فإن آمن بها فيما بينه وبين ربه ولم يخلّ بشيء منها كان مؤمنا صحيح الإيمان، ولكن إن طولب بالنطق بالشهادتين لدفع الريب عنه فإن عليه أن ينطق بهما، ونطقه بالشهادتين لدفع التهمة عنه يعد إيمانا فينضم النطق إلى الاعتقاد في إيمانه فيزداد بذلك إيماناً، فإذا حضر وقت فريضة من الفرائض العملية كالصلاة أو الصيام وجب عليه أن يأتي بما فرض الله تعالى عليه ولا يسعه أن يخل بشيء منه، إذ لو أخل بأي شيء من العمل يكون هادماً لإيمانه لأنه بإخلاله بالعمل ينقض ما صدق به في قلبه فيزداد بالامتثال والطاعة إيمانه ولا ينقص؛ لأنه إن أخل بما فرض عليه انتقض

إيمانه من أساسه[١]؛ إذ الإيمان الشرعي المطلوب لا بد أن يكون عقيدة يجسدها العمل.

أما القوة والضعف فبالنظر إلى ثمرات الإيمان لا بالنظر إلى جوهره، فالإيمان يثمر الصبر والعلم والأناة والتوكل على الله والتسليم لأمر الله، وقد يحصل فيها جزر ومد في الإنسان الواحد بحسب ما يطرأ له من أحوال، فبهذا الاعتبار يمكن أن يقال أيضاً بأنه يقوى ويضعف ويمكن أن يقال بأنه يزيد وينقص، والخلاف لا يعدو أن يكون لفظياً والله أعلم.

الإكراه على الدين

هل يوجد فرق بين الآية الكريمة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] والحديث الشريف: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»[٢] ألا يوجد تعارض بين الآية والحديث؟

لا تعارض بين الآية والحديث لأمرين:

الأمر الأول: أن الآية الكريمة إنما نزلت في أهل الكتاب كما جاءت به الروايات، فقد كان بعض رجال قبيلتي الأوس والخزرج سلموا أولادهم إلى اليهود في أيام الجاهلية فنشأوهم على عقيدة اليهود وعندما أكرم الله الأوس والخزرج بالإسلام شق عليهم أن يكون أولادهم على غير الدين الذي آمنوا

(١) الوقوع في الكبائر هادمٌ للإيمان لكونه فسوقاً وعصياناً وكفر نعمة وليس شركاً ودليله هدمه للإيمان قول النبي ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...» الحديث. فهو لا ينتفع بعمله الصالح إلا إن تاب قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

(٢) رواه الإمام الربيع (٤٦٤).

به فوحدهم بعد الشقاق وألف بينهم بعد النفرة فأرادوا أن يحملوهم على الإسلام كرهاً، وكثير منهم رفضوا وأصروا على البقاء على يهوديتهم، وهو مما شق على آبائهم حتى جاء أحدهم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار؟ يريد أن يفرض على ولده أن يدخل في الإسلام، فأنزل الله تعالى:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا السبب ـ وإن كان من حيث التقعيد لا يخصص عموم لفظ الآية كما يقال: «لا عبرة بخصوص السبب مع عموم اللفظ» ـ إلا أنه اقترن بدلائل وشواهد من القرآن الكريم دلت على أن أهل الكتاب يعاملون معاملة خاصة دون غيرهم من المشركين فهم إن وافقوا أن يكونوا مسالمين تحت ظل الدولة الإسلامية ورضوا بأن يؤدوا الجزية فإنهم يُتركون وما يعتقدون إكراما لما بيدهم من بقايا هداية الله تعالى التي أنزلها على أنبيائه، فالله تعالى يقول ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] بينما قال في غيرهم: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فاتضح بهذا ما ذكرته من أن لأهل الكتاب حكماً خاصاً يختلفون فيه عن غيرهم، ومَنْ عداهم من أهل الملل هم الذين يصدق عليهم مدلول الحديث الشريف: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمد رسول الله».

الأمر الثاني: أن قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] يمكن أن يحمل على أنه لا يملك أحد من الناس أن يكره غيره

فيغرس فيه الهداية غرسا ويحوله من الكفر إلى الإسلام أو من الفسوق إلى الطاعة، بل الله تعالى وحده هو الذي يهدي القلوب ويصرفها كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

هذا وهنا قضية شغلت بال كثير من الناس في العصور الأخيرة وكان فيها الأخذ والرد وأدت إلى ردة فعل عند كثير من المسلمين؛ وهي قضية استعمال القوة لنشر الإسلام وإرغام الناس بالسيف على اعتناقه فقد حصلت إشاعة عند المستشرقين الكفرة بأن دين الإسلام دين إرهاب يشيع الخوف بين الناس وتُفرض عقيدته فرضا عليهم؛ وما كان انطلاق الجيوش الجرارة للجهاد إلّا من أجل نشر هذه العقيدة بالإكراه، والمسلمون بسبب هذه التهمة الظالمة وُجد فيهم من ضعفت نفسه وتمنى أن يجد ما يبرّئه ويبرئ دينه من هذا الاتهام، وما هي إلّا فترة من الزمن حتى ظهر من المستشرقين أنفسهم من ينادي بنظرية أخرى وهي أن هذا الدين هو دين سلام وأن الإسلام لا يُشرع فيه الجهاد أبدا إلا لأجل الدفاع فحسب، وهذه النظرية جاء بها بعض المستشرقين كتوماس أرنولد صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام وقد تلقفها أولئك الضعفاء برحابة الصدور وظنوا أنهم وجدوا ضالتهم المنشودة وفرحوا بثبوت براءة الإسلام مما ألصق به من الاتهام بإقرار المستشرقين أنفسهم الذين وصفوه بخلاف ما وصفه به أسلافهم، فأشاعوا هذه الفكرة وروجوا لها.

وقد غلا بعض المحسوبين على الفقهاء فيها غلوا أدى إلى هدم قواعد الدين وتعطيل الأحكام الشرعية حتى وجدنا من بين هؤلاء من ألقى محاضرة أمام حاكم من الحكام الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية نقض صرح الدين فزعم فيما أتى به في محاضرته: «أن الإسلام لم يشرع الجهاد

قط إلا لتأمين حريات الناس في معتقداتهم وسلوكهم». تملقاً لمن ألقاها بين يديه وتقرباً إليه.

وما أعظمها من فرية على الإسلام فلو كان الإسلام كما زعم ما شرع الجهاد إلا لأجل تأمين حريات الناس في معتقداتهم ولو زاغت وفي سلوكهم ولو انحرف لكان معنى ذلك أن الإسلام إنما يشرع الجهاد لأجل تأمين حرية الناس في الإلحاد والفسوق إن شاؤوا ذلك؛ فلا جناح على أحد إن ألحد أو سرق أو زنى أو أتى بأي كبيرة من الكبائر لأن الإسلام ـ حسب هذا الزعم ـ يحفظ له حريته فيما يعتقد ويعمل، ويجاهد من أجل ذلك، وهل ذلك إلا تعطيل لشريعة الله تعالى ومصادرة لأحكام الإسلام التي جاء بها القرآن كقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢] وقوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

وقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨] وليت شعري لماذا شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان لكل أحد أن يعتقد ما يهوى ويفعل ما يريد؛ فما معنى قوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقوله:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولو كان الإسلام شـــرع الجهاد من أجل تأمين حرية الإنسان في سلوكه ومعتقده كما زعم فلا معنى للدعوة إلى الإسلام لأن الدعوة إليه ـ بلا ريب ـ تزعج الكافر؛ كما أن الدعوة إلى الاستقامة على التقوى تزعج الفاسق، وهو معاكس لتأمين حريتهما المطلقة في السلوك والاعتقاد؛ وإنما ينبغي أن يوفر له المناخ الحر الذي يمارس فيه هوايته حسبما تسول له نفسه، وليس إشاعة مثل هذا القول وترســيخ مفهومه في نفوس الحكام من أجل كسب مودتهم إلا نقضا لعرى الإسلام وطمسا لمعالمه وإعداما لصورته ومعناه، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً.

ومهما يكن فالحق أن الإسلام انتشــر بالإقناع بالكلمة الهادفة والقدوة الحســنة، فإن كل عقيدة تفرض بالقوة لا بد أن تتلاشى عندما تتلاشى تلك القوة التــي فرضتها، ولا أدل على ذلك مما حصل فــي البلاد التي فرضت عليها الشــيوعية بقوة الحديد والنار فإنها عندما تلاشت القوة التي فرضتها تلاشت الشيوعية نفسها فأصبحت أثراً بعد عين ثم خبراً بعد أثر، والإسلام دين الفطرة والنفوس نفســها تــدرك أن طمأنينتها في الإســلام وخيرها فيه ولكن لا بد أيضاً من قوة تحفظ ســير الدعوة إلى الإســلام تذلل الصعاب بين يديه، لذلك شرع الله تبارك وتعالى الجهاد في سبيله من أجل نشر دينه. والصحابة الذين انطلقوا في أرجاء الأرض ينشــرون دعوة الله تبارك وتعالى ما كانوا يصــدون بذلك هجوما من أعداء الإســلام يشــنونه عليهم وعلى أرضهم ولكنهم كانوا يكتســحون القوى التي كانت تقف في طريقهم لتصد دعوتهم حتى لا ينتشــر الإســلام في أرجاء الأرض، وإلا فما كان الداعي لأحد من المسلمين عندما وصل المحيط أن يخوض عباب المحيط بقوائم فرسه ويخاطبه: «والله لو علمت أن أرضا وراءك لخضتك مجاهدا في سبيل الله» يا ترى هــل كان بهذا يصد هجوما مروعاً بدا لهــم من هنالك من قبل

أعداء الله فأقض مضاجعهم وأقلق بالهم؟ أو أنه يريد أن يذلل الصعاب حتى يمتد نور هـذا الدين إلى أرجاء الأرض كما وعـد الله أن يظهره على الدين كله، والله المستعان.

لا تزر وازرة وزر أخرى

الحديث الذي يقوله ﷺ «ما نبت من سـحت أو حرام فالنار أولى به»[1]، فما الحكم في الأولاد الذين ينبتون على الربا الذي يتعامل به آباؤهم؟

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦]، فهؤلاء الأولاد لا يتحملون شيئاً من وزر آبائهم أو وزر أمهاتهم، إنما الوزر على مـن قارف الإثم، والأولاد قبل تكليفهم غير مخاطبين بشيء، فلذلك لا ينطبق عليهم هذا الحكم والله أعلم.

كيف يكون الرد على مـن قال: ـ ما ذنب ذرية آدم في الخروج من الجنة إذا كان آدم هو المخطئ وليس ذريته..؟

إن كانت جنة آدم المذكورة في القرآن هي جنـة الخلد ـ كما هو رأي أكثر العلماء ـ فإن خروج الذرية منها لم يكـن خروجاً ذاتياً، إذ لم يكونوا موجودين فيها آنذاك بأعيانهم، وإنما كان آدم عليه السلام منطوياً علـى عناصر وجودهم، مع أنه من المعلوم أن آدم عليه السلام لـم يخلق ليبقى في الجنة بل خلـق ليكون خليفة في الأرض، وما إدخاله في الجنة إلّا مرحلـة تربوية اختبارية علم الله أنها لا تدوم، ولم تحس ذريته بنعيم تلك الجنة حتى تحس من بعد بألم الحرمان منها، وإنما أدركت وجودها من أول الأمر في هذه الأرض، وما خلقه تلك الذرية إلّا لتحمل أمانة الخلافة في هذه الأرض، فلا يعد ما وقع على أبويها عقوبة لها والله أعلم.

---

(١) رواه الحاكم (٧١٦٢).

العمل الصالح وأهميته

تحدثتم عن وعد الله ﷻ المؤمنين بالنصر على أعدائهم وبالتمكين في الأرض؟ وقد تحقق كما أخبر تبارك وتعالى حيث قال الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] ونرى اليوم أسباب نصرة الله موجودة في أكثر من مكان في عالمنا الإسلامي، كثير من الظلم والاضطهاد والتعذيب والتشديد والإخراج من الأوطان والتقتيل وغيرها من الأحوال، فما هو السبب في عدم تحقيق النصر للمؤمنين على أعدائهم في رأيكم؟ نرجو توضيح ذلك.

نعم وعد الله عباده المؤمنين بالنصر، ولكن يجب على المؤمنين أن يحققوا إيمانهم حتى يكونوا مؤهلين لنصر الله ﷻ، فإن الإيمان ليس مجرد دعوى، وإنما ما وقر في القلب وصدقه العمل، فهو عقيدة راسخة وتفان في سبيل الله وإخلاص لله ﷻ في الأقوال والأعمال، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤] وقد بيّن الله سبحانه لنا أن المؤمنين الذين يستحقون وعد الله ﷻ هم الذين يجمعون محامد الصفات ويتفانون في سبيل الله، وإذا أردتم مصداق ذلك فانظروا إلى سورة التوبة وسورة المؤمنين كيف وصف الله ﷻ فيهما عباده المؤمنين، ففي سورة التوبة يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ

وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١-١١٢]، وفي سورة المؤمنين يقول ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٩].

وانظروا إلى وصف أصحاب رسول الله ﷺ الذين استحقوا النصر في سورة الفتح وفي سورة الحشر وفي غيرهما من السور. يقول الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] ويقول ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨-٩] هذه هي الصفات الإيمانية التي جسدها المهاجرون والأنصار ﭫ فنصرهم الله على أعدائهم، طهرت قلوبهم من الغل والحسد والحقد ومن الرياء والعجب والكبر ومن كل السخائم والأحقاد،

كانوا لا يطمحون إلا إلى رضوان الله ﷻ، وعندما واجهوا القوى الكبرى واجهوها بسلاح الإيمان وحده ولم يواجهوها بسلاح مادي وإلا فإن العدو كان أكثر منهم عدداً وعدة، وما أروع تلك النصيحة التي وجهها عمر ﷺ إلى جنده عندما جند الأجناد لمقاومة القوة الكسروية المتفوقة من ناحية العدة والعدد فقد وجّه خطابه إلى قائد جنده قائلاً: «أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة في الحرب، وأقوى المكيدة على العدو، وأوصيك ومن معك من الأجناد بأن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجند أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، فإن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن في سيركم عليكم من الله حفظة يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل إذ عملوا بمعاصي الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم أسأل الله ذلك لي ولكم».

وقد اختلطت هذه النصيحة بعقولهم وقلوبهم وأفكارهم ووجدانهم وبدمائهم ولحومهم، كانت تسري فيهم كما يسري الدم في العروق، وطبقوها تطبيقاً دقيقاً، فعندما خرج قائد الجند سعد بن أبي وقاص ﷺ من عند عمر ﷺ إلى مقاومة عدو الله وعدوهم أمره عمر ﷺ ألا يقدم على شيء إلا بعد استشارة سلمان الفارسي، وكان هذا الخروج لمقاومة دولة الفرس والمستشار فارسي النسب، غير أن الرسول ﷺ كان يقول: «سلمان منا

آل البيت»[١] لأن اللحمة التي تصل بينهم هي لحمة العقيدة، وليست لحمة النسب، فلما وصل الجيش الإسلامي إلى المدائن وأراد سعد أن يقدم بجنده على مقاومة العدو استشار سلمان في ذلك، فرد عليه سلمان ﷺ أمهلني هذه الليلة فأمهله، وفي اليوم التالي أتى إليه وقال: أقدم على بركات الله فإني طفت بالجند فوجدتهم بين راكع وساجد، ذلك لأن خروجهم كان في سبيل الله، لذلك تجدهم قد جمعوا بين وضعين عظيمين فهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار، إذا جن الليل رأيتهم قائمين بين يدي الله ترتجف قلوبهم من خشيته وتزدحم في نفوسهم عوامل الخوف والرجاء، وإذا أشرق النهار انطلقوا إلى ميادين المعركة فرساناً كالأسود التي لا ينهنهها اللقاء لا يرهبون الموت ولا يحرصون على الحياة فاستحقوا نصر الله ﷻ، والمسلمون لا بد من أن يختبروا فإن نجحوا في برنامج هذا الاختبار خرجوا ظافرين ومنَّ الله ﷻ عليهم بالنصر والتمكين،

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢-٣] لذلك تجد أن المسلمين عندما كانوا في المدينة المنورة في ذلك المجتمع النظيف الطاهر الذي يتجسد فيه الإيمان والإسلام، والذي طهره الله ﷻ من الغل والحسد والفحشاء والكبر والإثم، وكانت قلوب المؤمنين فيه كقلب رجل واحد، بحيث يفتح الأنصاري داره للمهاجر ويأتي إلى ماله ويشطره شطرين ويقول للمهاجر اختر أي الشطرين شئت، في ذلك المجتمع الطاهر أنزل الله ﷻ على النبي ﷺ ما يدعو إلى توطين النفوس على اختبار الله ﷻ، فالله ﷻ يقول: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ

(١) رواه الحاكم (٦٥٤١).

﴿ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] فالمسلمون في المدينة المنورة كانوا يعانون من الشدائد ما يعانون فالجزيرة العربية رمتهم بأفلاذ كبدها، وضرب عليهم طوق من الحصار، ولكن النبي ﷺ في تلك الفترة الرهيبة كان ينظر إلى نصر الله ﷻ، وكان يبشر نفسه ومن حوله من المؤمنين بأن الله ﷻ سيفتح ممالك فارس والروم لأمته فقد قال كلمته المشهورة لسراقة ـ إبان هجرته ـ: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟»[(١)] وكذلك عندما أحدق المشركون بالمدينة المنورة وأحاطوا بها إحاطة البحر الطامي بالجزيرة الصغيرة كان رسول الله ﷺ يربط نفوس المسلمين بوعد الله، ففي حال حفر الخندق اعترضتهم صخرة وعجزوا عن طرقها فأخذ النبي ﷺ المطرقة وطرق تلك الصخرة طرقة حتى تطاير منها شعاع وقال: «الله أكبر فتحت لأمتي ممالك الروم كأني أنظر إلى قصور الشام» ثم طرقها طرقة ثانية وطار أيضاً منها شعاع، وقال: «الله أكبر فتحت لأمتي ممالك فارس كأني أنظر إلى قصور المدائن»[(٢)] هكذا كان يربط المؤمنين بوعد الله ﷻ الذي لا يتبدل مع أن المسلمين في ذلك الوقت يقاسون ويعانون أشد الشدائد.

وأنتم إذا نظرتم إلى سورة الأحزاب رأيتم الشدة التي واجهها المسلمون تتمثل أمام أعينكم فالله ﷻ يقول: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] فقد وجد المنافقون سبيلاً للطعن في وعد الله سبحانه ووعد رسوله عندما أبصروا تلك الزحوف من العرب تزحف عليهم من كل مكان، ولكن الله سبحانه حقق للمؤمنين النصر والتمكين كما

(١) رواه البيهقي في السنن (١٣٤١٤).

(٢) روي في زوائد مسند الحارث (٦٩٢).

وعدهم فانقلب أعداؤهم صاغرين، فالواجب أن تطهر القلوب من الأدران؛ لأن الله تعالى لا ينظر إلى الظواهر وإنما ينظر إلى السرائر، ويجب أيضاً أن تكون صلتنا بالله سبحانه صادقة متينة، وأن تكون علاقتنا فيما بيننا علاقة إيمانية، بحيث ينظر العربي إلى الأعجمي والأعجمي إلى العربي نظرة الأخ إلى أخيه ما دام الإيمان يوحد ما بين الاثنين، كما قال مصعب بن عمير عندما مر على أخيه يُجَرُّ أسيراً وكان الذي أسره من الأنصار فقال له: شد وثاقه فإن أمه غنية وسوف تفتديه منك، فعاتبه أخوه على تحريض آسره عليه إذ أمره بأن يشد وثاقه مع أنه أخوه ولم يأمره بالتلطف أو الرفق به، فرد عليه مصعب بن عمير: إنه أخي دونك، أي إن هذا الأنصاري أخي دونك ولو كنت أنت أخي من النسب، فإن هذه الإخوة لا أعتبرها شيئاً بسبب ما فرق بيني وبينك من إيماني وكفرك بينما آسرك هذا جمعني به الإيمان.

ولذلك وهب الله ﷻ هؤلاء النصر والتمكين بسبب هذا التآلف والترابط بين قلوبهم حتى غدت كقلب رجل واحد كما أنهم كانوا خاضعين لله منقادين له في أمره ونهيه نابذين الأهواء والمطامع وراء ظهورهم فلم يكونوا ينظرون إلا إلى طاعة الله وتقواه ويتطلعون إلى نصره وتمكينه والله أعلم.

سماحة الإسلام

الرسول ﷺ أُرْسِل رَحْمة للعالَمين لكن هناك مَن يَرى أنَّ حق المساواة هو مَكْفُول لِمَن اعتنق هذا الدِّين مِن عرب وعَجَم وأنَّ مَن لَم يؤمن به كان حقُّهُم الإجحاف وعدم المساواة، ما قولكم في هذا ؟

أعوذ بالله مِن مَقَالَة أهل الضلال، ومِن افْتِئَات أهل الباطل.

يجب أن ندرك أنه لا يُمكن أن يتسَاوَى الناس مُبْطِلُهم ومُحِقُّهُم وبَرُّهم

وفَاجِرُهم في أمر مَعَادِهِم ولا في أَمْرِ الوَلاية، فهي حق لِمَن أَطَاع الله ورسوله وانْتَظَم في سِلْك المؤمنين، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، فهؤلاء هُمُ الذين تَحِقُّ لَهم الولاية، أمَّا أن يتوَلَّى الإنسان الكَفَرَة فذلك غير جائز: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

أمَّا الحقوق الأُخرى فهي مُشْتَرَكَة، ولا ريب أنَّ المسلم يَتَمَيَّزُ بِحقوق بِسَبب إسلامه لأنَّه أطاع الله ورسوله وانْقَاد لأمر الله وأَذْعَنَ لِحُكمه فهو أولى بأن يُبَر، ولكن إن كان غير المسلم جَاراً لِمُسلم ـ مثلاً ـ فإنَّ على المسلم أن يُقَدِّرَ حق الجوار، وأن يَصْرِفَ أَذَاهُ عن جَارِه ولو كان غير مسلم.

وكذلك بالنِّسبة إلى الوَالِد إن كان غَير مُسْلِم فإنَّ حَقَّه يَجب على ولده، فالله يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ - ١٥] فقد أَمَرَ الله ـ تعالى ـ بِمُصَاحَبَتِهِما بالمعروف.

وأمّا إن كان ذَا رَحِم ففي هذا خلاف، هل لِذِي الرحم غير المسلم حق أو لا يَجب له حق الرحم بسبب عدم إسلامه؟، والذي نأخذ بِهِ أنَّ ذا الرَّحِم ولو كان غير مسلم حقُّه واجب كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إنَّكُم سَتَفْتَحُون بلادا يُذْكَر فيها القِيرَاط فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خيرا فإنَّ لَنَا فيهم رَحِماً وصِهْراً»[1]، ويُشِير إلى الرَّحم الذي بينه وبين أهل مصر مِن قِبَل جَده إسْمَاعيل عليه السلام فإنَّ أُمَّه هَاجَر من مصر، مع أنَّ أولئك لَم يكونوا على الإسلام

(١) رواه مسلم (٤٦١٤).

عندما وَصَّى بِهِم رسول الله ﷺ، وكذلك إذا جِئنا إلى حديث: «أَلا إِنَّ آل أَبي فلان ليسوا لِي بآل» إلى أن قال: «وَلَكن لَهم رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا»[1]، فهذا دليل على أنَّ مَن كان على غير مِلَّة الإسلام يبقى حق الرَّحم واجباً لَه.

نعم لا يُمكن أن يتَسَاوى البَر والفاجر والمسلم والكافر في الحقوق، فلا ريب أنَّ النَّاس يتفَاضَلُون بِقَدْرِ تَفَاضُلهم في الأعمال وبِقَدْرِ تَفَاضُلهم في البِر والصلاح والإخلاص فالله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، فتقوى الله هي ميزان التَّفَاضُل بين الناس، ويَجِب الأخذ بِذَلك في الاعتبار؛ وإنما يحفظ في الإسلام حق الكافر والفاجر كاملا غير منقوص؛ فإن ما هما عليه من الكفر والفجور لا يسوغ الحيف عليهما، وحرمانهما من العدالة التي يستظل بظلها الوارف كل من كان في حمى الدولة الإسلامية فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

الاستقامة ـ كما يظُنُّها ـ البعض طريقٌ صعب، وأنَّ التوبة إلى الله تَتَطلَّب مِنهم نَدَما شَديدا، وتتطلَّب مِنهم أن يكونوا ملتزمين التزاما كاملاً، كما يرَون ـ مثلاً ـ كثيرا من الملْتَزِمين، فلا بُد أن يُقلِّدُوهم في حركاتِهم وفي كل أفعالِهم، فكيف يُوضَّح هذا الأمر؟

الاستقامة هي أن يَسْتَقِيم الإنسان على مَنْهَج الحق، وأن يَتَّبِع أوامر الله، ويَزْدَجِر عن نواهِيه، فلا يُقارِف شيئا من حُرُماته، ولا يقع في شيءٍ

(١) رواه البخاري (٥٥٣١).

من مَكْرُوهاته، وليس ذلك أمرا عسيرا، إنَّما ذلك أمر مُيَسَّر لِمَن يسَّره الله تعالى له، فالله لَم يطلُب من العباد ما فيه كُلْفَة وما فيه مشقَّة عليهم، إنَّما أراد منهم ما فيه يُسر لَهم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فليس في دِين الله ـ تعالى ـ حرج، فالله ـ تعالى ـ لَم يُحرِّم على الناس شيئا مما تتوق إليه نفوسهم إلا وأباح لَهم في مُقابِله ما يُغْنِيهم عما حرَّم، فكما حرَّم الزِّنا أباح الزواج الشرعِي لِما فيه من الأُلْفة، ولِما فيه من التقريب ما بين قلوب الأسر وقلوب الأفراد، إذ ليس الزواج ارتباطا مَا بين الزوجين فحسب بل هو ـ أيضاً ـ ارتباط بين الأسرتين، فَفيه مصالِح كثيرة بينما الزِّنا بِخلاف ذلك.

وكذلك عندما حرَّم الله الخبائث مِن الميتة، والدم، ولَحم الخنزير، وما أُهِلَّ به لِغَير الله، والخمر أباح الله ـ تعالى ـ لِعباده الطيِّبات من الـمَطاعِم والمشارِب وما أكثرها، وإذا نَظَرنا إلى المحرَّمات وجدناها أشياء قليلة يسيرة بالنسبة إلى ما أباح الله ـ تعالى ـ مِن الطيبات الكثيرة التي لا نُحْصِيها.

وكذلك عندما حرَّم الله قول الـهُجر مِن الغيبة والنميمة والكذب وغير ذلك أباح القول الطيِّب، فقد أباح المزاح الذي لا يؤدِّي إلى الكذب، ولا يؤدِّي إلى إثارة الأَضْغَان والأحقاد، وأباح الكلام الذي يُرِيح النفوس، ويُقرِّب ما بين القلوب، ويُؤلِّف بينها، وهكذا كُل ما أباحه الله ـ تعالى ـ ودعا إليه إنَّما هو موافق للفطرة ومصاحب للغريزة ودَاعِيَة للأُلفة والتقارب بِخِلاف ما حرَّم.

فطريق الاستقامة إنَّما هو طريق الفطرة يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، والخروجُ عن منهج

الاستقامة إنَّما هو خروج عن منهج الفطرة، فليس الأمر كما يتَصَوَّر كثيرٌ من الناس من أنَّ طريق الاستقامة وَعْر شَائِك صعب، وإنَّما هو طريق في مُنْتَهى اليُسر، ولكن شأن الفِطَر إذا تعفَّنَت، والعقول إذا أظلمت، والنفوس إذا تكدَّرَت، أن تتصوَّر الأمور بِعَكس حقيقتها، فتتصوَّر الطيِّب خبيثا والخبيث طيِّبا، وتتصوَّر الصعب سهلا والسهل صعبا، فقد يرتَكِب الإنسان الصعوبات الكثيرة في سَبِيل إِرْضَاء شهوته، وفي سبيل إِرْضَاء شيطانه غير مُبَالٍ بِما يترتَّب على ارتكاب هذه الصعوبات مِن المَخَاطر، بينما هو يَرى من الصعب على نفسه أن يقوم بالواجب بَينه وبين الله فيجتَنِب مَحارمه، ويقوم بِفَرائِضه لأنه أَلِفَ المَعصية حتى رَانَت على قلبه فصار أسيرا لَها غير قادر على الانْفِكاك عنها، فمَن أَطْلَق لِلِسانه العِنان، بِحيث يَلِغُ في أعراضِ الناس ويُمزِّقُها تَمزيقا يرى مِن الصَّعْب عليه أن يضْبِط لسانه، فيقول الحق بدَلاً من الباطل، وكذلك من اعتاد الزنا ـ والعياذ بالله ـ يرى مِن الصعب عليه أن يستغني بالحلال عن الزِّنا، وكذلك من اعْتاد السَّرقة، ونَهْب أموال الناس، يرى من المشقَّة أن يكتَفِيَ بالحلال الذي أحلَّه الله ـ تعالى ـ له مِن المال عن الطرق المحرمة في كسبه، وهذا كُلُّه دليل انْحِراف الفِطرة، أمَّا عندما تكون فطرة الإنسان سَوِيَّة فإنَّه لا يرى في ذلك شيئا مِن الصُّعوبة.

أمَّا العبادات التي فرضها الله ـ تعالى ـ على عِبَادِه فهي كُلُّها ميسَّرة، فالصلوات الخمس يقيمها الإنسان في أوقاتٍ مَحدُودة، لا تكون أبدا على حساب عَمَلِه ولا على حساب راحته، بل في هذه الصلاة الرَّاحة والطُّمَأْنِينَة والخروج مِن هُمُوم هذه الدنيا، واللُّجُوء إلى الله ـ تعالى ـ فكيف تشُقُّ على العباد؟! كذلك الصيام الذي فَرَضه الله ـ تعالى ـ إنَّما هو شهر في العام، ولَم يفرض الله على عباده أن يصوموا طوال العام، أو نصفه أو ثُلُثه أو رُبُعه،

فأيُّ مشـــقَّة في هذا الصيام؟! مَعَ أنَّ في هذا الصيام راحـــة للبَدَن، كما جاء في الحديث عن النبي ـ عليه أفضل الصلاة والســـلام ـ، وقد ثبت أنَّ الصيام سبب لِتنقِيَّة الجسَد من تَرَسُّـــبَات الكثير مِن الأطعمة وآثَارها ومُخَلَّفَاتِهَا في هذا الجسم.

وكذلك الزكاة، فإذ نظرنا إلى أعلى نســـبة تجب منها في المال وجدنا ذلك في الزروع والثمار وهي إما أن تكون عشر الثمرة أو نصفه، وإذا جئنا إلى زَكاة النَّقدَيْن وزكاة التِّجارة وجدناهـــا لا تعدو أن تكون اثنين ونصف في المائة، فأيُّ كُلْفَة في هذا؟! مع أنَّ الإنســـان قد يُنفـــق النفقات الكثيرة في ســـبيل إرضَاء شـــيطانه ولا يبالي بِها، فقد يُنْفِق في الخمر، ويُنفق على طاولات القِمار، ويُنفق في أنواع الـمُجُون والفســـاد الأموال الطائِلة، حتى يصبح مُفلســـا بين عشـــيَّة وضُحَاها، فطريق الاســـتقامة طريقٌ سهل ميسر لا كما يتصوَّر هؤلاء، وإنَّما يعود ظنهم في صعوبة الاستقامة وخوفهم منها إلى عدم تصوُّرِهم الحقيقة بِسَبب ما ذكرتُه من انحراف أفكارهم وانطماس عقولِهِم، والله أعلم.

ورد عـــن النبي ﷺ أنه قـــال: «دعوني ما تركتم، إنمـــا أهلَك من كان قبلكـــم ســـؤالهم واختلافهم علـــى أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شـــيء فاجتنبـــوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما اســـتطعتم»[1]. ومن المعلوم أنّ العلماء ورثة الأنبياء، وأنّ المسلمين يأخذون منهم أحكام الدين، فهل ما ســـكت عنه العالم يسع المسلمين الســـكوت عنه، فلا ينبغي السؤال، فعلى سبيل المثال إذا نزلنا إلى بعض فتاواكم، كفتوى لبس

(١) رواه البخاري (٦٧٤٤).

المرأة للجوارب في الصلاة، فإن هذه المسألة لم تكن مثارة من قبل بالشكل الواسع، وكنتم لا تذكرونها بالصورة الملفتة، لكن عندما وُجِّه إليكم السؤال عن هذا الموضوع أفتيتم بالفتوى المعروفة، التي انتشرت بشكل واسع فهل هذه المسألة وغيرها ينطبق عليها الكلام الذي قلناه من أنّ ما سكت عنه العالم لا ينبغي السؤال عنه، والسكوت عنه واسع ؟

لا ليس الأمر كذلك فأنا لست بشارع، وإنما الشارع هو الرسول ﷺ، وقد أخذت ما أفتيت به من حديث الرسول ﷺ عندما سئل عن الإسبال وشدّد فيه وقال في إزرة المؤمن إنها إلى نصف ساقيه، فسألته أم سلمة رضي الله عنها عن المرأة، فقال:

(ترخي شبرا)، قالت له: «إذن ينكشف عنها ؟»، فقال:

(ترخي ذراعا)[1]؛ فلذلك أخذنا من هذا الحديث وجوب ستر المرأة لقدميها، إذ لو لم يكن ثَمَّ محذور من انكشاف قدمي المرأة لمَا أمر النبي ﷺ المرأة أن ترخي ذراعا بعدما أذِن لها أوّلا أن ترخي شبرا فقط؛ فهذا مما لا يدخل في النهي المذكور فالمسألة المشكِلة يُسأل عنها؛ ولا حرج، ولكن مثال ذلك أن يجيب العالم أو العلماء جوابا عامّاً، وهذا الجواب العام تندرج تحته أنواع الخصوصات المتعددة، ومع ذلك يأخذ أحد من الناس ينقِّر، ويسأل عن كل خصوص بعينه، وهل كذا أيضاً حكمه كذا ؟ وهل كذا مثلاً ينطبق عليه الحكم ذاته ؟ فمثل هذا هو من باب التكلف ومن باب التنطع الذي لا ينبغي أن يحصل من أحد والله أعلم.

(١) رواه الربيع (٢٧٣).

شبهات حول الإسلام

في فترة مِـن الفَتَرَات الماضية غزت بعض النظريات عقول المسـلمين، لكن التُّهمة الموجهـة إليها هي أَنَّهَـا نظرية وليسـت حقيقة ومع ذلك أحدثت أَثرا في نفوس بعض المسلمين الهَشَّة، الآن بعض هذه النظريات تحول إلى حقيقة، فاستنساخ بشر مِن بشـر أو حيوان مِن حيوان ممكن في علم «الجينيوم» أو علم الهندسة الورَاثِيَة، وفي الأيَام الأخيرة ـ أيضاً ـ تَمكن فريق ياباني مِن تلقيح بُيَيْضَة أُنْثَى فَأر بِبُيَيْضة أُنْثَى فاسـتطاعوا بذلك أن تحمل تلك الأنثى بعشرة فئران.

والمسلم ـ طبعا ـ لديه تَصَوُّر واضح عن قدرة الله تَعَالى:

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]

كَيف يَفْهَم المسلم هذه التطورات والحقائق العلمية في ضوء ما يؤمن به مِن قدرة الله ـ تعالى ـ؟

المسـلم يدرك تَمَـام الإدراك أن كل ما في الكون إنَّما هـو مَخْلوق لله سبحانه، وأن أيَّ أَحَد لَا يستطيع أن يَخلق أي شيء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، فكل ما في الكون إنَّما هو مَخْلُوق لله تعالى، وهُؤَلَاء الذي قاموا بالاستنسـاخ هَل هُم أَحْدَثـوا عنصراً لم يَكُن مَوْجُوداً مِن قَبل؟ أو أَنَّهم استخدموا العُنْصر الـمَوجود وطوروه مِن طور إلى طور؟ فمِن الذي أوجد هذا العنصر؟ إنَّما أوجده الله تعالى، وهم إنَّما طوروا ما طوروه بِمَا آتاهم الله تعالى مِن دِرَايَة بطبيعـة هذه العناصر الموجودة في هذا الكون فاسـتطاعوا أن يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه، والله ـ تعالى ـ وَعَدَ عباده أن يَكْشِف لَهُم أَسْرَارَه قَال سبحانه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٢ - ٥٤]، فهذا مِمَّا يدخل في وعِد الله تعالى بِأن يُجَلِّي للناس آياته التي لم تكن معروفة من قبل ولم تكن متصورة على ما هي عليه في الأنفس وفي الآفاق، كذلك نَجد أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ويُشير ﷻ إلى انطواء القرآن على عَجَائِب الكون، وذلك عندما يقول ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٤ - ٦] وهو ظاهر بداهة في الدلالة على انطواء القرآن على أسرار السموات والأرض.

ولا تزال الآيات تُكْتَشَف يوماً بعد يوم، والحقائق تتجلى للناس على ما هي عليه ونَحن نؤمن بأن كل ما في الكون مِن أدق شيء إلى أَوْسَع شيء إنَّما هو مَخْلُوق لله ولا دخل لِقُدرة العبد فيه اللهم إلا عندما يريد الله ﷻ أن يُظهر للناس شيئاً مِن أسراره ويُمكّنهم منه والله أعلم.

سؤال ذكره دكتور غير مسلم لطلبة كلية الطب حيث سألهم: كيف تثبتون أن الإنسان ليس أصله قرداً؟

هو رضي لنفسه أن يكون قرداً ابن قردة وهو أهون من ذلك وأخس ما دام كافراً بالله سبحانه صاداً عن سبيله ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] بخلاف المؤمنين الذين آمنوا بالله، وكل من رضي بأن الإنسان أصله قرد فقد أنزل نفسه منزلة القردة ويكفي هذا الجواب له. هذا ولا يطالب

بالحجة الذي ينفي الشيء وإنما يطالب بالحجة الذي يثبته، فهؤلاء الذين يقولون إن أصل الإنسان قرد عليهم أن يأتوا بالدليل على ذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهؤلاء اعترفوا بأنفسهم بأن النظرية الداروينية ليس لها أي نسبة من الصحة إلا بنسبة واحد في المليار، ولكنهم فراراً منهم من الإيمان يرددونها ضلالاً وعناداً، واقرأوا إن شئتم كتاب «النشوء والإرتقاء» للسيدة منيرة علي الغاياتي التي كتبت كتابها هذا لأجل ابنها عندما كان يدرس في الولايات المتحدة الأمريكية وتأثرت أفكاره بهذا الهراء فألّفت هذا الكتاب باللغة الإنجليزية؛ لأنها رجعت إلى المصادر الإنجليزية والفرنسية وأرادت أن تقنع ابنها الذي كان يدرس باللغة الإنجليزية، ثم ترجمه زوجها إلى اللغة العربية.

والحفريات الجديدة أيضاً أثبتت بطلان هذه النظرية، ومن الذين اعتنوا بهذه الحفريات عالِم الآثار الإنجليزي ريتشارد ليكي، وأثبت أن هذه النظرية خاطئة لأن الاكتشافات الأثرية دلت على أن الإنسان كان إنساناً قبل الوقت الذي زعم هؤلاء المهرجون أنه كان فيه قرداً، وقد ألغوا اليوم هذه النظرية بأنفسهم فأصبحت مقبورة فيما باد من النظريات الفاسدة والحمد لله والله أعلم.

من المؤسف جداً أن هناك كتبا تشكك في القرآن وتدعي بأنه من كلام العرب، ومن بينها كتاب (قالت العرب) أدرج فيه المؤلف آيات الله وذكر أنها مأخوذة من حكم العرب وشعرهم فكيف نرد على مثل هؤلاء المشككين؟

هذا هراء لا يلتفت إليه

لو كلُ كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقال بدينار

فهؤلاء لا يلتفت إليهم لأنهم ما جاءوا بشيء يستحق أن يرد عليه، وإنما هي مجرد دعوى جاءوا بها من خلال مقارنتهم القرآن بكلام العرب وشتان بينهما، ويذكر أحد المفكرين الإسلاميين أنه ألقى خطبة أو درساً في باخرة وكانت هذه الباخرة تضم المسلم وغير المسلم العربي وغيره فجاءت إليه امرأة إيطالية غير مسلمة وقالت: أنا ما فهمت من درسك شيئا أبدا لأنه بلغة غير اللغة التي أعرفها، ولكن مع ذلك أحسست بأنك تدخل في كلامك كلاما آخر له طبيعة أخرى تختلف عن طبيعة كلامك فما هو هذا الكلام؟ قال لها: هو كلام الله القرآن الكريم الذي أنزله الله ﷻ على نبيه ﷺ، ولا يشبه كلام البشر، وإن أشبهه من حيث الحروف ومن حيث الكلمات، ولكنه لا يشبهه من حيث روحه، قالت: أنا أحسست بأن في هذا الكلام الذي ترويه روحاً لا توجد في كلام آخر، هكذا أدركت هذه المرأة غير المسلمة وغير العربية أن لكلام الله ﷻ روحاً تختلف عن روح كلام البشر، وكفى بذلك حجة عليهم والله المستعان.

يقول بعض المفترين على الإسلام بتناقض القرآن ومثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] **وقوله تعالى:** ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

أين التناقض في مثل هذا؟! فالله ﷻ ينهانا عن معاطاة الشر، ولكنه علم من سيخالف أمره وسيقارف الشر، وينهانا عن ركوب الخطر، وقد علم من سيقع في الخطر، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا لأن ما كتبه لنا هو ما علم وقوعه منا أو علينا، وإنما أمرنا أن نفر من قضائه إلى قدره، إذ الأمر المكتوب لا بد منه، وكل شيء مقضي في الأزل لا بد أن يقع فيما لا يزال حسب ما قضي، وإنما أمرنا أن نأخذ بالأسباب التي تنجينا ولا تردينا، فإنا إن لم نأخذ بالأسباب فلن تكون لنا حياة، فلو لم نأخذ بالأسباب ـ بحيث لم

نأكل ولم نلبس ولم نتق الحر والقر ولم نتق النار وغيرها من المهلكات ـ هل نعد في هذه الحالة من العقلاء؟!، فالإنسان مأمور أن يأخذ بالأسباب المؤدية إلى سلامته في الدنيا وسعادته في العقبى، وهذا لا ينافي أن كل شيء مكتوب عند الله بحسب ما علم والله أعلم.

توصل العلماء مؤخرا إلى أنه بإمكان الرجل أن يحمل جنيناً في أمعائه أو في الكلية ثم تتم الولادة بعملية قيصرية، فما مدى تعارض هذه الحقيقية العلمية مع عقيدة المسلم، وما حكم الأطفال الذين يولدون بهذه الطريقة ؟

هذه نظرية، والنظرية شيء والواقع شئ آخر، وعلى الإنسان ألا يسابق الزمن في الحكم للشيء أو عليه، لأن هذه حالة غير طبيعية، والحالة الطبيعية معروفة، فقد أراد الله ﷻ للرجل أن يكون رجلاً، وأراد ﷻ للمرأة أن تكون امرأة، فكل منهما له خصائصه التكوينية وخصائصه التشريعية، ولعل الذين قالوا بهذه الإمكانية بلغت بهم شطحات الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل إلى القول بأن بإمكانية أن يحمل الرجل، وهم في كلا الحالين: في دعواهم المساواة في الأحكام التشريعية، وفي دعواهم المساواة في الطبيعة يعارضون حكم الله ﷻ، ويعاكسون الفطرة الإنسانية التي فطر الله تعالى عليها الناس، فالله خلق الرجل ليكون ذكرا وخلق المرأة لتكون أنثى، لأن كل واحد منهما خصصت له وظائف معينة من حيث التكوين ومن حيث التشريع، فلا يمكن أن ينسلخ الرجل من خصائص الذكورة، أو تنسلخ المرأة من خصائص الأنوثة، أما ما حدث أخيراً مما سمي بالجنس الثالث فما هو إلا تمرد على الفطرة ومبالغة في مكابرة أمر الله تعالى، وأنا لا أشك أن مثل هذا ـ لو حاول الناس أن يكون ـ فإن منتهاه الفشل،

فكل شـــئ يخرج عن الطبيعة منتهاه الفشل، فمن أين للكلية أو للأمعاء مثل المغذيات التي في الرحم وهي التي تغذي الجنين.

هذا لو سلمنا بأنه يمكن أن يكون لقاح، وإلا فكيف يكون هذا اللقاح، فهل هناك بييضة في هذا الرجل حتى يتم اللقـــاح ما بينها وما بين الحيوان المنوي من الماء الدافق الذي يسيل من الرجل الآخر عند العملية الجنسية، فهذا عمل ـ مهما كان ـ هـــو معاكس للفطرة، وإنـــي وإن كنت لا أريد أن أســـابق الزمن في الحكم على الأحداث، لا أشـــك بأن هذه العملية فاشـــلة، كمـــا أنني أيضاً أرى أن الطفل الذي يولد بهذه الطريقة طفل غير شـــرعي، نعم يمكن أن يولد إنسان يبدو أنه ذكر أو أنثى، ثم تنكشف الحقيقة بخلاف ذلك عند النمو، وهذه تعد من الخنوثة التي أفرد لها الفقهاء حكما في أبواب المواريث وغيرها، فقد تكون الخنوثة باجتماع الآلتين آلة الذكورة وآلة الأنوثة في الإنسان، وقد تكون بظهور إحدى الآلتين وخفاء الآلة الأخرى، بحيث تكون الآلة الظاهرة ســـاترة للآلة الباطنة حتى تتجلى وتبرز مع مـــرور الزمن، وتحتاج مع ذلك إلى عملية جراحية وقد حدث ذلك مراراً، وســـجل الأطباء كثيراً من مثل هذه الأحداث، وآخر ما علمت عنه ما حدث في مدينة الطائف من المملكة العربية السعودية، حيث تحولت فتاة فيما قيل إلى شـــاب، وليس الأمر كذلـــك، وإنما هناك آلة خفية لم تكن منكشفة، تبينت فيما بعد مع نمو الجسد والله أعلم.

تدور على ألسنة خصوم الإسلام شبه منها يقولون بِأنّ في الحج بقايا مِن الوثنية مِن حيث تقديس الأحجار والطواف حولَها والازدحام مِن أجلها، فكيف يُرَد على مثل هذه الشبهة ؟

أعوذ بالله.. هذه شـــبه أهل الجهـــل.. فإن هذه مقالة قالَهـــا مَن قالَها مِن الملاحـــدة وتلقفها أمثال «زويمر» مـــن النصارى الذين حاولـــوا أن يَنتقِدوا

الإسلام بسبب ما كان يعتمل بين جوانِحهم مِن حقد على الإسلام والمسلمين، وكان زويمر يطمح إلى تنصير الجزيرة العربية بأسْرها والقضاء على الإسلام في مهدِه فكان مِن ضمن ما انتقد به الإسلام أنّ الإسلام لا تزال فيه بقايا وثنية، ومِن بين هذه البقايا تعظيم البيت الحرام.

هذا ولا ريب أنّ تعظيم البيت الحرام ليس ناشئا مِن فِكر الإنسان القاصِر المحدود فهنالك فارق بين أن يكون الإنسان معظِّما لِشيءٍ أُمِر بتعظيمِه مِن قِبَلِ ربه ﷻ وبين أن يكون معظِّما لِشيءٍ اخترَع تعظيمَه مِن تلقاء نفسِه؛ فإنّ الله تعالى تَعَبَّد عبادَه بِأمور يَعرفون غاياتِها ويعرفون حِكَمَهَا وأبعادها، وهي التي يُعَبِّر عنها العلماء بـ«معقولة المعنى»، لأنّ حِكَمَهَا واضحة، ونتائجها وثِمارها ظاهرة، وهنالك أمور أخرى هي بِخلاف ذلك تعبّدَنا الله تعالى بها مِن غير أن نعرِف الحكمة منها وذلك مثل الصلوات الخمس، والصلاة مِن حيث العموم هي معقولة المعنى والغاية، لأنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأجْل هذا أُمِرْنا بإقامتِها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولكن هل معنى هذا أنّ كل ما تنطوي عليه هذه الصلاة هو معقول المعنى نُدرِك أبعادَه وغاياتِه؟ لا، فهنالك فارق بين صلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء وصلاة الفجر، ففَرْض الظهر والعصر والعشاء أربع ركعات، وفَرْض المغرب ثلاث ركعات، وفَرْض الفجر ركعتان.. لِماذا كان ذلك؟ ذلك أمرٌ لا ندريه.. كذلك بعضُ الأعمال تتكرّر في الصلاة في كل ركعة، وبعضها لا تتكرّر.. فالركوع يتكرّر في كل ركعة ولكن مرّة واحدة، بينما السجود يتكرّر في كل ركعة مرتين، وتكبيرة الإحرام لا تتكرر أبداً، وإن كان التكبير يتكرّر في جميع الانتقالات، ولكن هو غير تكبير الإحرام،

وكذلك التشهد يتكرّر مرتين في الرباعية والثلاثية ويكون مرة واحدة في الصلاة الثُّنائية.. لِماذا ذلك؟ هذه أمور لا ندريها.. إنَّما علينا أن نُسَلِّم لأمرِ الله تبارك وتعالى، لأننا لو حاولنا أن نتكلّم فيها فإنَّما ننطلِق في حديثِنا عن التَّخمين والظن، وليس لَنَا أن نقطَع في هذه الأمور بِمجرّد ما يَعْتَمِلُ في نفوسِنا مِن ظنون، لأنّ هذه الظنون كثيراً ما ينتابها الخطأ، فهذه أمور تعبّدية علينا أن نتقبّلها ولو كنا لا نعرف الحكمة منها، فليس لنا أن نتساءَل: «لِماذا يتكرّر السجود ولا يتكرّر الركوع؟» بل علينا أن نَمتثِل أمرَ الله، وبِهذا يتبيّن الفارِق بين المطيع والعاصي وبين المؤمن والكافر وبين البَرِّ والفاجر.

وكذلك بالنسبة إلى أعمال الحج فأكثرها غير معقولة المَعنى، وإنَّما هي أعمال تُعُبِّدْنَا بِها، فعلينا أن نَمتثِل أمرَ الله ﷻ، وقد تكون هنالك أسبابٌ نتصوّر ونعتقِد أنَّها هي مِن وراء مشروعيةِ بعضِ هذه الأحكام ولكن ليس لنا أن نقطَع بِها لعدم وجود الدليل النصّي القاطع، مثال ذلك السَّعي بين الصفا والمروة فقد قيل بِأنّ سببه ما كان مِن قصّة هاجر عليها السلام ولكن لِماذا خلّد الله تعالى هذا الأمر وجعله عبادَة تَجِب على العباد؟ ذلك أمرٌ لا ندرِيه وكذلك الهرْوَلَة التي تكون في السعي لا نستطيع أن نقطَع بسببها، وإن قيل بِأننا نُهرولِ حيث كانت هاجر تُهرولِ، وكذلك بِالنسبة إلى الوقوف بِعرفات، لِماذا خُصَّ باليوم التاسع دون غيره مِن الأيام؟ وكذلك بالنسبة للبقاء في منَى لِمدّة ثلاثة أيام ورمي الجمار فيهنّ، كلّ ذلك مِن الأمور التي علينا أن نسلِّم تسليما لَها مِن غيرِ أن نَخوض في أعماقِها.

أما بِالنسبةِ إلى تعظيمِ الكعبة وتعظيم الحجر الأسود فإنّ هذا أمرٌ فَرَضَه الله تعالى علينا، ونَحن نرى فيما جعله الله تعالى مِن أعراف العباد

ما فيه مَقْنَع لِمن كان له قلب أو ألْقى السمع وهو شهيد فإن قطعة من قماش تعلّق فيكون لَها شأنٌ عند الناس بسبب أنَّها عَلَم دولةٍ مِن الدول، وأصحاب تلك الدولة يَحرِصون على ألّا تُمَسَّ بسوءٍ قط مع أنَّها مُجرّد خِرْقَة ليست لَها مِيزَة دون غيرها مِن الخرق، ولكن صارت رمزا لتِلك الدولة.

فالكعبةُ البيتُ الحرام إنَّما هي رمزٌ لامتثالِ دِينِ الله والانصِياعِ لأمرِه، وهنالك تلتقِي وفودُ الله تعالى التي تأتي مِن بقاعِ الأرض، كما قال سبحانه ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٨] ومِن بين هذه المنافع ما يَحصل ما بينهم مِن التعارف والتآلف والانسجام والتعاون على البِر والتقوى، فإنّ وفودَ الحقِّ سبحانه تأتي مِن بقاعِ الأرض إلى تلكم الأماكن المقدّسة على اختلاف أحوالِها وَهُم كلُّهم يَؤمُّون تلكم الكعبة ويُردّدون شعارا واحدا قائلين جميعا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك»، والكلّ ـ أيضاً ـ يَتَجَرَّد في ثوبين مع ما يكون بينهم مِن التَّمايز في لباسهم العادي، ومع هذا ـ أيضاً ـ يَحصُل تلاقي أصحابِ المهارات وأصحابِ الخبرات على اختلاف أنواعها، وفي هذا ما يَجعلُهم يتعارَفون ويبحثون قضاياهم ومشكلاتِهم المتنوعة، ويعطون الحلول فيَيتحقق التعاون على البِر والتقوى بِمشيئة الله، وينطلِقون مِن هنالك بعد أخذ كلّ واحدٍ منهم شحْنَة إيمانية في نفسه، يَتمكّن مِن خلالِها من شَق طريق الخير داعيا إلى الله تعالى مُمتَثِلا لأمرِه متجرِّدا مِن جميع ما يعوقه عن السعي إلى الخير والدعوة إليه، فهذا كله مِن حكمةِ مشروعيةِ الحج، كما قال سبحانه:

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج: ٢٨] والله أعلم.

الردة عن الإسلام

بَرَزَتْ في الآونةِ الأخيرَة في الغَرْب ظاهِرَة التعدِّي والتهجُّم على الإسلام ومقدَّساتِه الدينية، وقد بَلَغَتْ هذه الهجْمة ذروَتَها بِالتعدِّي على شخصِ الرسولِ ﷺ مِمّا أَدَّى إلى سخطٍ كبيرٍ في أَوْسَاطِ الأُمَّة الإسلامية:

ما حُكْمُ الشرع في مَن سَبَّ الرسول ﷺ مِن غيْر المسلِمين؟

مَن سَبَّ أَيَّ نَبِي من الأنبياء وأيَّ رسول مِن الرسل فقد خَلَع رِبْقَةَ الإسلام من عُنُقِه إن كان في الأَصْل مسلماً، وصار في عِدَادِ المُرْتَدِّين، يُحْكَم عليه بأحكامهم فَيُسْتَبَاح دمه من أجل انتهاكه ذلك.

وإن كان مِن غير المسلمين ولكن بينه وبين المسلمين عَهد فإنَّه يُعدّ فاسخا لهذا العهد ومعلنا للحرب على الإسلام فَحُكْمُه حكم المُحَارب للمسلمين.

ولا ريب أنَّ قَدر النبي ﷺ أَعظَم وأجَلّ وأرفع من أَقْدَار جميع الأنبياء لِمَا أَكرمه الله به، وَنَحن مُطالَبُون بأن نَغَار على جَميع أنبياء الله ورسله، ولكن مع ذلك غَيْرَتُنَا على نبينا مُحمد ﷺ هي أَشَدّ وأعظم، فيجب عدم التَّسَاهُل تجاه هذا الأمر والله أعلم.

هُناك مِن النَّاس مَن لا يَترك مَجَالاً للحِوَار فَكُلَّما قيل لَهم: «قال الله» أو «الرَّسول» أَعْرَضُوا مع أنه تم اتِّخاذ الوسائل مِن الحكمة والموعظة الحسنة إلا أنَّ كُلَّ ذلك لَم يُجْدِ؟

أمَّا الذي لا يُؤْمِنُ بِقَوْلِ الله ولا يُؤْمِن بِقَول الرسول ﷺ فليس هو من الإيمَان في شيء، لأنَّ الله تعالى هو العليم بِمَصالِح الخلق وهو العليم بِمَا

فَطَر عليه البشر: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقد أنزل شَرْعَهُ الكَريم مُنْسَجِماً تَمام الانسجام مع الفطرة التي فَطَرَ البشر عليها.

والنبي ﷺ مُبَلِّغٌ عن الله، لا يَنطِق عن هوى في نفسه وإنَّما يَنْطِقُ بِوحيٍ يُوحِيه الله ـ تعالى ـ إليه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، فإذن لَم يَبْقَ هُناك مَجَال للمُؤمِن في أن يتردَّدَ فيما جاء عن الله أو جَاء عَن الرسول ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والله ـ تعالى ـ يقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، ويقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

والإعْرَاض عن حُكْمِ الله وحُكْمِ رسوله يعنِي عدم الإيمان بهما ومَن كان غير مؤمنٍ بالله ولا مؤمنٍ بالرسول ﷺ فهو لَيس من الإسلام في شيء، بل يُعَدُّ في عِدَادِ الكافرين المشركين الخارِجين مِن مِلَّة الإسلام، لا يَجُوز أن يُنَاكَح ولا أن يُوَارَث ولا أن يُدفَن في مَقَابِر المسلمين ولا أن يُعَامَلَ مُعامَلَة مَوْتَى المسلمين، وإن كان لا يجهر برفض ما أنزل الله في كتابه أو نطق به رسوله ﷺ من سنته وإنما يصد عنهما فإن تلك هي شيمة أهل النفاق الذين يخشون أن يعلنوا الكفر الذي ينطوون عليه في دخائلهم؛ لأنهم اجتمع فيهم الكفر والجبن الحائل دون إعلانه، فقد بين الله سبحانه أن هذا من ديدنهم في قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] والذي يجاهر بذلك إن كان في الأَصْل مُسلماً ثُم انْقَلَب إلى هذه الحالة فإنَّه يُعَدُّ مُرتَدّاً عن الإسلام فَيُعَامَل مُعاملة

الـمُرْتَدِّين والعياذ بـــالله، وعليه فإن أراد أحد أن يدعُو هــؤلاء فعليه أوَّلاً أن يُقِيمَ عليهم الأدِلَّة على وجود الله، ثُم يُقِيم عليهــم البَرَاهين والـحُجَج على ثُبُوتِ رسالة الرســول مُحمد ﷺ أنها مِن عِند الله، ويُخاطِبُهم خِطَاباً يدْعُوهُم إلى الإســلام لأنَّ هؤلاء في الأصل غير مُســلمين ما دامُــوا لا يُؤْمِنون بالله ولا بالرسول صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم.

ما الحكم فيمن يســتهزئ بالدين وأهله، حيث إن هؤلاء الناس ينتمون للإسلام ومع هذا فهم يسخرون ببعض تعاليم الدين وبالملتزمين؟

من سخر من شــيء مما ثبت في الدين فهو مرتد عن الإسلام، ولا حظ له فيه، والســخرية من الملتزمين ليست من شأن أهل الإيمان، فإن الله تعالى أخبر أن ذلك من ديــدن المجرمين إذ قــال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢] والله أعلم.

كتابيّ يدين بأن الخمر حلال فشــربها، وفي حال سكره دخل الإسلام، وبعد الصحو أراد الرجوع عن ذلك، على اعتبار أن ســبب السكر حلال في دينه، هل ينطبق عليه قول الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويجبــر الكافر مهما أســلما وشــاء بعد الصحو ألا يسلما

بما أنه أســلم يجبر على الإســلام، فإن أبــى طبق عليه حكــم المرتد والله أعلم.

امرأة عمرها اثنتا عشرة ســنة (١٢) توفي أبوها فكتبت في القرآن في سورة القيامة (أليس الله (لا) بقادر على أن يحيى الموتى) لا يا ربي

إنك لا تحيى الموتى إن كنت تحيى الموتى فأحي أبي الآن، وتلمس المصحف وهي حائـض، وتنجس المصحف أي ظهـرت عليه آثار الدم، وعندما عقلت تلك المرأة تابت إلـى الله فهل تصح لها التوبة فقط ؟

هذه ارتدت عن الإسلام فعليها أن ترجع إليه صادقة مخلصة، ومن تاب تاب الله عليه، والله أعلم.

ما حكم من يعارض أحكام الدين كالحجاب وغيره ؟

من عارض الحجاب ونحوه من أحكام ديـن الله فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] والله أعلم.

سـب دِين جمادٍ مـن الجمادات أو حيـوان من الحيوانـات كأن يقول شخص مثلاً: يلعن دين البقر، هل يُعتبَر مِن سب الدِّين الذي يُؤدِّي إلى الارتداد ؟

هناك إنسـان وحيوان ونبات وجماد، فالجماد كالجبل والصخر والتراب مما لا حراك له ولا ينمو فهو جماد.

بقي الكلام فيما يتعلق بسـب دين الحيوان والجماد، الحيوان والجماد غير مكلفين، ولكن مـع ذلك دلَّ القرآن الكريم على أن هذه الأشـياء كلها تنقاد لأمر الله وتسبح بحمده وتسجد لجلاله سـبحانه، فالله تعالى يقول في وصف نفسـه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] ويقـول عـزَّ من قائل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

ويقول سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١] ويقول: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وكذلك دلَّ القرآن الكريم على أنها تسجد فإن الله تعالى يقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، فلما كانت هذه مُسبِّحة وساجدة وإن كنا لا ندري كيفية سجودها فإنها مُنْقَادَة لله تبارك وتعالى، ويؤكد ذلك قوله ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وعليه فإن من يسبُّ ويلعن إسلام هذه الكائنات لله تبارك وتعالى فمعنى ذلك أنه يسبُّ مَن جعل هذا الدِّين فطرة في هذه الحيوانات وفي هذه الكائنات، لذلك يكون له حكم المرتد؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

صفات المؤمن

ما معنى عِبَارَة «المسلم لا يُسَاوِمُ على دِينِه»؟

نَعَم المسلِم لا يَقْبَل الـمُسَاوَمَة على دِينِه، لأنَّ الدِّين أَغْلَى ما في نَفْسِه، فهو أغلى مِن عِرْضِه وروحه فضلاً عن أن يكون أَغْلَى من ماله، فبه يتم الحفاظ على العِرْض والحياة، وبه سَلامة الدنيا وسعادة العُقْبَى، وبه الشَّرَف في الدارَيْن جَميعاً، فكيف يرضى المؤمن أن يُسَاوِم على دِينِه مع هذا كله؟ بل على المسلم أن يَقِف في وَجْه مَن يُريد أن يساوِمَه على دينه.

وقد سَبَق للكفرة في عهد النبي ﷺ أن عَرَضُوا عليه بأن يُنْكِحُوه أَجْمَل النساء، وأن يُعْطُوه من المال ما يصبح به أَغْنَى قومه، وأن يؤمروه

على أنفسهم على أن يتخلى عن دعوته، ولكنه أبى ذلك ووَقَف تلك الوَقْفَة الصامدة التي زعزعت موقف أهل الكفر، ولَم يَرْضَخ لِشَيْءٍ مِن مَطالِبِهم.

وعندما حَاوَل المشركون منه بأن يَعْبُد آلِهَتهم عاماً ليعبُدُوا إلَهه عاماً أنزل الله تعالى ما يقطع دَابِرَ هذه المسَاوَمَة حيث قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

ومِن المسَاوَمَة أن يقْبَلَ المسلم ترك بعض فُرُوضِ دِينه أو ارتكاب بعض المحارِم في الدين مِن أجل أن يُرْضِي الآخرين، فهذا كله مِمَّا لا يكون من المسلم الذي آمن بالله واليوم الآخر؛ فإنَّ الله جعل طاعته فَوْقَ كل شيء ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والله تعالى لم يتَرَكَ الناس هَمَلاً، ولَم يَخلُقهم ليعيشوا عِيشَة الأنعام، بل شرَّفهم وكَرَّمَهم تكريما كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فَلأجل هذا صَانَ حياة الإنسان بِهَذه الشريعة المحكَمَة المتْقَنَة التي فيها تَوْجِيه الإنسان إلى مَا هُو خيرٌ له في الدَّارَين، وفيها العبادات الواصِلَة بين العباد وبين رَبِّهم، وفيها الأَحْكَام التي تَحْفَظ مَصَالِحَ العباد، والأخلاق التي تَصِل الإنسان المسلم بالمسلمين وبِغَيْرِ المسلمين.

فالمسلم لا يَرْضَى أن يُسَاوِم على شيء مِن ذلك مِن أجل إرْضَاء أحد أو من أجل نيل شيء من عرض الدنيا من جاه أو مَنْصِب، والله أعلم.

عن معنى قوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبا للغرباء من أمتي»[١]؟

الإسلام في عهد الرسول ﷺ كان غريباً لأن قومه كانوا يستنكرون عبادة الله، ويعتقدون أن هذه العبادة الخالصة لله أمر بدع غريب؛ إذ ما كانوا يعهدونه من قبل؛ لأنه مخالف لما كان عليه آباؤهم المتقدمون ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فاعتبروا توحيد الله تعالى وعدم عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إلى غيرها من الآلهة التي تعبد من دون الله تعالى أمرا عجاباً واستنكروه أيما استنكار، ولكن شاء الله تبارك وتعالى أن يظهر الإسلام، وأن يكتسح نوره جميع ظلمات تلك الوثنيات والعبادات المنحرفة عن الحق والصواب.

وقد عاد الإسلام غريبا كما بدأ ففي فترة من الفترات بلغ الأمر أن كثيراً من الناس كانوا يستنكرون تعاليم الإسلام ويرون الإلحاد رمزا للتقدم والمدنية، والتمسك بقيم الإسلام كان معدوداً من خصائص الرجعية، وكان هذا على المستوى الشعبي والرسمي في كثير من بلاد الإسلام، والآن والحمد لله قامت يقظة إسلامية داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها، ولكن بجانب هذا أيضاً كثير من الناس يعتبرون الإسلام الذي يحكم الشعوب ويوجهها أمرا خطيرا يهدد السياسة العالمية فلذلك يستنكرون كل الاستنكار أن تكون هناك دعوة لتطبيق شريعة الإسلام ودعوة إلى تحكيم أمر الله تعالى وإلى التخلص من علاقات المسلمين مع الأفكار والنظم الجاهلية المستوحاة من مستنقعات الأفكار اليهودية والصليبية والإلحادية، بل يستنكرون أن يطلب عاقل تحكيم الإسلام في وقتنا هذا، إذ يعجبون كيف

(١) رواه مسلم (٢٠٨).

يحكم بالإسلام في القرن العشرين وفي مطلع القرن الحادي والعشرين؟! كأنما الإسلام جاء لفترة من فترات التاريخ ولت ولا يصلح حسب معاييرهم لكل عصر من العصور، فأحد الطواغيت الذين طواهم الزمن عندما قيل له إن الناس يرغبون في تحكيم شريعة الله تعالى قال: هذا عصر أوسع من أن تتسع له الشريعة، وهكذا تجد هؤلاء المتآمرين يحاولون أن يجعلوا من أوهامهم ومن ضلالاتهم قرآنا يتلى ما بين الناس، وشريعة تحكم ما بين البشر، فهذا مما يفسر كون الإسلام غريباً بين الناس.

وكثير من الناس يفهمون هذا الحديث فهما خاطئا ويظنون معناه أن يستسلم المسلم لهذا الواقع، وأن لا يدعو إلى العودة إلى الإسلام، لأن الإسلام كتب عليه أن يكون الآن غريبا، وإذا كان غريبا فلن تجدي فيه دعوة ولن تقوم به نهضة وهذا خطأ، ففي عهد الرسول ﷺ عندما بدأ الإسلام غريبا ما استسلم الرسول ﷺ لهذه الغربة وما سكت عن ذلك الوضع، وإنما كافح الجاهلية وتصدى لتحدياتها، وكذلك كان شأن صحابته رضوان الله تعالى عليهم حتى ظهر الإسلام، فعلى المسلم أن يدرك أن من واجبه أن يقوم بالدعوة إلى الإسلام حتى تتحول البشرية من منهج الجاهلية الباطل إلى منهج الإسلام الحق.

وقد أحسن الشاعر محمد إقبال عندما قال: «إن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة وصاحب الحق اليقين ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة مقام الإرشاد والتوجيه مقام الأمر الناهي، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر بل

عليه أن يثور عليه وينازله ويظل في صراع معه وعراك حتى يقضي الله في أمره، إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والاقزام، أما المؤمن القوي فهو نفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد» فهكذا المؤمن القوي لا يستسلم لغربة الإسلام بل يكافح حتى يظهر ويدحر الجاهلية المعاصرة في كل جوانبها، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١] والله أعلم.

سؤال عن خيرية هذه الأمة المذكورة في قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، هل هذه الخيرية موجودة في هذه الأمة الآن، أو أنها انتهت بانتهاء ذلك العهد الذي كان فيه أولئك القوم الخيِّرون الطيبون الصالحون، الذين تنزّلت هذه الآية بين ظهرانيهم؟

إن خطاب الله ﷻ لهذه الأمة لا يتقيد بقيود الزمن، فهو خطاب يشمل كل جيل وعصر؛ لأن القرآن لم ينزل ليكون محصوراً في ذلك الجيل الذي بُعث فيه الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، وإنما هو خطاب يعم هذه الأمة منذ أن بعث الله عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ حتى تنتهي هذه الأمة بتوقف عجلة الزمن، وهذه الأمة ـ بحمد الله ـ هي أمة خير مهما وُجد فيها من انحراف عن المسلك الذي كان عليه السلف، فهذا الإنحراف لا يوجد في جميع أفراد الأمة، وتعد هذه ميزة لهذه الأمة، مع أن الانحراف في الأمم السابقة كان يأتي عليها ما عدا أفرادا قليلين كما قال سبحانه تعالى:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥]، بينما هذه الأمة ظل فيها الخير باقيا كما قال رسول الله ﷺ: «الخير فيَّ وفي أُمتي إلى يوم القيامة».

ومن ناحية أخرى فالكتب السابقة جميعا حُرفت وبُدلت؛ لأن الله ﷻ جعل رسالات أولئك الرسل ـ الذين بُعثوا في تلك الأمم ونزلت عليهم تلك الكتب ـ رسالات موقوتة، فلذلك كانت تنطفئ شعلها بانتهاء زمن تلك الرسالات، وهذه الأمة ـ والحمد لله ـ أبقى الله لها الكتاب العزيز محفوظاً بنصه ومعناه، وأبقى لها سنة النبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، والمتعمقون في البحث يمكنهم أن يعرفوا ما ثبت عن رسول الله ﷺ من الحديث وما لم يثبت عنه، والقرآن الكريم فيه تبيان كل شيء، وإنما سنة رسول الله ﷺ تفصِّل مجمله، وتوضح مبهمه، وقد تكفل الله ﷻ بحفظ هذا الكتاب؛ حيث قال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فلم يزل هذا الكتاب محفوظاً، وسيظل محفوظاً إلى أن ينتهي أمد هذه الحياة.

وهذه الأمة أمة وسطٌ ما بين الأمم، فإن الله تعالى يقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وهذا الخطاب ليس محصوراً في أولئك القوم الذين كان فيهم رسول الله ﷺ وحدهم، فإنا لو قلنا بحصر خطابه فيهم لضاعت جميع أحكام الله ﷻ؛ فالله تعالى يقول: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وهو خطاب يتوجه إلى كل فرد من هذه الأمة وليس مخصوصاً بجيل من الأجيال، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وهو أيضاً خطاب موجه إلى كل فرد من أفراد هذه الأمة؛ وليس محصوراً في صدر هذه الأمة، ومثله قول

الله ﷻ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] فلو لم يكن خطاباً لأول الأمة وآخرها لساغ للناس الآن أن يأكلوا الربا وأن يزنوا ويرتكبوا جميع المنهيات؛ متعللين بإن الخطاب موجه إلى جيل سابق قبل هذه الأجيال، ولكن أنَّى ذلك، وهو دين كُلفنا به كما كلف به من قبلنا، كما جاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[1]، فعلينا جميعاً أن نُدرك أننا أمة وسط بين الأمم، وأن هذه الوسطية إنما تتحقق إذا أخلصنا لله ﷻ واتبعنا هذا الخير الذي جاء به رسول الله ﷺ.

نعم لا ننكر أن هذه الأمة تدنّت عن المستوى الذي كانت عليه، ذلك المستوى الذي بلغ فيه إيمان أهله مبلغاً عظيماً، لأنه قد تربى في مهد النبوة، وبين يدي خير خلق الله تعالى محمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، ولذلك انغرست فيه المبادئ القيمة، فكانت الأخلاق التي يتحلى بها أصحاب رسول الله ﷺ تجسيداً للقرآن الكريم ومبادئه، فإن أخلاقهم كانت مستمدة من خلقه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، وقد كان خلقه القرآن كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، ثم أخذت هذه الأمة تتدنى عن ذلك المستوى حتى وصلت إلى هذا الحضيض.

ولكن بجانب ذلك لا يزال الخير موجودا في هذه الأمة، فعليها أن تسعى أمة وجماعات وأسراً وأفراداً لاستعادة هذا المجد حتى تكون ممسكة

(١) رواه البيهقي (٢١٤٣٩).

بزمام قافلة البشرية تسير بها إلى الخير، وذلك إنما يتم لها إذا كانت تجسد مبادئ الإسلام، وتخلص في الدعوة إليها كما قال تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] فلا بد من الجمع بين هذه المقومات وهي: الإيمان الراسخ والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر حتى تتبوأ الأمة هذه المكانة، ولا يكون أحد آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر حتى يكون هو نفسه مؤتمراً بما يأمر به منتهياً عما ينهى عنه؛ أما إن لم يكن مؤتمراً بما به يأمر ولم يكن منتهيا عما عنه ينهى، فإن أمره ونهيه لا يجديان شيئاً.

وما أحسن قول الشاعر: ـ

وإنك إذ ما تأتي ما أنت آمرٌ به تلفِ من إياه تأمر آتيا

فأنت إذا أمرت بشيء وأتيت به ألفيت الذي تأمره مؤتمراً بأمرك، أما إن كنت تأمر بشيء وأنت لا تأتيه فإن ذلك يسبب الريبة في قولك والشك في صدقك، بل هو مما يورث الشك والريبة فيما تدعو إليه من الحق. فأرجو أن يجعل الله ﷻ الخير في هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والله أعلم.

كيف يمكن أن يوفق ما بين الحديث الشريف: ـ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]، وقوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٩].

هذا الرجل جاء معادياً لأخيه، وخارجاً عليه مناوئاً له فلا يمكن أن يحمل هو والأخ المخلص الوفي على حكم واحد، فشتان ما بين الأمرين والله أعلم.

(١) رواه البخاري (١٢).

تكلمتم في بعض دروسكم عن الأخلاق التي ذكرها القرآن الكريم. ونحن الطلبة نحضر في قاعات الدرس، وكثيراً من الأحيان بعض المدرسين أثناء إلقائهم الدرس يخرج عن موضوعه إلى موضوع آخر يثير الغريزة الجنسية كمقدمات الجماع مثلاً، وكما تعلمون أن الصف مختلط من الجنسين، فنرجو الإجابة على هذا، وتوجيه النصيحة للكل، أم أن هذا لا يتنافى مع الأخلاق الإسلامية؟

إن الإسلام من خُلقه الحياء، فالحياء لا ينفك عنه المسلم، كيف والنبي ﷺ يقول: «الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها كلمةُ لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى من الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»؟، فلا بد من أن يكون المسلم حيياً، والنبي ﷺ كان المثل الأعلى في ذلك؛ فقد بلغ من الحياء مبلغاً عظيماً، حتى أنه كان أشد حياءً من البكر في خدرها، كما جاء في حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولذلك عندما جاءته امرأة تستفتيه ماذا تصنع إذا طهرت من الحيض، علمها النبي ﷺ كيف تصنع في تنقية الموضع من آثار الدم، وحاولت تلك المرأة أن تبالغ في الاستفسار، فكان النبي يعرض عنها، حتى جذبتها عائشة رضي الله عنها وأخبرتها بالمراد، لأن النبي ﷺ ـ وهو مبلغ عن الله ومبين لشريعته سبحانه ـ كان يمنعه الحياءُ عن الاسترسال في القول مع تلك المرأة حتى يفصح لها عما يستحيى من ذكره، فيجب أن يكون في وجه كل أحده من الحياء ما يمنعه من قول الفحش والعمل المنكر، لا فرق في ذلك بين الرجال والنساء، والكبار والصغار، والمدرسين والطلبة، ويجب أن يربي الطلبة والطالبات على الحياء والعفة والنزاهة، والأساتذة هم القدوة، لأن أخلاقهم تنعكس على أخلاق طلابهم، فعليهم أن يكونوا أشد حياءً وأكثر عفة وأبعدَ عن سفاسف القول، وما هو الداعي لذكر مثل هذه الأمور الحرجة؟ خصوصاً في المجالس أو في القاعات التي

تجمع الجنسين، إن ذلك الأمر عنه ألف بُدّ وبد، فعلى هؤلاء المدرسين أن يتقوا الله ﷻ، وأن يراعوا الحقوق الواجبة عليهم للطلبة والطالبات، وأن ينموا الحياء في نفوسهم، وأن لا يعودوهم هُجر المقال ولا يجرئوهم على سفاسف الأفعال والله أعلم.

ألا يمكن الاعتقاد بنصر الله المسلمين الآن في فلسطين على أعداء الله؟

لا بد من التمييز بين خبر الله ﷻ وخبر البشر، فالله ﷻ عندما يخبر بخبر قد يكون هذا الإخبار بطريقة محددة، فالله ﷻ أخبر في كتابه بأن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين، والبضع عند العرب يتراوح بين الثلاثة والعشرة، ومن منا يستطيع الآن أن يقول بأنه ستفتح فلسطين، وسيدخلها المسلمون وينتصرون على أعداء الله في ظرف سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات أو عشر أو عشرين أو ثلاثين أو أربعين، فمنذ وطئت أقدام أعداء الله اليهود أرض فلسطين وإلى اليوم العرب لا يزالون يرددون كلمة «عائدون»، ولكن هل عادوا؟ أو أن أرضهم تؤخذ قطعة بعد أخرى، ونحن موقنون بأننا إذا استمسكنا بالعروة الوثقى ـ الإسلام ـ فالله ﷻ سينصرنا على القوم الكافرين، من اليهود والشيوعيين وغيرهم في أي مكان، فإذا صدقنا الله فإن الله سيصدقنا، أما ونحن ندعي الإسلام فقط، ونأخذ منه القشور من غير أن تلامس حقيقته شغاف قلوبنا فالنصر منا أبعد من كل بعيد. فالله ﷻ وعد عباده المؤمنين بالنصر فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فلا بد أن يكون إيماننا حقاً حتى نكون حقيقين بنصر الله ﷻ، والله سبحانه يقول:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، فالذين وعدهم الله سبحانه بالنصر هم الذين

يجمعون بين هذه الخصال، فهم ينصرون الله ولا يبتغون بجهادهم ولا بأي شيء من أعمالهم إلا رضوان الله، فلا يريدون حظاً دنيوياً من وراء أي شيء من ذلك، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وإنما يريدون أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وأن يعبدالله في الأرض، وأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة، ويُؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر. أما إذا كان المسلمون على عكس ذلك، فكانوا بأنفسهم يتركون الصلاة ويتبعون الشهوات ويمنعون الزكاة ويأكلون الربا ويتآمرون بالمنكر ويتناهون عن المعروف ويقلدون أعداء الله فكيف ينتصرون؟! وفي الحديث القدسي «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»[1] فنصر الله لعباده مرهون بنصر العباد لربهم، ونصر العباد لربهم إنما يكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والجهاد في سبيله لأجل إعلاء كلمته، لا لأجل منصب ولا مال ولا شهرة، ولا لأجل أي غرض من أغراض الحياة الدنيا، والمسلمون الذين انتصروا في الرعيل الأول إنما انتصروا بالتمسك بأهداب هذا الشرع الحنيف، وانتصروا بصدقهم الله ﷻ فيما وعدوه به فصدقهم الله ﷻ فيما وعدهم به، فقد خرج المسلمون في وقت واحد لمقاومة الدولتين الكبريين في ذلك الوقت الروم والفرس، وما كانوا عندما قاوموا الفرس يسندون ظهورهم إلى الروم، ولا العكس، وكانت الصفات التي يتحلون بها تبهر أعداءهم بما يطلق ألسنتهم بالتعبير عما تكنه ضمائرهم من إكبارهم فقد ذكر الطبري في تاريخه: أن هرقل عندما كانت جيوشه تتقهقر وإمبراطوريته تتساقط أمام الزحف الإسلامي اجتمع مع قادة جيشه لتدارس أسباب هذه الهزائم المتلاحقة التي كانوا يُمنَوْنَ بها، فسألهم ما حالة هؤلاء الناس الذين لقيتموهم فهزموكم هذه الهزائم المنكرة، فقال له أحد القادة: هم رهبان

(١) الأماني الشجرية ج ١ صفحة (٢٤٣).

بالليل وفرسان بالنهار، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه. وقال آخر: أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويروونها، ويثقفون القنا، لو حدّثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر.

فإذا وجدت هذه الصفات في المؤمنين الآن انتصروا على أعدائهم.

وعندما كان الجيش الفارسي ينهار ـ أيضاً ـ أمام سيوف المسلمين ويتقهقر يوماً بعد يوم، ضاق يزدجرد ذرعاً من هذا الأمر، فكتب إلى إمبراطور الصين يستنجده على المسلمين، ولعل الإمبراطور الصيني في ذلك الوقت هو الذي كان معاصراً للرسول ﷺ ويسمى «ته تسونغ» ـ وكان ـ حسب ما يقال ـ يعد من أذكى أباطرة الصين ومن أعمقهم فكراً، وأدقهم نظراً ـ كتب الإمبراطور الفارسي إلى إمبراطور الصين طالباً أن ينجده على هؤلاء المسلمين، وأرسل إليه رسولاً حاملاً هذه الرسالة، فأذن للرسول ودخل عليه، وقرأ كتاب كسرى الفارسي، ثم أخذ يسأله عن أشياء. فكان فيما سأله عنه: هل هؤلاء القوم الذين خرجوا عليكم هم أكثر عدداً منكم أم أقل عدداً منكم، قال: هم أقل عدداً، قال له: هل هم أوفر عدةً منكم أو أقل عدة؟ قال: بل هم أقل عدة (يعني العدة المادية). قال له: أخبرني عن حالتهم؟: قال له: هم رهبان بالليل وفرسان بالنهار، قال: أخبرني عن حالتهم فيما بينهم؟ قال له: قلوبهم كقلب رجل واحد، قال له: أخبرني عن طعامهم، قال يأكلون بقدر ما يعيشون، قال له: أخبرني عن لباسهم؟ قال: هم يلبسون بقدر ما يستترون ويقولون «ولباس التقوى ذلك خير»، وأخذ يسأله أسئلة والرسول يجيب عليها، ثم قال له: لم ينتصروا عليكم مع قلتهم وكثرتكم إلا بهذه الصفات.

وكتب رسالة جوابية إلى إمبراطور فارس يقول له فيها: قد وصلني كتابك، وفهمت ما عند رسولك، ولا يمنعني من إرسال جيش أوله بمرو وآخره بالصين إلا أن أولئك القوم الذين خرجوا عليكم لا يقاومهم شيء، فلو وقفت في سبيلهم الجبال لاقتلعوها، ولو أرادوني لأزالوني من مكاني هذا، فإن شئت أن تسلم فاستسلم لهم.

إن السلف الصالح لم يهزم تلك القوى العاتية بتفوقه في العدة، وإنما هزمها بهذه المزايا التي سجلها التاريخ وبهرت الألباب.

فعندما يكون المسلمون متخلقين بهذه الأخلاق ومتحلين بهذه الصفات وعندما تكون شعلة الإيمان تتوقد بين جوانحهم، والغيرة على حرمات الله ﷻ تملأ كيانهم، سوف ينتصرون على أعدائهم اليوم كما انتصروا عليهم من قبل، أما إن كانوا هم وأعداؤهم سواء فأعوذ بالله من شر المآل، ولقد جاء قبل ما يزيد على سبعة عشر عاماً أحد المفكرين الإسلاميين إلى هذا البلد، وألقى محاضرة عن غزوة بدر الكبرى، وقد سئل بعد المحاضرة عن أسئلة شتى، ومن بين هذه الأسئلة: قيل له: إن المسلمين انهزموا في غزوة أحد ونكبوا بما نكبوا به، والعرب في عام ٦٧ نكبوا بهذه النكسة فما الفارق ما بين النكبتين؟ أليس المسلمون الذين نكبوا في عهد النبي ﷺ كانوا مؤمنين؟ وكيف يقال في هذه العصر إن عدم رسوخ الإيمان في القلوب كان هو سبب النكبة، فكان من جوابه أن المسلمين نكبوا بما نكبوا به في غزو أحد لأنهم خالفوا رسول الله ﷺ فكانت هذه اللطمة تأديباً لهم، كيف وقد جندلت منهم سبعين رجلاً من خيارهم، ليمتثلوا بعد ذلك أمر الرسول ﷺ في كل ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه وليتلقوا درساً لا ينسونه حتى لا يخرجوا عن أوامر الرسول ﷺ في شيء أبداً، وأما النكبة التي كانت من بعد فقد كان المسلمون الذين خرجوا للقتال لاهين بأغاني شادية وأم كلثوم ـ وذكر عدداً

من المغنين ـ فأنى لهم أن ينتصروا؟! إنما انتصر المسلمون لما انتصروا عندما كانوا يعيشون بأحلام الجنة، فكان أحدهم يأكل تمرات ويسمع قول رسول الله ﷺ بأن من قاتل من المسلمين مقبلاً غير مدبر فيقتل في ذلك، فإن موعده بذلك جنة عرضها السماوات والأرض، فيقول: بخ بخ، أأبقى حتى آكل هذه التمرات، فيستطيل المدة شوقاً إلى هذا الوعد فيلقي بالتمرات من يده، وينطلق إلى الجهاد ويقتل في سبيل الله[١] والله أعلم.

الخوف والرجاء

هل للإنسان أن يتفاءل في مصيره الأخروي كأن يتفاءل بدخوله الجنة أم أنّ التفاؤل فقط متعلّق بالدنيا؟

على الإنسان أن يكون خائفاً راجياً، لا بدّ من الخوف ولا بدّ من الرجاء، فلا يجوز له أن يأمن من مكر الله، فإنّ الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا يجوز له أن ييأس من روح الله، فالله ـ تعالى ـ يقول ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ومهما عمل من الصالحات عليه أن يستقلّ ذلك في جنب الله ـ تعالى ـ، فالله ـ تبارك وتعالى ـ حقّه عظيم، وعلى الإنسان أن يشعر بالتقصير دائماً، وإن شعر بأنه مطمئنّ إلى عمله فذلك غرور منه، ولا يغتر بعمله إلا الجاهل، وإذا كان النبي ﷺ يقول عن نفسه بأنه لا يدخله عمله الجنة إلا أن يتغمده الله بواسع رحمته[٢] فكيف بغيره ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ؟

---

(١) رواه مسلم (٣٥٢٠).

(٢) رواه الربيع (٧٣٦) والبخاري (٥٢٤١).

والعمل مهما كان صالحا على العبد أن لا يغتر به لأن له محبطات، من بين هذه المحبطات الرياء، فإنه إذا راءى في عمله فعمله لا يكون خالصاً لوجه الله، وكلّ أحد عليه أن يخشى من الرياء، وعليه أن يخشى من النفاق، وإذا كان الفاروق رضي الله تعالى عنه يستحلف بالله حذيفة رضي الله عنه صاحب سرّ رسول الله ﷺ الذي أخبره النبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ببعض المنافقين؛ يستحلفه عمر هل هو منهم أو لا؟ فكيف بغيره؟! كيف بنا نحن؟! ما لنا وللثقة بأنفسنا بأننا مبرءون من هذه الأوصاف القبيحة، علينا أن نكون خائفين من الله، ومع ذلك علينا أن نرجو رحمة الله، فالعبد يتعلّق برحمة الله، ولا يتعلّق بعمله، وإنما يرجو رحمة الله مع حرصه على إصلاح العمل.

والخشية من الله ـ تعالى ـ هي سبب الخير، فإنها تدفع إلى العمل الصالح وتصون النفس عن المعاصي، فالحقّ سبحانه وتعالى ناط الدعوة والتذكير بالخشية، فقد قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، ويقول عز وجل: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١٠-١١]، ويقول النبيّ ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»[(١)].

فلا بدّ من الخوف من الله مع كونه يرجو رحمة الله، والرجاء لرحمة الله لا يعني الأمن من مكره، والخوف من الله لا يعني اليأس من رحمته والله أعلم.

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٤).

كيف نوفق بين الرجاء والخوف؟

نوفق بين الرجاء والخوف بأن يتصور أحدنا أنه ماشٍ في طريقٍ، تفترق إلى اتجاهين أحدهما إلى ذات اليمين والآخر إلى ذات الشمال، ولا يدري إلى أيهما ينتهي به السير هل يوفق فيسلك ذات اليمين أو يخذل ـ والعياذ بالله ـ فيسلك ذات الشمال؟ فهو يرجو ويأمل أن يوفقه الله ﷻ لأن يسلك الطريق التي تؤدي به إلى رضوان الله، ويخشى كل الخشية أن يخذل فيسلك الطريق التي تؤدي به إلى سخط الله ﷻ، وإذا كان الإنسان في هذه الدنيا إذا وعده وتوعده حاكم من حكامها، قادر على إنفاذ وعده ووعيده فيه، فإنه يتقي ويحذر وعيده ويحرص على الفوز بوعده، ويبقى مشغولاً بما يتزاحم في نفسه من رجاء الوعد وخوف الوعيد، فكيف والواعد المتوعد هو الله ﷻ، الذي لا تبديل لكلماته ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا إخلاف لميعاده، فجدير بالإنسان أن يكون في هذا الموقف جامعا بين الخوف والرجاء، ثم لينظر الإنسان حاجته إلى النعيم، فمن منا لا يحتاج إلى الشربة الباردة، أو إلى الهواء الصافي، أو إلى الغذاء الطيب، وكلنا نخشى مما يؤذينا في هذه الحياة الدنيا، فكل منا يخشى حتى لسعة البعوض وقرصة النمل، فما بالكم والنعيم الموعود به هو نعيم الجنة، ومن منا لا يحتاج إلى الجنة التي أعدت للمتقين، ولا يبلغ تصور العبد وخياله إلى كنه ما أعده الله لهم فيها ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] تبشرهم ملائكته قبل دخولها بقولهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣١]، وإذا كان هذا هو وعد الله فإن وعيده إنما هو بعذاب النار ـ والعياذ بالله ـ وهولها لا يكتنه ولا يتصور، فمن الذي لا يكون ـ إذا راجع نفسه ـ موازنا بين خوفه ورجائه في مثل هذه الحالة والله أعلم.

مكانة الإسلام



النفس الإنسانية

هل هناك فرق بين الروح والنفس؟ إذا كان نعم فما هو؟

تكلم بعض العلماء الإسلاميين في الفرق بينها؛ وممن بسط القول في هذا الشيخ ناصر ابن أبي نبهان فقد تحدث عن الفرق بين الروح والنفس والعقل والقلب في نحو أربعين صفحة أو أكثر ولكني لا أستطيع ان أقول شيئاً لأن هذه الأمور تحتاج إلى استناد إلى أدلة واضحة والله أعلم.

ما معنَى النفس اللوَّامة؟

النفس اللوَّامة هي التي تَلُوم الإنسان على فِعْلِه السُّوء، لأنَّ النفُوس ثلاث:

نفسٌ مطمئِنَّة: وهذه نفس عاملَة بأَمر الله تتجنَّب مَحارِمَه وتتَّبِع أوامره.

ثُم النفس اللوَّامة: وهي التي إذا صَدَرَت مِن صاحبها هَفْوَة أخذت تَلُومُه على ما صَدَر منه حتى يتوب إلى الله.

والنفس الثالثة ـ والعياذ بالله ـ هي الأمَّارَة بالسوء والله أعلم.

الفطرة

في ظِلِّ مَا يُرَى مِن الوَاقِع الذي عليه المُسلِمون مِن تَأخُّرٍ في الجانب الاقتصادي والتقنِي والعلمي وفي ظِلِّ ما نَراهُ مِن تَشْوِيه لِلمُسْلِمين بِسُلُوكِيَّاتِهِم صُورة الإسلام والتَّشْوِيه المُسْتَهْدَف مِن قِبَل غير المسلمين للإسلام نفسه نَرَى خَطّاً آخَر في المقابل يُبَيِّن تَزَايُداً كَبيراً في انتِشَار دُخُول غَيْر المُسْلِمين في الإسلام بل نَرَى طَلَباً وَاسعاً على الإسْلام

ومَا كُتِبَ عن الإسْلام وربَّما بِيعَ في إحدى الدول الأوربية أربعون ألف نسخة من ترجَمَة الـمُصْحَف الشريف فبمَاذا تُفسِّرُون ذلك ؟

إنَّ الإنسان بِطَبْعِه يُحِسُّ بافْتِقَارٍ من أعماق نفسه إلى الاتِّصَال بِمُبْدِعِ هَذا الوجود ووَاجِبِ الوُجُود لِذَاتِه الذي أَخْرَج العَالَم مِن العَدم إلى الوجود، والذي له مُلْكُ السماوات والأرض وبِيَدِه تَصْرِيف الوُجُود كله.

ولا رَيب أنَّ الإنسان مُكَوَّن مِن رُوح وجسم وعقل وقلب ومَشَاعر بَاطِنة وظَاهِرة، ولِكُلٍّ مِن هذه مَطالب مُختلفة متنوِّعة، وقد جعل الله تعالى فيما شَرَع من الدِّين تَنسيقاً بين هذه الجوانب بِأَسْرها ومُعَادَلة بين الجانِب الرُّوحي والجانب الجسَدِي، وبين مَطَالِب القلب والعقل، والرُّوح والجسم، وبين جَميع جوانب هذه الحياة، وأَرْسَل الله تعالى رُسُله وأنزل كُتُبه من أجل هذه الـمُعادلة ومن أجل وَصْلِ الإنسان بِعَالَمِ الغَيْبِ، إذ عَقْلُه وَحْدَه لا يَكْفِيه لِذَلك لِمَا يُؤَثِّر عليه مِن الـمُؤثِّرَات الكثيرة في أَحْوَالٍ مُختَلِفَة.

والإنسان دائماً يشعُر بأنَّه مُفْتَقِرٌ إلى الدِّين، وكما يقُولُ بَعض من العلماء: «الدِّينُ ضَرُوري للسَّعَادة والنظام»، إذ بِدُون الدِّين لا يُمكن أن يكون هُناك نظام في هذه الحياة، وبدون الدِّين لا يُمكن أن تَكُون سَعَادة لِلنَّفس البشرِيَّة، ولكن أيُّ دِينٍ ذلك ؟

إن الله تعالى لم يكَلِ الناس إلى عُقُولِهم وأَفهَامِهم وتَضَارُب رُؤَاهُم لِهذه الحياة بل أَرسَل رُسُلَه وأنزل كُتُبه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ولَم يُرْسِل الله رُسُلَه بِعَقَائِد مُتَنَاقِضَة وأَفكار مُضطَربة وإنَّما أَرْسَلهم جَميعاً بِعقيدةٍ واحدة عقيدة التوحيد التي تَصِلُ العِباد بالله، ولذلك يقُول الله تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، ومع كَوْنِ هؤلاء الرُّسُل جميعاً كانوا يدْعُون إلى هذه العقيدة السَّوِيَّة التي تَصِلُ العباد بربِّهم وتربط ما بين الدنيا والآخرة وتصِلُ بين العمل وجزائِه وتصِلُ بين الفناء والخلود جَاء أولئك الرسل ـ أيضاً ـ بِعِلاجٍ لِمُشكلاتٍ مُتنوِّعة كانت تَرْزَحُ تَحتَهَا تِلْكُمُ الـمُجْتَمَعَات التي بُعِثَ فيها أولئك الـمُرْسَلُون كَمَا هو وَاضِح في قِصة شُعَيْب وقصة لوط عليهما السلام وغيرها من القَصَص، فإنَّ كُلَّ واحدٍ كان يعالِج مُشكلةً مُتَعَيِّنَة بِجَانِب مُعالَجَتِه لِمُشْكِلة العَقِيدة وبِجَانِب حِرْصِه على أن يكون الناس جَميعاً عَابِدِينَ لله سبحانه.

وبَعَث الله تعالى عبده ورسوله ﷺ بِرسالة مُهَيْمِنَة على الرِّسَالات السابقة ومُصدِّقة لَها، وقد جاءت دَعَوَات النَّبِيِّين مِن قبل تَوْطِئَة لِهَذه الرسالة وتَمْهيداً لَهَا، ولذلك أُخِذَ الـمِيثَاق عَلَيهم بِأَنْ يُؤْمِنُوا به:

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكۡمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِىۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

فرسالة النبي ﷺ جامِعَة لِمَا تَفَرَّق في الرسالات الأخرى، وهي تتناول جَميع مشكلات الحياة تَنَاوُلاً جذرياً عميقاً، وهي تغُوصُ في أعماق هذه الحياة سواءً ما يتعلَّق بالجانب الرُّوحِي أو ما يتعلَّق بالجانب المادي، وتُبَوِّئُ كل شَيءٍ مُبَوَّأَهُ، فهي استجابةٌ لِنِدَاءِ الفِطْرَة الذي يَتَجَلْجَلُ مِن أعماق النفس البشريَّة، ولذلك قال الله تعالى ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

والناس عندما تَتَقدَّمُ بِهِم الحياة بما يتجَدَّدُ فيها مِن تَطوُّرَات وما يَحدُث فِيهَا مِن اختلاف أَحْوَال البشر وانْتِقَالِهِم مِن وَضْعٍ إلى وَضْع تتَبَيَّنُ حاجتهم إلى الدِّين، بل العالَم بِأَسْرِه مَع هذه المَادِّية الطَّاغِية بِحَاجة إلى الدِّين، وليس هنالك دِين يسُدُّ حاجة الناس غير هذا الدين الذي بعَث الله به المُرسلين مِن قَبل، وأنزله على أَتَمِّ وُجُوهِهِ على عبده ورسوله مُحمد ﷺ لِيُقِيمَ حَياة الناس على منهج سويٍّ فيه استِجَابة لِمَطَالِبِ الحياة وإرضاءٌ لله تعالى، بِحَيث تكون الحياة بِأَسْرِهَا مُسخَّرَة لأمر الله، فَلِذَلك نرى الناس اليوم يَتَسَارَعُون إلى اعْتِنَاقِ هذا الدِّين، لأنَّ الحاجة المُلِحَّة في أعماق نُفُوسِهِم دَلَّتْهُم على الدِّين.

والناس بِفِطرتِهِم يُدْرِكُون ما في هذا الدِّين من خير وأن العدل الذي جاء به الإسلام لا يُسَاوِيهِ عَدْلٌ في الحياة وأنَّ حَلَّ المشكلات الفكرية أو العقلية في الإسلام لا يُوَازِيهِ حلٌّ آخر، فَلو أنَّ أحداً أَخذ يَعْرِض الفلسفات التي في الأَدْيَان الأخرى والمُعتَقَدات الأُخْرى على العَقل لَوَجَد أنَّه يَنْبُو عنها وهي تَنْبُو عنه ولا يُمكن أن يكون بينَهَا انْسِجام بينما ما جَاء به الإسلام الحنيف ينْسَجِمُ تَمَام الانسجام مع العقل.

فالعَقْلُ البَشرِي يَقُود الإنسان إلى هذا الخير، ولكنَّ تُؤثِّر عليه مُؤثِّرات بعضها بيئِيٌّ وبعضها نفسِي، ومَعَ اسْتِعْلاء الإنْسَان عَلَى هذه المُؤثِّرَات يَقُودُه العَقل إلى الخَيْر، فكان بِسَبب ذلك كل أحدٍ بِحاجة إلى أن يُعرَضَ عليه هذا الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، وأن يُعرَض عليه مَنْهَج القرآن، ولا ريب أن النفس البشرية تستجيب لِهَذا الأمر.

وقبل نحو ستين عاماً من الآن سافر أَحَدُ الناس إلى بَعضِ البلاد الغربية وكان في بَاخِرَة يُلْقِي دروساً على المسلمين وكانوا يَجتَمِعُون مِن حوله

وكانت الدروس التي يليقها تتعلَّق بالجوانب الدِّينِيَّة والفِكريَّة، وربَّما حَضَر هذه الدُّرُوس أو وقف معها بعضُ الناس مِن غير المسلمين، وفي يومٍ من الأيام وَقَفَت امرأة وأَصْغَت إلى الحديث الذي يتحَدَّث بِه الرجل، وهي امرأَة غَربِيَّة لا تُحْسِن شيئاً من العربية وكان الدَّرس باللُّغة العربية وفيه شَواهِدِ مِن آيات الله ـ تعالى ـ فقالت للرَّجُل بأَنَّنِي سَمِعْتُ كلامك ولكن كان يَتَخَلَّلُه كلامٌ آخَر يَختلِفُ فيما تَبَيَّنَ لِي عَنْ كَلامك إذ له رُوح غير الرُّوح التي في كَلامك، فَرَدَّ عَلَيها بأَنَّ ذلك هو كلام الله الذي اسْتَشْهِدُ به.

فَتَرَى أن أولئك هَدَتْهُمُ الفِطرة إلى أنَّ هذا القرآن فيه رُوح لَيست في بَقِيَّة الكلام العربِي وإن كانت الكلمات هي الكلمات والحروف هي الحروف والجُمَل هي الجُمَل، ولَكِن مع ذلك يَتفاوَتُ القرآن عن غَيْرِه، لأنَّ أسلُوب القرآن لا يَرقَى إليه أيُّ أسلوبٍ آخر، فإذن الفطرة هَدَتْهُم إلى هذا.

ولا رَيب أنَّ الإنسان يُدْرِك أنَّه يَختَلِف عن الكائنات المُختَلِفَة المَوجُودَة في هذه الأرض، إذ تُشَارِكُه كائنات متعدِّدَة الوُجُود في هذه الأرض والحياة عليها، فهُناك مِن الحيوانات ما هو أَطْوَل عُمُراً من الإنسان، وهناك ما هو أَقْوَى جِسماً منه، وهناك ما هو أَشْجَع منه، ولكن مع ذلك كُلِّه يتميَّزُ الإنسان عليها بِما آتاه الله من هذه النَّفْخَة الغَيْبِيَّة وهذا السِّر الإلَهِي الذي أُودِعَ في تَكوِينِه وهو العَقْل، ذلك السِّر الذي تَمكَّن بِه مِن تَسخِير بَقِيَّة الكائنات الأُخرى لِمَصلَحَتِه، ولَم تتمكَّن هي مِن تَسخِيره لِمَصلَحَتها، فنجد أنَّ مِن الحيوانات ما يَفُوقُ الإنسان في قُوَّة جسمه وطُولِ عُمُره وجُرْأَتِه ومِن هذه الحيوانات ما يُسَخِّرُه الإنسان لِمَصلحته، بينما أيٌّ منها لَم يتمكَّن من أن يُسخِّر الإنسان لِمَصْلَحَتِه، فوُجُودُ الإنسان يَختلِف عن وُجُود بقية الكائنات، فلِمَاذا مُيِّزَ بِهَذِه النَّفْخَة الغَيْبِيَّة وبِهذَا السِّر الإلَهِي ؟!

إنَّما هذا التَّمْيِيز لأنَّه يتحمَّل مسؤُوليَّة عظيمة فوُجُودُه يَختلف عن وُجُودِ بَقِيَّةِ الكائنات الأخرى، وُجُودُه في هذه الأرض وُجُودُ سِيَادَة وخِلافَة، فهو من ناحية سيِّدٌ في هذا الكون بِما آتاه الله تعالى مِن التَّمْكِين فيه وبِمَا سَخَّر له من مَوْجُودَاته، ومن ناحية أخرى هو خليفة في هذه الأرض مسؤُولٌ عن عِمارتِها بِكَلمة الله، والخليفة ليس لَهُ أن يتَصَرَّف فيما استُخْلِفَ فيه إلا بِإِذْنٍ مِن مُسْتَخْلِفِه، فَلذلك كان الإنسان بِحَاجَة إلى نِظامٍ يَسِيرُ عليه في هذه الحياة، هذا النِّظام هو الدِّين.

ثُم إنَّنَا نَجِد أنَّ البَشَر جعلهم الله تعالى مُجتَمَعات، فقَد يكون هنالك مُجتَمَع يَتميَّز على بقِيَّة المُجتَمَعات بِسِيَادةٍ وبنظامٍ وبِقانون، فكُلُّ حَاكِم يَحكُم مُجتمعه بِحَسب ما يتَرَاءَى له مِنَ النظام الأَمْثَل الذي يَتَّفِق ويَنْسَجِم حَسْبَ مَا يَرَى مع ذلك المُجتمع الذي يَحكُمُه، ولا يُمكن لِحَاكم أن يُهْمِلَ شَعْبَه أو أن يُهْمِل الأرض التي يَحكمها بِحيث لا يَجعل القانون سَيِّداً يَحكُم فيها، فَلَئِن كان هذا بالنسبة إلى الحُكَّام الذين هم من البشر فَكَيف بالحاكم الأَعْظم الذي له الوُجُود بِأَسْرِه الذي لَه السَّماوات والأرض ومَن فِيهن ومَا فيهن ؟! ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] فلا يُمكِن أن يُهمِل مَمْلَكَته مِن غير أن يكون هنالك نِظام يَحكُمُها ؟! والإنسان بِمَا أنَّه مُستَخْلَفٌ في الأرض وهو مُركَّب مِن عقلٍ وشهوةٍ تَتَنازَعه وتتجَاذَبه دَوافِع وَجَوَاذِب مِن عقله وشَهْوته ورَغَباته ونَزَوَاته ولا بُدَّ مِن أن يكون لهذا الإنسان نِظام رَبَّانِي يَحكُمُه في هَذِهِ الأرض ويُوَجِّهُه الوِجْهَة المَرْضِيَّة ولا يُمْكِن أن يُوكَل إلى عقْلِه وغَرَائِزِه وإرادته بِنَفسه.

والذين يستَجِيبُون لِهَذَا الدِّين إنَّمَا يَستجِيبُون لِهذه الفطرة التي تدفعهم إلى البحث عن النظام الإلَهي الذي يُسْعِدُ الإنسان، وأَنَّى للإنسان أن يَجِدَ هذا

النظام في غير دين الله تعالى، فنَحنُ لو جِئْنَا إلى العالَم الـمَادِّي نَجد بِأنَّه قبل بَعْثِ النبِي ﷺ كانت هنالك فلسَـفَات في الأرض، ولكن هذه الفلسفات لَم تُجْدِ الإنسانية شـيئاً، بل الحضارات التِي كانت قائِمَة في هذه الأرض كانت عَلى حِسـاب مَصلَحة البشـر، لأنَّهَا كانت تُمَكِّن للبَعْضِ من الكُلّ، وتُسَخِّر الـجَمَاهِيـر للأفراد مِن غير أن يكـون هنالك رَادِع مِن إيـمـان أو مِن دِين، فَلِذلك كانت الضـرورة داعِيَّة إلى الدِّين، وهَكَذا نَجِـد الحضارة الـمُعَاصِرَة بِـدُونِ وَازِعٍ دِينِي مَيِّتة، ولننظر إلى هذه الحضارة كيف دَفَعَت الإنسـان إلى الفَتْكِ بالإنسـان والانْتِقَام منه وتَدْمِير الحياة الإنسـانية والعُدْوَان عليها في الأرض، ومَعنَى ذلك أنَّ الدِّين وَحدَه هو الذي يُهَيِّئُ الـمَنَاخ الـمُلائِمَ للبشر حتى يكُونُوا إِخْوَة في ذَاتِ الله تعالى متساوية أقدامُهُم بين يَدَيْهِ، لا يتفاضَلُون إلا بِقَدْرِ ما يَقْتَرِبُون من الله تعالى بالعمل الصالِح والتَّقوى والله أعلم.

هل الفطرة دائماً تدرك الحقيقة ؟

لا، الفطرة لا تدرك الحقيقة دائماً، لأن الفطرة محدودة، ثم بجانب ذلك تتكدر بمكدرات وتتأثر بمؤثرات تحول بينها وبين انطباع الحقائق فيها على ما هي عليـه، ولذلك جاء الديـن بصقل هذه الفطـرة لتصفيتها من الأكدار وتخليصها مما لحق بها من الآثار والله أعلم.

الوسواس

ما حقيقة الوسواس؟

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالوَسواس والوِسواس بالفتح والكسر مصدر وَسْوَسَ يُوسْوِسُ، كما يقال زَلْزَلَ يُزَلْزِلُ زَلزالاً وزِلزالاً، وهكذا كل ما كان على هذا الوزن فإنه يأتي الفتح والكسر في فاء كلمته.

ووسوسة الإنسان هو أن يفكّر تفكيراً يؤدي به إلى أن يفقد الاتزان في التفكير؛ بحيث ينعدم ضبط هذا الفكر عنده إلى أن يتصور تصورات باطلة، ويصل به الأمر إلى أن يعتقد الحق باطلاً أو الباطل حقّاً، أو أن يشكّ في أمر لا يقتضي الشك، فكل ذلك من الوسواس الذي يجب على الإنسان أن يستعيذ بالله تعالى منه.

على أن الوسواس قد يطلق أيضاً نفسه على الشيطان الذي يوسوس للإنسان والعياذ بالله؛ لأنه مصدر هذه الوسوسة، فالإنسان مطالب بأن يستعيذ بالله ـ تبارك وتعالى ـ من شرّ هذه الوسوسة التي تكون من الشيطان للإنسان بتزيين الباطل له وتحبيبه إليه، وتقبيح الحقّ في عينه وإبغاضه إليه، وقد أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ بالاستعاذة منه في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١] ويقول ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]:

وقد أنزل الله تعالى سورة بأسرها، تدل على ضرورة التعلّق بالله ـ تبارك وتعالى ـ واللجوء إليه فراراً من هذا الذي يزيّنه الشيطان في نفس الإنسان أو يثيره في نفسه من الشكوك والأوهام حتى يكون هذا الإنسان أسير وهمه، أنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ سورة تنبئ الإنسان بضرورة اللجوء إلى الله فراراً من هذه المكائد الشيطانية، فقد قال عز من قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [سورة الناس]:

فعلى الإنسان دائماً أن يكون ملتجئاً إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ.

أما بالنسبة إلى الشعور بالتقصير في أداء الطاعات والقيام بالواجبات فهذا مما يجب أن يكون في خلد الإنسان دائماً، إذ الإنسان مهما قام بالحقوق الواجبة عليه، واضطلع بالأمانة الملقاة على عاتقه فإن التقصير ديدنه، إذ لا يستطيع إنسان قط أن يوفي حق الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولذلك نجد في كتاب الله ﷻ ما يدلّ على أن المؤمنين الصالحين يفعلون ما يفعلون من خير، ويسارعون إلى الطاعات ويتجنبون المعاصي، ولكن مع ذلك تبقى نفوسهم في خوف من الله ـ تبارك وتعالى ـ، فالله ﷻ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠ - ٦١]، فهؤلاء مع كونهم يعملون الصالحات، ويُؤتون ما آتوا من أموالهم طيبة بذلك نفوسهم، فإن قلوبهم تظلّ وجلة من خشية الله ـ تبارك وتعالى ـ، شاعرة بالمنقلب إليه ﷻ، وهم بهذا الوجل والخوف من الله ﷻ يزدادون قرباً إليه، ومسارعة إلى طاعاته، وابتعاداً عن معاصيه، ولذلك كانوا دائماً يسارعون في الخيرات كما قال سبحانه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١] هذا؛ ومن المعلوم أن الإنسان ضعيف أمام عواصف الأفكار المختلفة التي تلمّ به، وأمام التحديات المتنوعة التي يواجهها، وأمام تقلبات الأحوال من حوله بحيث قد يكون في نعمة فينقلب إلى ضدها، وقد يكون في أمر يحبه فإذا هو يصادف ما يكره، وهكذا تحديات الزمن وصروف الدهر، فالإنسان إذاً عرضة لهذه التقلبات، ولكن مع ذلك فإن المؤمن الواثق بالله ـ تبارك وتعالى ـ يلجأ إلى الله ويتوكل عليه.

والله ـ تبارك وتعالى ـ لم يكلّف الناس عسيراً، إنما كلّفهم يسيراً، ووعدهم خيراً كثيراً وأجراً كبيراً، وهو ﷻ ما جعل عليهم في الدين من حرج، فقد قال تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهو ﷻ بيّن أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، حيث قال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فطبيعة الإنسان أن تكون نفسه عرضة للكثير من التقلبات، ولكن المؤمن مهما واجه من هذه الظروف والأحوال والتقلبات، ومهما كان من طبيعة نفسه بسبب ما يلقاه من شدة أو عكسها إلا أنه دائماً يكون موصولاً بربه كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، هكذا شأن المتقين، فلذلك مهما ألمّت بهم الوساوس فإنهم يقاومون هذه الوسوسة، ويستعيذون بالله ـ تبارك وتعالى ـ من الشيطان الرجيم، ويستعيذون بالله ﷻ مما يلمّ بهم، فتصبح الصورة واضحة، والحقيقة بيّنة، ويتغلّبون على هذه العوارض كلها والله أعلم.

الوسواس هل هو مرض عضوي أم هو فقط مجرد وسوسة شيطانية؟

هو ضعف في النفس والعياذ بالله، ولا ريب أنه مرض، يستغله الشيطان، إذ يُزيِّن لأصحاب هذه الأمراض الاسترسال في هذه الحالة إلى أن يصبح الإنسان أسير هذه العادة السيئة والله أعلم.

امرأة مصابة بالوسواس القهري، وهذا الوسواس يجعلها تشك في الصلاة وتوسوس ولا تدري هل صلت أم لم تصلِّ، وقال لها من قال بأنَّ لها أن تجمع الصلاة؛ لأنها لا تستطيع حتى الخروج من البيت لأنها تخشى أن تفوتها الصلاة، فهل لها أن تجمع الصلاتين؟

كل ما كان مُحرجاً للإنسان يسوّغ له أن يجمع بسببه الصلاتين،

والمرض من جملة الإحراج، فالنبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح صلى الظهر والعصر معاً، والمغرب والعشاء الآخرة معاً، من غير خوف ولا سفر، ولا سحاب ولا مطر[١]. وقد جاء في رواية الشيخين وغيرهما لهذا الحديث أن راويه ابن عباس رضي الله عنهما سُئل: ما أراد بذلك؟ قال: أراد أن لا يحرج أمته. ومعنى ذلك أن أوقات الحرج يسوغ فيها للإنسان أن يجمع الصلاتين دفعاً لهذا الحرج، ولا ريب أن مثل هذا المرض مرض الوسوسة حرج كبير، فما على هذه المرأة أن تصلي بمشيئة الله الظهر والعصر معاً، وأن تجمع أيضاً بين المغرب والعشاء معاً، جمعاً من غير قصر، إلا إذا كانت في حال السفر فلتقصر، والله تعالى يتقبل منها والله أعلم.

هل للوسواس أنواع؟ وما هي أعراض كل منها؟

لا نستطيع أن نحصي جميع أنواعه، فالوساوس تختلف باختلاف أحوال الناس، من الناس من يشكّ في الناس بحيث يظن أنّ كل الناس يضمرون له الشر، فإذا أبصر اثنين يتحدثان وقع في نفسه أنهما يريدان الوقيعة به، وإذا خطا أحدهم خطوة تصوّر أن تلك الخطوة هي ضده، وإذا كلّمه أحد كلاماً حسناً جميلاً تصوّر أنه يضمر خلافه، هذه طبيعة توجد في الناس، وهي سوء الظن، وهذه من الوسوسة الشيطانية التي تدعو إلى سوء الظن ونظر السوء إلى الناس، وهذا مما دعا القرآن الكريم إلى تجنّبه، فالله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، ونجد أن الحديث الشريف يقول: «إياك والظنّ؛

(١) رواه الربيع (٢٥١) والبخاري ومسلم (١١٤٧).

فإنّ الظن أكذب الحديث»[١]؛ أي سوء الظن أكذب ما يتلقاه الإنسان، قد يظنّ الظنون بغيره ويفضي به سوء الظن إلى أمور تؤدي به إلى عواقب خطيرة جداً كما يقول الشاعر:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مُظلِمِ

فالإنسان كثيراً ما يوقعه سوء الظنّ في ضروب من المحن وأنواع من الفساد، وهو ينشأ عن وسوسة الشيطان؛ لأنّه يُخيّل إليه أنّ كلّ أحد يضمر له الشرّ، والحقيقة خلاف ذلك.

وقد تكون هذه الوسوسة فيما يتعلّق بأداء الواجبات، فكثيراً ما تكون الوسوسة في الطهارة بحيث يشك الإنسان في طهارته، ويتصوّر أنه لم يقم بالواجب في تطهيره نفسه، ويتصوّر دائماً أنه متلبِّس بالنجاسات، فيحرص على أن يغسل جسده، وثيابه، وفراشه، وأن يغسل كلّ شيء من حوله، فالإسلام قطع دابر ذلك إذ جعل الأمور محمولة على أصلها، والأصل في الأشياء الطهارة، وكذلك قد يكون الإنسان شاكّاً في الطهارة من الحدث بحيث يرى أنه لو قام بما قام لم يوفِ الطهارة حقّها، فيتوضأ المرات الكثيرة، ويغتسل الغسل الواجب مكرّراً له المرة بعد الأخرى وهو يرى أنه لم يوف الطهارة حقها، وهذا أيضاً مما قطع الإسلام دابره، فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنّ لبدء الوضوء شيطاناً يسمى الولهان، يولع الناس بالإسراف في استعمال الماء[٢]، وقد يتصور الإنسان في كل حين أنه أحدث، وأنّ وضوءه انتقض، وما هذه إلا وسوسة، وقد دلّ الحديث

(١) رواه الربيع (٦٩٨) والبخاري (٥٦٠٤) ومسلم (٤٦٤٦).
(٢) رواه الإمام الربيع (١٢٩).

الشـــريف على معالجة ذلك بحمل الشـــيء على أصله، ففي الحديث عن النبي ﷺ النهي عن أن ينفلت الإنسان من صلاته إذا شكّ في الحدث حتى يسمع صوتاً أو يشمّ ريحاً[١]، وهكذا كل ما كان من هذا القبيل، فإنّ الإسلام الحنيف جعل له علاجاً.

وقد تكون الوسوسة أيضاً في صلاة الإنسان بحيث يشكّ، وهذا أمر قُطِع دابره بعـــدم العودة إلى الركن بعد أن جاوز محلّه، فإذا تجاوز الإنســـان حدّاً من حدود الصلاة، ثمّ شـــكّ هل فعل ذلك الشـــي أم لم يفعله؛ فإنّه لا يعود إليه بعدما جاوزه بحدٍّ، وهكذا كلّ ما كان من هذا القبيل، فالشك يُقطَع دابره باليقين، وذلك باســـتصحاب الأصل، بعدم الالتفات إلى هذه الشـــكوك بعد مجاوزة أماكنها، والله تعالى أعلم.

أَلا يقع هذا الموســـوس ـ أيضاً ـ في الحرام، فمثلا عندما يتوضَّأ يكرر الوضوء عدة مرات ولربَّما يســـتمر في وضوئه لِنصف ســـاعة.. وكذلك عندما يغتسل من الجنابة ربَّما يستمر ساعة كاملة لأَجل هذه الوسوسة، ففِعْله هذا ألا يُوقِعُه في مَحْظور كالإسراف في المياه؟

يُوقِعُه في أكثر من مَحظور، يوقعه في الإسراف والإسراف مُحَرَّم، والماء ثَرْوَة للجميع لا يَختَصُّ به أحد دون أحد، ولذلك كان الناس شُركاء في ثلاثة ومن بينها الماء، فما يَفْضُلُ عن حاجة الإنســـان ينتفع بـــه غيره، ولا ينبغي للإنسان أن يسرف في اســـتعمال الماء، وإنَّما يأخذ من الماء كفايته، على أنَّ في كثير من الأقطار كقُطرنا هذا المياه قليلة شـــحيحة، فعندما يُكْثِر الإنسان من صَبِّ الماء سواءً في غســـله من الجنابة أو غسل المرأة مِن الحيض مثلاً

(١) رواه الإمام الربيع (١٠٦) والبخاري (١٣٤).

أو في حال الوضوء أو في حال تغسيل الثياب أو أي شيء من هذا النوع فإنَّ ذلك مِمَّا يُعَدُّ مِن الإسراف غير الجائز، والوسوسة تدفع الإنسان إلى أن يُولَعَ بالإسراف حتى لا يُبالي، وهذا مِما يَجب أن يتفطَّنَ له الإنسان وأن يتَجَنَّبَه، كذلك من المَحَاذِير والمَحَاظِير التي تترتَّب على الوسواس أن الإنسان يتوضأ ثُم يشك في وضوئه، ثُم يتوضأ ثم يشك في وضوئه وقد تفوته صلاة الجماعة، بل ربَّما فاته الوقت بِحيث يستمر استمراراً طويلاً، ولذلك الفقهاء رأوا علاج مثل هذه الأشياء بأن يُحْمَل هؤلاء المَوَسْوِسُون على الأخذ بأرخص الأقوال، حتى يتجنَّبوا هذه الوسوسة ويتمكنوا من علاجها ومقاومتها والله أعلم.

امرأة تعيد الصلاة أكثر من مرة وحاولت التخلص من ذلك، وكذلك عندما تقرأ الفاتحة تقرأها أكثر من مرة، وعندما تسمع صوتاً وهي في الصلاة توسوس وتعيد الصلاة مرة أخرى، فما هو علاجها؟

عليها أولاً أن تتفقّه في الدين بحيث تعرف أنّ العمل إذا دخله الإنسان ليس له أن يبطله؛ لأنّ إبطال العمل منهي عنه بنصّ القرآن الكريم، فالله ـ تبارك وتعالى ـ يقول ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ولذلك كان الخروج من الصلاة بعد الدخول فيها من غير موجب للخروج أمراً محرماً، فلا يجوز للإنسان أن يُقدِم عليه لما في ذلك من التشديد في حكم الله ﷻ.

ثم من ناحية ثانية تكرار الفاتحة الشريفة أمر غير جائز، بل تكرار الفاتحة في الركعة الواحدة مبطل للصلاة؛ لأنّ الفاتحة ركن، والركن إنما يقتصر الإنسان في حال تأديته على التأدية المشروعة من غير أن يزيد شيئاً عليها، فلا يجوز للإنسان أن يزيد شيئاً على الركن المشروع بتكراره ولا يتكرر

شيء منه، فكما لا يجوز له أن يكرِّر الركوع في الركعة الواحدة بحيث يركع مرتين أو ثلاث مرات، وإنما يقتصر على القدر المشروع وهو مرة واحدة؛ فكذلك الفاتحة لا يجوز أن يكرّرها بحيث يقرأها المرة تلو المرة في الركعة الواحدة، فإن هذا أمر مؤدٍ إلى بطلان الصلاة.

فعليها أن تتغلب على هذه الوساوس، وأن تستعين بالله وأن تكثر من ذكر الله ﷻ، وقبل قيامها إلى الصلاة لتقرأ آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوّذتين، ولتستعذ بالله ﷻ من الشيطان الرجيم، ولتقرأ هاتين الآيتين من آخر سورة الأعراف:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠١].

ولتقبل على الصلاة بإرادة وبصمود بحيث لا تزعزعها الأحداث، ثم بجانب هذا عليها أن لا تبالي بالأصوات التي تسمعها، فإنها لا يعنيها من تلك الأصوات شيء، فلو أنها سمعت صوت طفل أو صوت صغير أو صوت كبير فلا يشغلنها ذلك عن الصلاة، ولو حصل أن اشتغلت فعليها أن تتجاوز ذلك حتى تعتاد عدم الاشتغال بذلك؛ لأنها لو أبطلت الصلاة كلما سمعت صوتاً فإن ذلك يتسارع في صلاتها حتى لا تستطيع أن تقرأ شيئاً من الصلاة قبل أن تبطلها، وإنما عليها أن تستمر مهما كانت هذه الأصوات، وبهذا تتغلب إن شاء الله على هذه العادة الخطرة، والله تعالى الموفق والله أعلم.

رجل عنده وسواس شديد، عندما يصلي في المسجد مع الجماعة يأتيه الشيطان فيوسوس له بأنه سيموت الآن، أو سيصاب بالجنون، وهذا الأمر لا يجعله خاشعاً في الصلاة، وربما يدفعه في بعض الأحيان إلى

أن يخرج من الصلاة، وعندما يصلي في البيت لا يحدث له هذا الأمر، فما هو العلاج؟

نسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ له العافية والصحة وزوال البأساء والضراء، ومع ذلك نرجو منه أولاً أن يكابر هذه الأوهام والشكوك، وأن يتغلب عليها بتقوية إرادته، فإن هذه الشكوك إنما تقوى على الإنسان عندما تضعف إرادته، ثم بجانب ذلك عليه أن يلجأ إلى الله، وأن يكثر من ذكر الله ﷻ في الصلاة وخارج الصلاة، فالله تعالى يقول:

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فبذكر الله يطمئن قلبه، وقبل أن يقوم إلى الصلاة ليذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ، وليستعذ به من الشيطان الرجيم، وليتلُ ما أمكنه من الآيات المعوذة كسورة الفاتحة الشريفة وآية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين، وليكثر من قول لا إلٰه إلا الله فإنها كلمة الإخلاص، وكلمة الإخلاص تدفع الوسوسة، وهكذا كل ما كان من هذا القبيل، ليكثر من ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ، والله ﷻ ينزل السكينة على قلبه، وليكثر من الدعاء بإخلاص مع اليقين بالإجابة، فإنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] والله أعلم.

هل الذي يوسوس هو الشيطان أم النفس؟

القرآن الكريم يدل على أنّ الشيطان له أثر إلا أن النفس بسبب ضعفها يتمكن الشيطان من السيطرة عليها، فالنفس تضعف، وهذا الضعف قد يكون بسبب تأثيرات من الشيطان نفسه؛ لأنه يخيّل للإنسان خيالات، وإذا بهذه النفس تضعف شيئاً فشيئاً، وهو يستغل هذا الضعف، والله ـ تبارك وتعالى ـ يقول:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الاعراف: ٢٠٠-٢٠١]

وقد دلّ القرآن الكريم أيضاً على أنّ الوسوسة تكون من الشيطان، قال تعالى:

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [سورة الناس] فالإنسان مطالب بأن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، وفي هذه الاستعاذة ما يدفع هذه الوسوسة إن شاء الله والله أعلم.

ما هو واجب الأسرة والمجتمع في مساعدة المريض بالوسواس؟

الأسرة والمجتمع لهما أثر كبير في إعطاء المريض دفعة إيمانية؛ بحيث يقال له بأنّ شخصيته شخصية قوية، ولا ينبغي أن يضعف أمام هذه العاصفة من هذه الوسوسة، بل يجب عليه أن يصمد ويقوى ويدفع ما يطرأ لنفسه من أسباب الضعف.

فإن المرض النفسي يعالج بمثل هذا العلاج النفسي، وقد يقوى الإنسان على مقاومة هذه الوساوس عندما يكون هنالك علاج نفسي، فقد سمعت بأن رجلاً من الناس كان دائماً يُخيّل إليه أن في رأسه مسماراً من الحديد، وكان دائم الصراخ والعويل، يقول بأنّه يحسّ بوجع شديد بسبب وجود هذا المسمار الحديدي في رأسه، ويذهب إلى الأطباء، والأطباء يقولون له لا يوجد فيك شيء، ويطلب منهم أن يعرضوه على الأشعة حتى يكتشفوا هذا المسمار، ويردون عليه بأنّ الأشعة دلّت على أنّ رأسه خالٍ من كلّ شيء، ولكن مع ذلك كانت هذه الوسوسة ملازمة له، كان ذلك داءً مكيناً سيطر على عقله وفكره فما كان يصدق أبداً مقالة طبيب، ويقول بأن هؤلاء

الأطباء جميعاً لا يعرفون شيئا، إلى أن جاء إلى طبيب وعرف حقيقة أمره، فقال له: نعم المسمار موجود، وإن شاء الله سوف أخرجه، فخدره فنام، ثمّ شطبه قليلاً وضمّده، ثمّ ذبح ديكاً، وأتى بمسمار فطلاه بالدم، ثمّ قال له: انتزعنا المسمار وهذا هو، فاطمأنت نفسه وسكنت، وزال عنه كلّ ما يشكو، وبعد حين قال له أحد بأن الطبيب إنما فعل كذا، فعندئذ قال: ولذلك أنا لا أزال أحسّ بالوجع، وأخذ يصرخ مرة أخرى، ويردّد ما كان يقوله من قبل، فإذاً المجتمع عليه أن يكون حكيماً في معالجة مثل هذه الأمراض، وكذلك الأسرة، والله تعالى الموفق، والله أعلم.

هل هناك رابط بَيْن الوسواس وبين عصيان الإنسان لله تعالى بحيث يكون هذا الوسواس عِقاباً له؟

قد يكون ذلك فالله ـ تعالى ـ يبتلي مَن يشاء بِما يشاء، ويعاقِب مَن يشاء بِما يشاء، الأمر أمره سبحانه، وعندما يتعرَّض الإنسان لأي ضيق في هذه الحياة عليه أن يُحاسِب نفسه، فإنَّه قد تَضِيق نفس الإنسان بسبب معصية ارتكبها، والأدلة مِن القرآن الكريم شاهدة على ذلك:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فهكذا يُبتلى الإنسان بسبب معصيته التي يرتكبها، وجدير بالإنسان أن يُحاسب نفسه كثيرا والله أعلم.

هل معنى هذا أنَّ الوسواس يعمل في اتِّجاهين قد يكون عقاباً للإنسان وقد يكون اختباراً له؟

نعم والله أعلم.

محاسبة النفس

ما هو برنامج المحاسبة الذي تقترحونه على الإنسان كي يجعل نفسه دائما في حالة نقص وتقصير؟

الإنسان عليه أن يستشعر أَوَّلاً عظم حق الله ـ تعالى ـ عليه، لأنَّ الله خلقه مِن عدم وهو ملك لله تبارك وتعالى، وقد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فمَنَّ عليه بِهذه الحياة، ومَنَّ عليه بِما تزخر به الحياة مِن نعم.

ولو أنَّ الإنسان أَمَدَّ الله ـ تعالى ـ في عمره وعاش عمر نوح وقضى حياته كلها مِن أَوَّل عمره إلى آخر عمره في شُكر أَدْنَى نعمة مِن هذه النعم لَما وفى بشكرها، فكيف بعظام هذه النعم.

كيف لو أنَّ هذا الإنسان انقطع عنه النفس، ولو ارتفع الأكسجين الذي جعله الله تعالى في هذا الجو الذي يعيش فيه الإنسان وضاق به الخناق، كيف تكون حالته، فالله ـ تعالى ـ مَنَّ عليه بِهذا النفس الذي يتنفسه، وأوجد في نفسه جهاز التنفس، ثم مع ذلك هيأ له هذا الجو الطيب اللطيف الذي يستنشق منه الأكسجين في نومه وفي يقظته في حركته وفي سكونه، في ذكره وفي غفلته، في فرحه وفي ترحه وفي جميع أحواله.

ولو أنَّه انقطع عن الإنسان وكانت الدنيا كلها بيده فإنَّه يبذل هذه الدنيا مِن أجل هذا الأكسجين.

كما هيأ الله ـ تعالى ـ له الغذاء والشراب: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ١٧ - ٣٢] بأي قدرة يُمكن للإنسان أن يفعل ذلك لو أنَّ الله تعالى أمسك قطر سَمائه أو أمسك نبات أرضه وكيف يُمكنه أن يستخرج النبات أو يستنزل الماء.

ولو أنَّ الماء لَم توجد فيه خاصية الإنبات، والأرض لَم توجد فيها خاصية النبات كيف كان الأمر؟

ثم إنَّ الإنسان لو لَم يهيئ له الحق سبحانه جهاز الهضم بأي وسيلة كان يُمكن أن يستمرئ الطعام؟

كل ذلك مِمَّا يدعو الإنسان إلى أن يفكر في أمره، وأن يذكر حق الله تعالى عليه.

ثم إنَّ الله أمره بواجبات ونَهاه عن مناه، أمره بأن يعبده حق عبادته، وأن يطيعه في سره وعلانيته فعليه أن يحاسب نفسه في هذه العبادة، وفي هذه الطاعة، وفي امتثال أوامر الله وفي الازدجار عن نواهيه؛ والله ـ تعالى ـ المستعان.

بما أن الله ﷻ يعلم خفايا البشر، فهو يعلم نوايا القلب. فهل الله سبحانه يحاسبُ الناس ويثيب ويعاقب على نية الإنسان، وإن لم يَقُلْهَا؟

يقول الله تعالى في معرِض التحذير لنا: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وإنما من فضل الله على عباده أن من نوى حسنة ثم لم يعملها لسبب من الأسباب يكتبها الله تعالى له حسنة، والذي ينوي سيئة ثم يتراجع عن ارتكابها خوفاً من الله ﷻ فإن الله ﷻ يتجاوز عنها، وأما الفجرة الذين ينوون في قرارة نفوسهم الفجور فإنهم مجزيون بنواياهم الخبيثة، فإنهم لا يصدهم عن فجورهم إلّا العجز عن ممارسته والله أعلم.

خلق الإنسان

يبين الحديث أن الجنين إذا بلغ أربعة أشهر أرسل الله إليه ملكاً يكتب رزقه وعمله وقد اكتشف أن الجنين في هذه الفترة تظهر خطوط في جبينه ثم تتغطى بطبقة دهنية فهل تلك الخطوط هي كتابة ملك أم لا؟

الله أعلم، إن الله على كل شيء قدير.

ما معنى قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]؟

معنى ذلك أنَّ خلق الله ﷻ للناس جميعاً كخلقه لنفسٍ واحدةٍ. فإن الله ﷻ يسيرٌ عنده كل شيء، ليس فعله بتكلف ولا بمحاولة ومزاولة كفعل المخلوق، فخلق جميع الخلق جميعاً بقدرته تعالى المحيطة بكل شيء كخلق نفس واحدة، وبعث جميع الخلق كلهم أجمعين كبعث نفس واحدة من غير فرق والله أعلم.

كثيراً ما نسمع أو نقرأ عن ولادة إنسان بلا رأس أو برأسين، أو ولادة طفلين متلاصقين أو ما شابه ذلك من العجائب، السؤال ما هو رأي الإسلام في ذلك، وإلى أي مدى يمكننا أن نتوصل من خلال ذلك إلى قدرة الله في خلقه؟

قدرة الله ظاهرة في كل شيء، إنما هذا يكون أحياناً بتلاصق التوائم، إذ يخلق الله ﷻ توأمين متلاصقين ليس بينهما فكاك، وكذا الحال بالنسبة لإنسان برأسين، فهذا ـ فيما يظهر ـ توأم لم يكتمل، وكذلك أن يكون المولود لا رأس له، فهو مخلوق غير مكتمل، ولله ﷻ في خلقه شؤون، يخلق ما يشاء ويختار، وإنما يصنع ذلك لأجل العبرة والموعظة، لنعلم أن الله ﷻ أكمل خلقنا بفضله

وبمنته، وعلى الذي يولد له مولود كامل الخلقة أن يشكر الله على هذه النعمة، فيثاب على هذا الشكر، وعلى الذي يولد له مولود بهذه الكيفية الشاذة أن يصبر على هذا البلاء، فيثاب على هذا الصبر، والله أعلم.

ما معنى قوله تعالى ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦]؟

هذا القول حكاه الله ﷻ عن امرأة صالحة من نساء بني اسرائيل، وهي امرأة عمران التي هي أم مريم عليها السلام، وهي التي نذرت ما في بطنها محرراً، فلما وضعتها أنثى قالت ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦]، تعتذر بذلك، لأن الله ﷻ جعل الأنثى من ناحية التكوين تختلف عن الذكر، والذكر من ناحية التكوين يختلف عن الأنثى، وكذلك الأعمال التي نيطت بالأنثى غير الأعمال التي نيطت بالذكر، والأعمال التي نيطت بالذكر ليست كالأعمال التي نيطت بالأنثى، فلكل واحد خصائصه، ولكل واحد تكاليفه الخاصة به التي ينوء بها، بجانب التكاليف العامة المشتركة ما بين الذكر والأنثى، والله أعلم.

حياة الأمم السابقة

في رُقْعَةِ الأرضِ الواسِعة تَهْبِطُ أقدارٌ مُوجِعَة تَخْطفُ الأرواح بِالجملة ولا تَسْتَثْنِي طائفةً دون أخرى بَيْدَ أنَّ المسلِم بِسبَبِ تَضارُبِ أو تَناقُضِ الخِطاباتِ المُفَسِّرَة لِما يَحْدُثُ هنا وهناك يَحْدُثُ لديْه سوءُ تَصَوُّر لِمَا يَحْدُث ولا يَسْتَطِيع أن يُفَسِّر أيضاً هذه الأقْدار، فكيْف يَفْهَم المسلِم هذه الأقْدار عُموما ؟ وكيْف يُفَسِّرُها بِحيْثُ تَتَوَاءَمُ وتَتَّفِقُ مع عَقِيدَتِه التي يُؤمِنُ بِهَا ؟

المسلِم أوْلَى بِأن يُفَسِّرَ ذلِك، لأنَّ العالَمَ كُلَّه بِأحْداثِه وتَصارِيفِه وما يَمُوجُ بِه هو لُغْزٌ مُعَمَّى بِالنسبةِ إلى الإنسان وحَلُّ هذا اللُّغْز بِيَدِ المسلِم لأنَّ مِفتاحَه بِيَدِه، فالله تعالى بَيَّنَ في كِتابِه الكرِيم كَيْف شَأْنُ القَدَرِ مع خَلْقِ الله، إذ يُخبِرُ عَمَّا أَصابَ الأُمَم الغابِرَة لِيَذَّكِرَ الإنسان ولِيَأخُذَ العِبْرَة في هذه الحياة، فالله تعالى يقول: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦] فهكذا بادَت القُرون قَرْنا بَعْدَ قَرْن سواءً كان هذا الإهْلاك بِمَا أَخَذَهُم بِه مِن العذاب أو كان بِالمَوت الطبيعي الذي يَسْرِي في الناس، ولكن ربَّما كان الهلاكُ العام الذي يَأْتِي على جُمهورِ الناس أَكْثَرَ مَوْعِظَةً وأَكْثَرَ زَجْراً لِلإنسانِ عن الوُقُوعِ في مَحارِمِ الله، ويَقُولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

ونَحنُ نَرَى كيْف عُمِرَتْ الأرْض قَبْلَ هذه الأُمّة عبْرَ الأُمَمِ السابِقة، فآثارُ العُمْران قائِمة إلى الآن، فهذه الأَهْرامات التي بَقِيَتْ هذه القرون الطويلة، وهذه البِنَايَات التي عَمَرَتْها الأيْدي القَوِية لا تَزالُ قائِمة في أَمَاكِنَ مُتعدِّدَة مِن الأرْض شَاهِدَة على أنّ الله بَسَطَ لأولئك مِن القُوّة وآتَاهُم ما لَم يُؤْتِه مَن بَعْدَهم، ولكن مع ذلِك أُهلِكُوا وبَادُوا، وفي ذلِك عِبْرَة إذ يَقولُ الله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]، وهذا ما نُشاهِدُه في هذه المساكِن التّأرِيخية التي يُعَبَّرُ عنها بِالمساكِن الأثَرِية التي مَرَّتْ بِها القُرُون السابِقة وارْتَاحَتْ فيها وعَاشَتْ بِرَاحَة وبِنِعْمَة وبِتَمَتُّع ولكن مع ذلك بَادَتْ وفنت.

على أنَّ الله يُبَيِّنُ لَنَا في كتابِه الكريم بِطريق الإشارَة كيْف كانتْ تلك القُرُون تَعِيشُ عِيشَةً طويلة، إذ ذَكَرَ أنَّ نُوحا لَبِثَ في قَوْمِه أَلْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عاما، ومعنَى ذلك أنّ تلك القُرُونَ الغَابِرَة كانتْ تَعِيش عيشَةً طويلة.

وهذا ما دَلَّتْ عليه الحَفْرِيَّات والآثار المَوجُودَة تَحْتَ الرُّكام مِن أَنْقَاضِ مَبَانِيهِم، فقد دلَّتْ على أنّ الأُمَمَ السابِقة كانتْ تَعِيشُ عِيشَةً طويلة، فهناك أَحَد الإمريكان اكتَشَف قَبْلَ سِنِين أنَّ هناك مَمْلَكَة قامتْ في بِلادِ ما وَرَاءَ النّهْر تُسَمَّى «مَمْلَكَة تْشِيشِي الأُولَى» تَعَاقَبَ على حُكْمِها ثلاثةٌ وعِشْرون حاكِما لِمُدّةِ أربعة وعشرين أَلْفا مِن الأَعوام ومعنى ذلِك أنّ نَصِيبَ كلِّ واحِدٍ مِن هؤلاء الثلاثة والعشرين أَكْثَر مِن أَلْف عام، ثُم قامَتْ بَعْدَ ذلِك «مَملكة أُورُوك الأُولى» التي أيضاً استمرت مُدَّةً طويلة، وكان نَصِيبُ كلِّ حاكِمٍ فيها أَكْثَر مِن مائتَيْ عام، فمعنَى هذا أنَّ أولئك كانوا يَعِيشُون عيشَةً طويلَة، فكم اسْتَمْتَعُوا في مَعائشِهم هذه؟! وكم تَسَلَّطُوا على رِقابِ الناس؟! وكم عَاثُوا في الأرضِ فَساداً؟! وإذا بِهم الآن تمتحي آثارُهم ولا يَبْقَى لَهم ذِكْر إلا مِن خِلالِ هذه الحَفْرِيات التي هِيَ شَاهِدَة على أحوالِهِم.

فإذن المؤمِن يَعتَبِر بِهذا، ويَعرِف أنَّ كلَّ ما يَجْرِي إنما يجري بِقَضاءِ الله وقَدَرِه، فقَد يُؤَاخَذ المسلِم أحيانا لِتَقْصِيرِه كأن يهمل واجِب الدّعْوَة إلى الله والأمْر بِالمعروف والنّهْي عن المنكَر، فإنَّ الله تعالى يَقول:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] فقَد يَكون هنالِك جَماعة غيْرُ مُجْرِمِين في الظَّاهِر ولكن إجْرَامُهم مِن حيْثُ السُّكُوت عن تَفَشِّي مَعاصِي الله وعن ظُهُورِ المُنكَرات ولَم يُبَالُوا بِها، فكانتْ العَاقِبَة تلكَ التي أَخْبَرَ الله تعالى بِها وهي أنَّ فسادَ أولئك المُتْرَفِين يَنعَكِس أَثَرُه على غَيْرِهم ـ قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] تَنْتَشِرُ بِسَبَبِه العقوبة في أَوْساطِ جَميعِ الناس الذين سَكَتُوا عنهم ولَم يَقْبِضُوا على أيْديهِم لِيَرُدُّوهم إلى طريقِ الحق.

وكذلك نَجِد أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يُخْبِرُنا عن قِصّة العُدْوان في السّبت وما كان مِن بَني إسرائيل.. يَقولُ: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٥]، فـ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ وَصْفٌ يَصْدُقُ على الجانِبَيْن جانِبِ الذين اعْتَدَوْا وجانب الذِين سَكَتُوا عن هذا العدوان، بِدَلِيلِ أنَّ الله ـ تعالى ـ يَقول ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨]، فهذا مِمَّا يَدُل على أنَّ العُقُوبة قَد تَنْتَشِرُ حتى في غيْرِ الذين يُبَاشِرُون الإجْرام ذلك بِسبَبِ سُكُوتِهم أو عدمِ الأخْذِ بِأيْدِي أولئك الذين أَسَاؤُوا وَرَدِّهِم إلى مَهْيَعِ الحق وطَرِيق السَّدَاد فيَنْقَلِبُ أَثَرُ معصيةِ أولئك على الجميع والله أعلم.

البعض يقول بأنَّ إعجاز نوح عليه السلام إنَّما هو في طول عمره وأنَّه لَم يعمر أحد مثله، وما ذكرتموه يدل على خلاف ذلك، هل تذهبون إلى هذا القول؟

كون نوح عليه السلام عُمِّرَ عُمُراً طويلاً لا ريب فيه، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وقد اختلف الناس في

عُمر نوح عليه السلام، منهم مَن قال بأنه عُمِّر ألف سنة، ومعنى ذلك أنَّ عُمره الذي هو خارج هذه الدعوة التي كان يدعو فيها قومه إنَّما هو خَمسون عاماً قبل الدعوة وبعدها، ومنهم مَن قال بأنَّ عمره كان ألفاً وخَمسمائة عام، ومنهم مَن قال بأنَّ عُمره كان ألفاً وستمائة عام، وهذه الأقوال لا نَعرف دليلاً عليها، وإنَّما الذي نستطيع أن نقطع به بأنَّه ظل يدعو قومه مدة ألف سنة ألا خمسين عاماً كما دل القرآن الكريم على ذلك، وهذا يدل على أنَّ أعمار الناس كانت في تلك المدد السابقة أطول مِمَّا هي الآن، هذا مِمَّا يدل على ذلك، والآيات القرآنية تُشير إلى أنَّ أولئك أوتوا بَسطة في الجسم، وأوتوا مِن القوة ما أوتوه، واستطاعوا أن يعمروا الأرض بِما لَم يستطع به مَن بعدهم كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] يعني عمروها أكثر مِمَّا عمرها مَن بعدهم، وهذا ما اطلعنا عليه، فإن آثار ذلك لا تزال باقية منها الأهرامات، فمَن يستطيع الآن أن يبني مثل الأهرامات، وكيف حَملوا تلك الصخور، وأقاموها، وإذا كان هذا في هذه المبانِي وهي مقابر، فكيف بالقصور.

وقد وجدنا في بعض الآثار القديمة في بلاد الشام مِن العمران ما يَحار منه العقل مثل جَرَشْ ومثل البَتْرَاء ومثل عِرَاق الأمير وفيها قصر أنا بنفسي نظرت إلى صخرة واحدة مِن صخوره فإذا بارتفاعها قدر قامة وبسطة وطُولُها سبعة أمتار ونصف وعرضها متران، أي قوة هذه، لا شك أنها قوة عجيبة، وليس ذلك بالنظر إلى الوسائل الحديثة، ولكن بالنظر إلى قوة العمران لأنه استمر في أعقاب هذه القرون التي مَضت إلى وقتنا هذا والله أعلم.

يقول السائل هلا حدثتمونا عن مدائن كسرى وقيصر؟

إن مدائن كسرى كانت عاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كانت باسطة أجنحتها على جانب كبير من المعمورة وعاصمة الإمبراطورية الرومانية كانت القسطنطينية وكانت أيضاً باسطة أجنحتها على جانب كبير من أنحاء المعمورة وقد بادت الإمبراطوريتان جميعاً وتلك سنة الله في خلقه والله المستعان.

من المعروف أن الفلسفة اليونانية بها من المعنويات والروحانيات الشيء الكثير، فكيف كانت سبباً في طغيان المادية عند قوم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حسب ما يراه الشيخ أبو زهرة؟

الفلسفة اليونانية هي مبنية على نظريات مادية ليست مبنية على فكر صحيح جاء من عند الله سبحانه وتعالى، لأنها لم تُتلق من رسالات النبوات، إنما تلقيت من أفكار البشر الذين يقيسون الأمور بهذه المحسوسات التي يشاهدونها، فلا تقوى هذه الفلسفة على حل الألغاز الروحية، لأنها فلسفة مبنية على النظرة المادية البحتة، فعندما تحدثوا في الإلهيات عجزوا ووصفوا الله تعالى بخلاف ما يجب أن يوصف به، حتى أنهم وصفوه بالنقص، قالوا: إن الله سبحانه وتعالى يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، يعلم أي بوجود زيد أو محمد أو عمر أو سعيد مثلاً، ولكن لا يعلم أنه موجود داخل البيت أو خارجه، لأنه لو علم أنه موجود داخل البيت ثم علم أنه موجود خارج البيت لكان في ذلك تناقض بين علم الله والتناقض في علم الله مستحيل، وهذه فكرة غريبة وكلام عجيب لا يقبله العاقل أبداً، ومن ضلال الفلاسفة قولهم بقدم العالم وقد فسروا نظرتهم هذه بجدليات عقيمة ينقض بعضها بعضاً والله أعلم.

هل يُعتبر الصراع ما بين الفرس والروم تمهيداً للفتح الإسلامي، ونشر الدين الإسلامي في بلاد الشام؟

الصراع مع التجاور من طبيعة البشر، طلب الاستعلاء في الأرض والتمكين فيها وزحزحة الآخر عن مكانه والانتصار عليه، ولا يقنع الناس شيء، فكلما تجدد لأحدهم فتح تمنى المزيد منه والله سبحانه هيأ الأسباب المختلفة لظهور الحق، لكن ذلك لا يعني أن الجيشين الرومي والفارسي كانا ضعيفين عندما قاومهما المسلمون، بل كان كل واحد منهما ضارباً في القوة وشدة المراس. وكان لكل واحد منهما رصيد من خبرات لا تقل عن ثلاثمائة عام والله أعلم.

بعيدا عن المعجزة في سورة النمل عندما قالت النملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فهل الحيوانات والحشرات والطيور تعرف أسْمَاءنا إلى الآن أم أنَّها تعرف سيدنا سليمان فقط؟

هذا أمر غيبي لا نستطيع أن نقول فيه شيئاً، وسليمان عليه السلام سُخِّر له الجن والإنس والطير وحُشر له جَميع ذلك، فجعل الله تعالى ذلك خاصية خاصة به، فلذلك قالت النملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، والله قادر على كل شيء فهو قادر أن يُلْهِمَ بعض الحيوان معرفة بعض الأفراد، ولكن هذا غير ظاهر وهذا لا يتنَافَى مع الأصل الذي عليه الحيوان وهو عَدَمُ العقل والله أعلم.

قيام الحجة



التكليف الشرعي وأحكامه

ما الأثر السلوكي الإيجابي أو السلبي المترتب على معرفة أن الله يكلف بما لا يطاق أو لا يكلف بذلك؟

الأثر السلوكي الإيجابي الذي يترتب على اعتقاد أن الله تعالى لا يكلف بما لا يطاق؛ أن يسعى كل أحد إلى امتثال أمر الله معتقدا أن كل ما أمر به الله ﷻ لا بد أن يكون في مقدور المأمور أن يأتي به، وهذا يدفعه إلى أن يحرص كل الحرص على امتثال أمر الله معتقدا أنه لا بد أن يكون في مقدوره امتثاله، أما إن اعتقد أنه يكلف بما لا يطاق فقد يتصور بعض الأوامر التي كُلف بها أنها غير داخلة في قدرته وطاقته وهذا مما يقعد به عن امتثال كثير من الأوامر والله أعلم.

ما صحة القول بأن المقصود من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] هو دفع التكلفة عن هذه الأمة بقتل النفس عند التوبة كما كتب ذلك على بني إسرائيل بدليل قوله ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]؟

حط الله تبارك وتعالى عن هذه الأمة الآصار التي كانت على الأمم السابقة وفك عنها الأغلال التي كانت عليها، مع أن تلك الآصار والأغلال لم تكن أبداً في حدود ما لا يطاق، ولو كانت في حدود ما لا يطاق أو في حدود المحال لأدى ذلك إلى تعذر امتثالها، فالله ﷻ كلف بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم وقد وقع ذلك فعلا فقتلوا أنفسهم امتثالا لأمر الله ثم تداركتهم عناية الله ﷻ، وقيل: إن المقصود بقتل أنفسهم أن يقتل بعضهم بعضا وهو قول طائفة من المفسرين، وهذا أيضاً داخل في مقدورهم ولو لم يكن كذلك

لما أمكنهم فعله، على أن التكليف بهذا الأمر كان تكليفاً وقتياً من أجل تحقيق توبتهم من إثم ارتكبوه وجريرة أتوها، وذلك أنهم نكثوا عهدهم عندما خرج موسى عليه السلام إلى ميعاد ربه فعبدوا العجل من دون الله، فكانت هذه ضريبة دموية يقدمونها لأجل الحصول على توبة نصوح من عند الله، وقد علم الله عز وجل غلظ طباعهم وقسوة قلوبهم وأنه لن يرقى هذه القلوب القاسية ولن يرهف مثل هذه الطباع الغليظة إلا مثل هذه الضريبة الفادحة التي يدفعونها ليتذكروا نعمة الله عليهم بقبول توبتهم إليه، والله أعلم.

هل هناك علاقة بين التكليف بالمحال عند القائلين به وبين القضاء والقدر؟

قضية القضاء والقدر قضية أخرى غير التكليف بالمحال والله أعلم.

هل تكليف إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه من باب التكليف بما لا يطاق؟

لا، إذ لو لم يكن داخلاً في طاقة الإنسان لما حاول تنفيذه والله أعلم.

في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم أمرا فأتوا منه ما استطعتم»[1] هل يعتبر دليلا على عدم التكليف بما لا يطاق؟

نعم، هذا مما يستأنس به على أن الله تعالى لا يكلف إلا بما هو في مقدور العبد والله أعلم.

لقد سمعنا من كتاب الله عز وجل ما يدل على أن الله تعالى لا يكلف بالمحال ولا يكلف بما لا يطاق فما الأدلة على ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة؟

(١) رواه الإمام الربيع (٣٩٤).

من الأدلة «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»، وكذلك غضب النبي ﷺ عندما سئل هل الحج واجب علينا في كل عام والله أعلم.

السائل يسأل عن قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤] وما ولي ذلك من بعد من حكاية عن الخضر عليه السلام في جوابه لموسى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف: ٨٠] يرى من هذه الآية أن هذا الغلام قد كان طاغياً في الدنيا. فهل هذا الطغيان سيحدّد مصيره إلى النار ونحن نعلم أن الغلام لا يطلق إلا على السن قبل البلوغ؟

كلمة غلام مدلولها لا ينحصر فيما قبل البلوغ، فالغلام قيل من الاغتلام وهي حالة تكون عند البلوغ ومن ناحية أخرى نجد في شواهد كلام العرب ما يدل على أن لفظة الغلام تطلق على البالغ فليلى الأخيلية عندما وصفت الحجاج قالت:

غلام إذا هز القناة سقاها

مع أن الحجاج كان بالغاً ولم يكن صبياً، ويبعد كل البعد أن يجتري أحد من الصالحين على قتل من لم يبلغ الحلم، وليس في الآية الكريمة ما يدل على أن هذا المقتول كان عندئذ لم يبلغ سن التكليف، والله أعلم.

هل للحيوانات نصيب من هداية العقل بناء على تصرفاتها خاصة الأليفة منها؟

إن الله تبارك وتعالى ميز الإنسان بالعقل دون سائر الحيوانات، وقد قال العلماء إن الإنسان يشترك مع الملائكة ويشترك مع الحيوانات، فهو يشترك

مع الملائكة بعقله، ويشترك مع الحيوانات بشهوته، فمن غلب عقلُه شهوتَه كان خيراً من الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه كان شراً من البهائم، وهناك إدراك في الحيوانات لا نستطيع أن نسميَه عقلاً، وإنما نسميه إدراكاً، وهو الذي يجعلها تتصرف ذلك التصرف الذي يحفظ لها سلامتها بحيث تتقي الأخطار وقد تعلم فتتعلم وتوجه فتتجه نتيجة إدراكها، أما العقل فإنه نورٌ أودعه الله في بصيرةِ الإنسان، وقد خص الله تعالى به الإنسان من بين المخلوقات الموجودة على هذه الأرض، وهو مناط التكليف، ولذلك كان الإنسان وحده هو المكلف بأن يطيعَ الله ولا يعصيَه، وأن يعبَدَه ولا يجحده ويؤمنَ به ولا يكفرَه، نظراً إلى ما يترتبَ على هذا التكليفِ من الثوابِ والعقابِ ومثله في ذلك الجن، أما كون الحيوانات تُسبحُ بحمد الله كما في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحشر: ١]، وقوله سبحانه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله جل شأنه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]. فهذا التسبيح وإن كان عبادة ـ والكون كله مشترك في هذه العبادة ـ، ولكن هذه عبادة لا يتعلق بها وعد ولا وعيد فليس من ورائها ثواب ولا عقاب لأنها أقرب إلى الجبلة والاضطرار منها إلى الكسب والاختيار والله أعلم.

الهداية

عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] هل يوجد تعارض بين الآيتين؟

القرآن ليس فيه تعارض أبدا، ولو وجد هناك تعارض بين آياته لطار

بذلك أعداء الإسلام فرحاً وشرقوا وغربوا ولحاولوا أن يشوهوا سمعة القرآن بحسب ما يمكنهم، وإنما غاية ما في الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أن الله تبارك وتعالى بين للناس طريق الخير وطريق الشر. وهذه هداية البيان، وأما قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فهو كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] يقصد به هداية التوفيق، فالله ﷻ هو وحده القادر على توفيق من شاء من عباده للإيمان والطاعة، وليس بمقدور المخلوق أن يوفق أحداً من العباد لامتثال أمر الله تعالى وإنما الله تعالى وحده هو الذي ينعم بالتوفيق على من يشاء، وقد أسندت الهداية إلى النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ولكن هذه الهداية المسندة إليه هنا ليست الهداية المنفية عنه في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وإنما هي هداية البيان فحسب، فهو يهدي الناس بتبصيرهم بالحق ودعوتهم إلى الرشد وترغيبهم في ثواب الله وتحذيرهم من عقابه، وإن كان ليس بمقدوره أن يوفقهم لفعل الخير واجتناب الشر والله أعلم.

أيهما ترجح الهداية الوهبية أم الكسبية بالنظر إلى الاعتبارين ؟

لا بد من كلا الأمرين، فالعمل الصالح هو سبب للاستزادة من الهدى، وتوفيق الله تعالى ووهبه للعبد ما يهبه من مزيد الهِداية هو فضلٌ من الله تعالى على هذا العبد، ومن أجل ذلك يرجح الجانب الوهبي على الجانب الكسبي والله أعلم.

ما الفرق بين هداية العقل وهداية الدين؟

الفرق كبير جداً، فعقل الإنسان ليس هو منشأ الأحكام الشرعية، وإنما منشأ الأحكام الشرعية هو وحي الله ﷻ، نعم عقل الإنسان يدرك بعض القبائح ولا يدركها جميعاً، وقد يدرك ـ أيضاً ـ بعض المحاسن، والناس بحسب اختلاف عقولهم مختلفون في تصور القبيح والحسن؛ فقد يكون القبيح عند أحد حسناً عند غيره، وهذا راجع إلى اختلاف اعتباراتهم لاختلاف تصوراتهم، واختلاف تصوراتهم راجع إلى اختلاف المؤثرات النفسية والاجتماعية على عقولهم، فقد يستحسن أحد ما يستقبحه غيره من الأفعال بحسب طبع الإنسان وقد يرجع ذلك إلى تأثير بيئته عليه.

أما في حكم الله تعالى فالقبيح ما قبحه الشرع والحسن ما حسَّنه الشرع، فليس التقبيح والتحسين عائدين إلى العقل إلا عند المعتزلة.

هذا والمعتزلة لهم مواقف خاصة في ثلاث قضايا خالفوا فيها جمهور الأمة: الأولى: أنهم يقولون بالتقبيح والتحسين العقليين، أي أن العقل هو الذي يحسن ويقبح فهو عندهم مصدر الأحكام وموئل الاحتكام والشرع لا يكون عندهم إلا بياناً للعقل أو تأكيداً له.

الثانية: قولهم بوجوب مراعاة الصلاحية والأصلاحية على الله تعالى، أي أنَّ الله تعالى يجب عليه أن يراعي مصلحة عباده، فإذا تعارض أمران في أحدهما مصلحة وفي الآخر مفسدة، وجب عليه أن يفعل للعبد ما فيه مصلحة، وإذا تعارض أمران أحدهما صالح والآخر أصلح فعليه أن يراعي الأصلح، ونحن لا نقول بذلك، لأن الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا معترض عليه في أمره، فلا وجوب على الله ﷻ لذلك لا يسأل عما يصنع.

الثالثة: قولهم باستقلال الإنسان بإيجاد أفعاله استقلالاً تاماً، هذا ومن الأدلة على أن الذي يستقبحه العقل لا يلزم أن يكون مستقبحاً في الشرع، ذبح الحيوانات وأكل لحومها فلو رجع الإنسان في ذلك إلى عقله لوجد العقل لا يستحسن هذا التصرف لأن في الذبح إيلاماً وتفويتاً للحياة ثم بعد ذلك يتنعم الإنسان بهذا المذبوح على حسابه، ولكن بما أن الشرع أباح لنا ذلك، فنحن لا نتحرج من ذلك، لأننا نعتقد أن هذا الحيوان هو ملك الله، ولله أن يتصرف في ملكه كما يشاء، وعندما نذبح هذا الحيوان نقول باسم الله، إعلاناً بأن هذا الذبح إنما كان بإباحة شرع الله، وليس من تلقاء أنفسنا واتباعاً لشهواتنا، فهداية العقل لا يمكن أن تحيط بمصالح الإنسان ومنافعه بخلاف هداية الدين التي هي من الله تبارك وتعالى، والله أعلم.

هل يمكن الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] على أن الهداية كسبيّة وليست وهبيّة؟

من الذي يقول هذا؟ هل التوبة إلا بتوفيق الله وهل الإيمان إلا بتوفيق من الله كذلك؟ وقل مثل ذلك في العمل الصالح والهداية فكل ذلك من فضل الله وبتوفيقه والله أعلم.

نحن نعلم أن الإنسان قد كتب له إن كان شقياً أو سعيداً في الجنة أو في النار قبل أن ينزل في الدنيا كيف نوفق بين هذا القول وبين هداية الدين التي شملت الناس جميعاً؟

علم الله تعالى الذين يقبلون هذا الدين ويعملون به والذين يرفضونه ويأبونه فكان ما كتبه في الأزل وفق ما علمه من أحوال الناس واختيارهم والله أعلم.

من يقول إن الهداية كسبيّة، فكيف يرد على هذا السؤال: إذا كان الإنسان يكتسب الهداية بأعماله الصالحة أليست هذه الأعمال الصالحة هداية من الله تعالى ؟

نعم الأعمال الصالحة هي هداية من الله، الذي وفّق العبد فعمل هذه الأعمال الصالحة، ولكن الله تبارك وتعالى يجزي العبد الصالح على أعماله الصالحة بتوفيقه لمزيد من الأعمال الصالحة فهذا التوفيق داخل ضمن ثواب الله تعالى له على ما قدم من خير والله أعلم.

من يقول إن الهداية وهبيّة فكيف يرد على هذا السؤال: كيف يهب الله تعالى الهداية لبعض الناس دون آخرين، ثم بعد ذلك يعذب من لا يهبه إياه ؟

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] الهداية من الله تبارك وتعالى منّ وفضل على من اختار من عباده فمن وهبه الهداية وهبه ﷻ ما وهبه منّاً منه تعالى وفضلاً، ومن حرمه الهداية لم يحرمه من شيء هو له وإنما حرمه من فضله سبحانه وقد علم الله تبارك وتعالى في هذا المحروم ما علم من اختيار الشر فلذلك حرمه هذه الهداية وكفى بذلك والله أعلم.

ما يسع جهله وما لا يسع

إذا فعلنا أموراً لا نعرف أن الله تعالى قد أمر بها، فهل نحن غير طائعين لله ؟

إن الله تعالى يُعبد بالعلم ولا يُعبد بالجهل، وقد أمرنا بالسؤال عما لا نعلم قبل أن نقدم عليه فعلاً أو تركاً، وأن نرد كل شيء إلى الله والرسول، والرد إلى الله بالرجوع إلى كتابه، والرد إلى رسوله بالرجوع إلى

سنته ﷺ، وعندما لا يتضح الأمر لعدم وجود النص الدال على حكمه في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ، فهناك العلماء المتفقهون القادرون على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وعلى حمل ما جُهل حكمه على ما علم حكمه بطريق القياس الشرعي، فيجب الرجوع إلى هؤلاء العلماء، كما يجب على كل أحد عدم الإقدام على ما لا يعرف حكمه لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. أما إن كان متحرياً للحق مع عدم إمكان توصله إلى الاستفهام والسؤال لتعذر اتصاله بأهل العلم واجتهد في ذلك وسعه ووافق الحق فالحمد لله على التوفيق، فيعد في هذه الحالة مطيعاً لربه حيث تحرى الحق ووفق له، وأما إن خالف الحق وكان متحرياً له فإن التوبة الإجمالية[1] فيما خفي بطلانه عليه تكفيه كما قال العلماء والله أعلم.

إذا تحدثت إلى رجل من العامة بشيء عجيب أو مفزع يقول (لا إله)، فما حكم ذلك؟

الظاهر أنهم لا يفهمون كلمة التوحيد، فيجب أن يعلموا والله أعلم.

ما حكم الإسلام في الذين لم يصلهم الإسلام ولم يسمعوا به، والذين قد سمعوا به بطرق مشوهة وغير كافية، وما حكم أطفالهم يوم القيامة ؟

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، فما كانت حجته سمعية يرجى لهم أن يعذروا فيه ـ ما لم تقم عليهم الحجة به ـ، وما

(١) معنى التوبة الإجمالية: التوبة العامة من كل الذنوب والمعاصي.

كان حجته عقلية كمعرفة الله وما يجب إثباته لـــه ونفيه عنه فلا يعذرون فيه، وأمّا الأطفال فهم على الفطرة، والله لا يؤاخذهم بجريرة غيرهم والله أعلم.

الحاكم هو الشرع

ذكرت أن الكل يقول بالتسليم للشرع، ووقع خلاف في الحاكم هل هو الشرع أم العقل؟ فما هو الفرق؟

لا يخالف أحد أن شـــرع الله يجب التسليم له. ولكن الخلاف في كونه هو الأصل، وأن العقل هو طريق لاســـتلهام بعض الحقائق فقـــط، أو أن العقل هو الأصل والشـــرع إما مبين له أو مؤكد؟ فالمعتزلة يقولون إن العقل هو الأصل، والجمهور يقولون إن الشرع هو الأصل، والعقل إنما هو طريق لاستلهام بعض الحقائق وإن بدا تعارض بينهما وجب الرجوع إلى الشرع، والمعتزلة لا يقولون بنبذ الشرع ولكنهم يقولون إن الحاكم هو العقل، والشرع إما مؤكد له أو مبين.

وهذا ليس له أثر في المذاهب الفقهية لأنها لم تكن متقيدة بهذه القيود، فالمعتزلة ـ أنفسهم ـ ليس لهم مذهب فقهي فكثير منهم كالزمخشري يتبعون في الفروع المذهب الحنفي، وبعضهم شافعي في المذهب الفقهي كالقاضي عبد الجبار، بل كان أحد كبار المعتزلة حنبليّ المذهب ولكن هذا الاختلاف هو اختلاف عقديٌّ، لأنهم لا يقولون بأن الشـــرع ورد بما يخالف العقل، إلا أنهم يقولون إن العقل هو الأصل ولو قدر أن يرد الشـــرع بما يخالف العقل لكان الواجب أن يصار إلى العقل والله أعلم.

قد يُحسِّن العلم والطب ما قد يكون مثار جدل وخلاف عند أهل الشرع بين محسن ومقبح أو مكره ومحلل ومحرم. كيف ينبغي ان يكون موقف المرء من أمر كهذا؟

لا يلتفت إلى الناس واختلافهم، وإنما يتبع الدليل في ذلك، فإن اقتضى الدليل التحليل كان ذلك سائغاً، وإن دل على التحريم كان ممنوعاً والله أعلم.

السائل يقول: قلتم بأن الحَسَنَ ما استحسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع ـ على رأي الجمهور ـ والسؤال يقول إن الكذب في بعض الأحوال مباح، فهل يكون من الأشياء التي يستحسنها الشرع؟

نعم، قد يكون الكذب أحياناً واجباً، وذلك بأن تتوقف عليه سلامة برئ، وإنقاذ روح من الهلكة ولا ريب أن ذلك مستحسن شرعاً لا لذاته ولكن لما يؤول إليه والله أعلم.

يقال: إن العقل له دخل في تثبيت العقيدة الصحيحة، مع أنه قيل: إن العقل يجب عليه الاستسلام لما جاء به الرسول ﷺ في مجال الاعتقاد، وليس له أن يؤول أو يعطل نرجو الإفادة؟

هذا السؤال يجر في الإجابة إلى سؤال: هل الرسول ﷺ يأتي بشيء ينافي العقل؟ والحقيقة أن الذي ينافي العقل لا يمكن أن يأتي به الرسول ﷺ. والله ﷻ أنزل آيات كثيرة في القرآن الكريم فيها ذكر العقل وأثنى عليه «فهو يقول: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] ويقول: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠] ويقول ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] وقد تعبدنا ﷻ وجعل فينا أسباباً لفهم هذه العبادة التي فرضها علينا، فهو خاطب العقلاء ولم يخاطب المجانين، ولو كان الأمر بخلاف ذلك لكان الله ﷻ يكلف المجانين، فالعقل السليم يوضح ما جاء في القرآن الكريم، لأن العقل من جملة مصادر بيان مجملات القرآن، فالله تبارك وتعالى يقول﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فهذه الآية مجملة، فما الذي يبين إجمالها، عندما يفكر الإنسان ويدقق نظره يعرف

أنه لو كان في الكون آلهة متعددون لاختلفت إراداتهم، إذ لا يمكن أن تتحد إراداتهم إلا إذا كانت هناك قوة فوق قوتهم بحيث توحد هذه الإرادات، ولئن كانت هناك قوة فوق قوة هؤلاء الآلهة، فإنه يجب أن يكون صاحب هذه القوة أولى بالألوهية منهم، وهذا يعود إلى حصر الألوهية في إلٰه واحد، ويفكر الإنسان أيضاً فيما لو كان هناك تنظيم بين هذه الإرادات بأن تتولى إحداها شيئاً والأخرى شيئاً آخر فيدرك تعذر ذلك، فإن هذا يتنافى مع ما نراه ونعلمه من طبيعة الكون أنه كله وحدة متكاملة، فلا يمكن أن تكون هناك إرادات متعددة تصالحت على أن يستقل صاحب كل إرادة بخلق جانب منه، فلو قدرنا أن هذا يريد أن يخلق هذا الجانب كذا، وهذا يريد أن يخلق هذا الجانب كذا فلا يتناسق الخلق، ويحصل الخلاف المشار إليه في قوله تعالى تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ثم إذا نظرنا في قول السائل «وليس له أن يعطل أو يؤول» فالتعطيل غير سائغ، أما التأويل فالعقل يرشد إليه، والكتاب العزيز يرشد إليه، والسُّنَّة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ ترشد إليه، فالله ﷻ يقول ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ [الأعراف: ٥٢] فهل جاء الله ﷻ إليهم بذاته أم جاءهم رسوله ﷺ؟! ويقول الله تعالى:

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] فهل جاءهم بنفسه أو جاء أمره ﷻ؟! والله ﷻ يقول تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] فالذي لا يؤول ويزعم أن الله تعالى محصور في الجهة العلوية كيف يقول في هذه الآية، نجد هؤلاء الذين ينكرون التأويل اضطروا إلى التأويل فيها، وقد اختلف في المقصود بهذه الآية فقيل: فثم الجهة التي أمر الله تعالى بأن يُتجه إليها، وقيل: فثم قصد رضوان الله ﷻ، ويقول الله ﷻ أيضاً: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] هل يمكن لأحد أن يفسر آخذ بناصيتها، بأنه ممسك حقيقة بناصيتها؟! وقوله سبحانه:

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] هل يمكن لأحد أن يفسر ذلك بأنه جالس أو واقف على الطريق المستقيم؟ هذا شيء غير معقول، والله ﷻ خاطبنا بلسان عربي مبين.

والعرب في لغتهم الحقيقة والمجاز والصريح والكناية، وأتى القرآن الكريم بالمصطلحات التي اعتادوا أن يستعملوها، فإذا كان في لسان العرب الحقيقة والمجاز والكناية والصريح، فالقرآن الكريم فيه هذه الأشياء، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧] فإذا فسرنا جميع الرمي هنا بمعنى واحد لتناقضنا، ولكن المعنى وما سددت الرمية إذ رميت، ولكن الله هو الذي سدد الرمي، ونحو هذا في القرآن الكريم كثير، ففي حديث الرسول ﷺ إرشاد إلى التأويل، في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن طريق أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ يقول للعبد يوم القيامة يا عبدي استطعمتك فلم تطعمني»[١] فيقول له: وكيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول: «استطعمك عبدي فلم تطعمه ولو أطعمته لوجدت ذلك عندي»[٢] فأسند الله تعالى الاستطعام إلى نفسه، ثم أسند الاستطعام إلى عبده، ثم يقول «يا عبدي مرضت فلم تزرني. فيقول كيف أزورك وأنت رب العالمين فيقول مرض عبدي فلان ولم تزره ولو زرته لوجدتني عنده»[٣] ففيه إسناد المرض إلى الله تعالى ثم يقول: «يا عبدي استسقيتك فلم تسقني فيقول العبد: كيف أسقيك وأنت رب العالمين فيقول

(١) رواه مسلم (٤٦٦١).
(٢) رواه مسلم (٤٦٦١).
(٣) رواه مسلم (٤٦٦١).

استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ولو سقيته وجدت ذلك عندي»[١]، إذاً لماذا يقال في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] أنه يأتي بذاته، وأن التأويل غير جائز، بينما في ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ [الأعراف: ٥٢] التأويل في هذه الآية جائز، فإذا كان كل شيء يؤخذ بظاهره فلماذا هذا يحجر ولا يؤخذ بظاهره، وفي الحديث القدسي الصحيح: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)[٢] فلا يمكن أن يكون الله هو عين اليد وعين السمع، وعين الرجل؟ فإذاً التأويل هنا ضروري.

على أن التأويل موجود في كلام العرب، فالشاعر يقول:

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها[٣]

وأين يد الشمال، وكم وكم في أسفار العرب من مجاز والله أعلم.

ذكر الإمام نور الدين السالمي رحمه الله تعالى في مشارقه خلافاً بين أصحابنا رحمهم الله تعالى في كيفية قيام الحجة فقال الجمهور إن الناصب للأحكام كلها الشرع وقد قسم العبادات إلى قسمين قسم تدرك معرفته بالعقل وهو وجود الصانع سبحانه وقسم تدرك معرفته بالسماع كوجوب الصلاة والصيام وما شابه ذلك بينما قال فريق إن العقل بنفسه أثر في بعض العبادات وهل هو في معرفة وجود الخالق كما هو مذهب أبي يعقوب وقطب الأئمة أو حتى في كل ما يخطر بالبال كما هو مذهب الإمام أبي سعيد وأبي بركة.

فما هي فائدة الخلاف بين الذين أوجبوا معرفة وجود الخالق بالشرع

(١) رواه مسلم (٤٦١١)

(٢) رواه البخاري (٦١٣٧).

(٣) البيت للشاعر لبيد.

وقسموه إلى قسمين وبين الذين أوجبوها بالعقل فمثلاً لو إن إنساناً عاش في جزيرة وانقطعت عنه الأخبار أليست تجب عليه معرفة وجود الخالق حتى مع الذين يقولون إن سبيل ذلك الشرع لأن التوحيد لا ينسخ وهذا مكلف بشريعة آدم ونوح لأنهما رسولان إلى العامة وهذا من أبنائهما وكذلك هل يتصور عدم وجود الشرع أو وصوله إلى بعض منهم فقد رأيت الإمام نور الدين السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر في المعارج الفرق بين قول هذه الجماعة وأصحابنا وبين قول المعتزلة إن هذه الجماعة تقول بتحكيم العقل عند عدم الشرع بخلاف المعتزلة فإن كان يمكن عدم وصول الشرع أفلا يقال بعذر صاحب الجزيرة عند الجمهور، فإن قيل إن الإمام نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ إنما يريد بقوله ذلك في الأشياء العملية ليس في معرفة وجود الخالق بدليل قوله ويمكن أن يأتي الشرع بخلاف حكم العقل عند هذه الجماعة بخلاف المعتزلة ومن المعروف إنه لا يصح ذلك في معرفة وجود الخالق ولكن الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ عمم في قوله وذكر منهم أبا يعقوب وقطب الأئمة وهما لا يقولان بتحكيم العقل إلّا في معرفة وجود الخالق فقط. وكذلك هل يمكن أن ينفس له بعد عند الذين يقولون إن معرفة وجود الخالق تكون بالعقل إذ ذلك لا يكون إلّا بعد زمن من التفكير والتدبر في الغالب.

أوضح لنا ذلك كله وبيّن لنا أرجح هذه الأقوال والله يوفقكم لما فيه خير الإسلام والمسلمين؟.

إن جمهور علمائنا رحمهم الله يرون أن الحكم في جميع الأمور للشرع وليس للعقل، وهو وإن كان طريقاً من طرق العلم إلّا أنه لا يترتب على كل علم حكم فالشمس عادة مضيئة والليل مظلم بهيم والشتاء بارد والصيف حار وهذا مما يدركه كل إنسان بالتجربة والعقل ولكن لا يترتب حكم عقائدي

على هذا الإدراك نفسه فكذلك إدراك أن لهذا الكون مكوناً من الأمور المدركة بالعقل ولكن وجوب معرفة هذا الصانع أمر يتوقف على ورود الشرع:

إذ ليس كل ما يصح علمه يكون واجباً علينا حكمه

كما هو واضح من الأمثلة التي ذكرتها من قبل، وذهب الإمامان أبو يعقوب والقطب رحمهما الله في هذه المسألة خلاف مذهب الجمهور فرأوا أن معرفة الله تجب بنفس العقل ولو لم يرد بإيجابها شرع ولعلهما بنيا رأيهما هذا على أن معرفته تعالى أمر مقطوع بعدم عذر أحد فيه إن قامت حجتها وهذا مما أجمع عليه وعليه فليست في الخلاف بينهما والجمهور فائدة حقيقية بل اعتبارية.

أما أبو سعيد وابن بركة فهما يريان تحكيم العقل في الأمور العملية عند عدم وجود حكم شرعي لدى العامل بسبب تعذر وصوله إليه وعندما يتبين له حكم الشرع وجب رجوعه إليه والله أعلم.

أصحاب الفترة[1]

سؤال عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فهل نفهم من الآية الكريمة أن الذين لم تصلهم الهداية غير معذبين؟

حجة الله تعالى قد قامت ببعثه الرسلَ وبإنزاله الكتب، وبالسماع الذي وصل إلى الناس بأن هناك ديناً تعبد الله به عباده، فعلى هؤلاء الذين علموا بأن هناك ديناً يلزمهم اتباعه أن يبحثوا عن الدين، ومعرفة الله تبارك تعالى تقوم حجتها من قِبل العقل، أما جزئيات الأحكام الشرعية فهي لا تقوم إلا بالسمع، فمن لم تبلغه هذه الجزئيات، ولم يكن في وسعه الوصول إلى من

(١) أصحاب الفترة: هم الذين كانوا بين نبيّين من أنبياء الله ولم تبلغهم دعوة الإسلام.

يبلغه ويُعرِّفُهُ بها تُرجى له السلامة، والله تعالى أعلم وأرحم بعباده من أن يؤاخذهم بما لم يقم عليهم الحجة فيه والله أعلم.

كيف نوفق بين قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] وبين الآيات الأخرى التي تثبت الكسب للإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وما وَرَدَ من الأحاديث التي تدل على عذاب بعض أهل الفترة كحاتم الطائي، وكيف نرد على من يقول إنما يعصي العبد المولى سبحانه، لأن الله تعالى خلق فيه قوى الشر بوجه تفوق قوى الخير ؟

قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣] يدل على أن الضلالة التي تقع للعبد إنما تقع بإرادةٍ من الله، ولا يكون الله ﷻ مُكْرِهَاً على وقوعها من غير أن تكون منه مرادة له سبحانه. وكذلك قوله:

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وأما الآيات الأخرى فتدل على أن مؤاخذة العباد بالعقاب على الشر والأجر الذي ينالونه بفعلهم الخير إنما هو نتيجة الكسب، وبه يتعلق الوعد والوعيد لا بخلق الله، والله لا يخلق فعل الخير أو الشر إلّا عندما تكون نفس العبد منصرفة إلى ذلك الفعل إما بداع من هواه أو من شيطانه عندما يكون ذلك شراً، وإما بداع من فطرته أو سبب آخر عندما يكون ذلك خيراً، فيخلقه الله تعالى له عندما تتهيأ له نفسه، ويريد الله تبارك وتعالى وقوعه من العبد. وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] إنما يدل على أن الله

تبارك وتعالى لا يؤاخذ الناس بشيء مما عملوه حتى يقيمَ الحجة عليهم والحجة قد قامت ببعثة الرسل وإنزال الكتب، أما الذين لم تبلغهم أخبار بعثة الرسل وإنزال الكتب فهم في مأمن من العذاب لا يؤاخذهم الله بما عملوا.

هذا وقد اختلف في أهل الفترة فمنهم من قال: هم مؤاخذون لأن الحجة قامت عليهم بالرسالات السابقة، وَلئنْ صَحَ حديثُ حاتم الطائي ونحوه من الأحاديث فيحمل على ذلك، ومنهم من قال بأنهم لا يؤاخذون وهؤلاء أخذوا بعموم هذه الآيات، والمسألة دقيقة لأنها مسألة اعتقاد، فهي لا تنبني على الظنيات، ولذلك لا يؤخذ فيها بالأحاديث الأحادية ولا بعمومات القرآن وإنما يوكل أمرها إلى الله ﷻ، ونحن لا نستطيع أن نقطع لأحد بعينه بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا إذا ورد فيه نص صريح صحيح على أن يكون بلغ مبلغ المتواتر، لأنه يكون بذلك قطعياً وما هو إلّا النص القرآني والحديث المتواتر عن النبي عليه السلام، وطاقات الخير في الإنسان تنمو بكسب الخير وطاقات الشر كذلك تنمو بكسب الشر، فإن الله تبارك وتعالى يطبع على قلوب الكافرين والعاصين والفاسقين بما اقترفوه من أعمال سيئة، فقد يجعل الله من عقوبة الأعمال السيئة أن يقع العاصي في معصية أخرى، بحيث تجره معصيته إلى غيرها ليتراكم وزره، وقد يجعل الله من مثوبة عباده المؤمنين أن تجرهم طاعتهم إلى طاعة أخرى وهكذا يتدرجون في مدارج الطاعة ويرتقون في معارج الزلفى فيتضاعف أجرهم والله أعلم.

وما القول في أهل الفترة؟

هم كغيرهم فيهم الصالح وفيهم الطالح، فيهم من توصل إلى الإيمان بالله ﷻ وآمن بأن الله تعالى هو وحده مبدع الوجود وعبد الله كما اهتدى إليه من العبادة، كقس بن ساعدة وغيره، وهؤلاء جاء في أحاديث الرسول ﷺ ما

يدل على أنهم مرتضون، وكذلك ورقة بن نوفل وغيره، وفيهم من كان معاندا في جاهليته مصـــرا على كفره مكابرا لعقله، فهـــذا حكمه يختلف عن حكم الصالح والله أعلم.

ما حكم الكافر الذي لم يسمع عن الإســـلام ولم يخطر على مخيلته أن هناك ديناً اسمه الإسلام؟

يعذر في الأمور الجزئيـــة العملية حتى تقوم الحجة بها، وكذلك القضايا العقدية الســـمعية، وأمّا ما تقوم به الحجة من طريـــق العقل، كوجود الخالق ووحدانيته، فلا يعذر إذا اعتقد فيه غير الحق، والله أعلم.

ما حكم الإسلام في الذين لم يصلهم الإســـلام ولم يسمعوا به، والذين قد سمعوا به بطرق مشوهة وغير كافية، وما حكم أطفالهم يوم القيامة؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فما كانت حجته ســـمعية يرجى لهم أن يعذروا فيه ـ ما لم تقـــم عليهم الحجة به ـ، وما كان حجته عقلية كمعرفة الله وما يجب إثباته له ونفيه عنه فلا يعذرون فيه، وأمّا الأطفـــال فهم على الفطـــرة، والله لا يؤاخذهـــم بجريرة غيرهم والله أعلم.

عبارات عقدية شائعة

ما حكم التلفُّظ بـ: «عَبَّاد الشمس» و «قَوس قُزَح»؟

الله تعالـــى يقـــول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فلا يُسمَّى شيء مِمَّا خلقه الله

ـ تعالى ـ من هذا النوع من أنواع الجمادات أو أنواع النباتات «عَبَّاد الشمس»، إنَّما هو يعبُد الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فكثير من الناس يسجُدُون وكثير منهم لا يسجُدُون، أمَّا بقية الكائنات فهي تسجد لله، ومعنى ذلك أن عبادة الله سبحانه تنتَظِمُها جميعا، وقد يشُذُّ عن ذلك الإنسان الذي يتمرَّد على طاعة الله ولا يرضى بأن ينقَادَ لِحُكم الله سبحانه، أمَّا المنقادُون لحكم الله فإنهم يسيرون في هذا النظام الذي يسير فيه الكون، فما من شيء يعبُد الشمس من هذه الكائنات، نعم هناك عُبَّاد الشمس من البشر، ولعل هناك عُبَّاد الشمس ـ أيضاً ـ من جِنس الجن الذين تَمرَّدوا على طاعة الله وهم من الشياطين طبعاً، أمَّا هذه النباتات والجمادات فإنَّها تعبُد الله ﷻ كما يدل على ذلك القرآن الكريم.

وكذلك «قَوْسُ قُزَح» إنَّما هو قَوْسُ الله لأن قُزَح هو شيطان كما جاء في الحديث، وجاء النهي عن تَسْمِيته بِهذا الاسم، فلا يُسمَّى كذلك. والله أعلم.

ما مَعنَى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]؟

معنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] كافينا الله تعالى، فالحسب هنا بِمَعنى الكافي.. وبِمَعنى الحسِيب، فالله ـ تعالى ـ حَسيب بِمعنى هو كافٍ لعباده.. وأصل حَسب بِمعنى الكفاية ولكن استُعْمِل بِمعنى الحسِيب.

وهذه كلمة قالَهَا المؤمنون في عَهْد النبي ﷺ عندما حَاول المشركون أن يُرْجِفُوا بِهم وأن يَزِيدوهم خوفاً ورُعْباً مِمَّا حَدَث في غزوة أحد، فَأَشَاعوا عنهم أنَّهم أعَدُّوا العدة المرعِبَة لِمُواجَهة المسلمين، فقال المسلمون مُتَوَكِّلِين على الله:

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وذهبوا إلى حَمراء الأسد كما تَوَاعَدُوا مع المشركين وأَيَّدَهُم الله سبحانه ونَصَرهم وألقى الرُّعب في قلوب أعدائه.. يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٥] فهكذا كان شأن أولئك، وهكذا من يتوكَّل على الله ويستمسك بِحَبْله ويَأْوِي إلى رُكْنِه فالله ـ تعالى ـ يَحْمِيهِ ويُعِيذُه مِن كُل شر والله أعلم.

ما حُكم ما يقوله بعض الناس مِن سَبِّ الزَّمَان، «هذا الزمان غدار»، «هذا زمان سوء»، «هذا منك يا زمن» أو نحوها مِن العبارات؟

لا ريب أنَّهم لا يعنون الزمن، وإنَّما يعنون أصحاب الزمن، فإنْ كانوا يعنون أصحاب الزمن فليس في ذلك حَرج إن كان الواقع كما قال؛ وأما إن كانوا يعنون الزمن فالزمن خلقه الله تبارك وتعالى، وما يأتِي به الزمن إنَّما هو مِن عند الله، فلا يَجوز سَبُّ الزمن لأنَّ الزمن مِن عند الله والله أعلم.

هل يجوز قولنا «لولا الله وفلان»؟

لا يسوغ ذلك، وإنما يسوغ العطف بثم الدالة على المهلة، والله أعلم.

ما يلحق من يقول «لا إلٰه» وهو موحد من قوله هذا، وهل يلزمه إكمالها في الجهر أم في السر، وهل يلزمه إكمالها إن قالها غيره؟

قيل: يشرك بذلك، وقيل: حتى يقصد معناها، ويجب إتمامها جهراً على من قالها جهراً، وعلى من سمع أن يتمها لبيان التوحيد، والله أعلم.

الاجتهاد

متَى يُثاب الـمُجتهد إذا أخطأ ؟

الـمُجتَهد يُثَاب إذا أخطأ إن كان ذلكَ في مسألةٍ مِن مسائل الرأي[١]، بِحيث يَجوز الخلاف في تلك المسألة، ولَم يَأْلُ جَهْداً في اسْتِفْرَاغِهِ الوُسْع مِن أجل الوُصُول إلى الرأي الأرجح، بِحيث استعرض الأَدلة، فتبَيَّن له رُجْحَان أحد الدَّلِيلين، أو دليل أحد القولَيْن، أو أحد الأقوال على بَقِيَّةِ الأَدلة الأخرى، فَعَوَّل عليه مع أنَّه لَو أَمْعَن نظره فيه لَكَان الدَّلِيل الآخر أَرْجَح مِن ذَلك الدَّليل، فَإنَّه في هذه الحالة يكون مَعذُوراً، لأنَّ المسألة مسألة رأي، أمَّا أن يَجتَهِدَ في مسائل الدِّين فإن ذلك لا يجوز ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وَعَلَيْنَا أنْ نُدْرِك الفَرْق ما بين الأدِلَّة، لأنَّ مِن الأَدِلَّة ما هو قَطْعِيّ، ومِن الأدلة ما هو ظَنِّيَ، والقطعِيَّة والظنيَّة تَختلف ـ أيضاً ـ بِحسب الدَّلالة وبِحسب الـمَتْن، فالـمَتْنُ القطعِيّ هو ما كان مُتواتِراً وذلك هو القرآن الكريم وما تَوَاتَرَ مِن السنَّة النبويَّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فذلك قطعِيُّ الـمَتْن لأنَّه قد ثبت تَلَقِّي القُرآن عن النبِي والنبي تَلَقَّاهُ عن جبْريل، وجبْريل تلَقَّاهُ عن رَبِّ العالَمين أو عن إسرافيل عن ميكائيل عن رَبِّ العالَمِين كما قيل، ذلك أمرٌ لاشكَّ فيه، وكذلك السنَّة المتواترة الثابتة عن النبِي بالتواتر ذلك أمرٌ ـ أيضاً ـ لا شك فيه، فَثُبُوت مَتْنِ كُلِّ واحدٍ منهُمَا ثُبوتٌ قَطعِيّ، أَمَّا السنَّة الآحادية فإنَّ ثُبوت مَتْنِهَا ثبوتٌ ظنِّيّ لاحتمال الخطأ مِن حيث الرواية ولأجل وُجُود كثيرٍ مِن الأحاديث الـمُخَالِفة للرواية الآحادية أحياناً أُخرى.

(١) هي التي يستدل لها بأدلة ظنية لا يقطع عذر المخالف فيها.

وأمَّا الدلالة القطعِيَّة فهي دلالة النَّصِّ، فدَلالَة النَّص دلالةٌ قطعِيَّة، ودَلالة الظن هي دَلالَة الظاهر كَدَلالة العام.. فإنَّ العام ظَنِّي الدلالة وذلك في الأُمور التشـرِيعِيَّة التكلِيفِيَّة التي تتعلَّـق بأفعال العباد، لِكثـرة الـمُخَصِّصَات التي وَرَدَت على العُمُومَات.

فيجب على الـمُجتهد أن يكون مُتفَطِّناً لذلك كله، ولئِنْ وقع في الخطأ، فأخَذَ بالـمَرْجُوح مع وُجُود الدليل على رُجْحَان الراجح، لا يكون آثِماً بِذَلك بل يكون مأجُوراً بِمشيئة الله بسبب اجتهاده إن اسْتَفْرَغَ الوُسْعَ في ذلك، وأَدَّاه اجتِهَادُه إلى مَا أَدَّاهُ إليه؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

سماحة الشـيخ: قد يقول البعض: أصبح الآن معرفة الأحكام أمراً متاحاً لكل أحد من خلال الرجوع للقرآن والسُّـنَّة ما داما المصدرين الشرعيين لاستنباط الأحكام، لماذا لا يتاح لأي مسـلم إشغال عقله واستثمار هذه المصادر المتاحة أمامه الآن ليستنبط الحكم منه؟

ليس كل أحد قادراً على الاستنباط، فالاستنباط يتوقف على فنون شتى، فمن المعلوم أن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزل القرآن بلسان عربي مبين، واللغة العربية هي أوسـع اللغات، فلذلك هيأها الله ـ تعالى ـ لتكون وعاء لكلامه، فأنزل بهـا كتابه، وجـاءت السُّـنَّة النبوية علـى صاحبها ـ أفضـل الصلاة والسـلام ـ: بلسـان عربي مبين أيضاً، ولكن اللغة العربية دخلها الكثير من العجمة بسبب دخول أمم في دين الله، فلذلك احتاجت اللغة إلى فنون شتى، وقد تسابق الناس إلى خدمتها، وكان العجم أكثر من العرب عناية بها، فنحن نجد أن الذين اعتنـوا باللغة العربية، ودرسـوا فنونها، وبحثوا اشـتقاقاتها، ووضعوا اصطلاحاتها معظمهم من العجم، وهذا راجع إلى رغبتهم في معرفة القرآن الكريم، ثم بجانب ذلك هناك طرق للاستنباط، وهذه الطرق قد تكون

صعبة إلا على من يسر الله ـ تبارك وتعالى ـ ذلك له؛ بحيث تمكّن من الوسائل التي تُسهّل له هذه المهمة.

والصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ لسلامة فطرهم، ولأنهم صحبوا النبي ﷺ، وعايشوا نزول القرآن الكريم على قلبه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، وعرفوا كيف كانت الآيات تتنزل، ولأي مناسبة كانت تأتي أحكامها، وعرفوا كيف السُّنَّة النبوية ترِدُ؛ كانوا أقدر الناس على الاستنباط، وهم وإن تفاوتوا من حيث الفقه إلا أن ثَمَّ قدراً مشتركاً بينهم جميعا في الفقه، فكلهم فقهاء، وكلهم قادرون على استنباط الأحكام من أدلتها، ثم جاءت طبقة التابعين، وكانوا أقل من الصحابة في ذلك، فلذلك كانوا بحاجة إلى أن يرجعوا إلى الصحابة، وأن يمارسوا هذا الأمر، ثم جاءت طبقة من بعدهم، واحتاج الناس إلى وضع المصطلحات، احتاج الناس إلى أن يفهموا اللغة فهماً دقيقاً، فأخذ الناس يدرسون فنون هذه اللغة بعدما وضعها المصطلحون، ثم احتاج الاستنباط أيضاً إلى دراسة الطرق والوسائل، فإن الأدلة الشرعية منها ما هو مجمل، ومنها ما هو محكم، ومنها ما هو ناسخ، ومنها ما هو منسوخ، فلذلك كان دراسة الفن الذي يمكّن من ذلك أمرَاً ضروريا، فنحن نجد أن العلماء بعد تلك الفترة وضعوا فن أصول الفقه، والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وإن لم يصطلحوا على تسمية هذا خاصاً وهذا عاماً، وتسمية هذا مطلقاً وهذا مقيداً، وتسمية هذا مجملاً وهذا مفصلاً؛ إلا أنهم كانوا على قدر من الذكاء والفطنة، فلذلك كانت الأحكام تجري على ألسنتهم وفق مراد الله ـ تبارك وتعالى ـ من غير وجود هذه المصطلحات.

ولكن بعدهم أنّى للإنسان الآن وهو يرى الدليل العام أن يأخذ به على أي حال من الأحوال، ولو كان ثَمَّ مخصصات خصصت هذا الدليل العام، فكم من مخصص خصص العموم، حتى أن العلماء قالوا إنه ما من عام إلا

وقد خصص ما عدا بعض العمومات التي لا يجوز تخصيصها، وهي لا تتعلق إلا بجانب العقيدة، لا تتعلق بجانب العمل، وكذلك نجد أن المطلقات قيدت، وأن المجملات بينت، وأن هناك منسوخاً وثَمَّ ناسخا، فلا بد من فهم ذلك، ولا بد من فهم كيفية التخصيص للعمومات، وكيفية التقييد للمطلقات، وكيفية البيان للمجملات، هذه أمور لا يتمكن منها إلا الحاذقون الفاهمون الذين درسوا هذا الفن، وهو فن أصول الفقه.

فأنّى للعامي أن يأتي إلى القرآن الكريم وهو يجد في تضاعيف كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ أحكاماً شتى، هذه الأحكام جاءت عامةً، ولكنها خصصت بمخصصات متعددة، مثال ذلك قول الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ١ - ٢]، جاء حكم الزاني والزانية في كتاب الله أنه الجلد، ولم يفرّق القرآن بين محصن وغير محصن، ولكن السُّنَّة النبوية التي أُجمع على صحتها وأخذت بها الأمة جميعا خصصت هذا العموم، ودلّت على أن هذا الحكم إنما هو خاص بالبكر، وأما المحصن فلا بد من رجمه، كذلك نجد أن الله ـ تبارك وتعالى ـ في تعداد المحرمات من النساء قال بعد ذلك: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]،

إلا أن السُّنَّة النبوية بينت أن ثم محارم لم يذكرها القرآن الكريم، فلا بدَّ من تخصيص عموم قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾

بتلكم المخصصات التي وردت عليه، من ذلك أن النبي ﷺ قال: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا المرأة على خالتها، لا الصغرى على الكبرى ولا الكبرى على الصغرى»[(١)]. كذلك القرآن الكريم عندما تعرّض للمحارم

(١) رواه أبو داود (١٧٦٨) والترمذي (١٠٤٥).

من قبل الرضاع إنما ذكر الأمهات والأخوات فقط، ولكن السُّنَّة النبوية على صاحبها ـ أفضل الصلاة والسلام بيّنت أن المحارم تتعدى ما ذكر القرآن إلى كل ما يحرم من قبل النسب، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[١]، وثبت عنه ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة»[٢]، وثبت عنه عليه الصلاة والسلام: «إنما الرضاع مثل النسب»[٣]، إلى غير ذلك، فكان في هذا تخصيص للعموم.

كذلك نحن نجد في القرآن الكريم قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، نجد أن الله ـ تبارك وتعالى ـ ذكر هنا أربعة أصناف من المحرمات، وأمر نبيه ﷺ أن يقول بأنه لا يجد فيما أوحي إليه محرماً إلا ما ذكر هنا، ولكن جاءت مخصصات بعضها من القرآن نفسه، وبعضها من السُّنَّة النبوية.

فمن المخصّصات ما جاء في القرآن الكريم، وذلك أن الله ـ تبارك وتعالى ـ حرّم الخمر وهي من جملة المطعومات، فهذا تخصيص لهذا العموم، كذلك حرّم الحق ﷻ الصيد على المُحرم، وهذا من جملة المخصصات، كذلك جاءت السُّنَّة التي خصصت هذا العموم، فالنبي ﷺ نهى عن أكل الحمر الأهلية، وقال أيضاً: «أكل كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير حرام»[٤]، فدل ذلك على أن هذه الآية خُصّص عمومها بمخصصات متعددة.

---

(١) رواه الربيع (٤٢٥) والبخاري (٢٤٥١).
(٢) النسائي (٣٢٥١).
(٣) الربيع (٥٢٣).
(٤) رواه الإمام الربيع (٣٨٧).

فلو أخذ الإنسان بالعموم الذي يجده في القرآن لوقع في أمر مريج، ولقي من الإشكال أمراً لا يكاد يتصور، ولكن لا بد من النظر في المخصصات، والمقيدات والمطلقات، وأسباب النزول، فكل ذلك مما يضطر الإنسان إلى أن يدرس فن أصول الفقه فضلا عن حاجة الإنسان إلى معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسُّنَّة، ومعرفة مقاصد الشريعة الإسلامية لينزل كل شيء منزله، وليعطي كل شيء حكمه، فمن هنا كان التقول على الله ـ تبارك وتعالى ـ بغير علم من أكبر المحرمات، فالله ـ تبارك وتعالى ـ قرن ذلك بالإشراك عندما قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

واللغة العربية لا بد من أن يكون الدارس للفقه متمكناً منها حتى ينظر في دلالات الألفاظ من حيث اللغة العربية، فنجد أن المجتهد هو بحاجة إلى النحو، وبحاجة إلى الصرف، وبحاجة إلى البلاغة، وبحاجة إلى أصول الفقه، وبحاجة إلى علوم الحديث، بحاجة إلى فنون مختلفة ليتمكن من الاجتهاد، ونجد كثيراً من الاختلاف بين الفقهاء يُبنى على النظر في بعض الحروف في العربية، وهذا الاختلاف إنما مرجعه إلى النظر في شيء قد يراه الإنسان أمراً بسيطاً، ولكنه في الحقيقة ليست ببسيط، مثال ذلك أن العلماء اختلفوا في التيمم بغير التراب: هل التيمم مقيد بالتراب أو يمكن أن يكون بغير التراب من أجزاء الأرض؟ الذين قالوا بأنه يتيمم بأي شيء كان بالتراب وغير التراب قالوا بأن من التي في (منه) في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ [المائدة: ٦]، هي لابتداء الغاية، والذين قالوا لا بد من أن يكون تيمماً بتراب يلتصق بالكفين عند ضربهما عليه قالوا بأن (من) هنا للتبعيض. كذلك مثال ذلك الواو في قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، اختلفوا فيها هل هي للحال أو هي للعطف؟ وبناء على هذا الاختلاف وقع الاختلاف في حكم أكل ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه، والله تعالى أعلم.

إذا كانت فتوى المفتي تحمل عدة أقوال بدون أن يرجح رأياً من الآراء، فهل يجوز للمستفتي أن يعمل بأيها شاء؟

علينا أن ندرك التفرقة بين مسائل الرأي ومسائل الدين، فمسائل الرأي مجال الاختلاف فيها واسع، ذلك لأنه من المعلوم أن كل واحد يتشبث بدليل ولو اختلفوا، ومسائل الرأي إنما هي فيما لم يرد فيه نص قطعي الدلالة وقطعي المتن، قطعية المتن إنما تكون بتواتر النص، ومعنى كونه متواترا أن يتلقاه عدد كبير لا يمكن أن يتواطأ مثلهم على الكذب عادة، يتلقونه عن مثلهم فعن مثلهم هكذا حتى ينتهي تلقي هذا النص إلى المعصوم ﷺ، فمثل هذا النص هو قطعي المتن، ولكن إن كانت دلالته دلالة ظاهرة، وليست دلالة نصية كالعام؛ فإنه يكون ظني الدلالة، ولذلك يقولون في العام مثلاً (العام ظني الدلالة ولو كان قطعي المتن)، فإن كان قطعياً من حيث الدلالة ومن حيث المتن؛ ففي هذه الحالة لا يجوز أن يخالف هذا النص القطعي من حيث الدلالة ومن حيث المتن، فلا يؤخذ بأي دليل آخر يخالفه نظراً إلى أن الأدلة الظنية لا تقاوم الأدلة القطعية، وذلك كتحريم الربا مثلا، أو تحريم الخمر، أو تحريم أي شيء من هذا القبيل، هذا الأمر أصبح من المعلوم من الدين بالضرورة، فلا يجوز الاجتهاد في ذلك، أي لا يسوغ أن يقول قائل مقالاً يخالف النص الشرعي القطعي من حيث الدلالة ومن حيث المتن، وأما ما عدا ذلك فإن المجال واسع للاختلاف، إذ الأدلة تتعارض أحياناً، فبعضهم يأخذ بهذا الدليل لأنه يترجح عنده على

الدليل الذي يخالفه، وبعضهم يأخذ بذلك الدليل لأنه يترجح عنده على الدليل الذي يخالفه وهكذا، فلذلك تتعدد الآراء في النظر إلى مخصصات العمومات، وفي النظر إلى تقييد المطلقات، وفي النظر إلى كيفية استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلة نظراً إلى أن هذه الأدلة أدلة غير نصية، فلذلك يقع الاختلاف بين العلماء في المسائل التي تدل عليها.

والمسائل التي هي معدودة من مسائل الرأي، وهي التي يستدل لها بأدلة ظنية؛ لا يقطع فيها عذر المخالف، ولكن مع هذا كله فإنه من الواجب على الإنسان إن وجد عالماً مجتهداً قادراً على الترجيح أن يرجع إليه، ذلك لأن العالم شأنه كشأن الطبيب، فالطبيب قد يعطي لهذا جرعة، ويعطي لآخر جرعة أخرى مع أن علتهما واحدة إلا أنه ينظر في كثير من الأحوال في الطبائع، فطبائع الناس تختلف، هذا طبعه حار يابس، وهذا طبعه حار رطب، وهذا طبعه بارد رطب، وهذا طبعه بارد يابس، فيكون علاج هذا يضر ذلك، وبجانب ذلك أيضاً ينظر الطبيب أحياناً إلى الفصول، وينظر إلى المناخات، وذلك أن المناخ الاستوائي غير المناخ البارد وهكذا، فلذلك يحتاج الطبيب إلى النظر في طبائع الناس، وفي طبائع المناخات، وفي طبائع الفصول والأزمنة، فيكون العلاج بمقدار ذلك، وهكذا شأن العالم أيضاً، مثال ذلك أن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ جاء إليه رجل، وسأله عن تقبيل الرجل لزوجته وهو صائم، فأباح له ذلك، وجاءه رجل آخر وسأله نفس السؤال فمنعه من ذلك، وقد لاحظوا أن الرجل الذي أباح له أن يقبّل امرأته وهو صائم كان شيخاً؛ أي رجلاً متقدماً في السن، ومن المعلوم أن الشيخوخة مظنة ضعف الشهوة، والآخر الذي منعه من ذلك كان شاباً، والشاب إنما هو مظنة فوران الشهوة، فلذلك منعه لئلا يجره التّقبيل إلى ما هو أعظم منه، وهكذا.

ثم مع ذلك قد تختلف الظروف، وتختلف الأحوال، فنجد الدليل الشرعي يشرع ويكون لمصلحة يعلمها الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولا يستطيع أن يطّلع على تلك المصلحة إلا الربانيون من العلماء، ولذلك كان عمر رضي الله تعالى عنه ينظر في بعض الأحوال، فيحكم بأحكام قد يتبادر أنها مخالفة للتي حُكم بها في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه، مثال ذلك أنه منع المؤلفة قلوبهم ما كانوا يُعطونه في عهد الرسول ﷺ وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه، وسهم المؤلفة قلوبهم منصوص عليه في القرآن الكريم، على أن اجتهاد عمر إنما كان في تطبيق حكم القرآن لا في أصله فهو رضي الله عنه لم يقصد مخالفة القرآن، ولم يقصد مخالفة الرسول ﷺ، ولم يقصد مخالفة ما أجمع عليه المسلمون في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ولكن رأى أن سبب ذلك الحكم في القرآن إنما هو لأجل مراعاة غاية، هذه الغاية كان لا بد من ملاحظتها في عهد النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه، ولكن بعد ذلك أصبحت أمراً لا داعي إليه؛ لأن الزمن تبدل، فسهم المؤلفة قلوبهم إنما شُرع من أجل كف شر هؤلاء المؤلفة لما لهم من مكانة اجتماعية عند قومهم فشرع إعطاؤهم من أجل استدرار خيرهم وكف شرهم، والإسلام بعدما قوي وأصبح يغزو الروم والفرس في عقر دارهما لم تكن هناك حاجة إلى أن يعطي هؤلاء مما كانوا يعطونه من قبل، فلذلك منعهم، وقال: (إن ذلك لما كان الإسلام ابن لبون، وأما الآن فقد بزل)؛ أي صار قويا ليس هو بحاجة إليهم، فهكذا كان اجتهاده مبنيا على أصل أصيل في الحق، فأين هؤلاء الذين يستطيعون أن يفرّقوا بين هذه الدقائق؟ لا ريب أن ذلك أمر لا يقدر عليه كل أحد، وإنما يقدر عليه العلماء الربانيون المتمكنون من العلوم، القادرون على النظر في الأحكام الشرعية وإنزال كل شيء منزله، ولأجل هذا كانت الضرورة داعية إلى أن يتقيد الإنسان برأي العالم المجتهد في عصره إن وجد العالم المجتهد القادر على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، والله تعالى أعلم.

أنتم ذكرتم أن العالم الرباني الذي لديه العلم الواسع هو يفتي للناس، لكن نعود مرة أخرى، هذا العالم الرباني في بعض الأحيان عندما يُستفتى يسرد في أقواله عدة آراء لا يرجح شيئا منها، هل يصح للمستفتي أن يأخذ بأيها شاء؟

عليه أن يسأله إن كان يعرفه قادراً على الترجيح ما القول الراجح من هذه الأقوال، فإنه مأمور أن لا يأخذ بأي رأي كان حتى يتبين رجحانه إن وجد سبيلا إلى ذلك، والله أعلم.

الرخصة موجودة في الكثير من الأحكام الفقهية وهي تتناسق مع قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»[١]، وأنه ﷺ ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما[٢]، لكن العلماء لا يظهرون هذه الرخصة بل ينفرون من تتبعها، ويزجرون من يسأل عنها، ألا يتناقض هذا مع الحديث الداعي إلى اليسر؟

ما هي الرخصة في عرف الفقهاء؟ إنما الرخصة هي القول العاري من الدليل، والقول العاري من الدليل ولو قاله من قاله فإنه لا يعتد به، إذ لا يعدل طالب الحق عن الدليل إلى غيره، قد نجد من الفقهاء من يقول ورُخِّص، ولكن في مصطلحهم أن هذه الرخصة هي قول لم يقم عليه دليل، ومن المعلوم أن الإنسان متعبد باتباع الدليل مع وجوده، فإن كان الدليل قطعياً فتعبده به أمر قطعي، وإن كان ظنياً فتعبده به أيضاً أمر ظني، وهو وإن كان لا يُقطع عذره إن خالف الدليل الظني إلا أنه إن كان ذلك تبعاً لهواه فلا ريب أنه لا يجوز له اتباع الهوى؛ إذ ليس للإنسان أن يعرض عن الدليل مع قيام الحجة به.

---

(١) رواه البخاري (٦٧) ومسلم (٣٢٦٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٩٦) ومسلم (٤٢٩٤).

ولا ريب أنه مع وجود الدليل الشرعي من كتاب الله أو من سنة رسوله ﷺ سواء كان هذا الدليل نصياً أو كان ظاهراً؛ لا يجوز للإنسان أن يعدل عنه؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ويقول تعالى:

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣]، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦]،

فليس للإنسان مع وجود الحجة في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ سواء كانت هذه الحجة نصية أو كانت ظاهرة أن يقوم باعتصار ذهنه من أجل أن يصل إلى قول يخالف الدليل الشرعي أو يسلس قياده لمن أتى بقول من عنده بغير دليل.

كما أنّ الأدلة أيضاً تتعارض، وقد يكون الدليل الذي استدل به العالم هو الدليل الأقوى، وليس للعالم أن يعدل عن الدليل الأقوى إلى الدليل الأضعف؛ لأنه مطالب أن يقارن بين الأدلة، وينظر المرجحات ما بينها، فقد يكون هنالك دليل ولكن هنالك ما يدل على أنه منسوخ، أي نسخه دليل آخر، فلا تكون الحجة في المنسوخ وإنما في الناسخ، كذلك إن كان دليل الرخصة عموماً ودليل العالم الذي لا يترخص خصوصاً، فإن الخصوص يقدم على العموم، كذلك إن استدل أحد بالإطلاق مع وجود ما يقيد فإنه لا يعدل إلى المطلق مع وجود المقيد؛ إذ المطلق يجب أن يحمل على المقيد، كما أن العام يحمل على الخاص، وهكذا، فهذه الأشياء لا بد من النظر فيها، وقد يكون الدليلان متكافئين من حيث

قوتهما، ولكن مع ذلك فإن أحد الدليلين يتفق مع مقاصد الشرع فيترجح بذلك، والآخر قد يكون لا يتفق مع مقصد الشارع، فلا بد من مراعاة ذلك، فلذلك من الواجب على الإنسان أن يتفطن لهذه الدقائق، وهي طبْعاً لا يدركها العوام.

على أن الذين يأخذون بالرخص هم يريدون التلفيق ما بين آراء أهل العلم؛ ليخرجوا برأي لم يقله أحد من أهل العلم قط؛ بحيث يأخذون من هذا العالم الترخيص في مسألة كذا، ويأخذون من قول الثاني الترخيص في مسألة ثانية، ويأخذون من العالم الثالث الترخيص في مسألة ثالثة، وإذا بما يأتونه خليط من الآراء لم يقله أحد من أهل العلم قط، وفي هذا ما يؤدي إلى فساد الدين، وإلى الميوعة، وهذه أمور لا يرضاها الإسلام قط، والله تعالى أعلم.

المرأة إذا بلغت مبلغاً من العلم، وتأهلت للفتيا إذا ما تصادم قولها مع قول عالم من الرجال، فبرأي من يؤخذ؟ إذ المعروف بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل.

يؤخذ بالرأي الذي يترجح بالدليل، والنساء قد يبلغن في العلم مبلغاً لا يقل عن مبلغ الرجال، فأمهات المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنهن ـ عندما كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يختلفون في الكثير من المسائل لا سيما المسائل التي تتعلق بالنساء أو المسائل التي اطلعت أمهات المؤمنين على موقف للرسول ﷺ فيها فإن أولئك الصحابة كانوا يأخذون بعد الاختلاف بينهم بما يصلهم من قبل أمهات المؤمنين من آراء وروايات، كم من مسألة وقع فيها الاختلاف بين الصحابة، ولما رفعوا الأمر إلى أمهات المؤمنين فسألوهن فأبدين لهم ما كان غامضا عليهم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يرجع إلى

أمهات المؤمنين في الكثير من المسائل، بل ربما رجع إليهن حتى في الأمور التي لم يكن فيها نص عن النبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، مثال ذلك أنه مرّ بامرأة في الليل وهي تقول:

ألا طال هذا الليل واسود جانبه وليس إلى جنبي خليل ألاعبه

إلى آخر الأبيات...

فطلب المرأة، وسأل عن شأنها، فإذا بزوجها في الغزو وهي بحاجة إلى معاشرته، فسأل ابنته السيدة حفصة رضي الله تعالى عنها عن الزمن الذي يمكن أن تصبر فيه المرأة عن زوجها؟ فقالت له: إنها ينتهي صبرها بمضي أربعة أشهر، فأمر أن لا يبقى غاز في غزوته أكثر من أربعة أشهر إن كانت له امرأة.

وكذلك عندما وقع الخلاف بين ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ وأبي سلمة ابن عبدالرحمٰن بن عوف، وهو من التابعين، وليس من الصحابة، ولكن وقع بينهما خلاف في المعتدة إن كانت حاملاً ووضعت حملها قبل مضي أربعة أشهر وعشر؛ أي إن كانت مميتة، فقال ابن عباس: تعتد بأبعد الأجلين، وقال أبو سلمة ابن عبدالرحمٰن: بل بوضعها حملها تنتهي عدتها، فجاء أبو هريرة فعرضا عليه الأمر، فقال: أنا مع ابن أخي؛ أي مع أبي سلمة ابن عبدالرحمٰن، فأرسلوا رسولاً إلى أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فأجابتهم بأن سبيعة الأسلمية وضعت حملها بعد موت زوجها بليال، وأمرها النبي ﷺ أن تنكح من شاءت[1]؛ إذ اعتبر عدتها قد انتهت، هذا مما يدل على أن الصحابة كانوا يرجعون إلى أمهات المؤمنين.

(١) رواه الإمام الربيع (٥٤٠) والبخاري (٣٦٩١).

فإن نبغت امرأة وكانت من الفطنة والذكاء والإدراك، والقدرة على فهم الأدلة والترجيح ما بينها في مكانة لم يصلها عالم من علماء زمانها القادرين على الاستنباط من الرجال؛ فلا ريب أن قولها يقدم على قولهم والله أعلم.

العقل ومكانته في التشريع الإسلامي

هل يؤخذ بالأدلة العقلية دائما، مع العلم أن عقل الإنسان نسبي ؟

هناك قضايا تفهم من طريق العقل، فإن العقل يدرك أن كل صنعة تفتقر إلى صانع، والله ﷻ ذكر العقل في القرآن الكريم، وجعله مناط قيام الحجة ووضوح المحجة، فقد قال الله في كثير من الآيات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] و﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الرعد: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فعلينا أن لا نتجاهل العقل، وقضية العقل وقع فيها خلاف شديد بين العلماء المتكلمين والأثريين، فنجد الأثريين يهملون هذا الجانب العقلي، ويفسرون النصوص بحسب ظاهرها من غير رجوع إلى العقل في استلهام حقائق معانيها، ونجد المتكلمين بخلاف ذلك، ولربما بالغ بعضهم حتى قدم العقل على النقل ومن هؤلاء المعتزلة القائلون بتحكيم العقل، ونجد الإمام الفخر ـ وهو من غير المعتزلة ـ بلغ به الأمر في تفسيره بأنه اعتبر الأدلة النقلية كلها ظنية ونص على ذلك أيضاً في «محصوله».

وبناءً على هذا فإنها لا تقوم بها حجة في الأمور العقدية، وقد نص على ذلك في تفسير قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ

﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧] وما قاله كلام غريب يتناقض مع تطبيقاته، فهو نفسه يستدل في الأمور العقدية القطعية بمفاهيم المخالفة، وقد احتج لما ذهب إليه من ظنية السمعيات بأن الأدلة السمعية تحتاج إلى دراسة اللغة، ونقلة اللغة هم آحاد، فإذا ما دلت عليه اللغات لا تتجاوز حجيته أن تكون ظنية، وتعقبه الإمام السالمي في طلعة الشمس، وقال بأن الأسماء المشهورة التي لا تقبل التشكيك كالأرض والسماء والماء والهواء والشمس والقمر والليل والنهار وأمثال ذلك، لا تحتاج إلى دراسة أو رجوع إلى مراجع اللغة والكتب التي تعنى بفنونها، ثم لا نسلم أن جميع النقول هي آحادية، لأن كثيرا من نقلة اللغة جابوا الصحراء والتقوا بالبدو، فتم نقلها من طريق جماعة عن جماعة ولا يعد مثل هذا آحادياً، ونجد الأمام الفخر ينتصر كل الانتصار للمسلك الكلامي، ففي تفسيره سورة البقرة في معرض ذكر العقل أطال في تأييد الاستناد إلى المناهج العقلية في القضايا العقدية، وأيد مسلك الكلاميين، وأخذ يرد على الأثريين رداً عنيفاً.

وأقول بأنه لا بد من التوسط بين الأمرين، فالجانب العقلي لا يهمل، وكذا الجانب النقلي، ولو تعارض العقل والنقل فلا نقول بأنه يعتمد على العقل ويترك النقل، ولكن العقل يستند إليه في استلهام مقاصد النقل من غير تكلف، فالقضايا العقلية مثل دلالة الكائنات على وجود الصانع سبحانه لا بد أن يمعن الإنسان فيها عقله وتفكيره، ولذلك نوه الله ﷻ بالعقل وبالتفكر، وعندما احتج الله ﷻ على عباده الذين ضلوا السبيل احتج عليهم من طريق العقل، فقال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الروم: ٨]، وقال الله سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وكان ذلك بعد تقرير توحيده ﷻ في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] فلا بد أن يتفكر الإنسان في هذه الأشياء، والله أعلم.

الإيمان باللّه



أدلة وجود الله

أنتم استمعتُم سماحة الشيخ إلى الكلمة التي تحدثتْ عن العقيدة الإسلامية وبينتْ أنها مجانِبة للعقل كما أنها تحدثتْ عن نبينا ﷺ وذكرتْ بأنه جاء بما هو سيء، هذه الكلمة أثارتْ ضجّة في العالَم الإسلامي واستمعنا واستمعتُم إليها، فنودّ أن نسمعَ كلمتَكم فيها أيضاً؟

وفي تَعبٍ مَن يُنكِرُ الشمسَ ضَوءَها ... ويَجهَد أن يأتِي لها بِضَرِيب

فمَن تَطاوَل على الإسلام إنما هو:

كناطِحٍ صخْرةً يوما ليُوهِنَها ... فلم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَه الوَعِلُ

الإسلام دِين الله ـ تعالى ـ الحق الذي جاءت الرسالات مِن عندِ الله حاملة هدايته، وقد أتَمَّه الله على أكملِ وجْه وأدَقِّ الأحكام وأوْسَع المداخِل والمخارج في هذه الرسالة الخاتِمة التي بُعِثَ بها النبي ﷺ، وقد جاءتْ رسالاتُ النبيِّين مِن قَبل مُبَشِّرَةً بها وداعيةً إلى الإيمانِ بها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

على أن كلُّ النبيين جاؤُوا دُعاةً إلى تَوحِيدِ الله سبحانه، وإنما ضَلَّ مَن ضَل وانحرَفَ مَن انحرَفَ عن هذا المنهَجِ السّوي بِتأثِيرات مُتَعَدِّدَة كان لها أَثَرٌ في انحِرافِ العُقول وطَمْسِ بَصائِرِها، وإلّا فَالرُّسُل كلُّهم جاؤُوا بِدعوةِ التوحيد، وهذا ما يُؤَكِّدُه القرآن، فالله ـ تعالى ـ يَقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد حكى الله تعالى عن كلٍّ مِن نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام أنهم قالوا لقومهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وحكى عن المسيح عليه السلام أنه قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ [المائدة: ٧٢].

فهذه هي الرسالة التي جاء بها المرسَلون.

والنبي ﷺ قد أُرسِل برسالةِ التوحيد التي تَهدِي إلى الحق وتُميِّز ما بيْن الحقيقةِ والوَهْم، والتي تُقِيمُ الإنسانية على طرِيقةٍ سواء بِحيثُ يَكونُ الخضوعُ لله تعالى وحدَه، ويَكونُ الانقِيادُ لِحُكمِه والإذعانُ لِطاعتِه، لأنه مالِكُ المُلْك، فكلُّ مَن في السماوات والأرض إنما هو عبدٌ لله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

هذه هي رسالة التوحيد التي يَقوم عليها الإسلام والتي دعا إليها النبي ﷺ، وكان يُعلِنُها بيْن قومِه، فالإسلام يَقوم على شهادةِ أن لا إلٰه إلا الله وأنّ محمدا رسول الله مع التصديق بجميع النبيين وبجميع الكتُب، كما يقول الله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ويقول سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ويقول: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وهذه العقيدة أيضاً مبنية على العقل السليم. فنحن نرى في كتابِ الله تعالى كيف أنّ القرآن يُرشِد العقول إلى النظر في هذا الكون، والفهم الصحيح

للواقــع، وإدراك أنّ كل ذرّةٍ مِــن ذراتِ هذا الكون هي كلمــةٌ مِن كلماتِ الله ناطِقَة بِالاعتِرافِ بِوُجُودِه وبِوحْدانِيتِه، فكلُّ ما فيه إنما يُعْرِبُ عن هذه الحقيقة، والقرآنُ الكريم يُفتِّــحُ بَصائِرَ النــاس لإدراكِ هذه الحقيقة، ويَأخُــذُ بِعُقُولِهِم لِلتّطْوَافِ في هذا الكوْن الفسِــيحِ الأرْجاء ـ الذي جَعَلَه الله مَعْرضاً رَبّانِيا يَقِف الإنسان في جُزْءٍ منه على ما يَدُلُّه على الله تعالى.

فالله ـ ســبحانه ـ عندَما عَرَّفَ عِبادَه بِنفسِــه عَرَّفَهم بِما يَدُل عليه وعلى وحْدانِيَتِــه مِن خِلالِ الآيات الكثِيــرَة الــمُنْبَثَّة في الكــوْن والتي جاءَ القرآنُ الكرِيم لِيَعْكِسَــها، حتى صارَ القرآنُ الكرِيم هو المــرآة الصافِية التي تَعْكِسُ حَقَائِقَ هذا الوُجُــود، فالله تعالى يَقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]، ويَقول سبحانه:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢ - ٤]، ويَقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤]، ويَقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] كلُّ هذه الآيات مِن أجْلِ تَعريفِ الإنسان بِربِّه.

وفي معرض تَعريف الإنسان بِوحْدانيَةِ الله ـ سبحانه ـ نَجِد القرآن يَقرِنُ ذلِكَ بِآياتِ الله التي تَدُل على أنّ هذا الكوْن وحْدَةٌ مُتَكامِلَة كلُّ جُزءٍ منه مُكَمِّلٌ لِبَقِيةِ الأجْزاء، فالله تعالى عندَما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] أَتْبَعَ ذلِكَ قولَه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] فالإنسان يَرَى الدَّلائِلَ الواضِحَة على وحْدانِيةِ الله فمع هذه الآيات الكونية الظاهرة لا يمكن أن يَكونَ هذا الكون صادِرا عن أَكْثَرَ مِن إرادةٍ واحدة؟!

لو كان هنالِك عَدَدٌ مِن الخالِقِين لَكان لِكلِّ واحدٍ منهم إرادَة مُستَقِلَّة عن إرادةِ الآخَر، وتَعَدُّد الإرادات يؤدي إلى الاختلافِ في المراد، والاختلافُ في المراد يؤدي إلى فسادِ الكون، وهو الذي أَعْرَبَ عنه القرآن، إذ قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلو كان هنالكَ أكثر مِن إلٰه لأدّى ذلك إلى فسادٍ في هذا الكون وتصادمٍ ما بيْن هؤلاء الآلهة، لأنّ كلَّ واحد منهم يريد أن يُنفِّذَ إرادتَه على حسابِ إرادةِ غيْره، وهذا مِمّا يؤدي إلى تَشتُّتِ حال الكون، ولكنّ الكونَ مُنتَظِم انتِظاما غريبا مِن ذرّاتِه الدقيقة إلى مَجرّاتِه الواسعة.. كلّ شيءٍ منه بِمِقدار، كما يَقول الله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

ويقول الله سبحانه مُبَيِّنا أيضاً دلائِلَ وحدانيته في مقام الاحتِجاج على الذين اتّخَذوا مع الله آلهةً أخرى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤] كلُّ هذه الآيات تَدل على ارتِباطِ هذه العقيدة ارتباطا وثِيقا بالعقل، ولذلك نَرَى في كتابِ الله تعالى أنّ الله سبحانه يُكرِّم العقل ويُشرِّفه ويَدعُو إلى استعمالِه، ويدعو إلى التفَكّر والعلم والفِقه والنّظَر، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢] ويقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣] ويقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١] فهي دائما تَجعَل المستمِع أو المفكِّر أو الناظِر بِنفسِه حَكَما في هذا الأمر.

وقد سلكت التصورات الأخرى طريقاً مناقضاً لهداية العقل فلهذا نَرَى الأناجيلَ الأربعة قد اضْطَرَبَتْ في أمر المسيح اضطِرابا كبيرا، ففي أحدِها هو إنسان وفي الآخَر هو خادِم، وفي الثالِث هو ابنُ الله، وفي الرابِع هو الله، ويَأتِي المقدِّم لهذه الأناجيل ويقول: لا اختِلافَ في ذلك فهذا الخادِم هو الإنسان، وهو ابنُ الله، وهو الله! كيف يَكون الإنسان هو الله؟!

وعندما سألت المختصين من أصحاب هذه الديانة وأردتُ منهم حَلًّا لهذه المشكلة ردّوا عليّ بِأنّ هذا أمر لا تَصِل إليه العقول.

إذن كيف يَخضَعُ الإنسان لِما لا يُستساغُ في عقلِه؟!

كيف يكون الإنسان هو الله؟! وكيف يكون الله ربُّ السماوات والأرض اتّخَذَ ولدا؟! مع أنّه تعالى وجودُه وجودٌ أبدي، كما أنه وجودٌ أَزَلِي، فهو لا يُرِيدُ ولدا لِيُعَوِّضَه، ولا لِيُعِينَه، لأنه هو القوِي القاهِر، ولا يريد ولدا لِيَتَسَلَّى به أو لِتَقَرَّ به عينُه تعالى الله عن ذلك، ولذلِك يَرُدُّ الله تعالى على هؤلاء الذين قالوا: اتّخَذَ الله وَلَدا رَدَّ عليهم بِأنه هو الغني سبحانه ولا يَحتاجُ إلى الآخَرين.

فالقرآن يُعلِّمُ الطفلَ الصغير أن يَقولَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، هذه هي عقيدة القرآن، فهل في هذا ما يَرُدُّه العقل، وما يَتَصادَم مع الفِكر السليم؟!

وإنما هذا الذي تمجه أفواههم من الإفك وتقيئه قرائحهم من الباطل يَدُل على ما في هذه النفوس مِن المرض، وما في هذه الصدور مِن الحقد، وما في هذه البصائر مِن الانطِماس، وإلا فالإسلام أَعْظَم وأَجَل مِن أن تَمتَدَّ إليه انتِقاداتُ المنتَقِدِين، لأنّ كلَّ جزئيةٍ مِن جزئياتِه ـ فضْلا عن كلياتِه ـ قائِمة على العقلِ الصحِيحِ السلِيم، ولذلك كَرَّمَ العقلَ أيَّما تَكرِيم، والله أعلم.

امرأة في بعض الأحيان تتفكر في خلق الله ـ تعالى ـ وتشعر بعظمة الله لكنها في أَحْيَان أُخْرَى يَتَدَاخَلُهَا وَسْوَاس ويَغْزُوها الشيطان فيبعدها عن التَّفَكر في هذه العظمة ؟

الكَوْن كُلَّه مَسْرَح لاعْتِبَار الإنسان، فإن كل ذَرَّة مِن ذراته ـ كَمَا يَقول

أَحَد عُلَمَائنا ـ هِي كلمة مِن كلمات الله، ناطقة بِوُجُوده دَالَّة على شهود عظمته سبحانه، وَمَا عداها فهو كالشَّرْح لِتِلك الكلمة، فَكُل ذرة مِن ذَرَّات الكَوْن فِيهَا دَلَائِل شَتَى على وجُودِ الله، ودَلَائل مُتعددة على وِحْدَانِيَتِه وعَظَمَتِه وقُدرته وجلاله وعلمه، وذلك أن الإنسان يَرَى أن كُلَّ ما في الكَوْن مَصْنُوع حادث كان بعد أن لَم يكن، فالذرة بِتَرَاكِيبها: النواة والالكترونات التي تدور مِن حولها وفيها مِن النيوترونات وغيرها ما هو مقدر تقديراً عجيباً، ذلك كله شاهد على أن الله تعالى هو الذي أوجد هذه الذرة وهو الذي خلقها فهي مُعْرِبَة بِلِسَان حَالِهَا عن افْتِقَارها إلى واجب الوُجُود لذاته سبحانه الذي تَجَلى في كل مَوْجود وُجُودُه وغمر الكَوْن كُلّه شُهُودُه.

وعندما ينظر الإنسان ـ أيضاً ـ إلى ما فَوق هذه الذَّرَات، وهي العَنَاصِر التي تَتَكون مِن هذه الذَّرَّات كيف تَلْتَئم وتتحد بِمَشِيئَة الله سبحانه، ويَنظر بعد ذلك إلى المركبات وإلى الأجسام وإلى الأَجْرَام الفَلَكَية وغيرها يأخذه العَجَب وَيَرَى قوة الرباط الذي يربط ما بين هذا الكون المُترامي الأطراف، الواسع الأرجاء بحيث إنه مع هذه السَّعة التي تَفُوت مَدَارك البَشَر لا يَخرج عن كَونِه وحدة مُتَكَامِلة كل جزء مِنها مُكَمِّل لِبَقِية الأجزاء، وفي ذلك دَلَالة وَاضِحَة على وحدانية الله ﷻ، لأن وحدة نظام الكون دليل على أنه صادر عن مكون واحد، ولذلك عندما وَصَفَ الله نفسه بِالوَحدانِيَة حَيْث قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، أَتْبع ذَلِك قَوْلَه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فكل مَا ذُكر في هذه الآية الكريمة إنَّما يدل على وَحْدانية الله سبحانه.

ومثل ذلك ـ أيضاً ـ قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٣]، فإذن الكَوْنُ كُلُّه إنَّما هو مَسْرَح لاعتبار الإنسان، إذْ تَتَجَلَّى له من خلال نظرته إلى نظام هذا الكون عظمة المعبود تبارك وتعالى، ووحْدَانِيته وعِلْمُه وقُدْرَتُه وحيَاتُه وإرادته ومَشِيئَتُه سبحانه لأن ذلك كلَّه مِمَّا يدل على أن مُكَون هذا الكَوْن قَد أَحَاطَ بِكُل شيء عِلْماً وقدرَةً، وأنَّه لَا يَخْرج شيء مِن هَذَا الكَوْن عن إرَادِتِه سبحانه.

فالإنسان مِن خلال نَظْرَته إلى هذه الكائنات تَتَجَلَّى له الحقائق الغَيْبِية كما هي، وبِهَذا يكون موصولاً بالله ﷻ.

أَمَّا الوَسْوَسَة التِي يُمْلِيها الشَّيطان على الإنسان فإن عَلَى المؤمن أن يَسْتَعِيذ بِالله ـ تعالى ـ منها مَهْمَا طَرَأت عليه وأن يُغَالَبَها، فالله ـ تعالى ـ يَقُول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١]، فهكذا شأن المتَّقِين إذا أَلَمَّ بِهم شيء مِن الشيطان يَتَذَكَّرون وَيَتَرَاجَعُون ويدركون وَسْوَسَة الشَّيْطَان وشَرَّه ومَكَائِدَه وما يريد بِهم، فهذا كله مِمَّا يَجب أن يَتَفَطَّن لَه الإنسان.

ومَهْما يكن فإن الإنسان الذِي يُحس بعظمة الله تعالى من خلال نظرته إلى الكائنات ويُحِس بِنِعْمَتِه سبحانه تَغْمُره مِن خلال نظرته إلى ما سَهَّل له في هذا الكَوْن يكون مَوْصُولاً بِرَبِّه، والإنسان مطالب أن يُمْعِن فِكْرَه في هذه الحقائق لِيُدْرِك أَنَّه أفقر ما يكون إلى الله تعالى في جميع أحواله فهو تعالى يقول مُذَكّراً لِعِبَاده ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ١٧ - ٣٢]، ففي هذه الآيات يذكّر الله ﷻ الإنسان أولاً بنعمة خلقه إِيَاه، فَقَد خُلِق مِن عدم، مِن أَمْر مهين في منتهى المهانة، مِن خَلِيَة وهي المُعبَّر عنها بالنُطْفَة وَهِي مِن دِقَّتِهَا وَحَقَارَتِهَا تُنظَر بِالمِجْهَر ولا تَكَاد تُبْصَر، ثم طَوَّرَه الله تعالى بَعْدَ أن خلقه منها طوراً بعد طَوْر حتى كانت هَذِه الملايين من البشر، وفي جسم الإنسان مَلَايين الملايين مِن الخلايا، وَهِي مُتَنَوِّعة ولَهَا وظائف متعددة بقدر حاجة الإنسان إليْهَا.

ثُمَّ مع هذا وُجد ـ أيضاً ـ في الإنسان ذَلِكم السِّر الغَيْبِي وهو نَفْخُ الله تعالى فيه مِن رُوحِه بِحَيْث تَحَوَّل إلى كائن آخر فَصَار فيه الإحساس والمدَارِك، وَبَعْد ذلك خَرَجَ إلى هَذَا الكَوْن وأَخَذَ يَتَدَرَّج في مَدَارج الرُّقي شَيئاً بَعْد شيء، فنمت حَوَاسُّه الظاهِرة والبَاطِنَة ومَدَارِكُه وقَوَاهُ، فإذا به بَشَر سَوِيٌّ سَميعٌ بَصيرٌ عَليمٌ قديرٌ يتصرَّفُ بإرادة ويَستَطِيع أن يُحكم الأمور التَي يَحْتَاج إلى إحكامها في حيَاتِه وهكذا، فهذا مِمَّا يدعوه إلى الاعتبار، وفي خضم هذه التطورات تدور على الإنسان دورة الحياة فيأخذ في انتكاس أَطْوَارِه الأَخِيرَة، كما قال تعالى:

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾ [يس: ٦٨]، ثم يَمُوت بعد ذلك ثم يقبر.

في سياق الآيات يُذكّره الله بنعمة الغِذَاء الذي يسره الله ـ تعالى ـ له، فالإنسان بِحَاجة إلى الغذاء، وهو مُيَسَّر للإنسان بِقدر حاجة الجَسَد، فما كانت الحاجة إلَيْه أَدْعَى كان أكثر يُسْراً، فنَحْن لا نستغني في جَمِيع الأَحْوَال عن الهَوَاء، وَقد جَعَل الله ـ تعالى ـ الهواء مُيَسَّراً يسْتَنْشِقُه الإنسان في نَوْمِه وفي يَقَظَتِه في ذِكْرِه وفي غَفْلَتِه في حركته وفي سكونه مِن غير أي عَنَاء ومن غير أي ثَمَن.

ثم تأتي بعد ذلك الحاجة إلى الماء والحاجة إلى الطعام الذي ذكره الله به في قوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ [عبس: ٢٤] كيف يُسِّر هَذَا الطعام؟ وكيف مَرَّ بِمَرَاحِل كثيرة: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢]، فمَن الذي يسّر ذلك، ومَن الذي أنزل هذا الماء، فلو أن الله سبحانه أمسك قطر سمائه مَن يستطيع أن يُنْزِل ما أمْسَكه ـ تعالى ؟ ولَوْ أن الله ـ تعالى ـ جَعَل هذه الأرض تَتَشَقَّق وَتَغُورُ الميَاه التي فِيهَا إلى أبعاد لا يُمكن أن يَتَوصل إليها الإنسان مَن الذي يستطيع أن يَسْتَرِدها ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾ [الملك: ٣٠].

فهَذَا كلُّه مِمَّا يدعو الإنسان إلى أن يكون كثير الاعتبار شاكراً لنعم الله ـ تعالى ـ عليه، يُحس ويشعر بها تغمره في جميع أحواله وَلَوْ وقف حياته كلها وعبادته من أولها إلى آخرها على طاعة الله ـ تعالى ـ فَكَان لسانه ذاكراً دائماً لِرَبِّه، وكانت كل جارحة مِن جوارحه تعمل بطاعة الله، لَما استطاع مع هذا كله أن يَفِيَ بِشُكْر أَقَلِّ نعمة بل أقل جزء مِن أقل نعمة مِن هذه النعم العظيمة؛ والله ـ تعالى ـ المستعان، وهو أعلم.

لقد قارنتَ بين صنعة الله وصنعة الإنسان فما علاقة صنعة الله بالإيمان به؟

صنعة كل شيء دالة عليه، فهذا المسجد يدل على الصانع الذي صنعه، وما دمنا نستدل بذلك على أن أحدا صنع المسجد، ولا يقبل عقلنا أن يكون قد تصنّع بنفسه من غير صانع صنعه، فكذلك صنعة الله تدل عليه، والله أعلم.

بماذا يمكن أن يرد المرء على نفسه التي كلما انفرد بها أخذت تسأله هل كان الله موجودا قبل خلق السماوات والأرض وذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]؟

هذه الخواطر يمليها الشيطان إملاءً على الإنسان، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إن للملك لمة بابن آدم وإن للشيطان لمة»[(١)] فإذا أحس الإنسان بمثل هذه الخواطر الشيطانية فعليه أن يقول: «آمنت بالله» وليتأمل مظاهر الكون فإنه يجد فيها أدلة قاطعة بأن الله ﷻ كان قبل خلق كل شيء، لأنه لو كان وجوده مسبوقاً بعدم لاحتاج إلى موجد، وهو مما يؤدي إما إلى الدور[(٢)] وإما إلى التسلسل[(٣)]، وكلا الأمرين مستحيل، فلما استحال الأمران معاً ثبت من ذلك بأن الله ﷻ كان قبل خلق كل شيء وهو الآن على ما عليه كان، فالزمان والمكان حادثان، وقد كان الله ﷻ قبل خلقهما، وهو الآن على ما عليه كان ـ تعالى الله عن مشابهة خلقه علواً كبيراً.

هذا ولا بدّ من التنبيه على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ حتى لا يبقى في النفوس

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٨٨).

(٢) الدور: هو توقف كل من الشيئين على الآخر من جهة واحدة.

(٣) التسلسل: هو توقف شيء على شيء آخر، ويكون الآخر متوقفاً على شيء ثالث، والثالث على رابع وهكذا إلى غير نهاية.

شيء من اللبس في معناه، بسبب عطف الاستواء على العرش على خلق السموات والأرض «بثم» وهي تقتضي المهلة والترتيب؟ نعم إن «ثم» تقتضي المهلة، ولكن هذه المهلة تكون مهلة رتبية كما تكون مهلة زمنية، فترتيب «ثم» يكون ترتيباً رُتبياً أحياناً كما يكون ترتيباً زمنياً في بعض الأحوال، وقد قال بعض العلماء بأنها إذا عطفت الجمل فلا تكون إلا للترتيب الرتبي وحده، وممن قال به من المفسرين المتأخرين الشيخ الطاهر بن عاشور، ونحن وإن كنا لا نقول ذلك بالإطلاق إلّا أنا نقول بأن «ثم» كثيراً ما تأتي للمهلة الرتبية حال عطفها للجمل، والشواهد على ذلك كثيرة في القرآن الكريم، ومنها هذه الآية في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فالله ﷻ ذكر أولاً خلق السماوات والأرض، وذلك مما يستدعي أن يكون عقل الإنسان مفكراً في أطوار هذا الخلق وأحواله، ثم ينتقل به الحديث إلى شئ آخر يعدُّ بعيداً جداً بحيث يقطع العقل في الانتقال إلى التفكير فيه مسافات، فبسبب قطع العقل لهذه المسافات الفكرية استحقت تلك الجملة الآتية العطف بـ«ثم».

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١١] فبدأ بالخلق أولاً والتصوير ثانياً، والتصوير مترتب على الخلق، فكونه متأخراً على الخلق زماناً هذا مما لا شك فيه، وبعد ذلك قال: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مع أن آيات «ص» و«الحجر» تدلان على أن أمر الله الملائكة بالسجود سابق على الخلق فقد قال تعالى في «الحجر»: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩] وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فالأمر المحكيّ في كل منهما سابق على الخلق، ويوحي بذلك ـ أيضاً ـ أن الله ﷻ آذن الملائكة ـ كما جاء في سورة البقرة ـ بأنه جاعل في

الأرض خليفة وذلك قبل أن يجعله، قطعاً فـ«ثم» في كل منهما للمهلة الرتبية وليست للمهلة الزمنية.

ونحوها في قول الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٦ - ٧٠] فقوله سبحانه:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٧٠] عطف بـ«ثم»، مع أن مدلولها سابق على وقوع ذلك، فالله ﷻ هو أعلم بالذين هم أولى بها صليا قبل أن يحدث أي شيء مما أخبر عنه أنه سيقع في المستقبل، بل علمه بذلك أولي، ولكنه عطف ذلك بـ«ثم» من أجل المهلة الرتبية التي ذكرناها، ذلك لأن العقل يقطع مسافة ما بين تفكيره في الأمر الأول المذكور في الجمل المعطوف عليها وتفكيره في الأمر الثاني المذكور في الجملة المعطوفة.

وجاء مثل ذلك ـ مع التصريح بالبعدية في غير العطف بـ«ثم» ـ فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١٣] فالبعدية هنا ليست بعدية زمنية فكونه عتلاً وزنيماً سابق على كونه حلافاً مهيناً همازاً مشاءً بنميم إلى آخره، والله أعلم.

طالبة بالمرحلة الثانوية كانت نصرانية فأسلمت ولم تُظهر إسلامها خوفا من أبيها المتعصب ولكنّ أمَّها تميل إلى الإسلام وهي نصرانية ـ أيضاً ـ والأمّ تقرأ القرآن وتتابع البرامج الدينية، فماذا تقول للأم؟ وبماذا تنصح البنت التي تخاف إظهار إسلامها؟ وماذا عن الحجاب، ما نصيحتك لها، هل تلبسه، أم لا حذرا من معرفة أبيها لإسلامها؟

بالنسبة إلى الأم عليها أن تتقي الله وأن تتبع الحق، فإنّ الإنسان لا يُسمَح له أن يبقى على غروره وضلاله وقد تبيّن له الحق، إذ هو مسؤول عن عقله الذي منحه الله تعالى إياه، فما لهذا الإنسان واتباع المسالك الملتوية والمعتقدات التي لا تستسيغها العقول السليمة، كاعتقاد أنّ الله ثالث ثلاثة، وأنّ الله هو المسيح بن مريم، مع أنّ المسيح حملته أمه وولَدَته كسائر البشر، فأنّى للإله أن يكون محمولا؟! وأنّى للإله أن يكون مولودا؟! ومن الذي كان يصرِّف هذا الكون ويدبِّر هذا الوجود عندما كان هذا الإله جنينا في رحِم أمّه؟! ليت شعري أيُّ عقل يستسيغ مثل هذه المقولة؟! وهذا يعني أنّها عليها أن تترسَّم طريق الحق وأن تتّبعه؛ بينما هذه الفتاة عليها أن تجد لنفسها المناخ المناسب من أجل أن تشْهِر إسلامها، ولعلها تستطيع أن تقترِن بالرجل الصالح الذي تجد عنده الكَنَف الذي يأويها، وتجد عنده الضمان لاستمرار هدايتها واستمرار راحتها وطمأنينتها، ويجعل الله تعالى على يديه يسرها بعد عسرها إن شاء الله؛ وأسأل الله تعالى لها التوفيق والله أعلم.

ما هي وحدة الشهود ووحدة الوجود؟

لا ريب أنّ الله تعالى هو الواحد الأحد الفَرْد الصَّمَد الذِي لَم يَلِد وَلَم يُولَد ولَم يَكُن لَه كُفُواً أحد، والكَوْن بِأَسْرِه مَا هو إلا صَفَحَات مُشْرِقَة بأنوار رُبُوبِيَتِه تعالى مِن حيث إن رُبُوبِيَتَه تَتَجَلَّى في كل ذَرَّة مِن ذَرَّات الوُجُود، ولذلك قَال بَعْض العُلَماء الرَّبَّانِيين: «كلُّ ذرة مِن ذَرَّات الوُجُود إنَّمَا هِي كَلِمَة مِن كلمات الله ناطقة بِتَوْحِيده وتنزيهه ـ سبحانه ـ، وما عداها فهو كالشَّرح لتلك الكلمة».

وَهَذَا مَا يَدُل عليه القرآن الكريم لأن الله تعالى أَحَال في القرآن على النَّظَر في آيات الله تعالى في الأنفس وفي الآفاق، فقد قال: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ

فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أيْ كَيْفَ يَشُكُّ الإنسان في وُجُود الله مَعَ أنَّ دَلَائِل هذا الوُجُود بأسره دَالَّة على وجوده، ويقول سبحانه: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم أتْبَع ذلك قوله:

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ومعنى ذلك أنّ الله ـ سبحانه ـ بعدما ذَكَر أنَّه الإله الوَاحِد لا إلٰه إلا هُو الرَّحْمَن الرَّحيم، وأنَّ كل مَا يُعْبَد سَوَاه لَيْسَ هو مِن الأُلُوهِيَّة في شيء بيّن أدَلَّة ذلك مِن خِلال ما يَتَجَلَّى للإنسان وَيَتَرَاءَى لَه في هذا الوُجُود، الـمُتَرَامِي الأطرَاف الوَاسِـع الأرْجَاء، فإن هَذَا الكَوْن كُلَّـه على تَبَاعد أطرافه وتَرَامِيهَا هو وحدة مُتَكَامِلَة، كل جزء مِنْـه مُكَمِّل لِبَقيَّة الأجزاء، فلا يُمكن أن يصَدَرَ عن أكثر مِن مُكَوِّن وَاحد، لأَنَّه لَوْ كان هُنَالِك أكْثَر مِن خَالق لاسـتقلَّ كُلُّ وَاحِد مِنْهُم بإرَادَتِه، وإذا اسْتَقَلَّ كل واحد مِنْهُم بإرَادَتِه فلا بد مِن أن يكون مُسْـتَقِلاً بِمُرَادِه، فيُرِيد كل منهم الشَّيْء بِخِلَاف مَا يُرِيدُه الآخر، يُرِيدُه أَحَدُهُمَا طويلاً وَيُريده الآخر قصيراً، ويرِيدُه أحدهُمَا أبْيَض وَيُرِيدُه الآخر أَسْوَد، ويُرِيده أحدهُمَـا ليناً ويريده الآخر صلباً، ويُريده أحدهما ناعماً ويُريده الآخر خشـناً، وهَكَـذَا تَخْتَلِـف الإرَادات، وباختلافها يَخْتَلِف المراد، وهـذا مِمَّا يؤدي إلى التَّنازُع وإلى عدم انتظام هذا الوُجُود وَذَلك الذي دَلَّ عليه قوله ﷻ:

﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ويَتَجَلَّـى في شـهود هَذَا الوُجود كُلِّه أن الله ـ تعالى ـ إلٰه واحد وذلك لأن هَذَا الوجود بأسـره منتظِم مُتَنَاسِق مُتَسَاوِق كُل جزء منه ـ كما قلت ـ مُكَمِّل لِبَقِيَة الأجزاء فَلَا نِشَازَ وَلا اضطراب ولا تَنَاقض، وهذا دليل وَاضِح عَلى وَحْدَانِية خَالِقِه، فوحدة الشُّهود تَتَجَلَّى في هَذَا، لأن الله تعالى يَتَجَلَّى وجوده في كل ذَرَّة من ذَرَّات الوُجُود.

ولكن مع ذلك هذا التَّجَلِّي ضَلَّ به قوم زَعَمُوا أن الخالق والمخلوق هو حقيقة واحدة، فَلَم يُفَرِّقُوا بين الخالق والمَخْلُوق فَأَعْطَوا مَا للخَالِق للمَخْلُوق، وَوَصَفُوا المخَلُوقَ بصفة الخالق، حتى أنَّهم ذَهَبُوا إلى الشَّك والاضطراب بِحيث قَال: أحدهم ـ والعِياذ بالله ـ:

الرَّب عبد والعبد رب فليت شعري أين المكلف
إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب فأنى يُكَلَّف

وذُكِر عن بعضهم أنَّه قال: «سبحاني سبحاني مَا أعظم شَأنِي» وَقَال بعضهم أيضاً: «مَا في هذه الجبَّة غير الله» يعني أنَّه هو الله، إلى آخر مَا قيل مِن أمثال هذه التُّرَّهَات وَهِي التِّي يُعبر عنها بِفلسفة وحدة الوُجُود.

وهذه فلسفة كانت وجدت في بعض الدِّيَانَات المنْحَرِفَة بسبب بُعْد أصحابها عن سَوَاءَ الصِّرَاط في تَصَوُّرَاتِهِم لِنَظَام هَذَا الكَوْن، وَلَكن بِسَبَب الاحْتِكَاك الذي حَصَلَ بين بعض المسلمين وَبَعض فلاسفة الهُنود الوَثَنِيِّين وغيرهم انتَقَلَت فِكْرَة وِحدة الوُجُود إلى بعض صُوفِيَة المسلمين فَعَبَّرُوا بِمثل هذه التَّعبيرات البَعِيدة عَن الحق وهي لا تُقَرُّ أبداً، ولا يَجُوز أن يُصَوِّبَها أيُّ أحد وَلَوْ كانت صادِرَة في شَطَحَاتِهم وفي أحوالٍ هُم فيها بَعِيدُونَ عَن الصَّوَاب.

فإذن فلسفة وِحدة الوُجُود بِهذا المعنى لا يُمْكِن أن تُقَرَّ أبداً، إذْ وُجُودُ الخالِق لَيْسَ كَوُجُود المَخْلُوق، فالمَخْلُوق وُجُودُه وُجُود جَائِز في الأَصْل، وأمَّا وُجُود الخالق فهو وُجُود وَاجِب، إذْ لا يُتَصَوَّر أن يكون غَيْر مَوْجُود بِأيِّ حَال مِن الأحْوَال أزلاً وأبداً، أمَّا المخلوق ففي الأَزَل لَم يكن مَوْجُوداً، ثُم إن وُجُودَهُ يَنْتَهِي إلى أن يشاء الله تعالى أن يُجَدد له الوجود، ولئن كان الله تعالى كتب الخلود لعباده: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي

ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]، فإن ذلك الخلود إنَّما هو بِتَخْلِيد الله تعالى لَهم، فليس بِقَاؤُهُم إلا بِإِبْقَاء الله ـ سبحانه ـ إيَّاهُم، أمَّا بَقَاءُ الله ـ تَعَالى ـ فهو بَقَاء ذَاتِيٌّ ليس كَبَقَاء المخلوق، ولا يُمْكِن أنْ تُقَاس صِفَات الخلق على صِفَات الحق.

نَعم هناك صِفَات كَمَالِيَّة لله تعالى يَتَّصف المخْلُوقُون بِمَعَانِيها مِن غَيْرِ أن يَكُونُوا مُشَارِكِين لله تعالى في حقيقتها، فالإنسان قد يُوصَفُ بالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر؛ ولكن عَلَيْنَا أنْ نُدْرِكَ الفَرْقَ الكبير بين عِلْم المخلوق وعلم الخالق، فَعلم المخلوق عِلْم جُزْئِي نِسْبِي مَحْدُود جداً لا يُسَاوِي شيئاً أبَداً بِجَانِب مَا يَجْهَلُه، بينما علم الخالق ﷻ عِلم مُحيط بِكل شَيْء لَا يَعْزُب عَنْه شَيْء في الأرض ولا في السَّمَاء، وكل ذَرَّة مِن ذَرَّات الكَوْنَ ومَا هو أدَقُّ منها أحاط الله تعالى بتَرَاكِيبه وخصائصه وطَوَايَاهَ وَأَبْعَادِه، عَلَى أنَّ عِلْمَ المخْلُوق علم حادث، لأنه حادث مثله، وكل أسراره وَهُو لَا يعلم شيئاً، ويَتَجَدَّد العلم فيه وينمو شيئاً فشيئاً: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨]، أمَّا علم الله فَعِلْم أزَلِيٌّ ليست لَه بداية بِحال من الأحوال.

وكذلك المخلوق قَدْ يَعِيشُ حَتَّى يُنْكِرَ مَا كان يَعلَمُه كما يقول ﷻ: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥]، بينما الله تعالى عِلْمُه بَاقٍ، أزَلِيٌّ أَبَدي، لا يَتَجَدَّد وإنَّما تتجدد المعلومات، إذ يَعْلَمُ الكَائِنَات كُلَّهَا في الأزل قبل وُجُودِها، كما يَعْلَمُهَا فيما لا يَزَال بعد وجودها.

وهكذا بالنِّسْبَة إلى القُدْرَة، فإن المخلوق ولو وُصِف بالقُدْرَة إلا أن قُدْرَتَه قُدْرَة نِسْبِيَة مَحْدُودَة لَا تُوَازِي شيئاً بِجانب مَا يَعْجِزُ عنه، بينما الله تعالى أحاط بكل شيء قدرة، ولَا أَدَلَّ على ذلك مِن خَلْقِه هَذَا الكَوْن

بِأَسْرِه مَعَ تَرَامِي أطرَافِه وبعد مَسَافَاته: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧].

وكذلك بالنِّسبة إلى السَّمْعِ والبَصَر وإلى أيِّ صِفَة مِن هَذِه الصِّفات لا يُمْكِن أن تُقَاس صِفَة المَخْلُوق بِصِفَة الخالق، إنَّمَا صِفَة الخالق صِفَة مطلقة، وصفة المخلوق نِسْبِيَة مَحْدُودة جداً.. فكمالات المخلوق إنَّمَا هي كمالات مَحْدُودة، أفَاضَهَا الله تعالى عليه، بينما كمالات الله تعالى ذَاتِيَّة لَم يُفِضْهَا عليه غيره، والله أعلم.

ما هو تَفسِيرُكم للآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٧٥]؟ وما هي أبعادها العقدية ؟

إنَّ الله تعالى أَلْهَم عباده ما ألْهَمَهم من الخير، وأقام عليهم الحجَّة مِن خلال آياته في هذا الكون الوَاسِع الأرجاء المترامِي الأطراف، لأن هذا الكون كما يقول أحد علمائنا وهو الشيخ ناصر بن أبي نبهان: «كل ذَرَّة من ذَرات الوجود هي كلمة مِن كلمات الله، ناطِقة بِمعرِفَته ـ سبحانه ـ وما عدَاها فهو كالشرح لِتِلك الكلمة».

يعنِي بذلك أن كل ذرة من ذَرَّات الوجود بأسره إنَّما تعرِب بلسان حالها عن افتقارها إلى واجِبِ الوجود لِذاته.

فالذرات الدقيقة في تراكيبها العجيبة تُوحِي بأنه لا يمكن أن تكون وُجِدت هكذا إلا من قِبَل صانع خبير عليم بكل شيء، مُحيط بكل موجود في هذا الكون، وما زَادَ على تلك الذرَّة من العناصر والجزيئات والمركبات كُلها في تناسُقِها وترابط بعضها مع بعض تدل على وجود الله سبحانه.

فإبراهيم أَرَاهُ الله ـ تعالى ـ مَلَكُوته في السماوات والأرض، وقد كان عليه السلام على مَقْرُبَة من قوم يُقَدِّسُون النار ويعبُدون الأجرام السماوية، فأراد الله تعالى أن يُجرِيَ على لسانه من دلائل الحق على أنَّ هذه الكائنات التي يعبدونَها من دون الله سبحانه ليست هي من الأُلُوهِية في شيء، يقول الله عز وجل فيما يَحكِيه عنه: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦] فهو عليه السلام لَما رأى الكوكب قال هذه الكلمة لا لأنَّه يعتقِد أن الكوكب هو الإله، ولكنه أراد أن يُقيم بذلك الحجة على هؤلاء بأنَّ الكوكب يظهَر ويَختفي وما كان كذلك فليس بإِله إذ لا يُمكن للإله أن يكون بِهذه الحالة بحيث تَعرِض له العوارض وتَمُر به الحالات وتَختلف معه الأعرَاض، بل الإله هو ثابت سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ثم بعد ذلك قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧]، كيف يُمكن أن يكون القمر هو الإله مع أنَّه يَأْفُل كسائر الأجرام السماوية، أي تعرِضُ له الحالات بحيث يظهر ثم يَختفي، ثم بعد ذلك عندما بَزَغَت الشمس: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٨ - ٧٩] فإبراهيم عليه السلام أراد بِهذا كُلِّه عندما قال: ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ في رُؤيَته للكوكب وفي رُؤيته للقَمر وفي رؤيَته للشمس أن يُقيم الحجة على قومه.

هذا هو التفسير الصحيح، وإن ذَهَب آخرون إلى غير ذلك، ولكن هذا التفسير هو الذي يتَّفِق مع دلائل العقل، فإنَّ إبراهيم عليه السلام على الفطرة السلِيمَة، وهي تتنافى مع نسبة الربوبية لغير الله سبحانه، ودليل ذلك قوله:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فهو يعلم أن هنالك فاطِراً للسماوات والأرض، وما هي السماوات إنَّما هي هذه الأجرام الفلكية وما يلفها من الفضاء السحيق، فهو يَعلَم أنَّ لِهذه السماوات والأرض فَاطِراً، هو المعبُود بحق، وكل ما يُعبَد مِمَّا عَداه إنَّما يُعبَد بغير حق.

وفي هذه القصة دَلالة للإنسان بأنَّ عليه أن يلتمِسَ الحق من طريقه، وأن يسلُك إلى الحقيقة نَهجَها الذي يُؤدِّي إليها، فالله تعالى جعل ما في هذا الكون بأسْرِه بكل ما فيه شاهِداً على وحدانيته تعالى.

والله ﷻ عندما خاطَبَنا ببيان أعظم حقيقة في هذا الوُجُود وهي وحدانيته وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، أتبع ذلك ما يُؤكِّد هذه الوحدانية ويدل عليها من دلائل هذا الكون حيث قال ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

نعم في هذه الكائنات بأسْرِها آيات لقوم يعقِلُون، كيف والإنسان يَرى أنَّ هذا الكون الواسع الأجرام المترامِي الأطراف هو وحدة مُتَكامِلَة، كل جزء منه مُكَمِّل لِبَقِيَّة الأجزاء لأنه في تَناسُقِه البديع وترتيب نظامه العجيب يُكمِّل بعضه بعضاً، فكان بِمَثابة الجسم الواحد الذي له أعضاء مُتعدِّدة، كل عضو منها مُكمِّل لسائر الأعضاء، فلذلك كانت في ذلك آيات لِقوم يعقِلُون، لأن الإنسان من خلال هذا يتوصَّل إلى أنَّ هذا الكون وحدته تدُلُّ على وحدانية خالِقِه سبحانه، فلو كان له أكثر من إلٰه لأَدَّى ذلك إلى أن يَكُون لِكُل إلٰه مِن

هؤلاء الآلِهَة إرادة مستقلة دون إرادة الآخر، وفي هذا ما يؤدي إلى التنازع والاختلاف والتنافر فيما بينهم وذلك يؤدِّي إلى أن تتغيَّر هذه الصنعة عما هي عليه بحيث لا تكون متناسِقَة هذا التناسق العجيب، وهذا ما يعنِيه قول الله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].. فالسماوات والأرض هي عبارة عن هذا الكون الذي نَرَاه والذي لا نَرَاه فهو من حيث تناسقه وترابطه هو بِمَثَابَة البناء الواحد كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وكذلك ما يَجرِي في هذا الكون، فإن الله جل شأنه جعَل أحوالاً نشاهِدُها في هذا الكون كلها تدُلُّ على وحدانيته تعالى، فالله سبحانه يُنْزِل من السماء ماء، فيقع على الأرض وفي الماء خاصية الإنْبَات وفي الأرض خاصية النَّبات، وعندما تَجتمع الخاصيتان يَحصُل النبات وهذا مِمَّا فيه مصلَحَة البلاد والعباد: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] وكذلك ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].. كُلٌّ مِن ذلك يُؤدِّي إلى إدراك الإنسان أنَّ لِهذا الكون مُكوِّناً واحداً، هذا الذي رَآه إبراهيم مِن خلال رؤيته لِمَلكوت السماوات والأرض، فهو ما كان مشركاً وإنَّما أراد أن يقيم الحجة على المشركين الذين كانوا يتَّخِذون مع الله آلهة أخرى.

وإن كان من المفسِّرين من يذهب إلى آراء أخرى في تفسير الآية الكريمة:

منهم من يقول بأنَّ هذه مراحل للتوصُّل إلى الحقيقة.

ومنهم من يقول بأنَّ الكلام إنَّما هو على تقدير أداة استفهام أي: «أَهَذا ربي؟».

ومنهم من يقول غير ذلك.

وهذه أقوال ما عليها مِن دليل، وإنَّما القول الحق هذا الذي ذكرناه.

لا ريب أن كل عاقل يدرك أن وراء كل صنعة صانعا، والكون بأسره هو من ضمن الصنعات بل هو الصنعة الكبرى، فلا بد له من صانع، ومن شواهد افتقار الكون إلى الصانع علامات حدوث الكون، فإن العلامات الدالة على حدوثه بارزة في كل شيء منه، فتراكيبه كلها دالة على أنه حادث، كما أن تناقص الحرارة الديناميكة فيه تدل على أنه سينتهي، وعلى أنه لو وجد قبل الفترة التي وجد فيها بملايين من السنين لكان قد انتهى، وهذا يعني أن الكون منته وكل ما كان منتهيا فله بداية، فإن كل ما ثبت قدمه استحال عدمه، وإذا كان الكون حادثا فلا بد له من محدث أحدثه.

هذا وقد تكلم الناس بحسب عقولهم المحدودة في حدوث الكون ودلائل وجود محدثه، وقد بحثوا في إثبات المحدث بوسائل مختلفة، من بين هذه الوسائل الطرق الفلسفية التي نهجها كثير من الفلاسفة وتبعهم عليها جماعة من علماء الكلام وهي وسائل معقدة، وهناك وسائل مبسطة جدا، جاء بها القرآن الكريم، فإن القرآن الكريم خاطب العقل البشري ليقيم عليه الحجة بوجود خالقه تعالى، من خلال وجود الإنسان نفسه، ومن خلال البيئة التي يعيش فيها، فالله سبحانه يقول: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ويقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١]، ويقول ـ سبحانه ـ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ

لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ويقول سبحانه: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨-٢٩].

في هذه الآيات وأمثالها يقيم الله سبحانه الحجة من أنفسنا ومن البيئة التي نعيش فيها ومن طبيعة الكون الذي نقلب الطرف في جزء صغير جداً من أجزائه الواسعة على وجوده تعالى وعلى صفاته العظيمة، وهذه الطريقة ميسرة للفهم، ولذلك عندما سئل أعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: «البعرة تدل البعير وأثر القدم يدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة أما يدلان على الصانع الخبير؟»، هذه الإجابة من أعرابي لم يدرس في جامعة بل لعله لم يفتح عينيه على صفحة مكتوبة، وهذه الطريقة اهتدى إليها بعض الفلاسفة وهو سقراط عندما كان يقيم الحجة على أستاذه الذي كان ينكر أن يكون لهذا الخلق خالق ولهذا الكون مكون، فقد تحدث إلى أستاذه في يوم ما حديث الطالب المتأدب أمام أستاذه فقال له: يا أستاذ، هل أعجبت ببعض الناس الذين ابتكروا شيئا من الصناعات؟ قال له: نعم، قال له: بمن أعجبت؟، قال له: أعجبت بفلان، وأعجبت بفلان، وأعجبت بفلان، فأخذ يحدث عن جماعة من الصناع، قال له: ما صنع هؤلاء؟ قال له: هؤلاء صنعوا كذا وكذا؟ قال له: من ترى أولى بالإعجاب أهذا الذي صنع الجسم الميت الذي لا حراك له ولا إرادة ولا حياة، أم الذي صنع الإنسان الحي المتكلم الذي يعبر عن إرادة ويتحرك بإرادة ويتصرف بإرادة، وله حياة تنبض ومشاعر تحس وعقل يفكر؟ قال له: لو ثبت عندي أن الإنسان صنعه

صانع لكان الذي صنع الإنسان أولى عندي بالإعجاب من الذين صنعوا هذه الأشياء التي ذكرتها لك، قال له: وإذا أقمت لك الشاهد من الإنسان نفسه على أن صانعا صنعه؟ قال له: ائتني بهذا الشاهد، قال له: انظر إلى عيني الإنسان كيف يلتقطان الصور المبصرات المختلفة، ذوات الألوان المتنوعة، ولا تشتبه عليهما هذه الصور، وتميزان ما بين صورة وصورة، وانظر إلى أذنيه اللتين تتلقيان الأصوات المتنوعة المتعددة، ولا تتخافت عليهما هذه الأصوات ولا تمتلئان بها مع صغرهما وكثرة الأصوات، وانظر إلى طعام الإنسان كيف يَطعمه؟ فإن هذا الخالق الذي خلقه جعل له أسنانا في المقدمة كالسكاكين تقطع هذا الطعام ثم يلقيه الفم إلى الأضراس الخلفية التي هي كالرحى تطحن هذا الطعام، أما يكفيك ذلك شاهدا على أن للإنسان خالقاً، ولهذا الكون كله خالقا؟ قال له: بلى، فسلم لهذا المنطق الذي خاطبه به تلميذه».

وفي العصر الحديث شاعت بين الناس فكرة الإلحاد، واعتبروا إنكار وجود الله سبحانه والاعتماد على الاعتراف بما أبصرت الأعين وسمعت الآذان، فكرة تقدمية، والاعتراف بوجود خالق وراء هذا الكون والإيمان بحقائق غيبية من الخرافات التي يترفع عنها العقل الواعي المتفتح، كما تحدثوا كثيرا عن طبيعة حدوث الكون، ومن النظريات الجدلية العقيمة التي جاؤوا بها أنهم قالوا بأن الكون حدث بطريقة المصادفة، لأن ذرات الكون كلها تتحرك، فبتحركها وقع التلاقي فيما بينها فتركبت ووجد منها الكون، وقد ردّ أحد الفلاسفة الفرنسيين من الذين تفتحت عقلوهم على فهم الحقائق التي هي وراء المحسوسات فقال: يلزم هؤلاء الذين يقولون بهذه النظرية أنه لو جاء أحد فكتب الحروف الهجائية مقطعة في أوراق متقطعة كل حرف في ورقة صغيرة ثم جمع بينها في صندوق وأخذ يهزه هزا،

يلزمهم أن تتولد من هذه الحروف قصيدة عصماء أو خطبة بليغة أو كتاب في الفلسفة أو في علم من العلوم لأن جميع العلوم التي تكتب إنما تكتب من هذه الحروف، كما أن الكون تكون من هذه الذرات، فإذا كانت المصادفة العمياء يمكنها أن تجمع ما بين هذه الحروف فتوحد بينها حتى يتكون منها كتاب أو تتكون منها قصيدة أو خطبة، كذلك يمكن أن تكون هي التي سببت تلاحم هذه الذرات حتى وجد منها هذا الكون الفسيح الذي ترتب ترتبا دقيقا والذي هو وحدة متكاملة بحيث يكمل كل جزء منه سائر الأجزاء، وإذا استحال ذلك في الحروف استحال أن يكون الاهتزاز بذاته ألف بين الذرات حتى انتظم منها هذا الوجود، وهذا المنطق وإن كان سليما إلا أن منطق القرآن أبلغ منه فانظروا كيف يخاطبنا الله بما يثلج الصدور ويقنع الفكر والوجدان من آياته الدالة عليه، حيث يقول: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ١٧ - ٣٢] انظروا إلى منطق القرآن، هو يقيم الحجة على الإنسان بوجود خالقه من وجود نفسه ومن خلق هذا الكون الذي سخره له، فالكون مسخر للإنسان ويعلم أن كل مسخَّر لا بد له من مُسخِّر وكل مدبَّر لا بد له من مُدبِّر، وكل محدَث لا بد له من مُحدِث وكل مصنوع لا بد له من صانع، فإن أحدنا لو جاء مثلا إلى هذا المسجد فألقى عليه نظرة من أول الأمر لم تسبقها نظرة لعلم قطعا أنه بنته يد صانعة، وأنه لم يصنع نفسه هكذا، مع أن جميع المواد التي تكون منها كانت موجودة من قبل، فالإسمنت، والرخام والرمل، والحديد، والألمنيوم والأخشاب كلها كانت موجودة قبل أن يتكون المسجد، لكن

لا يصدق عقل أحد أن هذه المواد يمكنها تجتمع بنفسها حتى تتصنع فيتكون منها هذا المسجد، وهكذا كل جهاز من الأجهزة فإن كل مركباته كانت موجودة من قبل ولكن لا يمكن لعقل أحد أن يصدق بأنها جاءت بنفسها والتأمت من غير أن تكون هنالك إرادة دبرت صنعها ويد تولت جمعها، فكيف بالإنسان الذي لم يكن شيئاً مذكوراً؟! فإن الذي بلغ من العمر ثلاثين سنة لم يكن شيئا مذكورا قبل ٣٠ سنة، وهكذا، فكيف يمكن لهذا الإنسان الذي كان عدما أن يخرج نفسه من عالم الغيب إلى عالم الشهود ومن عالم العدم إلى عالم الوجود، كل عقل يدرك تعذر ذلك، ثم لينظر الإنسان إلى المادة التي خلق منها، والتي سماها الله سبحانه نطفة.

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧] هذه النطفة ـ أو كما يعبر العصريون عنها بالحيوان المنوي أو بالخلية المنوية ـ هي من الحقارة والدقة بحيث لا تكاد تبصر حتى بأشعة المجهر، فإن الإنسان يتكون من حيوان منوي واحد من مائتي مليون حيوان منوي يقذفها الإمناء في المرة الواحدة، والنطفة تجتمع فيها جميع الخصائص البشرية مع صغرها، وليست الخصائص البشرية العامة فحسب بل كذلك الخصائص البشرية الخاصة أيضاً، فإن الخصائص الوراثية تكون مجتمعة فيها ولذلك يشابه الإنسان أباه وعمه وجده وأبا جده إلى ما وراء ذلك، سواء كانت هذه الخصائص الوراثية جسمية وهي الخصائص الظاهرة أو نفسية وهي الخصائص الباطنة، فكيف جمع هذا الحيوان الصغير بين هذه الخصائص الوراثية الواسعة مع الخصائص البشرية العامة، ثم لا يلبث هذا المصنوع أو المخلوق الجديد المهين كما وصفه الله ـ سبحانه ـ، أن يتطور من طور إلى طور، وفي سلسلة هذه الأطوار يمر بمراحل مختلفة كل مرحلة منها يتكون تكونا عجيبا حتى يخرج من رحم أمه خلقا آخر غير الخلق الأول؛ لأنه يخرج وهو إنسان كامل

تبرز فيه معاني الإنسانية الظاهرة والباطنة، ثم يتدرج شيئا فشيئا حتى يبلغ نموه إلى منتهاه، ثم يتدرج بعد ذلك في النقص شيئا فشيئا، هذا الإنسان جمع الله سبحانه فيه من عجائب صنعه الشيء الغريب العجيب، فإن تركيب الإنسان تركيب معقد إلى أقصى حدود التعقيد وصفاته مستغربة إلى أقصى حدود الغرابة، فقد جعل الله سبحانه في جسم كل إنسان ملايين الملايين من الخلايا، ومن عجيب أمر الله سبحانه أن الطعام الذي ييسره للإنسان يأتي إلى المعدة فيتوزع على هذه الخلايا كلها ويسد حاجتها من الغذاء.

ومن عجائب الأمور أن هذه الخلايا المتعددة جميعها لها طابع صاحبها، فخلايا الذكر عليها طابع الذكورة، وخلايا الأنثى عليها طابع الأنوثة، وهي مقدرة في جسم الإنسان تقديرا دقيقا، فالدماغ يتكون من أربعة عشر مليارا من الخلايا، وقد جعل الله سبحانه خلايا الدماغ مركز الجسد كله، فجميع خلايا الجسد تؤدي إلى هذه الخلايا الدماغية لأن أنسجة من هذه الخلايا تمتد إلى الجسد كله، يعبر عنها بالأنسجة العصبية فبواسطتها نسمع ونبصر ونحس بالحرارة والبرودة ونتذوق ونشم ونحس بالتعب أو بالألم، فإذا انعكس في شعاع البصر شيء فإنما تلتقط صورة ذلك المرئي من كل عين مائة وثلاثون مليون خلية تؤدي إلى الدماغ فتميِّز خلايا الدماغ ما بين مبصَر وآخر، وما بين الألوان والمقادير في الصغر والكبر والعرض، والأصوات تلتقطها عشرة آلاف خلية لتؤديها أيضاً بدورها إلى الدماغ، وكذلك البرودة فإن البرودة عندما تؤثر على الجسد تلتقط حس هذه البرد خلايا تقدر بربع مليون تؤدي حس هذا البرد إلى الدماغ، وعندما يشتد البرد تحصل الرعشة وتتنفس الشرايين بحيث تزيد هذه الشرائين قدرا من الدم بقدر ما يسد ذلك الفراغ الحاصل فيها، وكذلك عندما يحس أحد بالحرارة فإن عدداً من الخلايا تنقل أثر هذه الحرارة إلى

الدماغ كما أن هناك الغدد العرقية التي تتوسع ليتصبب العرق في هذا الجسم ويقدر عدد هذه الغدد بثلاثة ملايين غدة.

وهذه الأمور ميسرة للإنسان تيسيرا لا يحس به، ولألفته هذه الأشياء يراها هينة، ولا يعرف مقدار نعمة الله تعالى فيها، بل لألفة الإنسان للنطق يرى أن النطق أمر هين؛ فلذلك لا يكترث بنعمة النطق، بينما الله تعالى يذكرنا هذه النعمة العظيمة عندما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ - ٤]، فذكر أولا إنزال القرآن ثم ذكر ثانيا خلق الإنسان ثم ذكر ثالثا تعليمه البيان لأن نعمة البيان نعمة عظيمة، فكيف يمكن لأحدنا أن يعرف ما في ضمير صاحبه لولا أن الله سبحانه، يسر لنا النطق ويسر لنا فهم مقاصد صاحب النطق، فكل واحد يستمع من غيره ويؤدي أيضاً ما في نفسه إلى غيره بما آتاه الله سبحانه من البيان، والنطق ليس بالأمر الهين، فإنه يمر بحلقات متعددة ولكن مروره بها مرور سريع ولذلك لا يهتم الإنسان به، فالإنسان عندما ينطق يستوحي النطق من الدماغ وما وراء ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه وهنا يرتفع من الطاقة الهوائية الموجودة في الرئتين بمقدار ما يقدر الله سبحانه لأداء هذا الحديث فيرتفع في الشعب ثم إلى الحنجرة وهناك يمكن للإنسان أن ينوع الصوت حسبما يريد إن أراده مديدا أو منقطعا، وإن أراده رفيعا أو نازلا، وتشترك مع ذلك الأضراس واللسان والحنك والشفتان والهواء، فيمر النطق هذا المرور السريع في هذه الحلقات كلها بأمر الله سبحانه من غير أن يشعر الإنسان بعظم هذه المنة العظيمة عليه ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] ومع هذا كله يتطاول الإنسان المهين الحقير على رب العالمين الذي أقام عليه شاهدا من نفسه بأنه سبحانه موجود فينكر وجوده.

فواعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فكل ما في الإنسان آيات دالة على وجود الله ـ سبحانه ـ، وهناك ما هو أدق من الخلايا، وما هو أدق من الجسيمات يمكن أن نعبر عن كل واحد منها بأنه لسان ناطق بتسبيح الله سبحانه وتمجيده، وإن من أعجب ما قرأته ما كتبه الإمام العلامة الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي رحمه الله تعالى في إحدى قصائده النورانية، قبل نحو مائة وخمسين عاما من وقتنا هذا أو ما يزيد على ذلك قال في هذه القصيدة:

أعاين تسبيحي بنور جناني ... فأشهد مني ألف ألف لسان
وكل لسان أجتني من لغاته ... إذن ألف ألف من غريب أغان
ويهدى إلى سمعي بكل لغية ... هدى ألف ألف من شتيت معان
وفي كل معنى ألف ألف عجيبة ... يقصر عن إحصائها الثقلان
ولم أذكر الأعداد إلا نموذجا ... كأني في أوساطي ميططران
وإلا ففوق العد أمر منزه ... عن الحد يفنى دونه الملوان
ولا تتعجب إن عجبت فإنها ... حقائق صدق ليس بالهذيان

هذه حقائق موجودة في الإنسان، هدى الله إليها العلماء النورانيين الذين يبصرون بنور الله تعالى قبل أن يكتشفها العلم، ومثل هذه الهداية أنني في الأيام القريبة قرأت كتابا في مضار التدخين فوجدت أن كثيراً من الأطباء يظنون الآن بأن التدخين يؤثر على الصحة الجنسية، ثم وجدت بعد ذلك كتابا آخر كتبه الدكتور محمد علي البار وهو من الأطباء الكبار في المملكة العربية السعودية، في مستشفى الملك عبدالعزيز قال بأنه

ثبت بأن التدخين يؤثر على الصحة الجنسية، وهذا كلام قاله بعض علمائنا منذ وقت طويل، فالإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في جوهره: «يضعف الشهوة في الجماع...».

حقائق يهدي إليها الله سبحانه من يختار من عباده، فهذا جزء صغير من العجائب الموجودة في الإنسان.

ثم إن الله سبحانه جعل في الإنسان العقل، الذي نرى أثره ولا نعرف حقيقته ونسلم الأمر فيه لله سبحانه، كما جعل الله سبحانه في الإنسان الروح، التي قال فيها: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالإنسان ينطوي على عوالم لا على عالم واحد، فعجائب تكوينه عالم وأفكاره عالم، ومشاعره عالم والروح التي هي من أمر الله سبحانه عالم غيبي، فجدير بالإنسان الذي خلقه الله سبحانه وأسبغ عليه هذه النعم ويسر له هذه المطالب أن يكون موصولا بالله سبحانه في عقيدته وفي عمله.

ثم لننتقل إلى المناخ الذي هيأه الله سبحانه للإنسان وهو الأرض، فالأرض فيها ما لا يحصى من آيات الله ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] بل نستطيع أن نقول في هذه الأرض وفي الكون بأسره ما قاله الإمام ابن أبي نبهان، حيث يقول: «كل ذرة في هذا الكون هي كلمة من كلمات الله ناطقة بوجود الله، وما بقي فكالشرح لتلك الكلمة»، فما من ذرة في هذا الكون إلا وهي كلمة تعبر عن افتقارها إلى الله وعن وجود الخالق سبحانه، وكل ذرة هي سجل حافل بآيات الله ـ سبحانه ـ، وقد هيأ الله الأرض لأن تكون قرارا للإنسان، فخلق هذه الأرض بكل طبائعها تمكيناً للإنسان لأن يستقر فيها، فقد جعل الله سبحانه كل شيء فيها بمقدار ما ينفع الإنسان، فجعل حجمها بمقدار وحرارتها التي تصل إليها من الشمس

بمقدار، وجعل المسافة التي بينها وبين الشمس بمقدار وجعل المسافة التي بينها وبين القمر بمقدار وجعل دورتها حول نفسها بمقدار، وجعل الغلاف الهوائي الذي يحيط بها بمقدار، وجعل حرارة الأكسجين فيها بمقدار، فإن الأرض بمقدارها الحالي فيها من الجاذبية بقدر ما يتمكن الإنسان من الاستقرار عليها من غير معاناة تعب، فالضغط الهوائي على كل بوصة منها بمقدار خمسة عشر رطلا، والإنسان يحمل من الهواء مقدار اثنين وعشرين ألفا وثمانمائة وأربعين رطلا، ولو كانت هذه الأرض أكبر حجما مما هي عليه بحيث لو كانت في حجم الشمس مثلا لكان الضغط الهوائي على كل بوصة بمقدار طن، ولما أمكن أن تنمو الأجساد في الأرض، ولو كانت الأرض في حجم القمر، لانعدمت الجاذبية التي تمكن الإنسان من الاستقرار عليها.

وكذلك جعل الله تعالى الغلاف الهوائي بمقدار خمسمائة ميل، وهو يحيط بالأرض من كل ناحية، ولو كانت الأرض أكبر من هذا المقدار لتلاشى هذا الغلاف، وهنا تحل الكوارث بالأرض ومن فيها، لأن الله سبحانه جعل هذا الغلاف الهوائي كقبة مضروبة على الأرض، تقيها وتقي من فيها وما فيها الشهب المترامية في هذا الفضاء، هذه الشهب التي تفوق سرعة الواحد منها سرعة الرصاصة بتسعين ضعفا، ثم إن الله سبحانه جعل الأكسجين فيها بنسبة ٢١٪ فكيف يكون الأمر لو كانت هذه النسبة بمقدار ٥٠٪، إن شرارة واحدة مع هذه النسبة تكفي لأن تشعل غابة بأسرها بمجرد لمعان برق، ولو كانت هذه النسبة منخفضة إلى مقدار ١٠٪ لتعسر على الإنسان أن يجد النار التي يطبخ بها طعامه.

ومن ذلك دوران الأرض حول نفسها، والذي يساوي ألف ميل في الساعة، هذا الدوران السريع جعله الله ـ تعالى ـ بمقدار، فلو كان الدوران

أسرع من ذلك لكان الإنسان في اضطراب، ولو كان الدوران أقل سرعة من ذلك بحيث تدور الأرض مقدار مائتي ميل في الساعة لتجمدت الأرض في الليل وانصهرت في النهار؛ ثم إن المسافة التي بين الأرض والقمر هي أيضاً مسافة مقدرة تقديرا فإن القمر له أثر على حركة الجزر والمد، فلو كان القمر أقرب إلى الأرض لطغت المياه على الأرض ولو أن القمر كان أبعد لنضبت، وكذلك المسافة بين الأرض والشمس جعلها الله تعالى بمقدار، فلو كانت الشمس أقرب إلى الأرض من هذا المقدار لانصهرت الأرض، فالطاقة الحرارية التي تصلنا من الشمس هي بمقدار نسبة واحد من مليونين، هذه الطاقة جعلها الله سبحانه بقدر ما تتزود الأجسام بالطاقة الحرارية وبقدر ما يكفي لنمو النباتات في الأرض، تلك هي مشيئة الله ـ سبحانه ـ، ومن ذلك حجم الشمس الذي جعله الله ـ تعالى ـ أيضاً بمقدار، فلو أن نجماً آخر من النجوم الضخمة كان حالا محل الشمس لتصدعت الأرض وتبخرت، فإن من النجوم ما هو أكبر من الشمس بكثير، فالشعرى اليمانية أكبر من الشمس بعشرين ضعفا، ومن العلماء من يقدر الشعرى بأنها أكبر من هذا المقدار بكثير، مع أن حجم الشمس يبلغ مليون ضعف حجم الأرض، والسماك الرامح ضعف الشمس ثمانين مرة، ونوره أقوى من نور الشمس بثمانية آلاف ضعف، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة ضعف، وجعل الله سبحانه أيضاً الرباط ما بين هذه المجموعة الشمسية كلها بمقدار، وكذلك رباط ما بين المجموعات المختلفة المتعددة التي تنتسب إلى هذه المجرة التي تنتسب إليها هذه المجموعة، جعله الله سبحانه بمقدار ما يحفظ سنة الجاذبية، فلو أن شيئا من ذلك زاد أو نقص لكانت كارثة على الكون، وقد بين الله سبحانه لنا أن نهاية الكون يكون معها انحلال هذا الرباط الذي يربط بين أبعاده، حيث

يقول لنا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١ - ٢] وتقدر أبعد مجرة عن الأرض بأنها تبعد عشرة آلاف سنة ضوئية، والسنة الضوئية ستمائة مليون مليون ميل، هذا الرباط الذي يربط ما بين هذه الأجرام كلها هل يمكن أن يكون نتيجة المصادفة؟ أو من قبل طبيعة عمياء ميتة لا حس لها ولا حراك؟ ولقد اعترف العلماء الماديون بأن لهذا الكون مكونا وأنه لا يمكن أن يوجد بدون مكون أبدا، ففي عدد من أعداد صحيفة تايمز الأمريكية طرح هذا السؤال: هل تعتقد أن لهذا الكون إلها؟ فأجاب عن هذا السؤال اثنان وثلاثون من العلماء الماديين، كل واحد أجاب بحسب تخصصه العلمي، فأثبت وجود الله سبحانه من العلم الذي تخصص فيه، حتى أن أحدهم تحدث عن وجود الله ـ تعالى ـ من خلال دراسته لشجرة الورد، وقد جمعت مجموعة من مقالاتهم في كتاب عنوانه: «الله يتجلى في عصر العلم» وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية وهو في متناول أيدي الطالبين، والحمد لله، والله أعلم.

لو قال ملحد: مَنْ خلق الله؟ ـ تعالى الله ـ بناء على أن لكل موجود واجد، فكيف نرد عليه؟

الله سبحانه وجوده غير مسبوق بعدم، فلو كان وجوده مسبوقاً بعدم لاحتاج إلى موجد أوجده، والموجود الذي يحتاج إلى موجد هو موجود جائز الوجود، وأما الحق ـ تعالى ـ فهو واجب الوجود لذاته؛ فهناك فارق ما بين جائز الوجود وواجب الوجود، والله ـ تعالى ـ وحده هو واجب الوجود لذاته؛ فلذلك هو متصف سبحانه بالقدم لأنه لا يمكن أن يكون غير موجود. والله أعلم.

رؤية الله تعالى

السؤال: سماحة الشيخ المفتي أحمد بن حمد الخليلي: ماهي الأدلة العقلية والنقليه على عدم رؤية الباري في الدنيا والآخرة؟

بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإنه من المعلوم أن الله ﷻ مخالف لجميع المخلوقات في جميع صفاته، فلا تشبهه في شيء ولا يشبهها في شيء. فلا يوصف الحق سبحانه: بأنه جوهر، أو عرض أو جسم، ولا يوصف ﷻ بأنه حال في مكان أو حادث في زمان، فالأمكنة لا تحويه ولا يوصف بأنه متصل بشيء منها أو أنه منفصل عنها والأزمنة لم يؤثر تعاقبها عليه شيئا لأنها لا تلابس ذاته، وهو تعالى كان قبل خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان، لا يدرك بعين ولا يطلب بأين، فجميع صفات الخلق مستحيلة عليه، ولا يمكن أبدا أن يشخص بعين ولا بأية حاسة من حواس الإنسان أو أي مخلوق آخر كما أنه لا يدرك بفكر، وإنما قصارى إدراك الإنسان لمعرفته إقراره بالعجز عن الإدراك كما روي عن الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: «العجز عن الإدراك هو الإدراك».

والأمة اختلفت في رؤيته تبارك وتعالى، والقول الحق الذي لا مرية فيه أنه ﷻ لا يصح أن يوصف بأنه يرى في الدنيا ولا في الآخرة فذلك هو الذي أخبر به عن نفسه، ولا يمكن أن يرد ما أخبر الله تبارك وتعالى به عن نفسه ولا عن غيره، فقد قال ﷻ: في وصف نفسه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

والذين أثبتوا رؤية الله تعالى في الآخرة أو في الدنيا والآخرة تأولوا الإدراك هنا بمعنى الإحاطة وذلك ما لا يصح أبدا ذلك لأن الإدراك لا يفسر

بالإحاطه، فنجد في كتب اللغة الدرك: «اللحاق» وذلك موجود في الصحاح والقاموس وشرحه وفي لسان العرب.

وجاء أيضاً في لسان العرب: أدركته بعيني: بمعنى رأيته، فكيف يقال إن الإدراك هو بمعنى الإحاطة؟!

ويقال أيضاً: أدركت حياة فلان مع أن القائل لم يحط بحياته من أولها إلى آخرها.

ويقال: أدركه السهم، إذا وقع عليه ولحقه، ولا يقتضي ذلك الإحاطة، ثم إن العرب تصف المطر إذا تلاحق بالمطر المتدارك، ولا يقصد من ذلك: أن كل ديمة تحيط بغيرها من الديم فإن ذلك متعذر، والله ﷻ يقول، في أهل النار:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٣٨] بمعنى تلاحقوا.

ثم إننا نجد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تنفي اللبس بتفسيرها هذه الآية الكريمة.

فقد أخرج الإمام الربيع والشيخان[1] وغيرهما عنها رضي الله عنها أنها قالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية: «من قال إن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال مسروق: وكنت متكئا فجلست وقلت يا أماه: أمهليني ولا تعجليني: ألم يقل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: ذلك جبريل لم أره في صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين. ثم قالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فهل يخفي على أم المؤنين عائشة رضي الله عنها معنى الإدراك لو كان معناه الإحاطة؟

(١) رواه الربيع رقم (٨٢٤) والبخاري رقم (٤٥٧٤ و٤٨٥٥) ومسلم رقم (١٧٧).

وهي عربية اللسان وقد نشأت في مهد النبوة ورضعت من لبان الوحي، وعرفت معاني القرأن ومعاني كلام العرب.

كيف يمكن أن يخفى على هذه العالمة الخبيرة معنى الإدراك ويعرفه من جاء بعدها لو كان معناه الإحاطة؟!.

فالآية الكريمة نافية للإدراك مطلقا وهو في كل شيء بحسبه، فإدراك اليد قبضتها وإدراك العين رؤيتها، وإدراك الأذن سماعها، وإدراك السلاح إصابته، وهكذا يقال في مطلق الإدراك بأنه بمعنى اللحاق كما دلت على ذلك كتب اللغة العربية.

وزعم بعضهم: بأن هذه الآية الكريمة يراد بها نفي الرؤية في الحياة الدنيا دون الأخرى.

والجواب عن ذلك: أن صفات الله تبارك وتعالى لا تتبدل فالله ﷻ قد امتدح نفسه بكثير من الصفات الكمالية التي يستحيل أن تتحول إلى أضدادها كما نفى عن نفسه كل ما لا يليق بجلال قدسه وكمال صفاته، من ذلك، قوله ﷻ: في نفي السنة والنوم عنه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله في نفي الظلم عنه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله في نفي الصاحبة والولد عنه: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

وقوله في نفي الوالدية والمولودية: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤].

فهل يمكن أن يقال بأن هذه المنفيات تنتفي عنه تعالى في الدنيا دون الآخرة، فيقال بجواز أن يتصف الله تبارك وتعالى في الآخرة بأنه يلد وأنه

يولد وأنه تكون له صاحبة في الآخرة أو أنه يتصف فيها بالظلم أو أنه يجوز أن يكون له فيها شريك أو ندّ أو كفؤ وما وراء ذلك مما نفاه ﷻ عنه؟!!.

فهذا كله يدل دلالة جازمة على أنه ﷻ أراد بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] نفي الرؤية عن ذاته العلية في الدنيا والأخرة.

وزعم بعض اللذين يثبتون الرؤية: بأن الله سبحانه لا يتمدح بنفي محض وإنما كل ما نفاه عن نفسه إنما نفاه لما يتضمنه النفي من كمال ثبوتي له تعالى، فقوله:

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ يتضمن وصفه بالقيومية.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، يتضمن وصفه بالوحدانية ونفي الظلم عنه يتضمن وصفه بالعدل، وهكذا كل نفي يؤدي إلى إثبات كمال له تعالى.

أما الرؤية فلا يوجد معنى ثبوتي يتمدح الله تبارك وتعالى بإثباته لنفسه من خلال نفيها، هكذا قال ابن تيمية وتبعه تلامذته وأتباعه.

والجواب عن ذلك: أن هذا أمر مردود فإن الله تعالى هو أعلم بنفسه وبصفاته وإثبات ما نفاه عن نفسه يعد اجتراء عليه وانتهاكا لربوبيته، وهو لا يقل ضلالة عن نفي ما أثبته لنفسه، على أننا لو سلمنا لما ادعوه لقلنا بأن نفي الرؤية تضمن أيضاً إثبات معنى ثبوتيا يعود إلى كماله تعالى وهو اتصافه بالكبرياء لأن إثبات الرؤية ينافي كبرياءه تعالى.

وحسبك شاهداً على ذلك ما رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري مرفوعا: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه

في جنة عدن»[١] فإن الحديث دال على أن كبرياءه تعالى مانعة من رؤيته، وهي صفة ذاتية لو انتفت عنه تعالى لكان موصوفا بضدها، وذلك عين المحال.

على أن النبي ﷺ عندما سئل عن رؤيته لربه كان رده صريحا في امتناعها عليه تعالى، فقد روى مسلم من طريق أبي ذر رضي الله عنه أنه قيل لرسول الله ﷺ هل رأيت ربك يوم القيامة؟ فقال: «نور أنى أراه»[٢] وهو إنكار لأن يمكن أن يرى رسول الله ﷺ ذات الحق تبارك وتعالى، وكما قلنا فإن صفاته الذاتية لا تتغير ولا تتبدل كما أن ذاته لا تتغير ولا تتبدل، وهذا يعني أنه تمتنع رؤيته في الدنيا والآخرة.

وثم أدلة كثيرة دلت على امتناع أن يرى ﷻ منها أدلة عقلية، فإن الرؤية تستلزم كثيراً مما يستحيل عليه سبحانه، فهي تتوقف على سلامة باصرة الرائي وأن لا يكون المرئي ملتصقاً بها ولا بعيدا عنها جدا وأن لا يكون لطيفا جدا ولا دقيقا جدا، وأن يكون بنفسه نورانيا أو أنه يغشاه النور من غيره، وأن يكون مقابلا للرائي أو في حكم المقابل له.

أما ما تمسك به القائلون بالرؤية من أنه تعالى موجود وكل موجود يجوز أن يرى فهو مدفوع بأن كثيرا من الموجودات تستحيل رؤيتها كالروح والأثير والطاقة الكهربائية والطاقة الذرية والنطق والعقل والإيمان والكفر والحب والبغض والرضى والسخط وسائر أعراض النفس.

أما ما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠٠) ومسلم (٢٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦١).

فلا دليل فيه... فقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وصف لوجوه السعداء بالنضاره بالضاد وهي الحسن والبهاء وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: يعني أنها منتظرة لرحمته ودخول جنته، ويدل على ذلك التقابل بين أوصافهم وأوصاف أضدادهم الذين وصف وجوههم بقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤] أي كالحة وذلك الذي يقابل قوله ﴿نَّاضِرَةٌ﴾، ثم قال: تظن أن يفعل بها فاقرة أي تتوقع أمرا يقطع فقار ظهورها وهذا هو الذي يقابل قوله ﷻ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فلو كان المراد: بقوله ﷻ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنها ترى ذاته تعالى: لقيل في الوجوه الأخرى (ووجوه يومئذ باسرة عن رؤية ربها قاصرة) أو نحو هذا الكلام الذي يفيد المقابلة ما بين وصف هؤلاء ووصف هؤلاء، وادعى الذين قالوا بأن الله ﷻ يرى واستدلوا بهذه الأيه الكريمة بذلك. أن النظر إذا كان بمعنى الإنتظار لا يعدى بإلى وإنما يعدى بإلى إذا كان بمعنى الرؤية. وخصوصا إذا اسند إلى الوجوه والجواب عن ذلك: بأن كلام العرب يرد ذلك فهذا حسان بن ثابت يقول:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمٰن يأتي بالفلاح

وهل كان وجوه المؤمنين يوم بدر تنظر إلى ذات الله ﷻ ويقول الشاعر:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما

ويقول الآخر:

كل الخلائق ينظرون سجاله نظر الحجيج إلى طلوع هلال

ولو كان النظر لا يعدى بإلى إلا إذا كان بمعنى الرؤية، للزم أن يكون الله ﷻ لا يرى الفجار يوم القيامة لأنه ﷻ يقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فهل المقصود بقوله ولا ينظر إليهم يوم القيامة لا يراهم، فيكون الله ﷻ يرى البعض من خلقه ولا يرى البعض الآخر؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وإنما المقصود بقوله ولا ينظر إليهم يوم القيامة: «لا يسبغ عليهم رحمته»، ثم إن الرؤية إنما تكون للأبصار ولا تكون للوجوه، فكيف تسند ها هنا إلى الوجوه، وهل إسنادها إلى الوجوه حقيقة أو مجاز ولماذا خصت الوجوه دون سائر الأعضاء بالإسناد إليها مع أن النظر إلى الشيء المحبوب يتمتع به القلب قبل أن يتمتع به الوجه، وينعكس أثر هذا التمتع على الجسم كله فلماذا تخص الوجوه بذلك؟

على أن الوجوه كثيرا ما يراد بها أصحابها فيسند إليها ما هو عائد إليهم كما في قوله تعالى في هذا السياق هنا ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤-٢٥] فإنهم هم الذين يظنون ذلك وهو من فعل قلوبهم لا من فعل وجوههم ومثل ذلك قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-٩] إذ لا خلاف في كونهم هم الذين ينعمون ويرضون، ومثله وصف أضدادهم بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-٥] فإن هذا كله إنما يعود على أصحاب الوجوه وعليه فلا يشكل أن يسند النظر إليها وهو بمعنى الانتظار مع تعديته بإلى.

واحتجوا أيضاً لمعتقدهم هذا بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وهو استدلال ساقط لأن حجبهم عن الله تعالى لا يعدو أن يكون بمعنى حرمانهم من ألطافه وفضله، على أن استدلالهم بالآية من باب الاستدلال بمفهوم المخالفة، فإنهم قالوا بأن الله تعالى كما يحجب الفجار عن رؤيته يتجلى للأبرار فيرونه، ومفهوم المخالفة اختلفوا في حجيته في

القضايا الفرعية، فكيف يكون حجة في العقيدة وهي لا تبنى إلا على اليقين القطعي ؟، على أن هذا المفهوم هو أقرب إلى أن يكون مفهوم لقب وهو أضعف المفاهيم باتفاق ولا يعول عليه عند الجمهور حتى في الظنيات، ولا ريب أن مفهوم الوصف أقوى منه بكثير وأنت تدري أن حجب أولئك عن الله تعالى كما تدل الآية إنما يكون في ذلك اليوم، بدليل قوله: «يومئذ»، ولو فسر الحجب بمنع الرؤية لكان معنى ذلك أنهم يرونه في سائر الأيام.

واستدلوا أيضاً بأحاديث عن رسول الله ﷺ: رويت في الصحيحين وغيرهما منها: أنه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ قال: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[١] وهي قبل كل شيء أحاديث أحادية، والأحادي يوجب العمل ولا يفيد العلم[٢] فلا تبنى عليه المعتقدات لأنها تنشأ عن الحجج اليقينية القطعية ولا تنشأ عن الحجج الظنية فضلا عن كون هذه الأحاديث تعارض الحجج القطعية من القرآن ومن السُّنَّة المتواترة وإجماع السلف الصالح.

على أن هذه الأحاديث جميعاً بوضعها في محك النقد لا يبقى منها ما يمكن أن يعول عليه في أمر ظني فضلاً عن إعتماده في ما لا يبنى إلا على اليقين فإن أسانيدها جميعاً عندما تختبر حسب القواعد التي وضعها أئمة الحديث أنفسهم تتكشف عن عيوب تنزل بها عن درجة ما يمكن أن يعول عليه في الفقه فضلاً عن الإعتقاد وأقواها سنداً الحديث الذي يحتجون به كثيرا الذي جاء فيه «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر» وهو من حيث متنه مضطرب اضطراباً حار فيه شراحه فذهبوا مذاهب متباينة ليتفادوا مشكلاته وقد أخرجه الشيخان من رواية أبي هريرة وأبي

(١) رواه البخاري (٥٢١) ومسلم (١٠٠٢).

(٢) معنى يفيد العلم: يفيد القطع.

سعيد الخدري رضي الله تعالى عنهما بألفاظ مختلفة، منها ما نصه «أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله ﷻ في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا. فيتبعونه»[(١)].

ولا يخفى على متأمل ما في هذا الحديث من الإشكال الذي لا يمكن أن يجاب عنه إلا بتكلف بالغ، وإليك صوراً من هذا الإشكال:

- **أولها**: أنه يدل على أنهم سبقت لهم رؤية لذات الله تعالى قبل هذا الموقف بصورة غير الصورة التي يرونه بها عند بعثهم ولذلك ينكرونه عندما يأتيهم في صورة غيرها حتى يقولوا له: «نعوذ بالله منك»، وليت شعري متى سبقت لهم هذه الرؤية مع أنهم متفقون على عدم رؤيتهم له في الدنيا إلا من شذ وقد ألجألهم هذا الإشكال إلى القول بأنهم رأوه عندما أخرجوا من ظهر آدم كأمثال الذر، ولا يخفى ما فيه، فهو من ناحية دعوى لم تقم على حجة، ومن ناحية أخرى، فإنه يتعذر أن يكونوا في هذه الحالة أقدر على تحمل رؤيته من موسى عليه السلام بعد اصطفائه وتكليمه، ودعوى أنهم عرفوا صورته بوصفه لنفسه ووصف

(١) رواه البخاري رقم (٦٠٨٨) ومسلم (٢٦٧).

نبيه محمد ﷺ له من غير سبق رؤية منقوضة بأنهم كان يمكنهم لو كان هذا صحيحاً أن يحددوا هذه الصورة في الدنيا بحسب ما عرفوه من وصفه لنفسه وصف النبي ﷺ له، على أن ذلك يتعذر على ما جاء في بعض ألفاظ الحديث من طريق أبي سعيد الخدري ونصه: «فيأتيهم ربهم في غير الصورة التي رأوه بها أول مرة.

- **ثانيها**: أن الحديث تضمن أنه تعالى يتحول من صورة إلى صورة والمتحول حادث والحادث ليس بإله، وقد أبطل إبراهيم عليه السلام ألوهية الأجرام الفلكية بسبب انتقالها من حالة إلى حالة فكيف يكون الله تعالى موصوفاً بذلك ؟!

- **ثالثها**: أن الحديث دال على أن رؤيتهم له يشترك فيها المؤمن والمنافق مع أنهم يقولون بأن رؤيته أعظم ثواب يفوز به المؤمنون، حتى أن الجنة تتضاءل أمامه فكيف ينالها المنافق ؟!

- **رابعها**: أن الحديث دال على رؤيته في الموقف وذلك قبل دخول الجنة قطعا، وهم يقولون بأن الرؤية زيادة في الثواب ويحملون على ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والزيادة تكون بعد المزيد عليه لا قبله !، وهو مقتضى حديث صهيب الذي فسر الزيادة بالرؤية.

- **خامسها**: أن الصورة نفسها مستحيلة على الله لأنها مأخوذة من التصوير وهو صنع لا يكون إلا من صانع ويستحيل على الله تعالى أن يصور نفسه كما يصور مخلوقاته لأنه يستلزم أن يكون محدثا لذاته وإذا استحال ذلك من نفسه فهو من غيره أشد استحالة لامتناع أن يكون لغيره أثر على ذاته.

وتأويل الصورة بالصفة مشكل لأن صفات الله الذاتية لا تتبدل، ثم إن الصفة لا ترى، ولا يمكن أن يحمل معنى رؤيتها إلا على المعرفة، وهذا يؤدي إلى أن تكون رؤيته تعالى لا يراد بها إلا مزيد معرفته.

هذا وقد بنوا اعتقادهم في رؤية الله تعالى على أصل أنها جائزة في حقه سبحانه واستدلوا لجوازها بأمرين:

أولهما: أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يراه، كما جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأكدوا ذلك بما في الآية نفسها من تعليق رؤيته له تعالى باستقرار الجبل، وذلك في قوله: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وذلك أن استقرار الجبل في ذاته ممكن، والمعلق على الممكن ممكن، وقالوا بأنه يستحيل على موسى عليه السلام ـ وهو أحد المصطفين الأخيار ـ أن يجهل ما هو مستحيل عليه تعالى لو كانت غير جائزة في حقه. والجواب: أن موسى عليه السلام لم يسألها لنفسه وإنما سألها لقومه ليكفكف غلواءهم في التعنت والعناد وليريهم آية تدل على امتناعها، وقد اختار الله أن يريهم من الآيات ما فيه قطع لمطمعهم وهو اندكاك الجبل.

واعترض على ذلك بأنه لو سألها لهم لقال أرهم ينظروا إليك، ولكنه قال:

﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾، ثم لو سألها لنفسه لم يتب من سؤالها.

والجواب: أنه إنما طلبها بصيغة تدل على أنه سألها لنفسه ليكون ذلك أبلغ في إقناعهم فإنها إن امتنعت عليه كان امتناعها عليهم أولى، وأما مبادرته

إلى التوبة مع أنه هدف بسؤالها إلى أن يقنعهم بالحق وهو استحالتها، لأنه سألها قبل أن يستأذن ربه، وقد شمله الصعق معهم، لهول أمرها، ولذلك قال عندما أفاق: ﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي أنك لا تُرى، ويدل على أنه لم يسألها لنفسه ولا كان موافقاً لهم على سؤالها تنصله مما كان منهم وعزوه إلى سفههم كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وأما تعليقها على استقرار الجبل، فهو دليل على امتناعها لأن الجبل لم يستقر، وقد علم الله أنه لن يستقر ولا يمكن أن يكون إلا كما علم الله على أنه سبحانه رد على موسى بقوله: ﴿ لَن تَرَانِي ﴾، ولن تدل على تأكيد النفي ويدخل فيه تأبيده.

وأما دعوى أنها لا تدل على التأبيد فهي مردودة بكثير من الشواهد، منها قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [البقرة: ٢٤]، فلو لم تكن للتأبيد لكان بإمكانهم أن يفعلوا، وقوله: ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ [الكهف: ١٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ [الحج: ٧٣]، على أنها قد ينفى تارة بها وتارة بلا في الأمر الواحد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٥]، وقوله: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الجمعة: ٧]، وإنما تأبيد كل شيء بحسبه، فلا يقاس ما يتعلق بذات الله تعالى التي لا تتبدل صفاتها على ما يتعلق بالمخلوق الفاني.

ثانيهما: اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في كونه ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء ولو لم تكن جائزة لما اختلفوا فيها.

والجواب: بأن هذا الاختلاف لم يثبت، بل حكى غير واحد من معتقدي الرؤية إجماع الصحابة على أنه ﷺ لم يره ليلة الإسراء، والذي روي عنه إثباتها، هو ابن عباس رضي الله عنهما، وقد ثبت عنه نفيها على الإطلاق، وقد روي عنه أنه رآه بفؤاده مرتين[1]، كما في صحيح مسلم: ولا يعني ذلك إلا أنه ازداد معرفة به، وعلى ذلك يحمل ما روي عنه أنه رآه، فإن المطلق يرد إلى المقيد، على أن هذه الروايات جميعاً، لا تخلو أسانيدها من وهاء، كما بين ذلك في غير هذا الموضع.

والقول في الرؤية طويل الذيل عريض الحاشية، وقد بسطت القول فيها، في غير هذا المقام[2]، ولا يتسع هذا الجواب لأكثر من هذا الشرح، فنقتصر على هذا القدر، والله ولي التوفيق، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ما يجوز على الله وما لا يجوز

السائل يسأل عن قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] هل عبارة ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ [الروم: ٤٧] تحمل معنى الفضل من الله أم ماذا؟

هذه العبارة تدل على تحتم وقوع النصر، فهو مشبه بالواجب من هذه الناحية، وإن لم يكن واجباً على الله تعالى، لأنه لا يجب عليه شيء، ويدل على تأكيد الوقوع لأن الله تعالى وعد به والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨).

(٢) راجع الحق الدامغ لسماحة الشيخ.

لقد ذكرت أن قبول التوبة ليس واجباً على الله. فما هي الأفعال التي تكون على الله واجبة لعباده؟

لا يجب على الله شيء لعباده، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فالله تعالى غير مكلف. إنما يتحقق الوجوب على من كان مكلفاً، بحيث لو لم يفعل ما فعله لكان ذلك مُؤدياً به إلى الذم أو إلى المؤاخذة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فمن ذا الذي يحاسب الله تعالى؟! إنما الله وحده هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا اعتراض عليه في فعله، فلذلك لا يجوز ـ بأي وجه ـ أن نقول إن هذا واجب على الله، وإنما نقول هو محض فضل منه سبحانه والله أعلم.

لقد ذكرتم فرقاً بين أن نقول يجب على الله أو يجب في حق الله، فنرجو توضيح هذا الفرق مع بيان الفرق بين ما يقال في حق الله وحق الإنسان؟

معنى «يجب في حق الله» من الوصف ما لو لم نصفه به لكنا آثمين، ولكنا مخالفين لأدلة العقل والنقل فيجب في حق الله عقلاً ونقلاً أن يُوصف بالكمال، ومن ذلك أن يكون موصوفاً بأنه لا تبديل لكلماته، ولا إخلاف لميعاده، ويجب في حقه أن يكون أصدق من كل قائل إذ لا يمكن إلا أن يتصف بهذه الصفات لاستحالة أضدادها في العقول وفيما دلت عليه نصوص الشرع.

أما أن يكون شيء من ذلك واجباً على الله فلا، وأما ما جعله الله من حق للإنسان عليه، كما في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فذلك مما تفضل به الله عليه ووعده به، والله لا إخلاف لميعاده لذلك كان حقاً لا ريب فيه، والله أعلم.

قلتم بأن الله لا يجب عليه فعل شيء ولا يُسأل عما يفعل، ولكن ماذا عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، هل من الواجب في حقه أم ماذا؟

هذا واجب في حقه وليس واجباً عليه، فهو محض فضل منه سبحانه، فقد أخبر أنه لا يعذب حتى يبعث رسولا، ولا تبديل لكلماته فلا يكون إلا ما أخبر به سبحانه، ولو شاء تعالى لفعل خلاف ذلك ولعذب من غير بعث رسول، ولكان ذلك عدلاً منه تعالى كما كان هذا منه فضلا، ولكن بفضله على عباده لم يُعذِب إلا بعد أن يقيم عليهم الحجة ببعثه الرسل والله أعلم.

ألا يمكن الرد أيضاً على القول بوجوب ثواب على الله للطائعين بدليل عقلي من واقع الحياة مثل ولله المثل الأعلى أن العبد المملوك لسيده يقوم بأداء أوامره وإذا أراد سيده إعطاءه أجراً على ذلك فذلك تفضل منه أم لا يصح الرد بهذا؟

إذا كان الإنسان شأنه مع الإنسان هكذا، فالله تبارك وتعالى أعظم شأناً، وإنما ما يهبه لعبده من أجر لا يعدو أن يكون مجرد فضل منه تبارك وتعالى والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] هل حقاً تعني فرضاً على الله؟

الله لا يلزمه شيء فهو ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وإنما من فضل الله ﷻ على عباده ومنته على خلقه أنه ينجز لهم ما وعدهم به، ولا يتبدل وعده، فلذلك كان هذا الإنجاز بمثابة الحق الواجب، وإلا فالله ﷻ لا يجب عليه شيء، فمن الذي يستطيع أن يفرض على الله شيئا وهو سبحانه له الخلق والأمر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولو كان سبحانه تفرض

عليه الفروض لكان خاضعاً لأنظمةٍ ولقوانين يسنها غيره تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا والله أعلم.

هل كان سوار كسرى الذي لبسه سراقة من الذهب أم من الفضة؟ وإذا كان من الذهب فكيف جاز لبسه مع أن الذهب حرام على الرجال؟

هذا السوار ـ فيما أحسب ـ لم يكن ذهباً ولا فضة وإنما كان من الجواهر، إذ كانت عند كسرى مجوهرات هائلة جيء بها إلى عمر ﷺ فرأى المسلمون منها شيئاً عجباً ما ألفوه أبداً، ومع هذا فإن الإلباس لم يكن بقصد اللبس، وإنما كان بقصد تحقيق الوعد الذي وعده الرسول ﷺ سراقة عندما طلب منه كتاب الأمان والله أعلم.

الآيات الكونية

من الناس من يرى أن في القول بأن وقوع الكوارث عقوبة من الله غضاً للطرف عن التفسيرات العلمية، إذ لا يرى ارتباطاً بين الكارثة والعقوبة؟

مهما كَان هُنَاك مِن تَفْسِير للظَوَاهِر الكَوْنِية بالنظرِيَات أو بِالحقَائِق العِلمِية فإنه مِمَّا ينبغي أن لا يَعْزُب عن بالنا أن وَرَاء هَذِه الظَوَاهِر كُلَّهَا أمر الله تعالى، الذي يأتي بالليل والنهار، ويُصرّف هذا الكون، فالليل والنهار والأجرام الفلكية جميعاً تَتَحَرَّكُ وِفق حكمة الله تعالى وأمره، وَلَكن لا يعني ذلك أن هذه الحالة حالة طبيعية بِدُون أن يَكُون أحد صَرَّف هذا الكون وعاقب بين الليل والنهار.

وأنتم تعلمون أن اللَّيْل والنهار يَتَعَاقبان بِاستِمْرَار بدون اختلال في مَوَاعِيدِهما بِخَلاف مِثْلِ هَذِه الكَوَارِث الطبيعية فَلِمَاذا تَقَع هَذِه الكَارِثَة في وَقْت كَذا؟ ولماذا تَقَعُ في مَوْقِع كذا؟ إنما كل ذلك بِتَدْبِير مِن الله سُبحانه

الـذِي يُدَبِّر مِثل هَذِه الأمُور ويُصـرّف هَذِه المخْلُوقَات كيْفَمَا يَشَـاء، فَليْس للإنسـان أن يَغُضَّ الطَّرف عن جَانب القَدَر والتَدْبِيـر الإلٰهي لِمَجْرِيَات هَذِه الأحْدَاث وَوُقُوع مثل هذه الكَوَارِث.

حسـبكم أن القرآن الكريم كثيراً مَا يَرُدنَا إلى الله تعالى مِن خِلَال النَّظر في مِثْل هَذِه الحوَادِث، ولِذَلِك نَحْن نَرَى أن الرَّسول ﷺ عِندما يقع أَمْرٌ من الظَّوَاهِر الطَّبيعية المألوفة المعروفة يَأْمُر بالرجوع إلى الله فيَقُولُ: «إن الشمس والقَمَرَ آيتان مِن آيات الله لَا يَخْسِفان لِموت بَشَر ولا لِحَيَاته فإذا رأيتم ذلك فَاذْكُرُوا الله»[1]، وقد صلى عليه الصلاة والسلام صَلاَة الكُسُـوف كَمَا هُوَ مَعْلُوم لأجْل وَصْل هَذه النُّفوس بِبارِئها.

فكَيْف مع وُقُوع مِثْل هَذِهِ الأمور التِي هِـي خَارِجَة عن المألُوف يَغُضُّ الإنسـان نَظَرَه عن الالْتِفَات إلى جَانِـب القُدْرة الإلهِيـة والتَصْرِيف والقَدَر الإلٰهي، والله المستعان.

كيف كان النبي ﷺ يَعِيش تَغَيُّر الأحوال الطبيعية كَتَغَيّر المنَاخ والرِّياح، الأمطار، ونَحْوِ ذَلك؟

كان النبي شَدِيد الحَسَاسِيَة مِن هَذِه الناحية، كان إذا هَبَّت الريح يَدْعُو الله تعالى وَيَتَضرَّع إِلَيْه ويَدْخُل ويَخْرُج.

وإذا رَأَى ـ أيضاً ـ سحابة يَبْقَى في خَوْفٍ وفي قَلَقٍ حتى يَأتي الله تعالى بِالغَيْث وعَندَئذ يَشْـكُر الله تعالى علـى نَعْمَتِه، وعَندَمَا تسـأله أُمُّ المؤمِنِين السيدة عائشة رضي الله عنها عن سَـبَبِ تَغَيُّر لَوْنه ودَخُولِه وخُروجه وتأثُّره يَقُول: «وما يُؤَمِّنُنِي أن يَكُون ذلك كَمَا قال الله ـ سبحانه ـ في قَوْمِ عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا

(١) الربيع (١٩٤).

﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[١] [الأحقاف: ٢٤] فهُو شَدِيد الحساسية مِن هذه الناحِيَة لأنَّه يَسْتَحضر العقوبات التي أصابت الأمم، ومِن أَجْل ذلك كان ﷺ يدعو دائماً إلى الاستِمْسَاك بِأَمْر الله والنَّظَر في عَوَاقِب الأمُور بِوَزْن تَصَرُّفَات الإنسان بِمَوَازِيين الله تعالى مَعَ الإِدِّكَار بِما يَحْدُث مِن أمثال هَذِه القَضَايَا. وعنما كَسَفَت الشمس خَرَج يَجُر ردَاءَه مِن كثرة هَوْل الموقف حَتَى صلى بِهم وأطال الصلاة كما هو معروف ومألُوف مِن هَدْيِه ﷺ.

فما كان يَشْغَله شَيْء عَنِ النظر في جانب القَدَرِ الإلٰهي والقُدْرَة الإلهِية الرَّبانية التي تُصرّف هَذا الوُجُود، والله أعلم.

ما قَوْلُكم في المبهور بِالعِلْم بالحديث ويَجْعَلُه في المقَامِ الأول دُون مَا جَاء في من حقائق في القرآن الكريم؟

لَا رَيْب أن العِلْمَ الحديث كَشَفَ كثيرا مِن الأمور التي كانت غَامِضَة بِالنِّسْبَة إلى الناس، ونَحْنُ لَسْنا مع الجامدين الذين يُغْمِضُون أبْصَارِهم عَنْ مُعْطَيَات العلم الحديث بَلْ نُؤَيد الانتفاع بِهَذا العِلم دِينياً ودُنْيَوياً، ولكن مع ذلك كله لا نَأْخذ مِن هَذا العلم الحديث قُشُورَه وندع لُبَابَه، فالعلم الحديث وسيلة لتَعْمِيق الإيمان في النُّفُوس، فالله تعالى عندما يُخَاطِب عِبَادَه بِتَرْسِيخ عقيدة التَوْحِيد في نُفُوسِهم يَأخذ بِبَصَائِرِهِم وأَبْصَارِهم لِيَطُوفَ بِها في هذا العالم الفَسِيح مُعرّفاً الإنسان بَأَن وَرَاءَ هذا العالم تَدْبِيراً وتَقْديراً مِن لَدُن عَزيز حكيم لا تَخْفَى عليه خَافِيَة في الأرض وَلَا فِي السماء، فقد قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم أَتْبَعَ ذلك قَوْلَه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ

(١) رواه النسائي في السنن ونحوه عند البخاري (٣٢٠٦) ومسلم (٨٩٩).

﴿وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] هذه الآيات وأمثالها إنَّما تصل بالإنسان إلى تَعْمِيق مَفْهُوم الاعتقاد الحق اعتقاد وَحْدَانِية الله لأن الكَوْنَ كُله وِحْدَةٌ مُتكَامِلَة، نِظامُه نِظَام مُتوَحِّد، يَجْمَع مَا بَيْن أطْرَافِه المترامية، وهَذَا يَدُل على أن مُكَوِّنه واحد، إذ لَوْ كان هُنَالك أكثر مِن مُكّون لكان لكل واحد مِنْهُم إرادة مُسْتَقِلَّة عن إرادة الآخر وذَلِك مِمَا يُؤَدي إلى الاختلاف فِي المراد كَمَا يُؤْذِن بِه قوله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وكذلك الآيات الكَثِيرَة.

كَذلك نَجِد أن الله تعالى يَعِد عباده بِأن يَكْشِف لَهُم حَقَائِق الوُجُود لِيَتَبَيَّن لَهم مِن خِلال هَذَا الكَشْف ـ سَوَاء كَانَ في آياته في الأَنْفُس أو في الآفاق ـ أن القرآن حَق مِن عِندِه فقد قال تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٢ - ٥٣].

فَنَحْنُ نُؤَيِّد التَقَدُّم في مَجَالات العِلم مَع الاستِمْساك بالعَقِيدَة وتَرْسِيخها مِن خَلال النَّظر في آيات الله ـ تعالى ـ في الأنفس والآفاق حتى لا نَكُون نَعْلَم ظَاهِراً مِن الحياة ونَحْنُ عن الآخرة غَافِلُون، بل علينا أن نَتَوَصّل بِهذا العلم إلى تَعْمِيق إيمانِنَا بِالله تعالى وإيماننا بِاليَوْم الآخر.

أما بِالنِّسبَة إلى هَذِه الظَّوَاهِر الكونية فَمَهْمَا كانت مُرْتَبِطَة ـ كما قلت ـ بِأَسْبَابٍ إلا أن تِلْكُم الأَسْبَاب لَا تُفْضِي إلى مُسَبَّباتِهَا بِنَفْسِهَا وإنَّما تُفْضِي إلَيْها بِتَأْثِير قُدْرَةِ مُسَبّب الأسباب الذي هُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

وهَذَا نِدَاءٌ إلى العَالم بِأَسْرِه أن يَسْتَبْصِر ويَذَّكِر فإن هَذِه آية لِجَمِيع الناس فنَدْعو المؤمِنِين إلى مَزِيد مِن الإيمان، وإلى الاستمساك بِحَبْل الإيمان مِن نَاحِيَة العمل والتَطْبِيق، بِحَيْث لا يَكُون إيماننا نَظرياً مَعَ الغَفْلَة عن العمل والتَطبيق، بل يَجِب أن يَكُون إيماناً حيا واقعيا يَتَجَسَّد في الأعمال والتصرفات بِحَيْث تكون جميعاً مُسْتَوْحَاة مِن عند الله تعالى.

ونَدْعُو غَيْر المؤمِنِين إلى أن يُرَاجعوا حِسَابَاتِهم، وأن يَفَكِّروا في المنْقَلَب، فهذه آية تُصوِّر لَهُم مَشَاهِدَ القِيَامة[1]، مِمَا أَخْبَرَ الله تعالى بِه عِندَ قِيَام الساعة مِن اختِلَالِ نِظَامِ هَذَا الكَوْن وتَهَاوِي الأجْرَام وَوُقُوعِ بَعْضِهَا عَلى بَعْض حَتى تُدك هذه الأرض دكاً دكا، وتُسيَّر جِبَالُهَا تَسْيَاراً بتأثير اندكاكها.

ونَدْعُو هَؤُلَاء إلى أن يَسْتَبْصِرُوا، وأن يراجعوا وأن يَنْظُرُوا فِيمَا وَصَلُوا إلَيْه مِن الحقائق العِلْمِيَة مَعَ مَا جَاءَ فِي كتاب الله ـ تعالى ـ المُعجِز الذي لا يَأْتِيه البَاطِل مِن بين يَدْيه ولا مَن خَلْفِه مِمَّا يَدُل دَلالَة قَاطِعَة عَلَى أَنَّه حَق مِن عِند الله تعالى، فَعَلَيْهم ألا يُفَوِّتوا هَذِه الفُرْصَة، هَذَا ما نَدْعُوهُم إلَيْه، والله ـ تعالى ـ المستعان والله أعلم.

مَا لُوحظ من سلامة بعض الحيوانات مِن هذه الكارثة وكذا الرضع من الأطفال في نَظَرَكُم بِمَاذا يُفَسَّر ؟

هذا يُفسر بأن الأَسْبَاب لَا تُفْضِي إلى مُسَبَبَاتِها إلا بِتَقْدِير مَن مُسَبِّب الأسباب، فَإن السَّبب وحده لا يُمْكن بِنفسه أن يَكُون مُؤَثِّراً فِي المُسَبّب إلا بِإرَادَة مِن مُسَبِب الأسباب وخالقها، وعِنْدَمَا يُرِيد تعالى ألّا يُفْضِي السَّببُ إلى المُسَبَب فإن السَّبَبَ يَعْجِز عن التأثير في المُسَبَّبِ كما كان مِن قِصَّة

(١) يشير بهذا إلى زلزال تسونامي، فقد كان الحديث عنه والذي حدث عام ٢٠٠٤م في تايلند.

إبراهيم عِندما أُلقِيَ في النَّار مع أنَّه مِن المعْتَاد أن النَّار مُحْرقة وأنَّها تَأكُل الأجْسَاد ولكن الله تعالى أَرَاد ألّا تَكُون هَذِه النّار آكِلة لِجَسَدِ إبْرَاهِيم فَقَد كانَت مُحْرمة على جَسَدِه الشَرِيف وَلَم تُؤَثّر فيه شيئا.

كذلك قِصَّة الذي أمَاتَه الله ـ تعالى ـ مائة عَام ثُم بَعَثه، وقصة أصحاب الكهف وغَيْر ذَلك مِن القصَصِ العَجِيبَة التي في كتاب الله، كُلُّ ذَلِك دَلِيل عَلى أنَّ الأسباب لا تُفْضِي إلى مُسَبَباتِها إلا بِتَقْدِير مِن الله تعالى، وعِنْدَما يُرِيد الله ألّا يُؤَثِّر السَّبَبَ في المُسَبَب فإن ذلك واقع لا مَحَالة، والله أعلم.

كيف يقرأ المسلم أَحداث الكوارث الطبيعية مِن عواصف وأعاصير مِن مُنطلقات آيات القرآن الكريم ؟

المسلم يشده كل موقف إلى الإيمان، فإنَّه يرى يَدَ الله تعالى تُصرّف هذا الوجود، فقد يَطرأ أمر بدون أن يكون له سبب، وإذا بالإنسان يُفاجأ به بين لَحظة وأخرى، وفي هذا تذكير للناس جَميعاً بأنَّ الأمر إنَّما بِيد الله، وليس بيد العباد، فالناس مهما كانت قُوتُهم، ونفوذهم، وعتادهم، ومهما أوتوا في هذه الدنيا فإنَّهم لا يَسوون شيئاً عند الله تعالى إلا عندما يكونون على إيمان وصلة به تعالى ـ وتقوى واستمساك بِحبله المتين وإلا فإنَّ الله تعالى يُدمر عَليهم كما دمر على من قبلهم من الأمم، يقول تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]، ويقول سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٢-١٠٣]، ويقول تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠] وفي هذا ما يدعو المؤمن إلى الاعتبار والإدراك بأنَّ كل ما يَجري في هذا

الكـــون إنَّما هو بتصريـــف الله، فلا تَخـــرج ذَرة مِن ذَراته عن أمـــره تعالى، ولا يُمكن أن يقع فيه إلا مُراد الله ـ ســبحانه ـ له الخلــق والأمر، وأنَّ أمره تعالى أَمر سَريع: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠].

فالكوارث مِن الـــزلازل والأعاصير وغيرهـــا إنَّما تَـــرد المؤمن إلى الله تعالى، وتذكـــره بالله وباليـــوم الآخر، بينمـــا الآخرون يغرقون فـــي لَهوهم ويغتـــرون بقواهم وبِجبروتِهم وببطشـــهم، وفي هذا ما يَجعـــل عاقبة أمرهم خسرا والعياذ بالله، والله أعلم.

هناك ظواهِر كونية تَحدُث في العالَم ولها أســبابٌ علمية ربما اســتَطاعَ عَدَدٌ مِن العلماء أن يَتَوَصَّلَ إليها والمؤمِنُ ـ بِطبيعةِ الحال ـ يَعتَقِدُ ويُؤمِنُ أنّ كلَّ مـــا يَحدُثُ في الكوْن بِأَمْرِ الله ـ تعالـــى ـ وبِتصريفٍ منه لِحِكمةٍ يَعلَمُها تعالـــى لكنّ هذا الاعتِقاد وهذا الإيمـــان التّركِيزِ عليه كثِيرا على اعتِبار أنه ســيَكون ردَّة فِعْل لِلكثِير مِـــن الخِطابات التـــي تَعْزُو كلَّ ما يَحْدُثُ إلـــى الطبيعة يُخْشَـــى أن يُؤَدِّي مُســـتَقْبَلا إلى تَجاهُلِ المســـلِم لِلأســـبابِ العلمية التي تَحْدُثُ مِـــن جَرّائِها هذه الظواهِـــر، فربما يَفْهَم البعض أنّها تَعنِي بِالضّـــرُورَة قَطْع صِلَة هذه الظواهِر عـــن الله وتَصْرِيفِه ولكن هناك سوء فهْم بيْن مسألة الأسباب العلمية ومسألة الطبيعة فلا بد مِن تَحدِيد المفهوم حتى يَفهَم الإنســـان ولِذلِك قد لا يُلام السامِع عندَما يُفسَّـــر هذا الموضوع أنه عَزْوٌ إلى الطبيعة، فكيْف يُوَازِن الـمُســـلِم بيْن اعتِقادِه أَنَّ كلَّ مـــا يَحْدُث مِن الله ســـبحانه وبيْن مُطَالَبَتِـــه بِتَعَرُّف هذه الأسباب العِلمية ومُعالَجَةِ مِثلِ هذه الظّواهِر في المستَقْبَل ؟

المســـلِم يَنظُرُ إلى الأشـــياء بِبَصِيرَتِه الإيمانية فَيَنْفُذ مِن الأســـبابِ إلى مُسَبِّبِ الأســـباب كما أن المسلِم لا يَنحَصِر في الأســـباب المادية، إذ نَظْرَتُه

لَيْسَتْ نظْرَةً مادّية إلى حَقَائِقِ الوُجود، بل نَظْرَة حقيقية نابِعة مِن إيمانِه، فهو يُؤمِن أنَّ هذا الكونَ بِأَسْرِه مَحْكُومٌ بِأَمْرِ الله تعالى لا تَخْرُجُ ذَرَّةٌ مِن ذرَّاتِه عن إرادةِ الله ولا يُمكِنُ أن تَتَحَرَّكَ ذَرَّة مِن ذَرَّاتِ هذا الكون إلا بِقَدَرٍ مِن الله ـ سبحانه ـ سواءً كانتْ حَرَكَتُها خيْرا أو شَرّا، ولا يُمكِن أن يَخْرُج هذا الكوْن في نِظامِه عن ما قَدَّرَه الله، إذ إنه تعالى جَعَلَ لِكلِّ شيءٍ سَبَبا، على أَنَّ الأسبابَ بِنفسِها لا تُفْضِي إلى مُسَبَّبَاتِهَا إلا بِإرادةِ الله تعالى فقد تَكونُ الأسبابُ قَائِمَة ولكن مع ذلك لا تَصِلُ إلى المُسبَّبات، لأنَّ الله ـ سبحانه ـ أَرَادَ ألّا تَصِلَ إلى المُسَبَّبَات، ولِهَذَا شَوَاهِد كثِيرة.

فعلى سَبِيلِ المثال في هذه الأيام القرِيبة كُنتُ بِبِلادِ الشام وكنتُ في جَلْسَة حَضَرَها أحدُ الشعراء وقَرَأ عليْنا قَصِيدة يَحْكِي فيها قِصَّة رَجُل هُوَ أَخُو زَوْجِ ابْنَتِه وكان هذا الرَّجُل طبِيباً ومُوَظَّفاً في الجيْش وخَطَب فتاةً صَيْدَلانِية واتَّفَق معها على الزّواج وقبل عَقْد الزواج اكتُشِف أنَّ في الرَّجُل مرضا خبِيثا، وقرَّرَ الأطباء أنَّه لن يَعِيشَ إلا سِتَّةَ أَشْهُر فحَسْب، فما أراد أن يُضَيِّع مُستقبَل تلك الفتاة فَذَهَبَ إليها لِيَتَحَلَّلَ منها ولِيُنْهِيَ الخطبة التي بَيْنَه وبَيْنَها، ولكن رَفَضَتْ ذلك وأَصَرَّتْ على إِتْمَام الزّواج ولو بَقِيَا يَوْماً واحِداً، وخوَّفَتْه بالله ـ تعالى ـ أن يَلْقَاه وهو أَعْزَب، وأُنْهِيَتْ خَدَمَاتُ الرجل بِسَبَب كَوْنِه أُصِيبَ بِهذا المرض فرَأَى أن يُعَالِجَ نفسَه بِالصَّدَقَة فأَكْثَرَ مِن الصَّدَقَة والدّعاء وتَزَوَّجَ الفتاة وعاشَا في سَعادَة وعِندَهُمَا الآن ثَمانية مِن الأولاد وذَهَبَ عنه المرض كأنْ لَم يَكُن، فأسباب الهلاك كانتْ قائِمَة ومَوْجُودة حتى قَرَّرَ الأطباء أنَّه لن يَعِيشَ إلا سِتَّةَ أَشْهُر مِن خِلالِ نظرِهم إلى الأسباب ولكنّ الله ـ تعالى ـ أَرَادَ ألّا تَصِلَ هذه الأسباب إلى مُسبَّبَاتِها فلم تَصِل وعاشَ الرَّجُل.

فعندما يكون المسلِم رَاسِخَ الإيمان وتَكونُ عَقيدتُه عقيدةً قرآنِية مَوْصولة بِالله تعالى يَرى يده جل وعلا تُصرِّفُ هذا الوجود، فلا يَنْحَصِرُ نَظَرُه في هذه

الظواهِرِ الكوْنِية وإنَّمَا يَنْفُذ إلى ما وراءَها فيرى أن الله هُوَ الذي يُدبِّرُ الوجود، وقد خَلَــقَ الكوْن ولَم يَتَخَلَّ عنــه بعدَ خلْقِه، فكلُّ الــذي يَجْرِي في الكوْن يَجْرِي بِقَضَائِه وقَدَرِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

ويؤمر المسلم أن يدرس هذه الظَّواهِر الكوْنِية مِن حيث الطبيعة مع إيمانِه الجــازِم بِأنَّ وراءَهــا أمْرَ الله تعالــى، وأنّ أمْــرَه نَافِذ ولو أَخَذَ الإنســان في الاحْتِيَــاط: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] فــلا يُمكِن لِلإنسان أن يَعْصِمَ نفسَه مِن أمْرِ الله ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، ولا يُمكِن أن يُرَدَّ أَمْره ـ تعالى ـ عن أَحَدٍ مِن الخلق، ولكن مع ذلِك يَأخُذُ بِالأسبابِ المشروعة دون الأسبابِ التي لَم تُشرَع، والله أعلم.

يقول الله تعالــى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، أين مكان هذه الأرضين ؟

نَحن نُؤمِن بأنَّ هناك سبع سَــماوات، ونُؤمِن بأنَّ هذه السماوات طِبَاق، ولكن لا نستطيع أنْ نُحدِّدَ هذه السماوات ومقاديرها وأبعادها.

الآن وقد اكتشــف الكثير الكثير مِن المجرَّات البعيــدة، وفيها الأَجْرَام الكثيرة التي لا يَمكن أن تدخُل تَحــت الحصْر، حتى أنَّه وَصَلَ الأمر ببعض المكتشِــفِين أنْ قالوا بأنَّ أبْعَــد المجرات التي اكتشــفت تبعُد عن الأرض بِمقدار عشرة آلاف مليون سَنَة ضوئية، بحيث لو انطَلَق الشيء بسرعة الضوء ـ والضــوء يقطَع في الثانية الواحــدة ثلاثمائة ألف كيلومتــر ـ أي مائة ألف وســتة وثَمانين ألف ميل وثلاثمائة ميل لَما وصل إلى هذه الـمَجرَّة إلا بعد عشرة آلاف مليون سَنَة، واكتُشِف بأنَّ وراء هذه المجرَّات إشعاعات، وأقصى ما اســتطَاعُوا اكتشافه هو مقدار عشرين مِليار ســنة ضوئية، بِحيث لو انطَلَق شــيء مِن هنا إلى هناك بســرعة الضوء لَما وصل إلا بعد عشرين مليار مِن

السنين، والعالَم عالَم عظيم ويدُل على عظمة الله الذي خلقه ودبَّرَه والذي يُحصِي ذرَّاتِه الدقيقة وما هو أدَق مِن هذه الذرَّات: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، سبحانه لا تَخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ونحن نُرَجِّح أنَّ الأَجْرَام كُلَّها إنَّما هي في السَّمَاء الدنيا بدليل قول الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، وأنَّ فوق ذلك سَماوات أُخْرى هي السماوات السبع كما أخبر الله تعالى، ولكن هي طبقات، لا ندري الفاصل ما بين طبقة وطبقة، ولا ندري نوع هذه السماوات، فإن ذلك مِمَّا خَفِيَ علينا، وإنَّما علينا أن نُؤمن بِما أخبرنا الله به، ولا ندخل في تفاصيل ما لَم يُخبِرنا بتفاصيله.

وقد أخْبَر الله عن الأرض أنَّها مثل السماوات: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فهل هناك أَجْرَام فيها استقرار هي سبَعة أجرام مثل هذه الكُرَة الأرضية التي نَحن مستقرُّون عليها بحيث تكون فيها حياة كهذه الحياة في ضِمْنِ هذه السماوات السَّبع؟ أو أنَّ هذه الأرض نفسَها طبقات، إن مِن المحتمَل أن تكون هذه الأرض نفسَها طبقات كطبقات السماء، وهذه الطبقات هي سَبع، ومِن المحتمَل أن تكون الإشارة في ذلك إلى القارَّات.

وكل ما كان مِن نَحو هذا نَكِلُه إلى الله، ولا ندخُل في تفاصيله، ونُؤمِن بأنَّ الله على كل شيء قدير، وأنَّ الله ـ سُبحانه ـ لَم يُخبِرنا بكل ما أحاط به علمه، فقد أحاط علمه بكل شيء، ووَسِعَ علمه كل شيء، وهو يدبِّر كل شيء، فالكون كله تَحت قهره وقبضته تعالى يصرِّفُه كيفما يشاء، وإنَّما علينا أن نَخضع لله ـ سبحانه ـ القاهر الذي يُصرِّف هذا الوجود، ولا يَؤُودُه حفظ هذا العالَم بأسره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، مِن الذي يستطيع أن يُمسك هذا العالَم

بأسْــرِه إلا الله تعالى الذي هو على كل شيء قدير، فلو أنَّ الله تَخلَّى عن هذا الكون ولَم يُمسكه لَهوى إلى غير قراروالله أعلم.

انزعج الهدهد من عبادة الشــمس عند بعض الأقوام الذين نَزَلَ عندهم، فهل الطيور تَعْلَم عبادتنا ويزعجها ما عليه البشر من انْحِراف؟

نَحن علينــا أن نعتقد ظاهر ما دلَّ عليه القــرآن، ولا نتجاوز هذا الظاهر إلى ما وراءه، فالله تعالى أخْبَر عن كل شيء أنه يسبح بِحمده يقول سبحانه:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويقول جل شأنه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحشر: ١]، ويقول تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١]، ويقــول ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ١]، ويقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فهذه كلها تســبِّح بِحمد الله وتسجد له، ولكن ما هو هذا التسبيح؟ وما هو هذا السجود؟ ذلك غَيْبٌ لا يُمكن أن نكيفه لأنه لَم يأتنا دليل يدُل عليه.

أما ما قاله بعض المفسرين مِنْ أنَّ المراد بذلك دلالة هذه الكائنات على وجود الله ـ سبحانه ـ وعلى قُدْسِيَّتِه ونزاهته عَنْ كل النقائص التي يَتَّصِفُ بِها مَخلوقاته فهو غير مُسَلَّم لأنَّ هذا معروف لِكل أحد والله ـ تعالى ـ يقول:

﴿لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهذا التســبيح غَيْرُ مَفْقُوهٍ عندنا، وإذا كانت هذه الحيوانات تســبِّح بِحمــد الله تعالى فلا ريب أنَّهــا تَنْزَعج من كل مظاهر الشــرك بالله، لأنَّ ذلك مِمــا يَتَنَافَى مع ما فُطِرَت عليه مِن تســبيح الله وحَمْدِه، وفــي بعض المناطق يوجد طائر يُسَــمُّونَه المصلــي لأنَّه في أوقات

الصلوات الخمس يأخذ يُغَرِّد وفي تغريده هذا ينْحَنِي كانْحِناء الساجد، وحدَّثَنِي أحد مِنَ الناس بأنه رأى هذا الطائر في النوم يفعل ذلك ويقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهذا مِما يدُل على أنَّ هذه الكائنات تَجري وِفْقَ الفطرة التي فَطَرَهَا الله تعالى عليها وهي الصِّلَة به ﷻ ولو كانت هذه الكائنات جَمَادَات، فإن علَيْنَا أن نُوقِنَ بأنَّها تُسَبِّح بِحمد الله، وأنَّها تسجد لِجلاله وِفْقَ الكيفية التي أرادها الله ـ تعالى ـ ولو كنا لا نعلم تلك الكيفية، والله أعلم.

هل الحيوان مخلوق من تراب؟ وهل له حياة في البرزخ؟

الحيوان يتغذى بما يتغذى به الإنسان.. فلا يختلف عن الإنسان، والإنسان يتغذى بالحيوان أيضاً، فالحيوان ـ نفسه ـ موجود فيه العنصر الترابي. ولكن هل تتعرض لحياة البرزخ[1]؟ أخبرنا الله ﷻ بأن الحيوانات غير مكلفة، وأخبرنا بأن كل شيء هالك إلا وجهه، فالحيوانات تهلك، أما كونها تحيا في البرزخ فهذا لا دليل عليه والظاهر عكسه، وكونها تحيا في الآخرة جاءت روايات به غير أنها لا تفيد العلم فنكل أمر ذلك إلى الله، والله أعلم.

ما وجه التوفيق بين ذكر الله ﷻ عن الشمس أنها ﴿تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [الكهف: ٨٦] وبين ما يقول العلم إن الشمس تدور حول الارض، أي عندما يكون عندنا ليل فليس معنى ذلك أن الشمس غربت بل الأرض دارت، فما هو تفسير القرآن لغروب الشمس؟

حينما يراها الإنسان يواريها الأفق في عين حمئة ـ وذلك في أقصى نقطة

(١) معنى حياة البرزخ: هو الحدّ الفاصل بين حياة الإنسان في عالم الدنيا وبين نشأته في عالم الآخرة.

معمورة في الغرب ـ يبصرها واقعة في تلك العين الحمئة، وقد أخبر الله عن ذي القرنين أنه وجدها كذلك ولم يقل بأنها تقع في عين حمئة ونحن في هذا الوقت نقول: غربت الشمس مع أنا نعلم أن الشمس تغرب عندنا وتطلع عند قوم آخرين فليس هناك منافاة أبداً بين الأمرين وأما كروية الأرض وعدم ارتفاع الليل والنهار عنها فقد دلت عليهما آيات متعددة في القرآن كقوله تعالى ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، وقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، بل في قصة ذي القرنين ذاتها ما يدل على هذا حيث تغلغل في مغرب الشمس فانتهى إلى مشرقها، والله أعلم.

السائل يقول قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ما المقصود بـ«فيهما»؟ وإن كان معنى ذلك السماء والأرض فلماذا خصهما الله ﷻ بالذكر فقط مع أنه يوجد في هذا العالم الفسيح الكثير من الكواكب؟

السماء لغة كل ما علاك يقول الله ﷻ: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] فأين فرعها هل هو في كوكب من هذه الكواكب؟ ويقول الله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: ٩٩] وهل هذا الماء ينزل من الكواكب أو أنه ينزل من جهة علوية، فإذا كانت كلمة السماء تدل على كل ما كان أعلى فكل ما كان أعلانا فهو سماء مما لا يحيط به إلا الله ﷻ وقد امتن ﷻ على عباده بخلق السماوات كما امتن بخلق عدد من الأجرام الفلكية وسكت عن غير هذا العدد.

هذا؛ وقد اختلف المفسرون في القديم والحديث في المقصود

بالسماوات السبع فمن المتقدمين من ضيق مدلول السموات كالفخر الرازي إذ حصرها في المجموعة الشمسية وذكر منها القمر مع أنه لا دليل بأن كلاً من القمر أو الشمس سماء بذاتها أو أن القمر أو الشمس هما أحد السماوات، ثم جاء بعض المفسرين بعد ذلك فقالوا إن المقصود بالسموات السبع هي المجموعة الشمسية بكاملها وأن الشمس منها، أما القمر فهو تابع صغير للأرض فلا يعد من المجموعة الشمسية وكذا الأرض لا تحسب منها. فبالنظر إلى هذه الأجرام قالوا هي السماوات السبع بينما كلمة بناء في الآية الآتية تدل على معنى أوسع من ذلك بكثير، فالله ﷻ يقول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] إذ رابط الجاذبية الذي يربط ما بين هذه الأجرام الواسعة في هذا الفضاء السحيق بكل مجراته المترامية يدل على أن كل ذلك داخل في مدلول السماء لأنها مربوطة بعضها ببعض بسنة الجاذبية، على أنه لا يبعد أن تكون هذه الأجرام تشكل السماء الدنيا، وبقية السماوات فوق ذلك، وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بهذا وإنما أكل أمره إلى الله لكن أقول هناك احتمال كبير بأن يكون كل ما اكتشف من هذه الأجرام الهائلة والمجرات الواسعة غير خارج عن السماء الدنيا، وأستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦] وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، فقد بيّن الله ﷻ أنه زين السماء الدنيا بالكواكب فلعل خارج هذه الأجرام الفلكية سماوات أخرى تعد مع السماء أوسع مما يمكن أن يتصوره البشر ولا ندري طبيعة هذه السماوات على أن الاكتشافات العلمية دلت على أن وراء المجرات وأجرامها اشعاعات هائلة بلغ بُعْدُ ما اكتشف منها عن الأرض مقدار عشرين ملياراً من السنين الضوئية، والله أعلم.

الســـائل يقول: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمـر: ٥] وقال أيضاً: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعـراف: ٥٤] فما وجه تقديم الليل على النهار في الآيات القرآنية هل معنى ذلك أن الليل خلق قبل النهار؟

الليل هو الأصل، لأن الظلمة هي الأصل والضوء يطرأ عليها يســري فيها ويبددها ولما كان الضوء يأتي بعد الظلمة فالليل سابق على النهار فلذلك ذكره الله ﷻ قبل النهار، وقد شبه الله تعالى الضوء الذي يلف الفضاء المظلم بالجلد الذي يحيط بجسم الدابة، ولذلك عبر عن فصل الضوء عن الفضاء بالسلخ في قولــه ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يـس: ٣٧] فكأنما هــو جلد يحيط بهذا الليل ثم يسلخ منه فإذا الفضاء يبدو مظلما على طبيعته، والله أعلم.

أيهما أســبق الليل أم النهار؟ وهــل يعني قوله تعالــى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمـر: ٥] وقوله أيضاً: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١ - ٢] بأن الليل هو الأسبق؟

الذي يفهم أن الليل هو الأسبق لقول الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يـس: ٣٧] فالنهار بمثابة الجلد لأن الظلمة هي الأصل والنور طارئ على هذه الظلمة، فعندما يغشى النهار الليل يبدد هذه الظلمة ثم عندما ينحسر الضوء يحل الليل محل النهار ومن هنا يتبين أن الليل هو الأسبق، والله أعلم.

يقول السائل: قلت: إن الأرض كروية وقرأت أحد الكتب التي فيها قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ والدحو فــي كلام العرب هي البيضة إذاً الأرض ليست كروية تماماً؟

المقصود بكونهــا كروية أنها مدورة من جهــات مختلفة ولا يعني ذلك أنها متساوية من كل هذه الجهات، والله أعلم.

السائل يقول: قال الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢] يقول ذكرتم أن المقصود بالتلقيح هو تلقيح السحاب كيف يتم ذلك؟

الآية تدل على ذلك فالله ﷻ يقول: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [الحجر: ٢٢] فكما ترى عطف الله إنزال الماء من السماء على إرسال الرياح لواقح بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، فالله ﷻ يجعل حرارة الشمس تؤثر على المياه في المحيطات وفي البحار وفي الأنهار فتتبخر وترتفع حتى تتكون هذه الطبقة بما يتفاعل من آثار الحرارة والبرودة ثم تتبعها عوامل من الرياح تؤثر على هذه البرودة فيذوب الماء الذي كان جامداً وينزل من الجهة العلوية إلى الجهة السفلية والله أعلم.

ما موقفنا من الاكتشافات العلمية وتفسير القرآن بها؟

هناك حقائق ثابتة وهناك نظريات قابلة للتغيير والتبديل، فالحقائق الثابتة التي تدل عليها الآيات دلالة صريحة لا حرج في تفسير ما يدل عليها من القرآن بل ذلك يتعين بعدما وضح الصبح لذي عينين، أما النظريات فلا يمكن أن نفسر القرآن بها مع أنها قد تتصادم أحياناً مع الواقع، وقد تتصادم مع النصوص أيضاً، ومما يؤسف له أن من المفسرين من بلغ به إعجابه بكل جديد أنه حاول أن يجعل في قصة البقرة التي في سورة البقرة وضرب القتيل بجزء منها دليلاً على ما روج له في العصر الأخير من أن الإنسان يتمكن من تحضير الأرواح، وقال: إن الآية شاهدة على قضية تحضير الأرواح، بينما الآية لا تدل على ذلك من قريب ولا من بعيد.

وقضية تحضير الأرواح هي دجل وتضليل فالله ﷻ يقول: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨] فكيف يمكن أن تعاد روح الإنسان الذي هلك ويُتحكم فيها؟

مع أن الله ﷻ يخاطب نبيه ﷺ بذلك الخطاب.

اللهم إلا إذا كانت معجزة نبي بـأن يجري الله ﷻ بعض الآيات على يديه كما كان ذلك لعيسى عليه السلام لتتحقق بذلك معجزته وتثبت نبوته، أما أن يأتي شخص من إنجلترا أو فرنسا أو من بلاد أخرى فيدعي أنه يستطيع أن يحضر الروح فتلك دعوى باطلة وبأي طريقة يتوصل إلى تحضيرها مع أن الله ﷻ يقول: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] فيستحيل أن يستطيع أحد تحضير روح ميت وأن يسأل تلك الروح أسئلة وتجيب هي عنها، والله ﷻ يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢] فإذا كانت الروح يمسكها الله ﷻ فمن الذي يستطيع أن يفلتها من يد الله ﷻ بعدما صارت في قبضته حتى تعود إلى مخاطبة الناس؟ والذين يقومون بهذه العمليات التضليلية لهم صلة بالشياطين والمردة فيتعاونون معهم على التحدث إلى الناس فيغتر الناس ويظنون أن هذا المتحدث هو روح فلان الميت أو روح فلان الحي، وقد حدثني أحد مشايخ العلم بأن هذه الظاهرة شاعت في وقت من الأوقات في بلاده فكان يأتي أحد هؤلاء بزنبيل يمسكه طفل أو طفلة ويتمتم بكلمات ويتحرك الزنبيل، قال: حتى أني يوماً من الأيام قلت لمن يتولى هذه العملية أحضر روحي فتمتم بكلمات وتحرك الزنبيل فإذا بالروح ـ كما يزعمون ـ حضرت فوجهت أسئلة إلى هذه الروح عن أشياء لا يعرفها غيري فإذا بها تجيب عن كل ما سألتها عنه بدقة كما أنا مطلع عليه، ثم بعد ذلك سألت عن بعض الأشياء فتلعثمت في الإجابة، فقلت له: أنت لست بفلان أي صاحب الروح قال: نعم، قلت له: من أنت؟ قال لي: «أنا قرينك من الجن» فهو الذي اطلع على ما اطلعت عليه وأخذ يحدثني بذلك، وهو دليل على أن الجن يتلاعبون بعقول الناس ويدعون أنهم أرواح الموتى تحضر إليهم فتحدثهم بالمغيبات، والله المستعان، والله أعلم.

يقال إن الشمس باعتبارها أحد النجوم سوف تموت بعد فترة محددة من النجوم الأخرى فهل يمكن أن نعتبر هذه حقيقة علمية أو مثل هذه الأشياء من علم الغيب؟

الكون كله سيفنى إذ الله ﷻ ينشئ الكون نشأة أخرى بعد فنائه يقول الله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، ويقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠] هل تصح أن تكون هذه الآية تفسيرا لما وجد من أن طول اليوم ستة أشهر في بعض المناطق القطبية ؟

يحتمل أن يكون هذا هو المراد من غير جزم بذلك والله أعلم.

ذكرتم بأن الكواكب تجرها الشمس باعتبارها الأم وذكرتم أيضاً بأن بعض هذه الكواكب أكبر بكثير من هذه الشمس وكيف تجرها وهي أكبر منها؟

لم أقل بأن الشمس تجرها وإنما قلت إن الشمس تجري وإن المجموعة الشمسية التي هي حول الشمس تدور حول أمها الشمس كالأرض وعطارد وزحل والمريخ والمشتري، وهي جميعاً تسعة كواكب ومعها توابع واحد وثلاثون قمراً وثلاثون ألفاً من النجيمات وآلاف من ذوات الأذناب وأعداد هائلة من الشهب، هذه كلها تنتسب إلى المجموعة الشمسية، وبجانب هذه المجموعة الشمسية هناك مجاميع أخرى متعددة وكل مجموعة من هذه المجاميع تدور حول أمها بحسب هذه السُنَّة التي تدور عليها هذه المجموعة الشمسية، والله أعلم.

يقول السائل: تحدثتم عن دوران الأرض حول نفسها بمقدار ألف ميل في الساعة ما السر في عدم سقوط الأشياء الموجودة على ظهرها من العمران وغيرها في نظركم؟

هذا سؤال غريب فإن الطائرة ـ مثلاً ـ في حركتها لا يشعر الراكب بسرعتها مع أنها محدودة الحجم وهي لا تساوي شيئاً من حجم الأرض مع أنها تسرع سرعة مذهلة من غير أن يشعر بها ركابها، وتماسك ما على الأرض إبان دورانها إنما يرجع إلى قوة الجاذبية الأرضية، فانظر كيف ترفع هذه الورقة إلى أعلى فتنزل بنفسها إلى الأسفل ما الذي يجذبها إلى الأسفل؟! إنما تجذبها الجاذبية التي جعلها الله ﷻ في هذه الأرض لتمسك ما عليها سواء كان ملتصقاً بها أو غير ملتصق. وقد جعل الله سبحانه هذه الجاذبية بمقدار حجم الأرض فلو كان حجمها صغيراً لما أمسكت الماء ولا أمسكت الهواء وإنما جعل الله ﷻ قوة جاذبيتها بمقدار الضغط الهوائي المتكون من الغلاف المحيط بها بحيث يضغط على كل بوصة من الأرض مقدار عشرة أرطال من الهواء، والله أعلم.

يقول السائل بما أن المجموعة الشمسية تدور حول الشمس ألا يمكن أن تكون هناك مجموعة شمسية غير مجموعتنا؟

هناك ما لا يحصى من المجموعات الأخرى وهي جميعها على نفس نظام مجموعتنا هذه، والله أعلم.

يقول السائل: قال الله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ ﴾ [الرحمٰن: ٣٣] هل هذا التحدي يكون يوم القيامة حيث لا مجال للناس للفرار أم مقصود به فتح المجال للمسلمين إلى عالم الفضاء؟

معنى الآية الكريمة أنه لا قدرة للإنس والجن على أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض، وهذا الذي يذهب إلى الفضاء لا يخرج من أقطار السماوات وإذا كانت المجرات البعيدة عن الأرض تقاس بملايين السنين الضوئية فكيف يمكنهم الخروج من حدود السماوات المحيطة بها، فالآية إنما هي تحد للإنس والجن بأنهم لا يمكنهم أن يخرجوا من ملكوت الله ويدل على ذلك قوله:

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمٰن: ٣٥] والله أعلم.

سمعنا عن مشاريع دفن الأموات في الفضاء فما رأيكم في ذلك؟

الأرض ما ضاقت بأهلها حتى يدفن الموتى في الفضاء، والله أعلم.

السائل يقول: لماذا لا تصطدم الكواكب مع بعضها البعض مع سرعتها الكبيرة؟

لأن الله هو الذي يسيرها وقد أحاطت قدرته بكل شيء والله أعلم.

هل يمكن أن تكون هناك أرض غير هذه الأرض بما أن هناك مجموعات شمسية كثيرة؟

ذكر الله ﷻ سبع سماوات ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ «من ظلم شبراً من الأرض حمل يوم القيامة سبع أرضين» فالله أعلم ما المراد بتلك الأرضين ذلك محتمل، والله أعلم.

لماذا عبر القرآن بالمشرقين والمغربين وتارة بالمشارق والمغارب؟

المشرقان والمغربان يقصد بهما مشرق في الشتاء ومشرق في الصيف، ومغرب في الشتاء ومغرب في الصيف، وعبر بالمشارق والمغارب، لأن مشرق

قوم يكون مغرب قوم آخرين، فالمشارق والمغارب تتعدد لأن الأرض كروية، فإذا طلعت علينا الشمس، فالأفق الذي طلعت علينا منه هو مشرق لنا والأفق الذي تغيب منه بالنسبة إلينا مغرب، ومَنْ بعدنا من جهة الغرب مشرقهم يتأخر عن مشرقنا، ومغربهم يتأخر عن مغربنا، وهكذا تتعدد المشارق والمغارب، ويجوز أن يكون المشرقان والمغربان مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما، والمشارق والمغارب مشارق النجوم والكواكب ومغاربها، والله أعلم.

نقرأ ونسمع عن مسألة الأطباق الطائرة، وقد اختلف فيها ما بين مصدق ومكذب فما حقيقتها، وإذا كانت تدل على وجود عالم من العوالم هل تعتبر دليلاً على من ينكرون وجود الملائكة وغيرها من العوالم الغيبية؟

سمعت كما سمعتم، ولا أدري حقيقة الأطباق الطائرة، ولا أعرف هل هي حقيقة واقعة أو أنها نسيج من الخيال؟ وهل هي من صنع البشر أو من العوالم الغيبية؟ الله أعلم بذلك، والله أعلم بكل شيء.

ما قولكم في الفرضية القائلة إن الأرض كانت جزءاً من الشمس فإنفصلت عنها؟

هذه نظرية، والنظرية غير الحقيقة العلمية، إذ لا يلزم أن تكون النظرية متفقة مع الواقع، وبعض المفسرين فسروا بموجب هذه النظرية قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ثم جاءت بعدها نظرية دالاس، التي تقول إن الكون كله كان سديماً ثم انفصلت أجزاء تكونت منها الأجرام، وهذه النظرية أقرب إلى مدلول قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وإن كنا لا نستطيع القطع بذلك ما لم تقم عليه أدلة قاطعة، وغاية ما يمكننا هو الترجيح، والله أعلم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، فهناك من فسر هذه الآية بأن الرياح هي التي تقوم بعملية التلقيح، حيث تنقل حبوب اللقاح من نبات إلى آخر. ولقد رجحتم تفسيراً مخالفاً للتفسير السابق، فهل معنى هذا أن التفسير السابق تفسير خاطئ، أم نبتعد عن ذكره للحيطة والحذر في تفسير ما لا نعلم؟

نحن لا نمانع أن تكون الرياح هي التي تنقل حبوب اللقاح، فذلك محتمل، ولكنا نقول إن هذه الآية ـ بالذات ـ نزلت في تلقيح السحاب ولم تتعرض لتلقيح الشجر بإثبات ولا نفي، فإذاً لا نحمل ما ثبت من أن الرياح تنقل تلقيح الشجر على أنه تفسير لهذه الآية، بل نحمل الآية على ما دل عليه لفظها، لأن محاولة إخراج الألفاظ العربية من مدلولها الذي تدل عليه محاولة خاطئة، «فالفاء» تقتضي الترتيب وتقتضي السببية. والآية تقول ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [الحجر: ٢٢]، وذلك يدل على أن نزول المطر على أثر التلقيح، والله أعلم.

يقول العلم الحديث إن سبب نزول المطر هو نتيجة التقاء سحابتين إحداهما تحمل شحنة موجبة والأخرى تحمل شحنة سالبة، وعند التقاء السحابتين المختلفتين في الشحنة يحدث التلقيح، مما يسبب حدوث الرعد والبرق ونزول المطر، فما قولكم في ذلك في ضوء قوله سبحانه تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]؟

هذا لا ينافي أن تكون الرياح من العوامل في تلقيح السحاب، وهذا أمر معروف بالتجربة، فبعض الناس من ذوي الخبرة ـ حتى الذين لم يدرسوا شيئاً من العلوم ـ عندما تحدث رياح معينة يتفاءلون بها، فهم يتفاءلون بالصبا ونحوها وهذا أمر معروف عند العرب قديماً بالعادة لا بالدراسة، والله أعلم.

استمعت إلى محاضرة للعالم اليمني عبد المجيد الزنداني قال فيها بأن تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمٰن: ٣٣] إن الجن تقدموا بالصعود إلى طبقة معلومة وهي طبقة استراق السمع، فأهلكهم الله كما قال في سورة الجن، والعلماء حديثاً وصلوا إلى القمر وسمعوا أصواتاً غير مفهومة فيحاولون الصعود إليها، فهل يصيبهم ما أصاب الجن كما هو مبين في سورة الجن؟

الآية لا تشير إلى هذا، إنما الآية الكريمة في يوم القيامة، فالله تعالى يخاطب الثقلين الإنس والجن خطاب تحد، إن كنتم تستطيعون أن تنفلتوا من قبضة الله تعالى وتخرجوا من ملكوته فاخرجوا، ثم هؤلاء هل استطاعوا الخروج من أقطار السماوات وأقطار الأرض؟ وأين هم من أقطار السماوات التي بقدر ما اكتشف من أبعادها بعشرات المليارات من السنوات الضوئية ؟! والله أعلم.

هل هناك أجرام أخرى تقع في غير السماء الدنيا؟ وإن كان الجواب بالإيجاب فما هو الدليل على ذلك؟

الله أعلم. فإن الآية تحدثت عن السماء الدنيا، وإثبات شيء لشيء لا يعني نفيه عن غيره، فالله سبحانه قال: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦] فالسماء الدنيا مزينة بهذه الأجرام الفلكية، وأما ما هو أعلى من هذه السماء الدنيا فالله أعلم به، وقد تكون هذه الأجرام المكتشفة كلها في هذه السماء الدنيا، وقد تكون في غيرها، والله أعلم.

إن بعض النظريات التي ابتدعها علماء الغرب على الرغم من إنها تتنافى مع كل ما جاء به الإسلام مثل نظرية الخلق التلقائي، إلا أنها تدرس في المناهج العربية. ما حكم الإسلام في دراسة مثل هذه النظريات؟

أما إذا كانت تدرس للانتقاد والرد ولبيان أنها باطلة فلا مانع من هذه الدراسة. أما أن تدرس على أنها حقائق فلا، والله أعلم.

صفات الله

في قول الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، هذه الآيات كيف يفهمها القارئ وهو يَمُر عَليها، ما المقصود بـ﴿مَّن﴾ هل هو جبريل أو هو الله سبحانه والله سبحانه ـ كما هو معلوم ـ لا تَحُدُّه الأمكِنَة ولا الأزمنة أو أنَّه يَمر عليها بِدُونِ تَأْوِيل هكذا؟

الله تعالى خَاطَب عباده خطاباً حَسْب ما هو مَأْلُوفٌ عندهم، ومِن المَعْلُوم أنَّ الناس أَلِفُوا التعبير بالحقيقة والتعبير بالمَجَاز وهَذا من أسباب وُجُودِ التَّشَابه في القرآن الكريم، وهذه الكلمات إنَّمَا أُرِيد بِهَا دَفْع مَا عَسَاهُ أن يكون مِنْ اعتِقَادِ عدم وُجُود الله تعالى، ذلك لأنَّ الإنسان لو أُخْبِر عن وُجُودِ الله وقيل له بأنَّه تعالى لا يُعَبَّر عنه بأنَّه داخِل الكون ولا خارج الكون فلَرُبَّما تصور أنَّ هَذا مُسْتَحيل، ذلك لأنَّ الإنسان مِن أوَّل الأمر لا يكتَشِفُ هذه الحقائق إلا عندما يتَرَقَّى عَقْلُه، فلذا جَاء القرآن الكريم بِهَذَا الأسلوب الذي فيه الحقيقة والمَجَاز.

ونحن لو نظرنا إلى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦] إلى أيِّ مَكَان ذَهَب؟ إنَّمَا هَاجَر مِنْ أَرْضِ العراق إلى الأرض المُقَدَّسَة في كنعان فليس وُجُودُ الله ـ تعالى ـ هناك وُجُودُ حُلُول، وكذلك

القول قولـه عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وكذلك نَجد أيضاً أنَّ النبي ﷺ يقول: «إذا كان أحدُكم يُصلِّي فلا يبْصُق أمام وَجْهِه فإنَّ الله بينَه وبيـن قِبْلَتِه[1]» فليس معنَـى «فإنَّ الله بينـه وبين قِبْلَتِـه» أن وُجُودَ الله ـ تعالى ـ في هذا الـمكان وُجودُ حُلُول.

فالله في السـماء بِمَعنَى أنَّه مُهَيْمِن على السـماء ومُصَرِّف لها، والسماء يتَنَزَّلُ منها الأمـر، وكُل ما أحاط بـالأَرْضِ فهو سَـمَاء والأرض ـ كما هو مَعلُوم ـ كُرَة وهذه الكرة نِسـبَة الفوقِيَّة والتحْتِيَّة فيها إنَّمَا هي نسـبة بِحَسْبِ اعْتِبَار حال مَن كان في جِهةٍ من جِهَاتِهَا، فإذن السـماء مُحِيطَة بِهَذِه الأرض والأرض كُرَة مُحَاطَة بِالسَّـماء، لأنَّ كلمة «سَـماء» تَشْـمَل الفَضَاء وتشْمَل الأجرام ومـا وراء ذلك، الله تعالى يقول فـي النَّخْلَة: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ويقُول: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الروم: ٢٤] مع أنَّ الـمَاء إنَّما ينْزِل مِـن طَبَقَة قَرِيبَة جـدّاً مِن الأرض وهو السَّـحَاب الذي هو حول الأرض، فإذن كلمة السَّـماء تشْـمَل الجميع، فَمعنَـى ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] مَن أَحَاط بكم من كُلِّ ناحيةٍ من النواحي، فَلذلك عُبِّر هذا التعبير، والإنسـان إن جَاءَته أفكار مِن هذه الناحية عليه أن يَعْتَقِدْ أنَّ الله مُحيط بكلِّ شيء وأنَّه مُهَيْمِنٌ على كل شَيْء والله أعلم.

نعلم أن بعض المناطق من الأرض يكون فيها نهار دائم فهل يكون فيها نصيب من الرحمة كما في حديث «يتنزل الله في الثلث الأخير..»؟

هذا الحديث من الأحاديث المتشـابهة، والمتشـابه يرد إلى المحكم لأن الله سبحانه وتعالى قـال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] فكـون المحكمـات أم الكتـاب ـ يعنـي أنها أصل

(١) رواه البخاري بلفظ مقارب (٣٩٧) ونحوه عند الربيع (٢٦١).

الكتاب ـ ويعنى ضرورة رد المتشابهات إليها، إذ الله ﷻ ليس كمثله شيء، فليس معنى النزول هنا نزول ذاته ﷻ وإنما هو نزول أمره ﷻ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة هذا الاختلاف الذي ذكر في هذا السؤال في طبيعة الأرض، فبما أن الأرض كروية يكون في بعض أجزائها الليل وفي بعض أجزائها النهار، والله سبحانه ينزل أمره إلى أهل كل جزء من هذه الأجزاء بما يحضهم على الدعاء وعلى التهجد، فكل من قام في الثلث الأخير من الليل في أي جهة من جهات الأرض فقد وافق أمر الله ﷻ الذي ينزل وهناك يُرفع دعاؤه ويستقبل عمله، بمشيئة الله تعالى إن كان مخلصاً لله رب العالمين، والله أعلم.

في الحديث المروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا فيقول هل من مستغفر»[1] ما تفسير هذا الحديث؟

إن قلنا بظاهر الحديث ولم نؤوله، وقلنا بأن النزول نزول حقيقي أي ينتقل الله بذاته من العرش إلى السماء الدنيا ـ كما يقول الذين يرفضون التأويل ويحصرون الله في العرش ـ، فأي ليل هذا بالله عليكم؟!! فنحن هنا موجودون في هذه المنطقة والوقت الآن عندنا هو وقت العشاء، وهو في المناطق الغربية من الولايات المتحدة الآن وقت الصباح، ولعل جزر هاواي لم ينبلج فيها الصبح عندهم، وفي المناطق الشرقية النائية مثل أستراليا واليابان الآن قد انتصف الليل أو جاوز الانتصاف، فإذاً ينزل في أي ليل، هل ليل اليابان أم أستراليا أم الصين أم الهند أم عمان أم ليل المناطق الغربية، فالكرة الأرضية لا تخلو في أي لحظة من هذا الثلث الأخير؟!! فالحق أنه ينزل أمر الله ولا ينزل الله تعالى بذاته، وقد خاطب الله العباد العقلاء: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فليس من المعقول أن يأخذ الإنسان كل شيء بظاهره، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨).

كيف كان كلام الله ﷻ لموسى عليه السلام هل كان مباشراً أم وحياً أم غير ذلك من الطرق، حيث قال عز من قائل: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؟

الله ﷻ كلم موسى عليه السلام بأن أسمعه كلاماً بغير واسطة، فلم ينزل عليه ملك بذلك الكلام الذي كلمه الله به، وبما أن ذلك الكلام منشؤه من الله ﷻ وقد أراد الله به إيصال خطابه لموسى أسند إلى الله ﷻ، والله أعلم.

ما القول في من يقول إن الله له أذن ولكن ليست كآذاننا، وله عين وليست كأعيننا، وله يد وليست كأيدينا، ويستدل بآية ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؟

يلزم من ذلك أن يكون الله ﷻ متجزئاً، لأنه إذا كانت له أذن فيلزم أن تكون هي غير العين، وإذا كانت له عين فيلزم أن تكون غير اليد وهلّم جراً. والله ﷻ لا يتجزأ، وإنما هذه الصفات تُحمل على ما يُراد بها. فإن الله ﷻ أنزل القرآن الكريم كتاباً عربياً. والكلامُ العربي فيه الحقيقة والمجاز، وجاء في كلام العرب قديمهِ وحديثهِ إطلاقُ الألفاظ على غير حقائقها التي وُضعت لها، ومن أمثلة ذلك إطلاق اليد على القدرة أو على القبضة فإن الشاعر يقول:

وغداة ريح قد كشفتُ وِقرَةٍ إذ أصبحت بيد الشمالِ زمامها

وليست للشمال يدٌ، وليس للغداة زمام، وإنما ذلك من باب المجاز، ويقول الله ﷻ ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] مع أن الحبل معروف فهو جسم مفتول يصل ما بين جانبين، ولكن بما أن دين الله سبحانه يصل العباد بالله ﷻ، ثم يصل بين العباد أنفسهم بعضهم ببعض، سمي هذا الدين حبلاً.

ويقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢]، ومن المعلوم قطعاً أن القرآن الكريم ليست له يدان، ويقول ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧] مع أن الرحمة ـ أيضاً ـ ليست لها يدان، والشاعر يقول:

وفي يدك السيف الذي امتنعت به صفاة الهدى من أن ترق فتخرقا

فوصف الهدى بأن له صَفَاة، وأنها تحمى بالسيف لئلا ترق فتخرق، وهل للهدى صَفَاة حسية؟!. فإذا وجدنا في القرآن الكريم وصف الله تعالى باليد فالمقصود بذلك أن الله ﷻ قديرٌ أو أن الله سبحانه منعم. فاليد تُفَسر بالقدرة وتُفَسَر بالنعمة، وهكذا يجب أن نحمل ما نجد من ذلك في كتاب الله ﷻ على هذا التأويل. فالله سبحانه قال: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]. ومن المستحيل أن تُحمل العين هنا على الجارحة. فهل الجارحة هي القائد الذي يقود هذه السفينة؛ أو هي المجرى التي تجري عليه السفينة؟! لا ريب أن ذلك مستحيل. ويقول الله في موسى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩]، فهل صنع فوق عين الله؟ مع أن (على) تفيد الاستعلاء ولا يمكن أن يكون المراد بمثل هذا الكلام في هذه الموطن ظاهره، فتبين من هذا كله أن العين بمعنى الحفظ، وكذلك أمثالها، والله أعلم.

يوصف الإنسان بالحياة بكل ما أودع الله ﷻ فيه من أسرار وهي الروح، فإذا ما أخذ الله هذه الروح وُصِف ذلك الإنسان بأنه ميت. فهل لله روح، حيث قال بعد فراغه من خلق آدم: ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة: ٩].

التجرؤ على مثل هذا الاعتقاد يؤدي إلى ما أدت إليه عقيدة النصارى من اعتقاد أن عيسى عليه السلام هو ابنٌ لله، وأنه عليه السلام اصطبغ بالصبغة الربانية. فالروح إنما أُضيفت إلى الله لأنها سرٌ من أسرار الله، فيضاف إلى اسمه ﷻ ما كان

مختصاً به تشـــريفاً له وتكريماً، وإن كان كل ما في السماوات ملكاً لله، فيقال في الكعبة بيـــت الله، فهل معنـــى ذلـــك أن الكعبة البيت الحرام مســـكن لله سبحانه ـ تعالى الله عن ذلك ويقال أيضاً في الفقراء إنهم عيال الله، وذلك لأن الله ﷻ يرعاهـــم، أوجب على عباده أن يحرصوا على رعايتهم، فلذلك سُـــمُّوا عيال الله. وهكذا كلُ ما يوجد من أمثالِ هذه الأمور، فإضافةُ الروح إلى اللهِ ﷻ في قوله: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩]، وفي قوله: ﴿ وَنَفَخَ فِيـهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ وأمثال ذلك إنما هي لأجل أن الله ﷻ جعل الروح ســـراً من أسراره، فأضيفت إليه لأجل هذا الاختصاص، ودليل اختصاصها بالله سبحانه قوله:

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسـراء: ٨٥]، وإلا فالروح نفســـها مخلوقة، والله ســـبحانه حياته لا تتوقف على ما تتوقف عليه حياة البشر، فلا تشابه بين حياة الله وحياة البشر والله أعلم.

من أدلة الذين يقولون إن صفـــات الذات[1] هي غير الذات قياس الغائب على الشاهد، فالغائب هو الله، فما هو الشاهد؟

الشاهد هو المخلوقات، والله أعلم.

كيف تسمع الملائكة كلام الله ﷻ ؟

الله ﷻ أخبرنا أنه يكلم الملائكة ونحن نؤمن بذلك، ولم يوقفنا ﷻ على كيفية ســـماع الملائكة لكلامه ﷻ، وإنما ذكر المفسرون في ذلك ما ذكروا اجتهاد منهم، ومن المفسرين الذين تعرضوا لهذه المسألة العلامة ابن عاشور

(١) معنى صفات الـــذات: هي الصفات التي لا يتصف الله بأضدادهـــا كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر. وهنا الشيخ يبين بطلان القول بأن صفات الذات هي غير الذات لأن في ذلك وصفه سبحانه بصفات المخلوق.

وقد أجاد في الحديث عنها، قال: بأن ذلك يمكن أن يكون بفهمٍ يخلقه الله ﷻ في الملائكة يُدركون به مُرادَ الله ﷻ، ويمكن أن يخلق الله تعالى لهم صوتاً يسمعون منه مراده، والله أعلم.

ماذا نفهم من قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٤]؟

نفهم بأن الله تعالى كلّم موسى بدون واسطة. أي لم يرسل إليه ملكاً في بهذا التكليم كما أرسل إليه عندما أوحى إليه التوراة، وكما أرسل الملائكة إلى أنبياء الله ﷻ، ونسكت عما وراء ذلك من كيفية هذا التكليم فإن الله تعالى هو العليم به، ونحن نعتقد أن الله ليس كمثله شيء، ونعتقد بأنه على كل شيء قدير، وقد قيل بأن موسى عليه السلام سمعه من كل جانب والله لم يوقفنا على ذلك فيمكن أن يسمعه من جانب أو من جوانب متعددة ونستحب عدم الخوض فيه، والله أعلم.

من صفات الله الكلام، فهل كلام الله أزلي أم هو حادث؟

أما بالنسبة للكلام الذي يقصد به نفي الخرس فهو صفة ذاتية قديمة، وأما بالنظر إلى إحداث الكلام، فمن المعلوم أن كل شيء يأتي في وقت وفي زمن معين فذلك حادث والله أعلم.

ما هو السلوك السلبي الذي يتكون باعتقاد أن صفات الله غير ذاته؟

يخشى من ذلك أن يجر إلى اعتقاد تعدد القدماء مع الله ﷻ والله أعلم.

كيف يُرد على من يقول: هل يرى الله ذاته ؟

الله ﷻ على كل شيء قدير، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ويكفينا أن نعتقد ذلك ونسكت عما زاد عليه، والله أعلم.

لقد قلتم أن صانع الصنعة قدير عليها، ولكن نرى أن الإنسان صنع السيارة أو البندقية أو القنبلة الذرية مثلاً ولا يملك القدرة المطلقة عليها فكيف ذلك؟

هذه القدرة التي عنيتها هي قدرة جزئية بحسب قوة هذا الإنسان، فلو لم يكن الإنسان قادراً على صنع السيارة لما صنعها، ولا يلزم من كونه قديراً على صنع ذلك الشيء أن يكون قادراً على صنعه بدون واسطة. فإن الإنسان يصنع بالواسطة، وأما الحق تبارك وتعالى فإنه يصنع ما يصنع بدون واسطة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فقدرة الإنسان قدرة جزئية محدودة، وقدرة الخالق تبارك وتعالى قدرة كلية مطلقة لا يخرج عنها أيُّ شيء في الأرض ولا في السماء.

فالصنع يدل على القدرة، وإنما تختلف قدرة عن قدرة. فالمخلوقون أنفسهم متفاوتة قدراتهم والإنسان ـ نفسُه ـ قدرة الضعيف من جنسه غير قدرة القوي، وكذلك سائر المخلوقات، فهل قدرة العصفور كقدرة الصقر أو كقدرة النعامة؟ وهل قدرة النملة كقدرة الفيل؟ لا وإنما هي قدرات متفاوتة، فالنملة أعطاها الله قدرة تسحب بها حبة الطعام إلى جحرها. ولولا أن الله مكَّن لها من ذلك بما وهبها من قدرة لما استطاعت أن تجتلبَ تلك الحبة، ولكنها قدرة ضعيفة جداً، بالنسبة إلى قدرة ما هو أقوى منها كالفيل، وإذا نظرنا إلى قدرة الإنسان أو قدرة المخلوق أياً كان ـ حتى الملأ الأعلى ـ، وحتى جبريل عليه السلام الذي يمكنه أن ينسف الأرض نسفاً في لحظة واحدة بما آتاه الله تعالى من قدرة نجدها بجانب قدرة الله عز وجل لا تساوي شيئاً أبداً، ولا تصلح أن تسمى حتى قدرة نسبية، لأن قدرة المخلوق ليست ذاتية وإنما هي بإقدارٍ من الله، وهي أيضاً مسبوقة بالعجز وقدرة الله سبحانه وتعالى ذاتية غير مستمدة من شيء، وهي أزلية أبدية غير مسبوقة بالعجز ولا يعتريها العجز.

وهذا الإنسان الذي آتاه الله الآن ما آتاه من خصائص التطور الذي لم يكن يحلم به من قبله هل يتيسرُ له كل ما يريده؟ لا، إنما قدرة الله هي التي تُمده بالمعونة فيما يريد الله أن يحققه له، ولننظر إلى هؤلاء الذين تطورا ووصلوا إلى ما وصلوا إليه وبلغوا ما بلغوه هل يستطيعون أن يردوا عن أنفسهم المرض، فضلاً عن أن يردوا عن أنفسهم الموت، فإن أحدهم يمرض مرضاً ثقيلاً من غير أن يستطيع أن يفرَّجَ عن نفسه كربة ما هو فيه من المرض، ويذكر أن رئيس إحدى الدول كان يُرْهَبُ في دولته، ويُحسب له ألف حساب وحساب، وكان وزراؤه ترتعد فرائصهم منه، فشاء الله أن يلقيه في فراشه مريضاً لمدة أربعين يوماً، واجتمع أكابر الأطباء من مختلف أنحاء العالم، فما أمكن لهؤلاء الأطباء الماهرين ـ مع تطور الطب وتقدمه ـ أن يحققوا له ولذويه أدنى أمنّية، وهي أن يفتح عينه فقط. وما هذا إلا دليل على العجز الذي يحيط بالبشر:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤]. فالله ﷻ هو الذي سخر هذه الأجرام الفلكية، وهي تجري بمقادير وبمقاييس معينة وبمدد محدودة وهو الذي سخر السماوات والأرض جميعاً، وسخر هذه الطاقات الروحية التي لا يحيط بها الإنسان علماً، وهو بكل شيء قدير، فما هي قدرة الإنسان بالنسبة إلى جانب قدرة الخالق العظيم؟! وكيف يتطاول هذا الإنسان ـ الذي يتردد كل يوم وليلة على المرحاض عدة مرات ـ على ربه، فهل تُذكر قدرته بجانب قدرة من ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] والله أعلم.

نَصِفُ الله بأنه عالم وكذلك الإنسان بأنه عالم إذا كان لديه علم، وكذلك نصف الله بأنه عليم، فهل الإنسان عليم؟

إنه يجب علينا أن نعلم أن علم الله سبحانه يختلف عن علم المخلوقين تمام الاختلاف، فعلم الله ﷻ غير مسبوق بجهل أبداً، وهو علم ذاتي ليس بواسطةٍ بينه وبين المعلوم، وإنما ذاته ﷻ تتكشف لها المعلومات تكشفاً تاماً وتتجلى لها تجلياً من غير احتياج إلى واسطة ما بين هذه الذات العلية وبين المعلومات، أما الإنسان فبخلاف ذلك، فعلمه حادث لأنه يعلم ما لم يكن يعلمه من قبل، وقد يجهل ما كان يعلمه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠]، فالإنسان الذي كان عالماً فطناً ذكياً إذا رُدّ إلى أرذل العمر ينقلب إلى جهل ما كان يعلمه من قبل، ثم إن علم الله ﷻ محيط بكل شيء، أما الإنسان فإن علمه علم نسبي محدود جداً. فهو لا يعلم ما في طوايا نفسه وتضاعيف تكوين جسمه من أسرار خلق الله الباهر إلا النزر اليسير الذي لا يساوي شيئاً بجانب ما يجهله، بل لا يحيط بأسرار نطقه وإن كان ينطق متى أراد، فنحن نعلم أن الكلام يأتي من الدماغ، فتتنفس الرئتان ويصعد الهواء المختزن فيهما بواسطة القصبة الهوائية ثم بواسطة الشعب إلى الحنجرة، ثم تتفاعل مع ذلك الآلات المتنوعة كالأضراس والحنك واللهاة واللسان والشفتين بجانب الهواء ويخرج هذا الصوت المعبر عن قصد قائله المفهوم عند سامعه، ولكن تبقى الحلقات مجهولة عند الناطق نفسه فمن أين يستوحي الدماغ هذا الكلام؟ ذلك شيء لا نعلمه. كذلك سِرّ الإبصار نحن لا نعلمه. إنما ذلك من علم الله ﷻ. والروح التي هي فينا ـ وهي سِرُّ حياتنا ـ لا نعلم كنهها وإن أدركنا آثارها، فضلاً عن أن نحيط علماً بما في ملكوت السماوات والأرض، فإذا كان الإنسان لا يحيط علماً بما في طوايا نفسه، فكيف لهذا المخلوق الضعيف أن يحيط علماً بدقائق الكون

وأسرار الوجود، بينما الله تعالى محيط علماً بدقائق الكون، فقد بيّن الله تعالى أن ما هو أدق من الذرات كله في حيطة علمه ﷻ، وقد مضت القرون الخالية قرناً بعد قرن والناس ما كانوا يعتقدون أن الذرة تنقسم أو يمكن انقسامها وإنما كانوا يعتقدون أنها أدق شيء في الوجود، وقد دل القرآن على خلاف ذلك فقبل تفجير الذرة بأكثر من ثلاثة عشر قرناً أنزل الله تعالى قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣] فالأصغر من ذلك الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات التي تحتويها الذرة، وقد يكون هناك ما هو أدق منها مما لا نعلمه وقد أحاط الله به علما.

فليس علم الله كعلم المخلوق وليست بينهما نسبة إذ لا نسبة بين المطلق والمحدود، نعم يُقال بأن الإنسان عليم تجوزاً.

ومن الحكم الصوفية البالغة قول بعضهم «من عرف نفسه عرف ربه» وقد وجدنا الناس فيها مختلفين، فمنهم من عزاها إلى النبي ﷺ، لكن لم توجد رواية عنه عليه الصلاة والسلام لها سند بهذا اللفظ وقد تردد فيها الغزالي، فتارة قال إنها حديث عن الرسول ﷺ وعول على ذلك الفخر في تفسيره، وتارة قال إنها مما أنزله الله في كتب السابقين ـ ونحن لا نعلم ما في الكتب السابقة ولكن لا نعزي إليها شيئاً إلّا بدليل ـ وتارة قال غير ذلك.

واختلف العلماء في تفسيرها على ثلاثة أقوال، فقال بعضهم المراد بهذا أن من عرف نفسه بصفات النقص عرف ربه بضدها. فأنت أيها الإنسان جاهل عاجز ضعيف ميت ـ أي ستموت ـ حادث فقير محتاج محدود من كل الجوانب الحسية والمعنوية إلى غير ذلك من الصفات الخلقية المختلفة الظاهرة في الإنسان فإذا عرفت هذه الصفات من نفسك عرفت ربك

بأضدادها وهي أنه عليم قدير قوي حي لا يجوز عليه الفناء، قديم لا يجوز عليه الحدوث، سميع بصير جامع لكل صفات الكمال.

ومنهم من فسرها بأن المقصود منها أن من عرف نفسه بالصفات الكمالية البشرية عرف ربه بما هو أبلغ منها من باب الأولوية، فالإنسان على طريق المجاز عليم قدير سميع بصير حي متكلم، متصف بكثير من الصفات التي هي من مظاهر الكمال البشري، فإذا عرف نفسه بها عرف أن ربه هو أولى بالكمالات فإذا اتصف الإنسان بمجازاتها المحدودة فالله موصوف بحقائقها المطلقة.

وقيل: بأن النفس هنا بمعنى الروح، أي إذا كانت هذه الروح التي بها قوام جسدك وجوارحك وبها استمرار حياتك وإحساسك وشعورك، وهي بين جنبيك وأنت لا تتوصل إليها فتمسها بيديك، ولا تبصرها بعينيك، ولا تسمعها بأذنيك، ولا تشمها بمنخريك، ولا تمصها بشفتيك، فما بالك بالله سبحانه الذي خلقك وخلق هذه الروح ونفخها في جسمك فكانت مظهراً لسره وشاهدة على أمره فهو ﷻ أولى وأجدر بأن يكون، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفكار ولا تكتنهه العقول، ولا تتصوره معارف البشر، وكل هذه التفاسير محتملة، وقد تبين بهذا أن اتصاف الإنسان بهذه الأوصاف إنما هو بطريق المجاز وهو نسبي محدود. وأما الكمال المطلق فهو لله تعالى والله أعلم.

ما الفرق بين العلة والسبب؟

العلة يترتب عليها المعلول وجوداً وعدماً كطلوع الشمس الذي هو علة لانتشار الضوء، أما السبب فقد يترتب عليه المسبب وقد لا يترتب، فالزواج سبب للولادة ولكن قد لا يحصل الولد بالزواج، وتناول الدواء سبب لحصول الشفاء ولكن قد لا يكون به الشفاء، وطلب الرزق بأسبابه هو سبب

لحصوله وقد لا يحصل وهلمّ جراً ويظهر بهذا أن السبب أعم من العلة وهي أخص منه، والله أعلم.

هل يمكن القول بأن ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ مندرج تحت كلمة علم الله؟

هو من علم الله، فما في اللوح المحفوظ هو بعض معلومات الله، إذ معلومات الله أوسع فقد أحاط الله علماً بالقضاء والمقضي والقدر والمقدور فعلمه تعالى أحاط بما كان وما هو كائن وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، والله أعلم.

السائل يسأل عن اختلاف أصحابنا في اتصاف الله بالصفات الفعلية في الأزل، حيث قال المغاربة بذلك، فيجوز معهم أن يقال لم يزل الله خالقا وما شابه ذلك بمعنى أنه سيخلق، ومنع ذلك المشارقة، فما الأصح عندكم؟

الخلاف لفظي، فيقال: «فلان حاج» بمعنى سيحج، ويقال: «هو حاج»، بمعنى أنه حج، فمعنى لم يزل خالقاً أنه سوف يخلق، أما أنه قد خلق فلا، والله أعلم.

عن قول الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لم يزل الله قديرا عالما ونحو هذا جائز كن فاهما

فعبر بالجواز، ومن المعلوم بأن ذلك واجب؟

يعني بذلك أن مثل هذا التعبير جائز شرعاً، ولا يعني بذلك أن اتصافه بالقدرة جائز، لأن اتصافه بكل الكمالات واجب، والله أعلم.

نرجو توضيح قول أبي بكر ﷺ «العجز عن الإدراك إدراك»؟

معنى ذلك أنه إذا شعر الإنسان بأنه عاجز عن إدراك حقيقة ذات الحق ﷻ فقد أدرك معرفة الله ﷻ الواجبة عليه، والله أعلم.

سماحة الشيخ.. لقد رزقني الله تعالى بولد (ذكر) فسميته الوارث تيمناً باسم أحد أئمة عمان الأخيار الأبرار الإمام الوارث بن كعب الخروصي ـ رحمه الله ورضي الله عنه ـ. وعليه سألني أحد الأصدقاء: ماذا سميت الولد؟ قلت له: أسميته الوارث. قال: هذا اسم من أسماء الله الحسنى فلا يجوز تسميته بذلك، قلت له: تيمناً باسم أحد أئمة عمان الوارث بن كعب. فطلب مني التوجه بالسؤال إلى سماحتكم للإفادة؟.

الوارث صفة من صفات الله، ولكن لا يعني ذلك حرمة التسمية باسم وارث، كما يسمى مالك مع أن المالك هو الله، ولذلك توسع السلف في التسمي بذلك، والله أعلم.

نجد كتب العقيدة تقسم صفات الله تعالى إلى ذاتية وفعلية، ويحصرون صفات الله الذاتية دون أن يذكروا معها بعض صفات الله المنصوص عليها المنطبق عليها تعريف صفات الذات مثل: العظيم والعزيز والمهيمن والقدوس وغيرها فما حكم مثل هذه الصفات؟

أمّا العظيم والعزيز والقدوس فمن صفات الذات، وأمّا المهيمن فصفة فعل، لأن المراد به أنه مهيمن على خلقه ـ أي مؤمن لهم أو قاهر ـ، وذلك وصف فعل إلّا مع التأويل، والله أعلم.

ينسب إلى سماحتكم أنكم تقولون إن عدد أسماء الله واحد فقط وهو

لفظ الجلالة (الله)، إن صح نسب هذا القول إلى سماحتكم فما تفسيركم للآيات والأحاديث التي يذكر فيها أسماء الله الحسنى مثل قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وما رأيكم في (الرحمٰن) هل هو اسم من أسماء الله تعالى أم صفة من صفاته؟ ففي الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]؟

قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فأسماء الله تعالى لا يشارك فيها، ويجوز إطلاق الاسم على الصفة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فالمراد بذلك صفاته، والفارق بين الاسم والصفة أن الاسم يوصف ولا يوصف به، والصفة يوصف بها، وكل ما عدا اسم الجلالة يوصف به فيقال (الله الرحمٰن الرحيم المالك العليم القدير السميع البصير المريد القهار.. إلخ)، والله أعلم.

امرأة تُكْثِر التَّوبة وتُكثِر الاستغفار وتبكي دائما ولكنَّها لا تَسْتَشْعِر العِبادة، ولا تُحِس بِطعمِها، فبِمَاذا يُفَسَّر هذا؟

ذلك سِرٌّ بينها وبين ربِّها، ونَحن لا نستطيع أن نَعرِف مَا في نُفُوسِ الناس، ولكن على الإنسان دائما أن يستَشْعِر عظمة الله ـ تعالى ـ المعبود، وأن يستَشْعِر حاجته إليه، وأن يستَشْعِر غِنَى المعبُود عنه، وأن يستَشْعِر أنَّ كُل ما يفعلُه مِن عبادة لا يَزِيد في مُلْك الله شيئا، فلو كان أهل السماوات والأرض على قلب أَبَرِّ رجل لَمَا زاد ذلك في مُلْكِ الله شيئا، ولو كانوا جَميعا على قلب أَفْجَرِ رجل لَمَا نَقَصَ ذلك من مُلْكِه شيئا، وإنَّما الفضل لله ـ تعالى ـ أوَّلا وآخِرا.

على أنَّ وقوف الإنسان بين يَدَيْ ربِّه يُعَدُّ شَرفا عظيما ليس فوقه شرف،

وإن كان الإنسان الضعيف عندما يقف بِجانب مَن آتاه الله نُفُوذا وسُلطانا في هذه الأرض يشعُر أنَّ ذلك شرف بِحسب المقاييس المعروفة عند البشر، فكيف إذا كان يَتَّصِل اتِّصَالا مباشرا بعالِم الغيب والشهادة ملك الملوك الذي ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]، أولا يستشعِر الشرف العظيم، لأنه ضعيف بين يَدَيْ القوِي العظيم الذي لا قوي غيره، ولأنَّه فقير بين يدي أغنَى الأغنياء الذي لا غَنِي في الحقيقة سواه، ولأنَّه مَخلُوق وهو يقف بين يدي الخالِق، ولأنَّ الله ـ تعالى ـ مَالِك أمره ومُصَرِّف هذا الوجود بِأَسره، ولأنَّه بِوُقُوفه هذا يشارك الوجود كُله التسبيح بِحمد ربِّه السجود لجلاله، فجدير إذن أن يستشعِر نعمة الله ـ تعالى ـ عليه، الذي شرَّفَه بالتوفيق للوقوف بين يديه، وأن يستشعِر أن هذه النعمة يَجب أن تُشْكَر، ومِن شُكْرِها أن يُحِسَّ بِقَدَرِها وعِظَمِها وجلال أَمْرِها، وهذا ـ فيما أحسب ـ سوف يكون سببا لاستِشْعَار هذه المرأة لَذَّةَ العبادة ولَذَّة الوقوف بين يدي الله؛ والله ـ تعالى ـ الموفِّق.

في منهج الصف الرابع الابتدائي في المدارس النظامية قسم العقيدة فيه دروس لصفات الله وأسمائه كالسميع والبصير، فكيف يتم تدريسها مع الخوف على التلميذ من تشبيه الله تعالى بأحد مخلوقاته؟

ليس في هذا تشبيه قط، فإنّ الله تعالى متصف بجميع الكمالات، فيُعرَّف الطفل بأنّ الله تعالى تتجلى له جميع الأصوات على حقيقتها تجليا تاما، كما تتجلى له جميع الكائنات فيراها سبحانه كما هي من غير أن يكون سبحانه مُشابِها لخلقه.. إن الإنسان يحتاج إلى سلسلة من الوسائط بينه وبين المرئيات، وكذلك يحتاج إلى سلسلة من الوسائط بينه وبين المسموعات، فالباصِرة تلتقط الصور وتنتقل عبر أسلاك معيّنة إلى الدماغ والدماغ هو الذي يُميِّز بينها،

وكذلك بالنسبة إلى الأصوات تلتقِطها آلة السمع بعد مرورها عبر الذبذبات الصوتية ثم تمر ـ أيضاً ـ بأسلاك حتى تصل إلى الدماغ بينما الله تعالى لا يُشبِه شيئا من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، فهو الغني عن كل شيء، تتجلى له الأشياء على حقائقها من غير وساطة بينه وبينها؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

كيف يكون رد متشابه آي الله تعالى إلى محكمها؟

رد متشابه القرآن إلى محكمه إنما يتم بجعل المحكم هو الأصل الذي يفهم منه المراد من المتشابه، وذلك كآيات التنزيه لله ﷻ نحو قوله:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، فإنه يجب رد كل ما أوهم ظاهره التشبيه من الآيات المتشابهات إلى الأصل الذي دلت عليه هذه المحكمات واقتضته براهين العقل، مع تأويل تلك المتشابهات تأويلاً ينسجم مع الأسلوب العربي في التعبير، إذ العربية كغيرها من اللغات فيها الحقيقة والمجاز، ويصار إلى المجاز مع تعذر الحقيقة، فيحمل على ذلك نحو قوله تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]، وقوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩]، وقوله: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]، لما عهد في كلام العرب من إطلاق العين على الحفظ والوجه على ذات الشيء وحقيقته، واليد على النعمة أو على القدرة، وقد يكون المحكم نصاً في منع حمل المتشابه على ما يدل عليه ظاهره كقوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]، وقوله: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]، فإنهما ناصان على امتناع حمل قوله ﷻ: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧]، على ما يفيده ظاهره، والله تعالى أعلم.

حب الله ورسوله

كيف نربي أولادنا على حب الله ورسوله؟

تربية الأولاد على حب الله ـ تعالى ـ من حيث تذكيرهم بنعمه، وتذكيرهم بجلاله، فإنّ الإنسان يعظِّم غيره ويحبه ويقدِّره لأحد أمرين، إما لكونه متفوِّقا عليه، وإما لأنه أسبغ عليه يدا بيضاء.

وعلى كلا الاعتبارين فإنّ الله تعالى يجب أن تفوق محبته محبة كل شيء، فهو تعالى يتجلى جلاله في كل ذرة من ذرات هذا الكون، وهذا مما ينبغي أن يُعرَّف الأطفال إياه، فكل ذرة من ذرات هذا الكون يتجلى فيها جلال الله، فالشمس تطلع وتغرب وما هي في طلوعها وغروبها إلا مسخَّرة بأمر الله ﷻ من أجل ما فيه مصلحة العباد ومن أجل إِذْكَاء الحياة في هذا الكون الذي تشرق عليه، وكذلك نزول الأمطار ونبات النباتات وخروج الثمار على اختلافها وما هيَّأه الله سبحانه من أسباب الرزق، وتسخير هذا الكون بأسره كل من ذلك يتجلى فيه جلال الله.

وكل من ذلك ـ أيضاً ـ نعمة من الله تعالى أنعمها على هذا الإنسان، فما أحراه أن يكون عبدا محبّا لله تعالى، ومعنى حبه إياه أن يفنى هواه في طاعة الله، بحيث يُؤْثِر طاعة الله على هوى نفسه، ويقدِّم أمر الله تعالى على أمر كل من عداه.

وكذلك حب الرسول ﷺ يرجع إلى ذَيْنِك السببين نفسَيْهما، فمن حيث تفوقه ﷺ هو أعظم البشر، كيف وقد أثنى الله عليه في كتابه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وهي شهادة الخلّاق العليم بأنه ﷺ أعظم من كل مخلوق، كيف وهو عليه الصلاة والسلام رحمة أهداها الله تعالى للعالَمين،

والعالَمون جمع «عالَم»، والعالَم كل ما كان علامة ودليلا على وجود الخالق سبحانه، فيشمل ذلك جميع أجزاء الكون، ومعنى ذلك أنّ كل ذرة من ذرات الكون مَشمولَة بهذه الرحمة ومغمورة بهذه النعمة، وإذا كان النبي ﷺ بهذا القَدَر فإنه أوْلى أن تكون محبته تفوق محبة الناس أجمعين، ثم من ناحية أخرى هو الذي اهتدت على يديه الجماهير، وقد كان ﷺ حريصا على هداية الناس أجمعين، كما وصفه الله تعالى، عندما قال ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] فهو حريص على هدايتنا وحريص على إنقاذنا من الضلالة وعلى أن يأخذ بِحُجَزِنَا عن النار ـ والعياذ بالله ـ، كما أخبر النبي ﷺ بذلك، فمع هذا كله لا ينبغي أن يكون أحد من خلق الله أعظمَ محبة في نفس أيّ أحد من رسول الله ﷺ وبهذا تَنْغَرِسُ محبة الله ومحبة رسوله ﷺ في نفوس الأطفال، والله أعلم.

حسن الظن بالله

ما معنَى قول الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «أنا عند ظَنِّ عبدي بي فإن ظَنَّ بي خيراً وجد خيرا[1]»؟

نعم يظن بالله ـ تعالى ـ خيراً مع عَمله الخير وخَشْيَتِه مِن الله، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٦٩٧٠) ومسلم (٦٩٨١).

الإيمان بالملائكة



الإيمان بالملائكة

من هم الملائكة وما هي صفاتهم نرجو أن تبينوا لنا ذلك؟

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، في هذه الآية ذكر الله اليوم الآخر قبل الملائكة إلا أن الغالب هو ذكر الملائكة بعد ذكر الإيمان بالله سبحانه لأن الإيمان بالملائكة بداية الإيمان بالعالم الغيبي، والإيمان بالغيب نقطة الافتراق ما بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فالمؤمنون يؤمنون بكل ما أخبر الله ـ تعالى ـ به لأنهم بعد أن آمنوا بالله ـ سبحانه ـ أدركوا تمام الإدراك أن كل ما جاء من كلام الله لا يخرج عن دائرة الحق ولا يمكن أن يوصف بباطل، فلذلك يؤمنون بالحقائق الغيبية التي هي وراء هذه الحقائق المشاهدة المحسوسة، بينما الفريق الآخر على العكس من ذلك، فهو لا يؤمن إلا بما وقعت عليه حواسه من هذا العالم الكوني المادي الذي تقع عليه الأبصار وتصدق عليه الحواس.

والملائكة ذكروا في كتاب الله ـ تعالى ـ في مواضع متعددة، فالله سبحانه يقول في وصفهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]، ويقول الله تعالى في وصف ملائكة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ويقول: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] وقد جاء في كتاب الله أيضاً وصف هؤلاء الملائكة بالقدرات الخارقة، منها أنهم يتشكلون في صور مختلفة فالله تعالى يقول في قصة مريم عليها السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] يعني تصور في صورة بشر، وكلمها كما يكلمها

الإنسان، وذكر الله تعالى أيضاً الملائكة في مقام الجهاد في سبيل الله، وذكر أنهم يشاركون المؤمنين من البشر في جهادهم، فقد قال ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وجاء في حديث الرسول ﷺ ما يدل على أن الملائكة لهم هذه القدرات الخارقة، فقد جاء في وصف الوحي وكيفية نزوله عليه ﷺ في حديث عائشة عندما قالت رضي الله تعالى عنها: «سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي يا رسول الله، فقال: يأتيني أحيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول»[(١)]، فهذا يعني أن الملك يتمثل في الصورة التي يريد أن يتمثل فيها وبها، ويأتي في صورة إنسان، ويكلم الإنسان كما يكلمه إنسان مثله، ودل حديث الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ أن رؤيته ﷺ لجبريل عند نزول الوحي عليه لم تكن على صورته التي خلقه الله ـ تعالى ـ عليها إلا مرتين فحسب، ومعنى هذا أن جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة غير صورته الطبيعية التي فطره ـ تعالى ـ عليها، فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام الربيع والشيخان من طريق عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، من قال إن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال مسروق راوي الحديث عن عائشة: وكنت متكئا فجلست وقلت: يا أماه أمهليني ولا تعجليني، ألم يقل الله:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، فقال: ذلك جبريل لم أره في صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين رأيته

(١) رواه الإمام الربيع رقم (٢).

منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض»[(١)]، فالحديث يدل على أن جبريل كان ينزل على الرسول ﷺ في صورة غير صورته التي فطر عليها، وقد وصف الله تعالى جبريل في سورة «النجم» بقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٥-١٠] أي أوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى.

من هذا كله نستفيد أن الملائكة لهم كيان خاص من بين سائر الخلق، فهم لهم حقائق تختلف عن حقائق سائر المخلوقات ولا يمكن أن يعدوا مجرد سر من أسرار المخلوقات الأخرى، كالبشر والنباتات وسائر الأشياء، ويؤكد ذلك أن الله تعالى وصف بعض وظائفهم، من هذه الوظائف أنهم يشرفون على أعمال البشر ويسجلونها، فقد قال ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩-١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، كما وصفهم الله سبحانه بكونهم يثبتون الذين آمنوا في المعارك، ويشاركون المؤمنين في الجهاد ـ كما تقدم ـ ووصفهم بأنهم يتوفون البشر سواء المؤمنين أو الكفار فقد قال ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال في المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] وجاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: عند مسلم أن الملائكة خلقوا من نور[(٢)]، وقد أخذ الناس من ذلك قولهم: «إنهم أجسام نورانية»، فهم مخلوقون من النور

(١) رواه الإمام الربيع رقم (٨٢٤) ومسلم رقم (٢٥٩).
(٢) رواه مسلم (٧٦٨٧).

عكس الشياطين الذين خلقوا من نار، والجانب الروحاني يقوى فيهم، ولذلك يتمكنون من التشكل، ويتوفر لهم الانتقال من صورة إلى أخرى، والظهور في صورة وفي غيرها، لأن أجسامهم ليست كبقية الأجسام، وبما أنهم مخلوقون من النور كانوا غير محتاجين إلى ما تحتاج إليه الأجسام المخلوقة الأخرى من الغذاء المادي، كما أن أجسامهم لا تفرز الفضلات الطبيعية التي تفرزها الأجسام الأخرى، وهم أيضاً لا يتعبون فقد وصفهم الله ـ تعالى ـ بقوله:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقد أخذ علماء التوحيد من هذا كله ما يصفون به الملائكة من أنهم أجسام نورانية قادرة على التشكل، وقد فهمنا أن الملائكة من عالم الغيب الذي لا يمكن أن نحكم فيه وعليه بمقاييس عالم الشهادة، لأن لعالم الغيب طبائع خاصة تختلف عن طبائع عالم الشهادة، والله تعالى الذي طبع عالم الشهادة بما طبعه عليه من السنن والنواميس قادر على أن يطبع العوالم الأخرى بسنن أخرى ونواميس أخرى بحيث يختلف ذلك العالم صورة وحقيقة عن هذا العالم المشهود، وهذا الذي يفهم من وضع الملائكة، فإن قدرات الملائكة قدرات خارقة لا يتصف بها أي جنس من أجناس عالم الشهادة، فالجانب الروحاني يغلب عليهم، وللروح طاقات وقوى، فلذلك كانت عندهم المقدرة على التأثير في هذا العالم، هذه المقدرة ليست لأي جنس من أجناس المخلوقات الموجودة في هذا العالم المحسوس.

والناس الذين نشأوا على عقيدة الإيمان بما وراء هذا العالم المحسوس سلموا لهذه الحقائق التي جاء بها كتاب الله وجاءت بها سنة الرسول ﷺ ولم يماروا، واستمروا على ذلك قرونا متطاولة، وما كانوا

يشكون ولا يمارون فيما وصف به الملائكة من هذه الصفات، ولكن حدث في العالم الإسلامي ما حدث من الاحتكاك بالعالم المادي الجاهلي الذي يحمل الفكر الجاهلي الحديث الغربي، واستوردت ثقافته إلى البلاد الإسلامية، ولا شك أن المقاييس التي عند الغربيين كلها مقاييس مادية، فهم ينظرون إلى الأشياء من منظار مادي، وقد ذهبت البعثات الطلابية إلى العالم الغربي في الفترة السابقة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري وفي أوائل القرن الرابع عشر، وكان احتكاك هؤلاء الطلبة بعالم له مفاهيمه ومقاييسه الخاصة، لأنه كفر بما وراء المحسوس ولم يقس الأشياء إلا بالمقاييس المادية، كان هذا الاحتكاك سببا للتأثر، ومن شأن الإنسان أن يسرع إليه التأثير من هنا وهناك، فجاؤوا من هناك وهم ينظرون إلى أن الدين ألغاز لا يمكن أن تفهم، وأن الإنسان عليه أن يعيش بالمقاييس والمفاهيم التي يمكنه أن يتصورها، ويمكنه أن يجيب على أي شيء منها، فلذلك جاؤوا بفكرة نقض عرى الدين عروة عروة.

وفي المقابل كان هناك ما يمكن أن يسمى بتيار الجمود في البلاد الإسلامية، وهم قوم فهموا الدين من خلال عادات موروثة، ومفاهيم مألوفة في وسطهم من غير أن يرجعوا في تحليل هذه الحقائق الدينية إلى الأصول التي ينبني عليها الدين، وهي وحي الله ـ تعالى ـ الظاهر والباطن، الظاهر القرآن الكريم والباطن سنة الرسول عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، وقد استغل أولئك الفتية الذين جاؤوا من العالم الغربي ذلكم الوضع في المجتمع الإسلامي فأرادوا أن يصوروا الإسلام في تلكم الصورة الشوهاء صورة الإيمان بالخرافات والتصديق بالأوهام، وجعلوا الحقائق التي جاء بها القرآن الكريم، وجاءت بها سنة الرسول عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم من هذا القبيل.

وفي ذلكم الظرف نشأت المدرسة الإصلاحية في العالم الإسلامي، وكانت بداية نشأتها بمصر على يد السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه العملاق الشيخ محمد عبده، وكانت هذه المدرسة تريد أن تدفع الشبه التي تثار حول الإسلام وعقيدته، وتسعى في الوقت ذاته لمواجهة خرافات هؤلاء الجامدين بالحقائق النافعة التي جاء بها القرآن وجاءت بها السُّنَّة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ، إلا أن أساطين هذه المدرسة باصطدامهم بذلكم الواقع المرير، وما تعرضوا له من نقد لاذع، ومن تشويه لحالهم من قبل العلماء المحسوبين على الإسلام، تأثروا بردة فعل عنيفة فأخذوا يحاولون أن يضيقوا نطاق الغيبيات فسروها بالتفسير القريب إلى مفاهيم أولئك الذين لا يؤمنون بما وراء هذا العالم المحسوس، فنشأت من ذلك فكرة تفسير هذا العالم الملائكي بأنه عبارة عن الخاصية الموجودة في الكائنات في العالم المادي، فالعالم المادي ينطوي على أسرار هذه الأسرار يمكن أن تسمى روحا باعتبار خفائها ويمكن أن تسمى طبيعة وخاصية باعتبار تأثيرها، ففسروا الأرواح وفسروا الملائكة بهذا التفسير، فعلى سبيل المثال: البذرة التي تحمل خصائص الشجرة التي تتكون منها، كيف تتطور هذه البذرة من طور إلى طور وتتحول إلى أن تكون شجرة باسقة تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها؟ هذه البذرة لها خصائص غيبية، هذه الخصائص يمكن أن تسمى روحا ويمكن أن تسمى ملكا حسبما فسر أولئك الذين حاولوا أن يضيقوا نطاق الغيبيات، ويفسروا الملائكة تفسيرا يمكن أن تستسيغه عقول الماديين الذين لا يؤمنون بما وراء هذا العالم المحسوس.

وبما أن هذا التفسير بعيد عن المفاهيم الدينية التي تناقلتها الأمة جيلا بعد جيل، وبعيد عما توحي به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في وصف أولئك الملائكة، فإنه تعرض لنقد شديد من قبل الجماعة المضادة

واعتبروه مروقا من الدين وكفرا بما أنـزل الله ـ تبارك وتعالى ـ، وقد أدى ذلك إلـى مزيد مـن الإصرار من قبـل هـؤلاء القائمين على المدرسـة الإصلاحية على رأيهم، وتحدي الآخرين، فكان بسـبب هذه المعارضة ما حصل مـن رد عنيف من قبل الإمام محمد عبده علـى معارضيه، هذا الرد كان بعيـدا عن الموضوعيـة، وإنما هو مصطبـغ بلون من تأثيـر العاطفة الجياشة، ومن تأثير الورطة في إبراز الفكرة التي تبناها في صورة الحقيقة المقبولة التي لا يمكن أن ترد، وقد نشر رده برمته في تفسير المنار لتلميذهِ السيد محمد رشيد رضا.

وجاء في هذا الرد أن التفسـير الشائع للملائكة وهو أنهم أجسام نورانية قابلة للتشكل، أو قادرة على التشكل تفسير لا يفهم له معنى وإن قبله الناس واستسـاغوه، وجاء فيه أن الملائكة إن كانوا أجساما نوارنية ـ كما يقال ـ مع أن على كل إنسان ملكين يحفظانه ويسجلان أعماله فأين تحديد مكان هذين الملكين؟ وأين شعاع هذا النور الذي يتلألأ من جسميهما النورانيين؟ وأين أثره؟ هل يضيء الظلام في حنادس الليل؟ إلى غير ذلك من العبارات التي تدل على مدى التأثر بهذه الـردة الفعلية العنيفة، وبالعاطفة الجياشـة التي جعلته بعيدا عن المنطق العقلي وبعيدا عن الحجة الواضحة من القرآن ومن حديث الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ.

ومن هذه الاحتمالات التي ذكرتها هذه المدرسة في تفسير الملائكة أن ما يقع ويحدث من الخواطر الخيرية نفسـها يمكن أن يعبر عنها بالملائكة، ذكر ذلك الإمام محمد عبده وأتبعه السـيد رشيد رضا بنقل كلام عن الإمام الغزالي فيه شـيء من التعلق لأصحاب هذا القول، ولكن إذا استقرينا كلام الإمام الغزالي نجـده لا يدل على ذلك، فإنه يتكلم عن أسـباب الإيحاءات الخيرية، وأسـباب إيحاءات الشـر وهو ينسب أسـباب إيحاءات الخير إلى

الملائكة، وينسب أسباب إيحاءات الشر إلى الشياطين الذين هم ضد الملائكة، ومن المعلوم أن الملائكة عالم مستقل، فلا يمكن أن نجعل هؤلاء الملائكة هم هذه الأرواح التي في جسم الأحياء من البشر وغيرهم، أو أن نجعل الملائكة أسرار الطبيعة في الكائنات الموجودة في هذا العالم.

وما استبعده أصحاب المدرسة الإصلاحية من تعريف غيرهم من العلماء للملائكة بأنهم أجسام نورانية قادرة على التشكل، وما قالوه من أن هذا التعريف صار مألوفا وإن لم يكن مفهوما، وأن العقيدة يجب أن تكون مستقرة في النفس، ولن تستقر في النفس حتى يتم الإذعان التام لها من قبل الفكر والوجدان، وهذا لا يتحقق إلا بعد الفهم للمقاصد، إلى آخر ما قالوه من ذلك، والذي يمكن أن يلحظ فيه بأنهم قد أبعدوا النجعة في محاولة تفسير هذا التعريف، وأنهم حاولوا أن يصوروه لغزا من الألغاز التي لا يمكن أن تفهم مع أنه في الحقيقة تفسير واضح، وتعريف قريب جدا، فكون الملائكة خلقوا من نور أمر دل عليه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عند مسلم، وهو وإن كان حديثا آحاديا والأمور العقائدية لا تبنى على الروايات الآحادية إلا أنه يستأنس بها، لصحة القول المشهور، فإن حديث عائشة يدل على أنهم خلقوا من نور، ولا إشكال في كونهم خلقوا من نور من حيث إن النور نفسه لا يتجسد، كما قال الإمام محمد عبده «النور لا يتجسد وإنما يقوم بجزء من غيره،» فهي كالأجسام التي تتلألأ عليها الأضواء الكهربائية، في مقابل هذا أيضاً يقال إن النار لا تقوم بنفسها، وإنما تقوم بجسم تشتعل فيه، ومع ذلك فإن الله تعالى أخبرنا عن الجان أنهم خلقوا من نار، فالله ـ تعالى ـ الذي خلق الجان ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، قادر على أن يخلق الملائكة من نور، وأن يحول هذا النور إلى جسم كما حول تلك النار التي خلق منها أولئك الشياطين والجان إلى أجسام أيضاً، وهذا أمر غير مستبعد،

وما قالوه من أن هؤلاء الملائكة لو خلقوا من النور ـ وأنهم أجسام نورانية وأن هذا النور يمكن أن يتشكل من شكل إلى آخر ـ للزم من ذلك أن يحس الإنسان بشعاع هذا النور بين يديه إذا كان في الظلام من الملكين اللذين هما بجنبيه، هذا أيضاً مقابل بأنه لو لزم ذلك للزم في اتصال الشياطين بالبشر أن يحس البشر بحرارة النار في أولئك الشياطين، فكيف يقال بأنه يلزم هنا أن يحس أحد بهذا الضياء النوراني المشتعل ولا يلزم في الجانب الآخر.

هذا والتشكل الذي استنكروه لا يستنكر، لأن الأدلة من القرآن دالة عليه، فالله تعالى يقول: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٦ - ١٧]، هذا التمثل هو نفس التشكل، جاءها الروح وهو جبريل في صورة بشر.

وحديث الرسول ﷺ أيضاً يدل على ذلك، عندما قال في إجابته للحارث ابن هشام عندما سأله كيف يأتيك الوحي يا رسول الله؟ قال: «يأتيني أحيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول»[(١)]، وحديث عائشة رضي الله عنها أيضاً عندما قالت: ثلاث من تلكم بواحد منهن فقد أعظم على الله الفرية، من قال إن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال مسروق راوي الحديث عن عائشة: وكنت متكئا فجلست وقلت: يا أماه أمهليني ولا تعجليني، ألم يقل الله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، فقال: ذلك جبريل لم أره في صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما

(١) رواه الإمام الربيع رقم (٢).

بين السماء والأرض»[١]، فإذا كان الرسول ﷺ يقول إنه لم ير جبريل على صورته الطبيعية التي خلقه الله عليها إلا هاتين النظرتين فمعنى ذلك أنه رآه في سائر المرات في صورة غير تلك الصورة الطبيعية.

ويدل على هذا أيضاً حديث جبريل فإنه جاء فيه أنه جاء إلى رسول الله ﷺ في صورة رجل حسن الوجه عليه ثياب بيض طيب الرائحة، فدل على أن جبريل يأتي متشكلا في صورة إنسان.

والآيات القرآنية تدل على أن الملائكة لا يمكن إلا أن يكونوا نوعا من الخلق مستقلا، لهم كيان خاص، فعندما يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨] لا يمكن أن نفهم من ذلك إلا أنهم نوع من الخلق لهم كيان خاص، فلا يمكن أن يفسروا بأنها الأسرار الطبيعية الموجودة في سائر الخلق، فإن هذه الأسرار لا يطلق عليها لفظ العباد، لأن لفظ العباد تطلق على كل العقلاء، واللغة العربية عندما تستعمل، تستعمل فيها ألفاظ خاصة دالة على جنس العقلاء وألفاظ تدل على غير جنس العقلاء، فكلمة «عباد» لا تطلق إلا على جنس العقلاء في اللغة العربية.

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وصيغة ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ صيغة جمع المذكر السالم لا تطلق أيضاً إلا على جنس العقلاء الذكور وإن لم يكن تذكيره حقيقيا، كالملائكة فإن ذكورة الملائكة ليست ذكورة حقيقية إذ هم ليسوا ذكورا ولا إناثا، ولكنهم مع ذلك تطلق عليهم صيغة التذكير عندما يوصفون بأمر ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ﴾ و«الواو» في ﴿يَسْبِقُونَهُۥ﴾ [ضمير لايلحق إلا على

(١) رواه الإمام الربيع رقم (٨٢٤) ومسلم رقم (٢٥٩) والبخاري (٤٥٧٤).

جنس العقلاء]، وَهُـم بأمره يعملون وكـذا «هم» والواو في يعملـون، إذ هذان الضميران لا يطلقان إلا على جنس العقلاء، وكذلك قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] جميع هذه الضمائر تدل على أن هؤلاء الملائكة هم من جنس العقلاء.

ثم بجانب ذلك أيضاً يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] و﴿أُولِي﴾ صيغة لا تطلـق إلا على جنس العقلاء فلا تطلـق على الخاصيات، وقولـه: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾، إخبار بـأن لهم أجنحة ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، ويقول الله ـ تعالى ـ في ملائكة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ويقـول: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ويقـول ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

نفهم من هذا كلـه أن الملائكة لا يمكن أن يكونـوا خاصية طبيعية في الكائنات ولا يمكن أن يكونوا الأرواح التي يطلق عليها أهل الديانات كلمة «الأرواح»، ويطلق عليها الآخرون «الأسـرار الطبيعية» لأن تلك الأشياء التي يطلق عليها اسم الروح، أو يطلق عليها اسـم «السر الطبيعي» ليس لها كيان خاص حتى توصف بهذه الأوصاف وإنما هي جزء من حقيقة.

هذا، والله تعالى يقول فـي جبريل عليه السلام ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٥ ـ ١٠].

هذا اللفظ يدل أيضاً على ما ذكرت من اسـتقلال جنس الملائكة وأنهم خلق لهم كيان خاص ولا يقال بأنهم جزء من الطاقة المنبثة في الكائنات أو نحو ذلك.

هذا ومما يتعجب منه كثيرا أن العلامة السيد رشيد رضا ـ الذي تبنى رأي أستاذه الإمام محمد عبده، وحاول أن يدافع عنه، وبذل جهده أن ينقض آراء الذين خالفوه، وأن يصف القول الشائع بأن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل بأنه كلام مألوف غير مفهوم ـ نجده يقع فيما أنكره بنفسه، بل يأتي بكلام ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة، ولا من الأدلة العقلية، وإنما هو وهم مرفوض شرعاً، ففي كتابه «الوحي المحمدي» ذكر قصة لا تعد إلا خرافة لا يجوز تصديقها شرعا، وهي أن رجلا حضر في باريس في مجلس تحضير الأرواح، فحضرت روح امرأة فرنسية في صورة ضباب أو دخان، ثم تكثفت وصارت جسما جميلا عليه ثياب بيض رقاق، فأراد هذا الرجل منها أن تسمح له بقطعة من ثوبها، فسمحت له بقطعة وأخذها وذهب بها إلى إحدى دور الأزياء في باريس، وسأل هل يوجد مثل هذا الثوب المهلهل فردوا عليه لا، إلا أن يبتكر صنعه، فهو أولا وقع فيما أنكره من حيث إنه أثبت أن هذه الروح انتقلت من شكل إلى آخر، فهذا هو التشكل الذي أنكره، وذلك أنها كانت في صورة ضباب أو في صورة دخان ثم بعد ذلك تشكلت في صورة جسم جميل عليه ثياب مهلهلة بيضاء.

ومن ناحية أخرى وقع أيضاً في إثبات أمر غير سائغ شرعا ولا عقلا ذلك لأن الروح من أسرار الله وهي من أمره الذي لا يشاركه فيه غيره فلا سلطان لأحد عليه، فهذه الروح التي ادعى تحضيرها إما أن تكون صاحبتها حية وإما أن تكون ميتة فإن كانت حية فكيف تنتقل عنها الروح وتبقى على قيد الحياة، وإن كانت ميتة فمن الذي له السلطان على أرواح الموتى؟ والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]، ويقول:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]، فإن ذلك دليل قاطع على أنه لا يسمع صوت لأحد ممن مضى من القرون الخالية، فلا يمكن أن تكون هذه الروح انفصلت عن حي ولا يمكن أن تكون أيضاً روح ميت عادت إلى الجسد أو عاد إليها الجسد.

وذكر في نفس الكتاب قصة أخرى، وهي أن قضيب البان ـ وكان صوفياً ـ طلب من قبل بعض السلطات ولما جاءت إليه الشرطة لإخراجه من بيته وجدوه قد عظم جسمه حتى ملأ البيت، بحيث لا يمكن إخراجه بحال، ثم صغر فخرج منه، فبغض النظر عن صحة هذه القصة أو عدم صحتها، فإن فيها ما ينقض ما قاله في امتناع أن تتشكل الملائكة وتتحول أجسامها من حال إلى حال، فقد أثبت بنفسه لقضيب البان أنه انتقل جسمه عن حالته الطبيعية التي كان عليها إلى حالة أخرى، أوليس هذا هو التشكل؟! وإذا كان يثبت ذلك في إنسان ـ مع أن الناس طبعوا بطبائع خاصة ـ فكيف بالملائكة الذين لهم طبائع تختلف عن طبائع البشر، والقوة الروحانية هي الغالبة عليهم، فكون الملائكة يتصلون بالإنسان في إيحاءات الخير ككون الشياطين تتصل بالإنسان في إيحاءات الشر، وهذا الاتصال لا يعدو أن يكون سلطة روحية وليس هو اتصالا جسميا حتى يحس الإنسان باتصال جسم الملائكة به أو باتصال جسم الشياطين، وإذا كانت القوة الروحية لها تأثير في البشر من البشر أنفسهم بحسب ما أودع الله تعالى في الطاقات الروحية من عجائب، بحيث يستطيع الإنسان ـ ولو على بعد أحيانا ـ أن ينوم الآخر تنويما مغناطيسيا حتى قيل بأنه يمكن ذلك بواسطة الهاتف ـ وما هذا إلا تأثير روحاني ـ فكيف بتأثير الملائكة، وهم لهم طاقات روحانية تفوق ما يتصور البشر، كما أن إيحاءات الشياطين لا يلزم أن يترتب عليها إحساس الإنسان بحرارتهم الملتهبة من حيث إنهم مخلوقون من نار، لأن اتصالهم ليس اتصالا جسميا وإنما هو اتصال روحاني.

على أن هذه الحرارة لا يلزم أن تبقى حسية كما كانت من قبل، فالله ـ تعالى ـ خلق الإنسان من تراب، وللتراب خاصيات معروفة، ولكن خاصية جسم الإنسان تختلف عن ذلك، فالله تعالى قد يخلق كائنا من عنصر ما ولكن بما يمر على هذا الكائن من أطوار التكوين بمشيئة الله سبحانه ينتقل طبعه عن طبع ذلك العنصر الذي خلق منه وهكذا، فإذن علينا أن نؤمن بأن عالم الملائكة عالم غيبي وأن الملائكة لهم وظائف متعددة، منهم ملائكة الرحمة ومنهم ملائكة العذاب ـ والعياذ بالله ـ، منهم الذين يقبضون الأرواح، ومنهم الذين يحفظون أعمال البشر ويسجلونها، ومنهم الذين يسيرون أمور هذا الكون بمشيئة الله سبحانه، ولا يخرجون عن أمره سبحانه، فهم كما قال تعالى:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وكما قال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فالملائكة عالم غيبي كسائر العوالم الغيبية التي لا تخضع للمقاييس التي في عالم الشهادة، ولا يمكن أن نتصورهم بحسب عقولنا القاصرة، وإنما نقف عند حدود الوحي في تُعَرُّفنا عليهم، ومعرفتنا بهم، والله تعالى أعلم.

ما أثر الإيمان بالملائكة في سلوك الإنسان؟

إن إيمان الإنسان بالملائكة يفضي إلى أن يؤثر على سلوكه أثرا واضحا بارزاً فالملائكة هم من عالم الغيب ولهم صفات تختلف عن صفات سائر الخلق ولهم وظائف متعددة، ومن خلال الإيمان بذلك كله يمكن للمؤمن

أن يتزود زادا ينفعه في سلوكه، لأن هؤلاء الملائكة أوتوا من الطاقات ما لم يؤت غيرهم، كما يفهم ذلك مما وصفهم الله تعالى به ومما وصفهم به رسوله الأمين عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، فالله تعالى يقول: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فإن هذه طاقة لا تكون لسائر المخلوقين، والله تعالى وصفهم بأنهم يتوفون البشر المؤمنين منهم والكافرين، كما أشار الله ـ سبحانه ـ أيضاً إلى كونهم ذوي قدرة على التشكل من حالة إلى أخرى، وذلك فيما وصف به الروح الأمين جبريل عليه السلام عندما جاء إلى مريم فتمثل لها بشرا سويا، والنبي ﷺ عندما وصف جبريل عليه السلام قال: «لم أره على صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين، رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض[1]» فإذا كان هؤلاء الملائكة الكرام ـ مع ما أوتوه من قوة وما أوتوه من عظم بحيث إن أحدهم ليسد ما بين السماء والأرض عظم خلقه ـ هم مع ذلك.

﴿يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فجدير بالإنسان الضعيف الذي لم يؤت شيئا من هذه الطاقات العظيمة التي أوتيها هؤلاء الملائكة الكرام أن يكون خائفا من ربه وجلا من عقوبته، مشفقا على نفسه متمسكا بحبل التقوى، عاضا بالنواجذ على أوامر الله تعالى ونواهيه بحيث لا يخالف أمر الله سبحانه ولا نهيه.

ومع ذلك فإن لهؤلاء الملائكة وظائف متنوعة، من هذه الوظائف مراقبة البشر في أعمالهم، فالله تعالى يقول:

---

(١) الربيع (٨٢٤) ومسلم (٢٥٩).

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، ويقول الله ـ سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قَ: ١٨]، وجاءت الأحاديث عن الرسول ﷺ تؤكد ذلك، وتفيد أن الملائكة الكرام الكاتبين يسجلون أعمال الإنسان، ولا يغفلون عن شيء مما يأتيه أو يذره، وإذا كان من شأن الإنسان أن يلحظ مراقبة إنسان مثله، وأن يحرص على ألا يطلع من هو أقوى منه من جنسه على ما ينزل بقدره عنده، أو يؤدي به إلى أن يسخط عليه أو إلى أن يعاقبه، فكيف والرقيب الأعلى هو الله ـ سبحانه، وبجانب ذلك فالكرام الكاتبون يسجلون أعماله في ليله ونهاره، في بروزه وخلوته، بل في جميع أحواله، لا يغفلون عن شيء مما يأتيه أو يذره، فمن شأن الإنسان أن يخشى من هو أقوى منه، وإذا كان الإنسان العادي ـ عندما يحس بمراقبة من حاكم عليه، ويشعر بأن للحاكم عيونا عليه يتطلعون إلى ما يأتيه وما يذره ـ يحرص كل الحرص على أن يأتي من الأعمال ما يرضي الحاكم عنه، ولا يسخطه عليه، فكيف وهذه الأعمال يعلمها الله قبل أن تعلمها الملائكة، والرقباء هم الملائكة الكرام الكاتبون فجدير بهذا الإنسان أن يراقب الله تعالى في سريرته وفي علانيته، وأن يحرص على ألا يكتب هؤلاء الكرام الكاتبون عليه إلا ما يسره عند الله ـ سبحانه ـ يوم القيامة.

وبجانب ذلك يلحظ الإنسان أن من وظائف هؤلاء الملائكة الكرام أن يتوفوا بني آدم عند حضور آجالهم، وثم فارق بين من تتوفاهم مرضيين ومن تتوفاهم مسخوطا عليهم، فالله تعالى بين أن المؤمنين عندما يتوفون، تتوفاهم الملائكة بالبشرى وبالسلام والتحية المباركة من عند الله التي تؤذن بحسن الخاتمة وبالسعادة الأبدية، ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، بينما الفريق الآخر على العكس من ذلك، فقد قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨-٢٩] وقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]،

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧-٢٨] فإن الإيمان بهذه الحقائق يتغلغل أثره في أعماق النفس فتنبعث فيها عزائم الخير وتكبح فيها عزائم الشر، فإن كل عاقل يحرص على أن يكون عندما تتوفاه الملائكة من الذين يتوفون بالتحية المباركة الطيبة التي تلقيها إليه ملائكة الرحمة، وتكون هذه التوفية مقرونة بالبشرى من عند الله تعالى على ألسنتهم ويتوقى أن يكون من الفريق الذي يتوفى بالإنذار الشديد، وبالوعيد والتهديد، وبالعذاب المؤلم عندما تضرب الملائكة وجهه ودبره كما جاء في الكتاب العزيز.

ومع هذا أيضاً فإن الناس ينقسمون في استقبال الملائكة لهم يوم القيامة إلى قسمين، من تستقبله ملائكة الرحمة، ومن تستقبله ملائكة العذاب، فقد قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

هؤلاء ملائكة الرحمة يستقبلون المؤمنين ألا تخافوا ولا تحزنوا، ويبشرونهم يوم القيامة ببشرى النعمة العظيمة والنعيم الدائم، بينما الفريق

الآخر بخلاف ذلك، فإنهم يستقبلون بالتعنيف، والتوبيخ، يستقبلون بتغليظ الوعيد وتأكيده، فشتان بين الحالين، وهذا أمر يدعو إلى مراقبة النفس، والحرص على العمل الصالح، والبعد عن الأعمال السيئة، والوقوف عند حدود الله سبحانه حتى يكون من أهل الوعد ولا يكون من أهل الوعيد.

وهكذا عند الانتقال إلى دار القرار، هناك فارق ما بين الملائكة الذين يدخلون على المؤمنين من كل باب، يبشرونهم بالخير، ويأتونهم بالتحايا من قبل الخالق ـ سبحانه ـ ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، بينما الفريق الآخر الذي يكون في النار ـ والعياذ بالله هناك يتلقى العذاب الشديد على أيدي هؤلاء الملائكة الذين يصفهم الله تعالى بقوله:

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، كما يصف الله تعالى عذاب أهل النار بقوله:

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١] تقمعهم بها ملائكة العذاب يوم القيامة، فإن رسوخ ذلك في النفس يدع الإنسان حريصا دائما على أن يكون من الفريق الذي يسعد بدخول ملائكة الرحمة عليه من كل باب يبلغونهم سلام الله سبحانه ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، لا من الذين تأتيهم ملائكة العذاب بالويل والثبور وبمقامع الحديد وأنواع العذاب.

والإنسان يشعر بأنه إن وَحدَّ الله سبحانه وأحسن عبادته، واتقاه في سريرته وعلانيته، انسجم مع هذه الطائفة من الخلق، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، مع العباد المخلصين لله سبحانه الذين يخشون ربه من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، فيشعر بالانسجام مع الملأ الأعلى الذي يسبح بحمد الله وهذه نعمة عظيمة، فينقاد لأمر الله، ويذعن لطاعته، بخلاف ما إذا صار في المسلك الآخر، فإنه يكون والعياذ بالله مع الشياطين الذين أبعدهم

الله تعالى عن ساحة الرحمة، وكتب عليهم اللعنة، وجعلهم مدعاة لسخطه، لأنهم سبب لوقوع الناس في معصيته، والإنسان يشعر بالفارق الكبير ما بين انسجامه مع الملائكة، وبين انسجامه مع الشياطين ـ والعياذ بالله.

والملائكة عندما أمرهم الله تعالى بالسجود لأبي البشر الذي كان مشتملا على العنصر الذي تكونت منه ذريته انقادوا لأمره وأذعنوا لطاعته، بينما الشيطان ـ الذي هو أصل هؤلاء الشياطين تكبر وأبى وأنذر وتوعد بأنه ليضلن هذا الكائن، وليغوينه، وليردينه في جهنم، إلا من عصم الله، وهم عباد الله تعالى المخلصون، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٤-٣٦]، فالملائكة تفاعلت مع وجود الإنسان عندما خرت ساجدة له انقيادا لأمر الله وإذعانا لطاعته، والشياطين متمثلة في إبليس اللعين أخزاه الله وأرداه كان على العكس من ذلك، فإن أصل الشياطين وهو إبليس، أقسم بعزة الله ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، فأعلن الحرب على هذا الجنس من الخلق الذي شرفه الله تعالى بحمل الأمانة، وبتبوء منصب الخلافة في الأرض، وكان حسودا مفاخراً بعنصره الناري، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، وقد ظن أن عنصر النار خير من عنصر الطين، لما في النار من الإنارة، وما درى بأنه لا عبرة بالعنصر وإنما العبرة بالعمل، ثم إن عنصر النار لا يفاخر به، لأنه سبب العذاب ـ والعياذ بالله فكيف يفاخر بسبب العذاب، فما بال هذا الإنسان ينساق وراء الشيطان، ويتبع خطواته، ويترك التأسي بالملائكة الكرام الكاتبين، الملائكة الذين يلهمون الإنسان

الخير، فإن الخير الذي يأتيه إنما هو بإيعاز من الملائكة، فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم ولِلمَلَكِ لمة بابن آدم فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمَّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان»[1]، فحري بهذا الإنسان الذي آمن بهؤلاء الملائكة الكرام وآمن بوظائفهم وآمن بما وهبهم الله تعالى من طاقات وما ميزهم به على سائر الخلق من قدرات أن يكون منسجما مع الملائكة الكرام الكاتبين، ومع سائر الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأن يكون شأنه شأنهم في الإشفاق على نفسه من عذاب الله، فأولئك الملائكة يخشون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، فجدير به أن يخشى الله سبحانه وأن يذعن لأمره، لأن هذه الخشية من الله إنما تتمثل في حسن الانقياد لأمر الله وحسن الطاعة له ﷻ، وإخلاص العمل كله لوجهه ـ تبارك وتعالى ـ، هكذا يؤثر الإيمان بالملائكة في نفس المؤمن فيكون متساوقا مع الخير منقادا لأمر ربه، مباعدا لنهج الشيطان الرجيم واقفا عند حدود الله تعالى، في جميع تصرفاته وفي جميع أعماله، وبهذا يكون عضوا بناء في مجتمعه، أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر، مسارعاً إلى أوامر الله مجانبا لنواهيه، والله أعلم.

البعض يُسمي ابنته باسم «مَلَك»، فهل يصح هذا؟

أما إذا كان يقصد أنَّها ملك مِن الملائكة فلا، إذ الملائكة جِنس آخر مِن غير جِنس البشر، ولا يشبهون البشر، ولا يُشبَّه بِهم البشر؛ نعم لا حرج في أن يوصف أحد بالصفات الملكية عندما يكون مُتلبساً بالخصائص

(١) رواه الترمذي رقم (٢٩١٤).

الرُّوحانية كما هو الراجح في تفسير قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢].. فهذان كانا ـ على الراجح ـ مِن جنس البشر، ولَم يكونا مِن جنس الملائكة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولَم يقل: «وما نزل به الملكان»، فهذا دليل على أنَّهما وصفا بالملكية لتلبسهما بالصفات الروحانية التي هي مِن خصائص الملائكة أو التي هي الصفة الظاهرة في الملائكة ونسبتها في البشر قليلة إذا ما قيست بنسبتها في الملائكة، ويدل على ذلك أنَّه في قراءة وإن لَم تكن هي مِن القراءات السبع بكسر اللام: «وما أنزل على الملِكين».

البعض يسمي الممرضات ملائكة الرحمة؟

هذا لا ينبغي، الملائكة يُنزهون عن ذلك، فلا يُشَبَّهون بالممرضين ولا بالممرضات، والله أعلم.

هناك أدلة عقلية ونقلية لوجود الملائكة فهل نقدم الدليل النقلي على الدليل العقلي، على رغم أننا بحاجة إلى الدليل العقلي لإثبات وجود الملائكة لغير المسلمين؟

الدليل العقلي هو دليل تجويز وجود الملائكة، والدليل النقلي هو دليل إثبات وجودهم، فنحن لا نستغني عن الدليل العقلي ولا عن الدليل النقلي. ونؤمن بالنقل حقاً من عند الله، ولكنَّ هذا النقل لم يأتِ أبداً مصادماً للعقل، فكل ما جاء في كتاب الله وفي السُّنَّة الصحيحة الثابتة عن رسوله ﷺ هو منسجم تمام الانسجام مع العقل السليم، ـ وليس مع كل العقول ـ، فالعقل الباقي على الفطرة يستسيغ كل ما أخبر الله تعالى به وما أخبر به الصادق

الأمين ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ، ونحن عندما نحاور الذين لا يؤمنون بعالم الغيب يجب أن نبدأ حوارنا معهم في القضية الكلية العظمى قبل أن ندخل في الجزئيات، فنقيم عليهم الحجة المقنعة بأن هناك عالماً غيبياً لا يقع تحت طائلة الحواس، وذلك يستلزم أولاً وجود الله ﷻ بأدلة وجود هذا الخلق، ووجود هذا الكون بأسره الذي تنطق كل ذرة من ذراته بأن لها خالقاً مبدعاً واحداً مكوناً لكل شيء ليس كمثله شيء، ذلك لأن كل ما يفتح عليه الإنسان عينه يجد عليه آثار الصنعة بارزة وكل صنعة لا بد لها من صانع، ثم بعد ذلك ندخل في إثبات النبوات، وبعد إثبات النبوات نتحدث عما جاءت به النبوات من أخبار عالم الغيب إليهم، ونبين لهم أن كل ما جاء من أخبار النبوات لا يصطدم مع العقل أبداً والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] **قرأتُ في بعض التفاسير: أن الملائكة كانت تطمع بأن تكون لها الخلافة، وذلك بحكم عبادتها لله وطاعتها له. فهل هذا صحيح؟**

هذا لم يكن اعتراضاً من الملائكة على الله ﷻ، وإنما كان استطلاعاً منهم للحكمة، فهم يريدون أن يعرفوا حكمة الله ﷻ في اصطفائه الإنسان لحمل أمانة الخلافة في الأرض، لأنهم عرفوا طبيعة هذا المخلوق، فقد أدركوا من طبيعة تكوينه أن له إرادة وفيه شهوة، وتتجاذبه نوازع متعددة، وتدفعه دوافع مختلفة، وذلك يقتضي أن يكون من شأنه أن يتمردَ ويعصيَ الله ﷻ، فلما أدركوا ذلك أرادوا أن يعرفوا حكمة الله، في اختياره دونهم مع أنهم يسبحون بحمده ويقدسون له فقالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾؟ لا على سبيل

الاعتراض ولكن على طريق الاستطلاع إلى حكمة الله. فأجابهم الله ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ولم يدل دليل على أنهم كانوا طامعين في الخلافة. وقولهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نحن نسبحك وننزهك عن خلو أفعالك عن الحكمة، وننزهك يا ربنا عن تقدير شيء لا يتفق مع الحكمة، فمن هنا نريد أن نعرف ما هي الحكمة فيما أخبرتنا به والله أعلم.

ذكرتم أن الملائكة قصدوا من سؤالهم ربهم بقولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] معرفة الحكمة من هذا الخلق، وأنهم عرفوا طبيعة هذا الخلق. فهل الملائكة يعلمون شيئاً من الغيب؟

الملائكة لا يعلمون الغيب، ولكن يمكن أن يكون الله تعالى ألهمهم بأن هذا الكائن بما يُودِعُ فيه من الطاقات المتنوعة والطبائع المختلفة لا بد من أن يتمرد على أمر الله تعالى، فقالوا ما قالوه، ولم يقولوا ذلك رجماً بالغيب. والله أعلم.

أين مصير الملائكة الحفظة للإنسان بعد موته، وهل هم الذين يشفعون له إن كان ممن ارتضاه الله بعد موته أم غيرهم، ثم هل هؤلاء الحفظة يلازمون الإنسان في كل أوقاته وفي كل حركته وسكناته؟

في هذا كلام كثير، وما لم يدل دليل قطعي على شيء منه فلا يمكن أن نجزم فيه بشيء، ونرد العلم في ذلك إلى الله ﷻ، والله أعلم.

من المعلوم أن الله أمر الملائكة وإبليس بالسجود لآدم كما ذكر ذلك في القرآن الكريم، فإذا كانت الملائكة ليست أجساماً كيف يتم هذا السجود وكيف تعذب الشياطين إن كانت ليست لها جسم؟

الملائكة والشياطين أجسام فالملائكة أجسام نورانية لطيفة والشياطين أجسام نارية، أما الذين قالوا بأن المراد بالشياطين قوة من قوى الشر، وأن المقصود بالملائكة طاقات الخير قالوا: إن خضوع طاقات الخير للإنسان وتسخيرها له، واستعصاء هذه الطاقة الشريرة بحيث ما استطاع الإنسان أن يسيطر عليها هما المقصود بالسجود والإباء، وهذا تفسير بعيد والله أعلم.

يُقال أن أحد الصحابة تُوفيّ في أحد المعارك في ليلة عرسه، فقال الرسول رأيت الملائكة تُغسله بين السماء والأرض[1]، فهل هذا من مهام الملائكة ؟

ما جاء به الحديثُ قبلناه، وما أُسند إلى الملائكة في الحديث أسندناه إليهم والله أعلم.

قسّم بعض العلماء الملائكة إلى روحانيين وكَروبيين، فهل هذا التقسيم له مُستند من الكتاب والسُّنَّة ؟

الله أعلم، وما رأيت له مستنداً، والكتاب والسُّنَّة يدلان على أن الملائكة أقسام وأن أعمالهم مختلفة، والله أعلم.

كيف تكتب الملائكة الأعمال، وبماذا، وأين يكون مقعدهم من الإنسان ؟

الله أعلم وهو شيء ما تعبدنا بمعرفة تفصيله، فعلمه لا ينفع وجهله لا يضر، وإنما علينا أن نحذر أن يكون نصيبنا من قرب الملائكة تسجيل الخطايا علينا، فكما يراقب أحدنا من يراقبه وينقل عنه أفعاله علينا أيضاً أن نراقب ملائكة الله تعالى الذين يسجلون جميع أعمالنا وذلك بحرصنا على الخير واتقائنا الشر والله أعلم.

---

(١) رواه البيهقي رقم (٦٦٠٦).

رأيت في منامي ذات ليلة ملك الموت بعد فناء كل مخلوق، ثم سمعت قول الله له أمت نفسك، فقال: يا رب كيف أميت نفسي؟ أي نفى عن نفسه القدرة على ذلك، ولكن أجد في بعض التفاسير قصة غير ذلك، وإن الله يأمره بإماتة نفسه فيميت نفسه بقدرة الله فما صحة هذا التفسير؟

نعم، هو يميت نفسه بقدرة الله، وإن نفى القدرة عن نفسه فلا يستغرب ذلك، لأنه لا قدرة له إلا بإقدار الله ﷻ، فكل مخلوق لا يستقل بالقدرة، إنما قدرة كل أحد هي بإقدار الله سبحانه والله أعلم.

ما حقيقة الكلام الذي يصدر من الملائكة عند الاحتضار، هل هو كلام يخرج من الأفواه مثل كلامنا، وكيف يسلم الملائكة على أهل الجنة، هل يرونهم عياناً أم يسمعون مجرد صوت فقط نرجو الإفادة؟

يخاطبونهم خطاباً بحسب ما جعل الله ﷻ في الملائكة من سبب يتحدثون به، فيخاطبونهم بنفس آلة الحديث التي يتحدثون بها، وأما تسليم الملائكة على أهل الجنة، فالله ﷻ قال عنه:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، وهذا دليل على أنهم يرونهم والله أعلم.

كيف نرد على من قال إن الملائكة عبارة عن الأجرام السماوية؟

أعوذ بالله من الضلال. فإن هذا كلام لا يتفق أبداً مع الواقع، فالله ﷻ أخبرنا أنه ينزل الملائكة حيث قال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، فهل الأجرام السماوية هي التي تنزل في تلك الليلة؟ والآيات القرآنية كلها تدل على خلاف هذا، والله أعلم.

الملائكة الموكلة بمراقبة الإنسان هل ملكان ملازمان للإنسان أم يتبادلون؟

الحديث يدل على التبادل[١]، فهناك ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يتعاقبون على الإنسان، والله أعلم.

كذلك «ميكائيل» ورد بقراءة «ميكال» فهل ورد «جبرال» و«جبرائيل»؟

نعم، ورد جبرائيل بثلاث عشرة صيغة، مثل «جبرين» و «جبرال» و«جبرائيل» و«جبرائل» و«جبراييل»، ولكن لغة أهل الحجاز «جبريل» والله أعلم.

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار». رواه البخاري رقم (٧٤٨٦).

الإيمان
بالكتب السماوية



الكتب السماوية

من أركان الإيمان الستة الإيمان بكتب الله تعالى، فالله تعالى يقول: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٦] ويقول تعالى:

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]، ويقول تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]،

فالإيمان بما أنزل الله تعالى واجب على الناس، فإن لم يؤمن أحد بذلك انتقضت عقيدته؛ لأن العقيدة منبنية على هذا الركن كغيره من سائر أركان الإيمان.

ولم يأت نص صريح في الكتاب ولا في السُّنَّة الثابتة المقطوع بها يبين عدد هذه الكتب، فعلينا أن نعتقد أن كل هذه الكتب من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فكتب الله سبحانه جاءت من عنده لإبلاغ هدايته إلى الخلق، والناس مطالبون بأن يؤمنوا بها، وأن يتفاعلوا مع الإيمان بها، ويكفينا أن نؤمن إيمانا إجماليا بهذه الكتب من غير أن نشخص كل كتاب منها بعينه إلا القرآن الكريم فإننا مطالبون بتشخيصه في الإيمان نظرا إلى أننا مطالبون بأن نعمل بمحتواه، ولا يمكننا أن نعمل بمحتواه ونحن نجهل هويته، وكذلك إذا قامت علينا الحجة بمعرفة أي كتاب من الكتب الأخرى فعلينا أن نؤمن به، فإذا قامت

علينا الحجة بمعرفة التوراة أو الإنجيل أو الزبور أو صحف إبراهيم، أو صحف موسى فعلينا أن نؤمن بذلك، ولكن هنالك فارق ما بين إيماننا بالقرآن الكريم وإيماننا بتلكم الكتب من حيث إننا أولا مطالبون بأن نعمل بما في القرآن لأن القرآن مهيمن عليها جميعا، ومن ناحية أخرى فإن القرآن لم تمتد إليه يد التحريف والتبديل بخلاف تلكم الكتب فقد لحقها كثير من التحريف والتبديل، فنحن نؤمن بالتوراة ونؤمن بالإنجيل، ولكن إذا قدم إلينا أهل الكتاب كتابا على أنه التوراة علينا أن نقول: آمنا بما أنزل الله، من غير أن نعتبر كل ما في ذلك الكتاب هو الحق الذي جاء به موسى من عند ربه، كما أنه إذا جاءنا أحد من أهل الكتاب وقدم إلينا كتابا على أنه الإنجيل فعلينا أن نؤمن بما أنزل الله من غير أن نعتبر أن كل ما في ذلك الكتاب من الحق الذي جاء به عيسى عن الله سبحانه، وذلك لما لحق الكتابين من التحريف والتبديل، بينما القرآن الكريم لم تمتد إليه يد التحريف والتبديل، فالله تعالى يقول:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فالله تعالى قد حفظ كتابه الكريم القرآن المبين من بين سائر الكتب فهو كتاب ثابت بالقطع، كل حرف منه هو من عند الله فلا يجوز لنا أن نشك في حرف مما احتواه بل كل ما بين دفتيه هو من عند الله سبحانه وعلينا أن نقطع بذلك.

وكما يتميز القرآن الكريم من بين هذه الكتب بكونه محفوظا بأمر الله سبحانه بحيث لا تمتد إليه يد التحريف والتبديل ولا يمكن بحال من الأحوال أن يلحق به ما ليس منه أو يحذف منه ما هو منه، كذلك يتميز القرآن الكريم بإعجازه من بين سائر تلكم الكتب، فإنه معجز من حيث لفظه، ومعجز من حيث محتواه، فهو معجز بسلاسة أسلوبه، وجمال عرضه، وحسن تركيبه، كتاب عجزت البلغاء عن أن تحاول الإتيان بشيء من مثله

مع أن الله تعالى تحداهم أن يأتوا بمثله، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، فوقفوا عاجزين، وكما أن القرآن الكريم معجز من حيث لفظه فإنه معجز أيضاً من حيث معناه واحتوائه على العلوم التي لا يحتويها غيره من كتاب مع أنه أنزل على نبي أمي كان يعيش في بيئة بدائية، في المجتمع العربي وفي جزء لم تمتد إليه يد إمبراطورية فتطوعه للنظام، ولم يمتد إليه شعاع حضارة في ذلكم الزمان، ومع ذلك فإن الله تعالى أنزل هذا القرآن على قلب نبيه ﷺ بتشريع رباني يكفي البشر لحل مشكلاتهم وتنظيم أمورهم وتصوير حياتهم منذ نزول القرآن وإلى أن يرث الكون مكونه.

هذا مع أن الدراسات التشريعية تحتاج إلى سبق دراسات في الأحوال النفسية والقضايا لاجتماعية، وقد تتطاول هذه الدراسات قرونا عديدة، ومع ذلك فإن هذه الدراسات سرعان ما تبوؤ بالفشل، ولا يمكن أن تستوعب مشكلات الإنسانية، فالقانون الروماني ـ على سبيل المثال ـ وليد دراسة دامت زهاء ثلاثة عشر قرنا، توارد عليها كبار رجال القانون وعلماء الاجتماع، ومع ذلك فإن هذا القانون لم يف بحاجة الناس، ولا تمض على شيء منه فترة من الزمان إلا ويحتاج إلى التعديل والتبديل، بينما شريعة الله تعالى التي جاء بها الرسول ﷺ والتي تتمثل فيما جاء به هذا القرآن، لا تحتاج إلى التعديل أو التبديل في أي وقت من الأوقات، بل هي صالحة لكل زمان ومكان مع تميزها بالاستيعاب والشمول والدقة التي لا توجد في أي نظام آخر، وهذا ما لا يمكن أن يكون إلا إذا كان تنزيلا من عند الله ﷻ.

ومن صور إعجاز القرآن الكريم أيضاً احتواؤه على الأخبار الغيبية التي لم تكن معهودة أو معروفة في المجتمع المكي في ذلك الوقت، وما سيحدث من الأمور مع أن واقع الأمر جاء مصدقا لما في القرآن، وكذلك

اشتماله على العلوم الكونية التي لم تكن تدور ببال أحد في ذلك الوقت، وجاء الاكتشاف العلمي تفسيرا لمحتوى القرآن الكريم، كما وعد الله تعالى بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] كل ذلك أيضاً مما يعد من ضروب إعجاز هذا القرآن الكريم.

والإيمان بكتب الله تعالى ليس هو كالنظريات التي تصدق أحيانا ويتناقلها الناس جيلا بعد جيل، وإنما هذا الإيمان يجب أن يكون عقيدة راسخة في النفس، مستولية على جميع جوانب الحياة، فلا بد أن يتفاعل المؤمن مع هذا الإيمان، ويدل على ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة ١٥ - ١٦] فالإيمان بالقرآن الكريم يقتضي أن يتجسد هذا القرآن في سلوك المؤمن به، وذلك بأن يُعرف المؤمن بالقرآن الكريم من خلال معاملاته للناس، وأخلاقه وعبادته وجميع شؤون حياته؛ لأن القرآن الكريم تتمثل هدايته في سلوكه أسوة برسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن، كما جاء في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد انعكس هذا الخلق العظيم من الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ على صحابته رضي الله تعالى عنهم فكان كل واحد منهم يجسد هداية هذا القرآن في تصرفاته، وفي أعماله، بحيث لا يخرج فيما يأتيه وفيما يذره عن هداية القرآن الكريم، وهكذا كان السلف الأول، كانوا يعدون مخالفة تعاليم القرآن الكريم خروجا عن مقتضى الإيمان به، وهذا يعني تزلزلا في قاعدة الإيمان نفسها؛ فلذلك كانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول لنسوة رأتهن عليهن ثياب رقاق: «ما آمنت بسورة النور امرأة تلبس هذه الثياب»، يعني أن ما نزل في سورة النور من وجوب الاحتشام على النساء بلبسهن اللباس السابغ الساتر يتنافى مع تلكم الملابس التي لا تستر البشرة

سترا كاملا كما شرع الله تعالى وذلك لرقة تلك الملابس، والله تعالى نعى على بني إسرائيل الذين طبقوا بعض تعاليم التوراة وأعرضوا عن بعضها، نعى عليهم صنيعهم هذا وعده من باب الإيمان ببعض ما أنزل الله والكفر ببعض منه، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة ٨٤ - ٨٥].

فجعل سبحانه قبولهم بعض ما في التوراة، وتطبيقه، والإذعان له، والإعراض عن بعضه إيمانا ببعض الكتاب، وكفرا ببعضه، وكذلك المؤمنون أيضاً الذين أنزل الله تعالى عليهم القرآن إن لم يأخذوا تعاليم هذا القرآن الكريم بحذافيرها من غير أن يفرقوا بين شيء وآخر، فيجعلوا شيئا من هذه التعاليم من باب جوهر الدين، وشيئا آخر من باب شكله، ويقولوا نحن متمسكون بالجوهر ولا نبالي بالشكل فإن ذلكم يعد من باب الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، ولا يقبل إيمان ببعض مع الكفر ببعض؛ لأنه نقض لعرى الإيمان عروة عروة، والإيمان متكامل لا يمكن أن يقوم على بعض أركانه دون بعض، فتلكم الأركان كلها يجب أن تكون متوفرة في بناء هيكل الإيمان.

ولا يمكن أن تستقر أوضاع هذه الأمة إلا بتطبيق القرآن الكريم لأنها لن تكون على شيء إلا إذا أقامت القرآن كما أن أهل الكتاب ليسوا على

شيء إلا بإقامة الكتاب كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وكذلك أهل القرآن، ليسوا على شيء حتى يقيموا القرآن الكريم، وإقامة القرآن الكريم تكون فردية بحيث يحاسب كل أحد نفسه في تطبيقه تعاليم القرآن، وتكون جماعية بحيث يتعاون المجتمع بأسره على أن يكون قائما على تطبيق تعاليم القرآن وذلك بتعاون أفراده على إنشاء المجتمع الصالح القائم على حكم القرآن، وتكون أيضاً سياسية بحيث تقوم الدولة على تعاليم القرآن، وتأخذ بكل ما فيه من تعاليم سياسية وتشريعية وثقافية واجتماعية وإعلامية واقتصادية بحيث لا يخرج شيء من نظامها عن إطار القرآن الكريم الواسع، فالقرآن ليس فيه تفريط ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، بل فيه كل ما يحتاج الناس إليه، فقد جاء بقواعد يمكن أن ترد إليها جزئيات شؤون الحياة المختلفة، والسُّنَّة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام جاءت موضحة لما انبهم منه، ومفصلة لما أجمل فيه فإليها المرجع في ذلك، والله تعالى يقول مخاطبا عبده ورسوله محمدا ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فالعودة إلى القرآن الكريم هي العودة الصحيحة إلى الإيمان، والإعراض عن القرآن الكريم إعراض عن الإيمان، ومن المعلوم قطعا أن من أخذ بحجزة القرآن، ولم يفرط في شيء من تعاليمه فقد أخذ بالعروة الوثقى، وأخذ بهدايات الكتب السابقة جميعها، لأن حصيلة ما في الكتب السابقة من هداية مجتمعة في هذا القرآن، والقرآن الكريم مهيمن على كل كتاب نزل من قبل، فقد أقر ما ينبغي إقراره مما تقتضي المصلحة البشرية إقراره، ورفع ما ينبغي رفعه مما تقتضي المصلحة البشرية رفعه وإن بعض الأحكام التي جاءت في تلكم الكتب السابقة كانت أحكام آنية، تعالج مشكلات وقتية، فإذا انقضى ذلكم

الوقت اقتضى الحال أن يؤخذ بغيرها من الأحكام، أما القواعد التي يقوم عليها الدين، وهي العقيدة والأمور الغيبية التي أخبر الله تعالى بها في تلكم الكتب، والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها جميع المرسلين فهذه كلها مما لا يقع فيها النسخ، لأن النسخ إنما هو في الأحكام التشريعية أما العقيدة فلا يمكن أن يقع فيها نسخ، إذ النسخ فيها يعني التضارب في الأقوال، ويفضي ـ والعياذ بالله إلى الكذب، إذ لا يمكن أن يأتي كتاب من عند الله تعالى داعيا إلى اعتقاد الوحدانية مع أن كتابا آخر يدعو إلى اعتقاد التثليث أو التثنية أو وصف الله تعالى بأنه والد أو نحو ذلك مما ينزه الله ﷻ عنه، فجميع الكتب تواردت على تنزيه الله تعالى عن صفات الخلق، وإنما جاءت في تلكم الكتب عبارات متشابهة كالعبارات التي نزلت في القرآن الكريم، والذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه، فأقبلوا على المتشابه وأعرضوا عن المحكم، وما استطاعوا أن يردوا هذه المتشابهات إلى المحكمات، ولذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من التحريف والتبديل، فإن القرآن الكريم فيه آيات محكمات هن أم الكتاب من حيث إن المتشابهات تعتبر متفرعة عنها ترد إليها، كما يرجع الولد إلى أمه، ولا يمكن أن تجعل أصلا بنفسها، وكذلك الأخبار عن المغيبات، لا يمكن أن يخبر بشيء ثم يخبر بخلاف ذلك الشيء فإن ذلك هو الكذب الذي يتنزه الله تعالى عنه ويتنزه عنه رسله فلا يمكن أن يكون كلام الله مشتملا عليه، وكذلك الأخلاق الفاضلة فإن جميع دعوات المرسلين جاءت بترسيخ الأخلاق الفاضلة في أممهم، ولا يمكن أن يدعو أي رسول من رسل الله سبحانه إلى ما يعاكس هذه الأخلاق الفاضلة، فمن أخذ بالقرآن الكريم فقد أخذ بما في الكتب السابقات من هدايات، فإن حصيلة ما في تلكم الكتب اجتمعت في القرآن الكريم.

نَحن مُطالبــون بأن نُؤمن بالتــوراة والإنجيل، فهل يَجــوز أن نقرأ هذه الكتب ؟

التحريف والتبديل في التوراة والإنجيل واضح، وكفى بأن في التوراة أنَّ يَعقوب خرج ولقــي الله ـ تعالى ـ وتَصارع معه حتى صــرع الله تعالى، ولَم يستطع الإنفلات منه فضربه على حُقِه، ولذلك كان يَعقوب يَخمع وكان بنو إسرائيل لا يأكلون عرق النسا لأجل هذا، ومع ذلك لَم يُفلته حتى طلب منه المباركة وباركه.

فأي عقل يقبل مثل هذا الكلام، وأي ذَوق فضلاً عن عقل ســليم يتقبل مثل هذا.

وكذلك في التوراة المحرفة وليست المنزلة على موسى مِن العظائم في حق الأنبياء ما تقشــعر منه الجلود، فالأنبياء وصفوا في التوراة كأنَّهم قطيع مِن اللصوص السراق المجرمين السفاكين للدماء الزناة الذين لا هم لَهم إلا شهواتُهم، فَمِن ذلك ما وصف به لوط أنَّه شرب الخمر وزَنَى بابنتيه وحَملتا منه، وما وصف به يعقوب مِن كونه كان مُجرمــاً وكان يَعتدى على حُرمات الناس ويَنهب أَموالَهم نَهباً.

وفي الإنجيل مِــن أمثال هذه الأمور التي يدل العقل الســليم على عدم تقبلها مِمَّا لا يتسع المقام الآن لبسطه.

فنحن نُؤمن بالتوراة المنزلة على موسى، وبالإنجيل المنزل على عيسى، ولكن نقــول بأن ما بيــد اليهود والنصــارى ليس هو المنزل على موســى وعيســى، بــل نصــوص القــرآن دالــة علــى تحريفهمــا، قــال تعالــى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

أسماء الكتب المنزلة

ما هو المدلول اللغوي لكلمة القرآن؟

القرآن مأخوذ من قَـرَأَ، يقرأ، بمعنى جَمَع، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]. ومنه سـمي كل من الحيضُ والطهرُ قُـرْءاً، ولذلك يجمع القُرءْ على أَقراء باعتبـار ضم القاف، لأن فُعْل يجمع على أَفْعَال ـ جمع قلة، ويُجمع القَرءْ على قُروء باعتبار فتح القاف. وتسـمية الحيض قرءاً من باب تسمية المفعول بالمصدر، لأنه مقروء أي مجموع، وتسمية الطهر بهذا الاسم نفسه لأن في وقته يجتمع الحيض في الرحم، فهذا من باب تسـمية الزمان بالمصدر، والقرآن مأخوذ من قرأ يقرأ ـ كما ذكرت ـ فتسـميته بذلك لأنه مجموع، فحروفه وكلماته وجمله وآياته وسوره كلها مجموعة، والله أعلم.

مَا هُو الفرق بين مَن يَقول: «يا فارق الفرقان ومنزل القرآن» وبين من يقول: «يا فـارق القرآن ومنزل الفرقان» أيُّهمـا الأصوب وهل هنالك فرق؟

القرآن فرقان، والفرقان أعَمُّ مِن القرآن، لأن يوم بَدْر يسُـمِّى يوم الفرقان لأنَّه فرق بين الحق والباطل، وقد آتى الله موسـى وهارون الكتاب والفرقان كما جاء في القرآن، وكل ما فرق بين الحق والباطل فهو فرقان، والقرآن هو علـى رأس الفرقان لأنَّه فارق بين الحق والباطـل، فبذلك لا حرج عَلى مَن قال هذا أو قال ذلك؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

المعجزة

بِماذا تُفسرون عناية بعض غير المسلمين بالقرآن الكريم دَراسة وتَفسيراً وتَرجمة لبعض آياته أو للمصحف نفسه ثم بعد ذلك يَصلون إلى مرحلة الإعجاب، ومِنهم مَن يستغل مثل هذه الثقافة للتشكيك، غير أنَّ مِنهم مَن يدخل الإسلام مِن منطلق هذه الثقافة التي اكتسبها في تِطْوَافِه مع آيات الكتاب العزيز؟

اقتضت حكمة الله تعالى البالغة أنْ يَقرن دَعوات أنبيائه بِمعجزات تُثبت أنَّ هذه الدعوات ليست مِن تِلقاء أنفسهم، وإنَّما هي وحي أوحاه الله تعالى.

فكل نَبِي يَقرن الله تعالى دعوته بِمعجزة، أي قَضية خارقة للعادة خارجة عن مألوف البشر بِحيث تَعجز عنها ملكاتهم.

وقد كان ذلك ملائماً للأمم الذين كانت فِيهم نُبوات هؤلاء الأنبياء، فكل نَبِي تكون مُعجزته مُنسجمة مع البَيئة التي كانت فِيها رِسالته؛ فَنَبِي الله ـ تعالى ـ موسى عليه السلام كانت مُعجزته آيةً بَيِّنةً مِن عند الله تعالى تدل على أنَّها ليست مِن سحر السَّاحِرين لأنَّ الناس كانوا خَبَرُوا السحر وعرفوه ودَرسوه واهتموا به، فعندما جاءهم بِهذه الآية تَبَيَّن أنَّها خارجة عن نِطاق السحر، وأنَّها ليست مِن مقدور البشر، فلذلك آمن السحرة: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢]، وسجدوا لله تعالى.

ونَبِي الله ـ تعالى ـ عيسى عليه السلام بُعث في أرض الشَّام، في جُزء مِن الأرض التي كانت تَمتد إليها سُلطة الإمبراطورية الرومانية، وكانت تَشِعُّ عليها حضارة الرومان؛ ومِن المعلوم أنَّ الرومان هم وَرَثَة الحضارة الإِغْرِيقية، فهم وَرِثُوا حُكماء اليُونَان، وكان مِمَّا وَرِثُوه الطب، وكانوا مُتَقَدِّمين فيه، فلذلك كان الناس على عِلم بالطب وما يَقدر عليه وما يَعجز عنه، وعندما

جاء عيسى بإبراء الأَكْمَهِ والأَبْرَصِ وإِحْيَاءِ المَوْتَى عرفوا أنَّ ذلك ليس مِن مقدور طبيب أنْ يأتِي بِمثله.

وهذه الدعوة التي بُعث بِها رُسول الله ﷺ لَم تكن دَعوة مَوقوتة بزمان، ولا مَحدودة بِمكان، ولا كانت لِشَعب دُون آخر، وإنَّما كانت للإنسانية بأسرها بل كانت للعالمين: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وكانت هذه الدعوة ولا تزال دعوة مُستمرة في أَعْقَابِ الأَجْيَالِ التي جاءت بعد عهد النُّبُوَّة جَيلاً بعد جَيل، فجميع هذه الأجيال مُخاطبة بِهذه الدعوة إلى أنْ يَرث الله الأرض ومَن عليها.

وقد شَهدت السَّاحة البشرية كثيراً مِن التطورات في خلال هذه القرون الغَابرة، ولا ريب أنَّ المعجزة التي بُعث بِها رَسُول الله كانت مُعجزة مُتلائمة مُنسجمة مع هذه الظُّرُوف المُختلفة المُتباينة.

فالقرآن الكريم أنزله الله تعالى على قلب هذا النَّبِي الأُمِّي الذي لَم يَكن يقرأ مِن كتاب ولا يَخُطُّه بِيمينه، ومع ذلك اشتمل على ما اشتمل عليه مِن العَجائب التي حَارت مِنها مَلَكات البَشر.

وإذا كانت رِسالات المرسلين مِن قبل تُقرن بِمعجزات كونية تَنقضي بانقضاء زمنها فإنَّ هذه المعجزة كتب الله تعالى لَها البَقاء لأنَّ هذه الرسالة ـ أيضاً ـ مُهيمنة على كل الرسالات السابقة، وهي لا تَنحصر في إِقليم مِن هذه الأرض، ولا في شَعب مِن شُعوبِها، ولا في زَمن مُعين مِن الأزمان التي تَتعاقب بعد بعثة الرسول ﷺ، وإنَّما هذه رِسالة مُمتدة عَبر القُرون إلى أن يأتي أمر الله تعالى يَشِّعُّ شُعاعها على العالَم بأسره.

وقد نزل القرآن الكريم بين قوم مِن العرب كان اللسان عندهم هو أسمى مَفاخرهم التي يُفاخرون بِها، فبقدر ما يكون الإنسان بليغاً في قوله سواءً كان

شـــعراً أو نثرا تكون مكانته بين النـــاس مرموقة، فإنَّ العـــرب لأجل وَلَعِهم بالفصاحة والبلاغة كانوا يُقتادون مِن أَلســـنتهم، فجاء القـــرآن الكريم لِيَقُود العرب مِن أَلسنتهم.

وجاءهم بِهذه المعجزة البَاهرة التي أَدرك العرب مِن خلالها أنَّها لا يُمكن أن تكون مِن نَسِيج أحد مِن البشـــر أو مِن نَسِيج جَماعة مِنهم، وإنَّما هي مِن وحـــي الله تعالى الذي هو على كل شـــيء قديـــر والذي هو واهـــب القُوى والقُدَر؛ فإذا بِهـــذه المعجزة تَتَحَيَّرُ مِنها أَلْبَابُ العَـــرب مِن حيث البلاغة، إذ جاء القرآن الكريم بأســـاليب لَم تكن مِـــن مَأْلُوف العـــرب أنْ يأتوا بِمثلها، وعجزوا عن مُحَاكَاتِها رَغم مُحاولتهم ذلك، واسْـــتِنْفَار طَاقاتِهم، ومُحاولتهم أنْ يَصدوا عن هذا الوحي بأي وسيلة من الوسائل.

على أنَّ هذا الأثر الإعجازي مِن حيث التَّعبير القرآنِي لا يَزال صَداه في هذا العالَم بأسره سواء عند مَن نشـــأوا على اللغة العربية أو عند مَن دَرَسوا هذه اللغة فإنَّهم جَمِيعاً يُدركون أنَّ هذا الأســـلوب القُرآنِي هو فوق أساليب جَميع البشر، ولا يستطيع إنسان أنْ يأتِي بِمثله.

وإنَّما مثل هـــذا القرآن ـ ولله المثل الأعلى ـ في كونـــه مُتركباً مِن حيث الكلمات ومِن حيث الحروف مِن نفس الكلمات والحروف التي تستخدمها العرب كمثل صنع الإنسان وصنع الله تعالى.

فالمادة التي يصنع مِنها البشـــر ما يصنعونه مِن الآلات التي تتكون مِن مادة التراب مَعروفة، فهي مادة جامدة، فقد يُجِيد الإنســـان صنع إِنَاء ـ مثلاً ـ مِن مادة التراب ويُجيد نَقشه ويُجيد أنْ يُزوّقه بِما يُزوّقه به حتى يلفت الأنظار ويَسْـــتَهْوِي القلـــوب، ولكن مع ذلـــك يظل جَمـــادا لا حَرَاك لـــه ولا إِرَادة ولا إِحْساس، بينما الخالق تعالى صنع الإنسان مِن هذا التراب ـ أيضاً ـ وإذا

بِه سبحانه يَنفخ فيه نَفخة غَيبية مِن رُوحه فيخرج الإنسان عن طَبِيعة التراب وطَبِيعة المصنوعات مِن التراب بِحيث يكون بَشَراً سَوِيّاً سَمِيعاً بَصِيراً عَاقلاً مُفكراً مُدبراً يُؤتى مِن الملكات ما يُؤتاه، فكذلك القرآن الكريم فيه نَفخة مِن سِـرِّ الله ـ تعالى ـ مع كونه مُتركباً مِن هذه الحروف التي يتركب مِنها الكلام العربـي، وجُمَله مركبة مِن المفردات التي تَسـتعملها العـرب في كلامهم، ولكن مع ذلك فيه مِن السِّـرِّ الغَيْبِي ما حَيَّرَ الأَلْبَاب، وهذا الذي اعترف به غير المسلمين.

فنَجد مِن المستشـرقين مَن دَرس القرآن وأَدرك السِّرَّ الغَيْبِي الذي في القرآن الكريم بأنَّه سِـرٌّ لا يُمكن لملكات البشـر أن تصـل إلى مثله في كلامهم أبداً.

فقد تعقب أحد المستشرقين ما قاله البعض بأنَّ النبي لَم يأت بآية مثلما جاء الأنبياء مِن قبل بالآيات، بقوله: (لقد كان مُحمد يَتلو القرآن والِهاً مُدَلَّهاً فيأتِي بِما لَم تأت به آيات الأنبياء مِن قبل بِحيث يُؤثر على الناس تَأثيراً لَم تُؤثره آيات الأنبياء مِن قبل).

وكذلك عندما طُلب مِن أحد المستشرقين الفرنسـيين أنْ يُترجم اثنتين وستين سورة مِن سور القرآن، وكان ذلك بتكليف مِن قبل وزارتَي الخارجية والتربية الفرنسـيتين، وكان هذا قبل نَحو قرن مِن الزمن أو ما يُقارب ذلك، كتب مُقدمة لِهـذه الترجمة جاء فِيها بأنَّ القرآن لا يُمكن أن يسـتوفي مَعناه أسـلوب إلا أسـلوبه الخاص، ولا لُغة إلَّا لُغته الخاصة لأنَّ أُسلوبه أُسلوب إِلَهي فلذلك أعجز البشر بسحر بيانه.

ونَجـد العرب الأوائل تَحدثـوا بِما تَحدثوا به عـن عجبهم مِن هذا القرآن وتأثيره عليهم، كما نَجد أيضاً مِن المتأخرين مَن تَحدث بإعجاب

عن القرآن الكريم مثل «شِبْلِي شُمَيِّل» الذي وصف النبي فقال في وصفه:

دَع مِن مُحمد في سَدى قُرآنه ... ما قد نَحاه للحمة الغايات
إنِّي وإنِ أَكُ قد كَفرت بِدينه ... هل أكفرنَّ بِمحكم الآيات
أو ما حَوت في نَاصع الألفاظ مِن ... حكم رَوادِع للهَوى وعِظَات
وشَرائع لو أنَّهم عَقلوا بِها ... ما قَيَّدوا العُمران بالعَادات
نِعم المُدبر والحَكِيم وإنَّه ... رَبُّ الفَصَاحَة مُصطفى الكَلِمات
رَجل الحِجَا رَجل السِّياسة والدُّهَى ... بَطل حَليف النَّصر في الغَارات
بِبلاغة القُرآن قَد غَلب النُّهى ... وبِسيفه أَنْحَى عَلى الهَامات

وكذلك الشَّاعر العربِي النَّصرانِي القروي الذي كان مَعروفاً بالشَّاعر: «الخُورِي» كتب وصية قبل نَحو ما يقارب ثلاثين عاماً مِن الآن عندما بلغ تسعين عاماً جاء في وصيته هذه: «وتصديقاً مِنِّي بنبوة نبينا العربي وإعجاباً مِنِّي بِمعجزته القرآن أردت أن أكون قدوة لأخواني أدباء النصرانية فأدخل في دين الله»، هكذا يعترف بأنَّ هذه المعجزة مُعجزة تَمتلك ألباب البشر.

هذا مِن حيث الأسلوب أو بتعبير آخر مِن حيث الشكل.

أما مِن حيث المضمون فحدّث ولا حرج عن إعجاز القرآن، فإنَّ القرآن الكريم حَيَّرَ الألباب مِن حيث إخباره عن الحقائق الكونية التي لَم تكن تُتصور مِن قبل، وهذا ما وعد به الله تعالى في آياته حيث يقول ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٢ - ٥٤].

فالقرآن وعده ظاهر بأنَّ هذه الآيات ستتكشف للناس في أنفسهم وفي آفاق هذا الكون ووقع ذلك فعلاً، حتى أنَّ الذين لَم يكونوا مِن قبل على الإسلام وقفوا مَبهورين أمام هذه الآيات مثل الدكتور «مُورِيس بوكاي» الذي كان على غير الإسلام وتَحَيَّر مِمَّا قرأه في القرآن الكريم مِن الآيات التي تدل على الحقائق الطبية التي لَم تكن تُتصور للناس مِن قبل، ولَم يكتشفها البشر إلا بعد مُضي ثلاثة عشر قرناً فصاعداً مِن تاريخ نزول القرآن الكريم، وألف كتابه الذي سَمَّاه: «العلم في التوراة والإنجيل والقرآن» وكان ذلك قبل إسلامه، وذكر أنَّه مِن خلال دراسته ـ الدراسة العملية للقرآن الكريم ـ تبين له أنَّ هذا القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لَم تَمسه يد التبديل والتغيير، وأنَّه ظل باقياً كما هو إلى الآن.

أما مِن ناحية التشريع والأخلاق فإنَّ جَميع ملكات البشر تعجز عن أن تأتي بِمثل شيء مِن تشريع القرآن الكريم؛ فمهما كانت تَجارب البشر والدراسات النفسية والاجتماعية التي تَمر بِها الدراسات القانونية حتى تُخرج للناس كل ذلك إنَّما يبقى في حدود طاقات البشر وقدراتهم وعقولهم ثم ينكشف عوارها ويصبح الناس في حيرة من أمرهم وإذا بتشريع القرآن الكريم يظل صامداً أمام التحديات الإنسانية والأطوار البشرية واختلاف موجات العقول بين حين وآخر.

ولكن مع ذلك فإنَّ الله تعالى غالب على أمره يهدي مَن يشاء، ويضل مَن يشاء، بيده الخير، فهو تعالى يهدي للإسلام قلوباً كانت مِن قبل غُلفا، وأبصاراً كانت مِن قبل عمياً وأسماعاً كانت مِن قبل صُمَّا؛ وهناك مَن يتفتح على الحقائق الكونية والدراسات القرآنية، ويَجد ما في الكون ينطبق تَمام الانطباق على ما أخبر عنه القرآن الكريم مع أنَّ البشر لَم يكونوا يتصورون ذلك، ويصل إلى قناعات مِن ناحية التشريع والأخلاق ومِن كل ناحية مِن

النواحي التي تضمنها القرآن الكريم؛ ولكن مع ذلك يظل هؤلاء مُستمسكين بِما كانوا عليه غير قادرين على أنْ يُؤمنوا بِهـذا الحق الذي أبصرته عُيونُهم ووعته عقولُهم وأدركته مشاعرهم وحواسهم.

ومِمَّا يُؤسف له أنْ نَجد مع هـؤلاء يندفع جَماعة مِمَّن ينتسبون إلى الإسلام، ويدّعون أنَّهم ينحدرون مِن أصول إسلامية، وإذا بِهم يرددون كالببغاوات ما عسى أن يكون صدر مِن هذا أو مِن ذاك، فتارة يقولون بأنَّ القرآن إنَّما هو مِن نسيج البشر، وتارة يقولون بأنَّ هؤلاء الأنبياء ما كانوا إلا فلاسفة... الخ، وهم بهذا الكلام يريدون أن يظهروا بِمظهر المتطور عندما يقلدون الآخرين؛ والقرآن يظل صامداً أمام هذه التحديات إلى أن يأتي أمر الله تعالى، والله أعلم.

يتعامَل البعض مع حادثة الإسراء والمعراج من خلال الحسابات الفَلَكِية، والبعض الآخر مِن خلال الرجوع إلى القوانين الفيزيائية بِغَرَض إثبات صِحَّتها، الأمر الذي يرى فيه البعض خروجاً عن موضوع المعجزة أو الكَرَامَة ـ وهو الأمر الخارق للعادة ـ إذ كيف يُمْكِن أن يكون أمراً خارقاً للعادة إذا استَطَعْنا تَنْزِيله وِفْقَ الحسابات البشرية وَوِفْقَ النَّوَامِيس الكونية، ما هو رأيكم؟

ينبغي أن نُحدِّد ما يُقصَد بالمعجزة، لا ريب أنَّ الله تعالى يَخلُق ما يشاء ويفْعَل ما يُرِيد، ونَحن علينا أن نؤمن بأن الله ﷻ وإنْ أَوْجَدَ للكون نُظُماً وسُنَناً ونَوَامِيس إلا أنَّه عندما يريد خَرْقَ هذه النواميس وتبديل هذه السنن لا بد من أن يقع ذلك، بأن تكون هنالك جزئيات تَحدُث فيها حوادث خارقة مِن هذا النوع وإن كان النظام العام يَسِير وِفْقَ تلك النَّوَامِيس والسُّنَن التي طَبَعَ الله تعالى عليها الوُجُود، ولذلك شَوَاهد من

القرآن الكريم منهـا قِصَّة أصحاب الكهف، إذ لا يُعقَل حَسـب نَوَامِيس الوُجُود وسُنَن الحياة أن يبقى أُنَاس على قَيْدِ الحياة لِمُدة ثلاثُمائة وتسع سـنوات مع أنَّهم لَم يَتَغَذوا بشـيء في خلال هذه الـمُدَّة، هذا أمرٌ غير مألوف بِحسـب عَوَائِد البشـر التي اعْتَادُوهَا، وكذلك قِصَّة الرَّجُل الذي أَمَاتَه الله ـ تعالى ـ مائة عام ثُم أَحْيَاه وقد نَصَّ على ذلك القرآن، وكذلك بالنسبة إلى نقل صَرْحِ مَلِكَة سبأ إلى سليمان عليه السلام، كل ذلك مِمَّا لا يدخل في مَقَايِيس البشـر، فعلينا أن نؤمن بأنَّ الله تعالى على كل شـيء قدير، يُصَرِّف الوُجُود كما يشاء، ويُقدِّم ويُؤخِّر في هذا الوجود كما يريد.

ومُعجِزات الأنبياء هي أمورٌ خارِقَة للعادة، غير مَقْدُورٍ للبشر أن يأتوا بِمِثْلِها، وعلينا أن نؤمن بأنَّه بِجَانب هذه المعجزات فإنَّ هؤلاء الأنبياء قد يُكْرِمُهُم الله تعالى بأُمُور تكون خارِجَة عن سُنَن هذه الحياة.

وبِالنسـبة لحادثة الإسـراء والمعراج هي خَارِجَة عن سُـنَنِ الحياة، ولكن هـل نقول بأنَّها معجـزة؟ هذه نقطة يَجب أن نقـف عندها، نَحن نؤمن بأنَّ رُسُل الله تعالى قَرَنَ الله عز وجل دَعواتِهِم بِمُعجزات خَارِقَة للعادات، خارجة عن مألوف البشر، وعن السُّـنَن التي عَهِدُوهَا في هذه الحياة، إلا أنَّ ذلـك إنَّما كان في مَقَـامِ التَّحَدِّي، ففي مقام التحـدِّي كانت مُعجزة عيسـى عليه السلام في إِبْرَاء الأَكْمَه والأبرص وإحياء الموتـى، وكانت معجزة موسى عليه السلام وهي العَصَا التي لَقَفَت كل ما جاء به سَحَرة فرعون، وكانت معجزة إبراهيم عليه السلام إذ لَم تُؤثِّر النار عليـه احتراقا، هذا كله إنَّمَا كان في مقام التحدي.

أمَّا بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنَّ الله تعالى أراد أَنْ تكون مُعجِزته مُعجِزة أبدِيَّة باقية حتى يرِث الله الأرض ومن عليها، لأنَّ رسـالته عليه السلام لَم تكن

رسالة مَوْقُوتَة كرسالات المرسلين من قَبل، فلذلك كانت مُعجزته مِن ضِمْن رسالته، بل هِيَ وِعَاءَ رِسَالته لأنَّ رِسَالَته اشْتَمَلَ عليها القرآن الكريم، فإذا بِهَذا القرآن مُعجِز لجَميع طبقات الناس، مُعجِز بالنسبة إلى العرب الذين نزل بين ظَهْرَانِيهِم وهم قد بلغوا في ذلك الوقت شَأْواً بعيداً في الفصاحة والبلاغة بِحيث كانوا لا يُشَقُّ لَهم غبار في الكلام نَظْمِه ونَثْرِه وسَجْعِه ومُرْسَلِه، ومُعجِز ـ أيضاً ـ للأُمَم الأخرى، فهو مُعجِز لأهل الكتاب بِمَا كَشَفَ من أحوالِهم، وبِمَا عَرَّاهُ من دَخَائِلِهِم التي كانوا يَكتُمُونَها، وَهُوَ مُعجِز للأُمم الأخرى إلى قيام الساعة بمَا فيه من أنباء بِمُغَيَّبَات لَم تكن تدُورُ بِبَالِ أحد فإذا بالواقع يَأْتِي طِبْقَ ما دَلَّ عليه القرآن، وكذلك هو مُعْجِز بالنسبة إلى التشريع المُتْقَن الدقيق، وهو مُعْجِز بالنسبة إلى الكَشْفِ عن مُخَبَّآتِ هذا العالَم التي كانت لا تدور بِحُسبان أحد، فَمِن كُلِّ هذه النواحي القرآن الكريم مُعْجِز، وفي مقام التحدِّي نَجد أنَّ الناس عندما كانوا يَطْلُبُون الآيات يُرَدُّون إلى القرآن الكريم، فالله تعالى يقول: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، ويقول أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]،

ويقول سُبحَانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، فالله ﷻ مَا أراد أن يَسْتَأْصِل هذه الأُمَّة بِسَبب تَكذِيبها، بل أراد أن يكون لِها امْتِدَاد، وأن يكون لَها عَقِب صالِح يؤمن بالله ويَحمل رسالة الإسلام فَلِذلك جعل هذه المعجزة مُعجزة تبقى لا تُستأْصَل، ليكون بِهَا التحدِّي في أَعْقَاب الزمن إلى أنْ يَرِث الله الأرض ومن عليها، مُعجِزة متنوِّعة في تَحدِّيها للخلق بِحَسْبِ تَنَوُّعِ ثَقَافَاتِهِم وتَنَوُّع وَعْيِهِم وتَطَوُّر إِدْرَاكِهِم.

وهناك أمور كانت خَارِقَة للعادات وَقَعَت للنبي ﷺ، ولكنها لَم تكن في مَقَام التحدِّي، فَقَضِيَّة الإسراء والمِعْراج، هي خَارِقَة للعادة، إذ لَم تكن مِن مَأْلُوف البشر ولكن فيها تَرْوِيح لشخص النبي ﷺ الذي أثقل كاهله بالهموم لما أَصَاب هذه الدعوة مِن قبل خصومها، وفيها إكرام للنبي ﷺ وتَعريف بِقَدْرِه، وفيها ـ أيضاً ـ تَنْبِيه على أنَّه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ جاء لِيُوَرِّثَ هذه الأُمَّة مَواريث النُّبُوَّات السابقة، ولِيُوَرِّثَها مُقدَّسَاتها، فكان الإسراء به ﷺ مِن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مِن أجل التنبيه بأنَّ هذه الأمة وَرِيثَةُ الأمم في مقدَّسَاتِهَا، فعليها أن تُحافظ على هذه المقدَّسَات من غير أن تُفَرِّط في أيِّ شيء منها، وهذا لَم يكن في مقام التَّحَدِّي، ولو كان في مقام التَّحَدِّي لَطُلِب من قريش ـ مثلاً ـ ومَن معهم ومَن كانوا في صَفِّهِم أن يكْتُبُوا ـ مثلاً ـ إلى أهل القُدْسِ الشريف أو أن يذْهَب وَفْدٌ مِنْهُم إلى هناك لِيَجد هل النبي ﷺ انتقل فِعْلاً إلى القدس، فهذه الحَادِثَة حَدثت في غَيْبَةٍ منهم، بِحيث لَم يكونوا على اطِّلاع على ذلك قط، وإنَّما كان اطِّلاعُهُم بِإِخْبَار النبي ﷺ لا غير، فبهذا يَتَبَيَّن أنَّ هذا مِمَّا لا يدخل في ضِمْنِ الإعجاز، وإن كان هو مِمَّا يدخُل في ضِمْنِ خَوَارِق العادات، والله أعلم.

سؤال عما قاله العلماء إنه لو جاء رجل يدّعي النبوة وقال: إن معجزته هي أن ينطق الجدار أو الجهاز فنطق وقال: كاذب فإن ذلك دليل على تكذيبه، وأن العلماء استثنوا من ذلك ما لو قال: إن معجزته أن يحي الميت، وعادت الحياة للميت، وقال: كاذب، فما سبب هذا الاستثناء؟

سبب هذا الاستثناء هو أن الإنسان من شأنه إذا دبت فيه الحياة ورجع

إليه الوعي أن يتكلم باختياره، فلا يبعد أن يختار الباطل على الحق، بخلاف الجدار، وبخلاف الشيء الذي ليس من شأنه أن يتكلم فإنه لو تكلم لكان كلامه بياناً من الله لحقيقة أمر والله أعلم.

هل تعتبر الكرامة خارقة للعادة كالمعجزة، وهل يعد الذي وقع للرسول ﷺ من نبع الماء خارقاً للعادة لأنه خارج من الدم والدسم؟

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة في مقام التحدّي المقرون بدعوى النبوة، وهي نازلة منزلة قول الله ـ لو أسمعنا الله ﷻ قوله: «صدق عبدي في كل ما أخبركم به عني»، وضرب القرطبي لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ: ما لو إن تحدث أحد باسم ملك من ملوك الدنيا تحدث باسمه، وقال إن الملك يأمركم بكذا ويأمركم بكذا.. إلخ، وآية تصديقه لي فيما أقول لكم أنه بعد انتهائي من هذا الكلام سيخلع خاتمه من إصبعه، فخلع الملك الخاتم من إصبعه، فقد دل هذا الخلع على أنه مصدِق لذلك فيما قاله عنه، وكذا قَرْنُ الله ﷻ لدعوة نبي من أنبيائه أنه مبعوث بالحق من عند الله بمعجزة خارقة للعادة دليل على أن الله تبارك وتعالى قد صدقه فيما يقول، وذلك بمثابة قوله لنا «صدق عبدي فصدقوه»، هذه هي المعجزة.

وإذا كان الأمر الخارق للعادة قبل النبوة فهو إرهاص، كما رويَ عن النبي ﷺ أنه أظله الغمام، والإرهاص بمثابة وضع أسس لنبوة ذلك النبي حتى يعلم الناس شأنه، وذلك كنطق عيسى عليه السلام في المهد، وإذا كان أمراً أكرم الله تعالى به أحد عباده الصالحين من غير النبيين فذلك يسمى كرامة، وإذا كان أمراً أجراه تعالى على يد أحد من عامة الناس فهو معونة، وإذا أجراه على يد كافر، فإن كان أمراً يعتز به ويفتخر به ويظهر به أمام الناس

بمظهر يتمناه فذلك استدراج، وإن كان بعكس ذلك فإهانة، كما ذكر بأن مسيلمة بصق في بئر لِيَغزُر ماؤها فجف الماء الموجود فيها، وتفل في عين عوراء لتبصر فعميت الأخرى.

وهذه الآيات الخارقة للعادات التي وقعت للرسول ﷺ كنبع الماء من بين أصابعه هي معجزات، لأنها تدل على صدقه ومكانته عند الله، لكنها لم تأت في مقام التحدي، أما المعجزة التي أتت في مقام التحدي فهي القرآن الكريم، والمفسرون والقصاصون ذكروا أشياء كثيرة فأقلوا وأكثروا، ومعظم ما ذكروه لا يمت بصلة إلى الصحة، ومن ذلك ما قالوه: إن القمر جاء بعدما انشق في حجم الكرة ودخل في كم النبي وخرج من الكم الآخر وقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فهذا ما لم يقع أبداً، أما انشقاق القمر فهو حقيقة واقعة لأن الله تعالى أخبرنا بها، بينما المشركون فقد جعلوا ذلك ظاهرة سحرية حيث قالوا: إن محمداً سحرنا، كما أخبر الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ - ٢]، والله أعلم.

المعجزات التسع ما هي ؟!

هي الآيات التسع، فالله ﷻ يقول: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢].. وذكر الله ﷻ منها العصا واليد، وذكر أيضاً الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم، من الآيات التي حلَّ رجزها بالقوم الكافرين فرعون وآله فقط، أما بنو إسرائيل فقد كانوا بمنأى عن رجزها، وقد قيل: إن الإناء يضع فيه الإسرائيلي الماء فيجده ماءً، ويضع فيه القبطي الماء فيجده دماً، هذه الآيات التي ذكرها الله ﷻ وهي الآيات التسع التي أرسل الله ﷻ بها موسى عليه السلام إلى فرعون وملائه والله أعلم.

الإعجاز القرآني

ما رَأْيُكُم في رَبْط الأحداث بالآيات؟ بِمعنَى أن يقع حدث ثُم يُقال بِأنَّ هذا الحدث جاء في سورة كذا، فيقال مثلاً بأنَّ رَقم الـمُنْتَج الدانماركي هو ٥٧ أُشـير إليه في سـورة الأحزاب مِن نَفس الآيـة، أو ما وقع في الحادي عشر مِن سبتمبر أُشِير إليه في سـورة التوبة، مثل هذا الكلام ما رأيكم فيه؟

هذا كلام يَجب أن يُنَـزَّهَ القرآن عنه تَنْزِيهاً، فالقرآن الكريم جاء بِلِسـانٍ عربِي مبين هدى للناس وبينات من الهـدى والفرقان، لا ينبغي أن ننظُرَ فيه إلى الأرقـام، أو ننظُرَ فيه إلى مثل هذه الترهات، فهـي أمورٌ علينا أن نَدَعَها جانباً، وأن لا نَـزُجَّ بالقرآن الكريـم فيهـا، وأمَّا الربط المعنـوي بأن يبقى الإنسان موصولاً بآيات الكتاب العزيز وعبره فهو أمر مطلوب.

ففي كل آيـة مِن آيات القـرآن الكريم التـي تذكُر أحوال الأمـم عِبْرَة للمعتَبِرين، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦]، وعندما ذَكَـر الله تعالى هلاك فرعون ومن معه قال:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٦]، فهذا مِمَّا يَحدث ويتكرر، وعِبَر القرآن تتجَدَّد، والله أعلم.

ما الحكمة مِن ذِكْر آيات الصوم عَقِبَ آيات الوصِيَّة ؟

ينبغي قبل الإجابة عن هَذا توضيح قضية مُهمَّـة كان فيها أخذٌ وردٌّ بين أهل التفسير، فلا ريب أن القرآن الكريـم أَبْلَغ الكلام، فقد تَحدَّى الله تعالى

به جَميع البشر، وفي مقدمتهم العرب وهم في أَوْجِ البلاغة وفي ذِرْوَة الفَصاحة لا يُشَقُّ لَهُم غُبار ولا يُصْطَلَى بِنَارهم، وطالَبهم بأن يأتوا بِمِثله فعجزوا، وطالبهم بأن يأتُوا بِعَشر سور من مثله فعجزوا، وطالبهم بأن يأتوا بِسُورة من مثله فعجزوا، كما أن هذا القرآن الكريم نَزَل في ظروفٍ مُتَباينَة وفي أحوال مُختلفة، وترتيبه لَم يكن بِحسب نزوله، لأنَّ في الترتيب قد يأتي المَكِّي بعد المَدنِي، وقد يأتي المتأخِّر قبل المتقدِّم، فلذلك كان هَذا الترتيب وِفْقَ حكمةٍ أرادها الله.

لكن بقي هل هذا الترتيب يَنْتَظِم آيات القرآن وسُوَرَه بِحيث يكون هنالك تَناسُب بين آيات القرآن أو ليس هُنَالك تَناسُب؟

من المفسِّرين مَن قال بأنَّه لا يوجد تَناسُب بين آيات القرآن، فنحن لا نبحَثُ عنه لأنَّ القرآن الكريم قد تنْزِل الآية من آياته في ظَرفٍ من الظروف، ولكن في الترتيب تُقْرَن بآيةٍ أخرى لَم تنْزِل في ذلك الظرف ولا في تلك البِيئَة ولا لأجْل تلك المناسبة ولَم تنْزِل في زمنٍ يُقارِب هذا الزَّمن، فقد تُوضَع الآية التي نَزلَت متأخِّرة بعد الهجرة بِزمنٍ طويل مع آية مكية متقدِّمة نزلت أول الدعوة الإسلامية، فلِذَلك قالوا لا حاجة إلى النظر في أمرِ التناسب بين آيات القرآن، ومِمَّن قال هذا الرَّأي وأيَّده الشوكاني في تفسيره.

وهناك جَماعة كثيرة من العلماء قالوا بأنَّه يُوجَد تناسُب يشُدُّ الآية إلى الآية.

فالذين قالوا بالقول الأوَّل نظروا إلى أنَّ القرآن نَزَلَ في ظروفٍ مُختَلِفَة ولأسباب متباينَة في السِّلم والحرب، والسَّفر والحضر، وفي مَكَّة والمَدِينة وما إلى ذلك.

أمَّا الذين قالوا بالتَّناسُب فإنَّهم قالوا بأنَّ القرآن الكريم مَثَلُه ـ ولله المَثَلُ الأعلى ـ كمثل القصيدة الواحدة التي سَبَكَهَا الشاعر تتناوَل جَوانب متعدِّدَة، وقد يُسْتَشهَد بالبيت من أبيات هذه القصيدة لِمُنَاسَبَة ما ويُسْتَشهد بِبَيْتٍ آخر لِمُناسبة أخرى، لكن ذلك لا يَمنع أن يكون هنالك تناسُبٌ بين هذه الأبيات، وأن يكون رِبَاط ما بين كلمات هذه القصيدة، فكذلك القرآن الكريم آياتُه مُترتِّبَة مُنتَظِمة وكلماته مَرْصُوفَة متناسِبَة، وهذا من أسرار إعجاز القرآن الكريم، وقالوا بأنَّ القرآن الكريم هو في عِلْم الله قبل أن يَنْزِل إلى الناس حسب هذا الترتُّب والتَّدْوِين الذي دُوِنَّه والانتظام الذي انْتَظَمَت سُوَرُه آياتِه، فَهو لَم يَخرُج عن هذا في عِلْمِ الله تعالى، وقد أنزَلَه الله بِحَسْب الوَقَائِع فجاءت آياته شفاءً لِمَا في صُدُور الناس وجواباً لتَساؤُلاتِهِم، على أنَّه جاء في الرِّوَايات أنَّ الرَّسُول ﷺ هو الذي كان يأمُرُ بأن تُوضَعَ الآيات في مَواضِعِهَا من السُّوَر، وهذا يدل على أن القرآن مُتَرَتِّب في عَهْدِ الرسول ﷺ.

وهناك مِن عُلماء القرآن المتأخِّرين مَن كانت نظرَتُه أَعْمَق مِن نَظْرة التَّناسب وهي نظرة النِّظام، وهذا ما بَحَثَه الدكتور دْرَاز في كتابه «النَّبَأ العَظِيم» وبَحثه أيضاً الأستاذ الفراهي فهؤلاء قالوا بأنَّ القرآن الكريم ليس بَيْنَ آياته تناسُب فَحَسْب بَل بين آياته نِظَام، ومعناه وجود سر لتقديم أمر على غيره أو تأخره عليه؛ وكذا في تسلسل الآيات في ترتيبها.

ونَحن نُؤْمِن ونُوقِن بأنَّ الله عليمٌ بالقرآن وقد أَنزَلَه على عبده ورسوله مُحمد ﷺ بِحَسْب عِلْمِه وبِحسْب الترتيب الذي أَرَاده تعالى، فجاء مُترتِّباً بعد إنزاله على النَّبِي ﷺ في ظُروفٍ مُختلِفَة حَسْبَ ما أَرَاد الله لَه مِن التَّرتِيب، الذي لا بُدَّ من أن يكون لِحِكمة علِمَها الله، فالتناسب حَاصِل،

ولَكِن مَع هَـذا لا نَرى أن نتكَلَّـفَ البحث عن وُجُوهِه، بـل نتحدَّثُ عمَّا انْكَشَف لَنَا مِن وُجُوهه.

وقد اختلف العلماء في التناسـب فمِنهم مَن حَصَره بين آيات السُّـورة الواحدة.

ومِنهم مَن رَبَط حتَّى بَيْن السـور بِهَذَا التَّناسُـب وبِهَذا النِّظام الذي أشرنا إليه.

ونَحن نَرى أنَّ آيات الوصِيَّة جاءت بعد ذِكْرِ القِصَاص، لأنَّ القِصاص إيذَانٌ بالموت، إذ يعنِي قتل أحدٍ اسـتَحَقَّ القتل، وهذا الذي هو مُسْتحقٌّ للقَتـل لا بد له مِن أن يسـتعِدَّ لِلِقَـاء الله تعالى بأن يَتُـوب ويتَجَرَّد من مَعاصِيهِ التِي ارتكبها وأن يُذْعِنَ لأَمْرِ الله وينقَاد لِحُكمه ويسـير في دَرْب طاعته، ومِنْ ذَلك أن يُوصِيَ بِمَا عليه مـن التَّبِعَات ويؤدِّي الحقوق التي هي واجبة عليـه لِذَوِي قَرَابَتِه، فلذلك شُـرِعَت الوصية فـي هذا المقام وبُيِّنَت أحكامها.

أمَّا كون آيـات الوصِية تُلِيَت بآياتِ الصِّيام فـلأنَّ الوصِية هي مِنْ ضِمْن الانْقِياد لأمرِ الله والإذْعَان لِطَاعَته، والوصية يُطالَب بِها كل إنسانٍ في أيِّ حالٍ من الأحوال فكل واحدٍ مُطالَب بأن لا تَمر عليه ليلتَان إلا ووصيَّته مكتوبة عند رأسه استعداداً لِلِقاء الله، ومعنى الاستعداد لِلِقاء الله أن يَلزَم العبد تقوى الله تعالى، والصيام مِن أسباب الاستِمْسَاك بالتقوى، وقد قرن الله تعالى ما بين الأمر بالصيام وما بين ذِكر التقوى، وبَيَّن أنَّ الغاية من مشـروعِيَّة الصِّيـام التقوى إذ قـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والله أعلم.

وُجِدَت مِن الكتابات ما يوجِّه انتقاداً صريحاً لِمُشكِلَة مِن مُشكِلات العصر ثُم يَطرَح فيها الكِتَاب حَلا يَنْبَثِقُ مِن مبادئ القرآن الكريم مع أنَّه ربَّما لَم يطَّلع على القرآن الكريم أو لَم يَستَنِد على شيءٍ من الرُّؤَى التي أتى بِها القرآن الكريم ومع ذلك يأتي بِحَل أو بِطُرُق للخَلاص من هذه المشكلة، وهذا يُلاحَظ باستمرار بين الفَيْنَة والأخرى، ما هو تفسيركم لِمِثْل هذا الحال؟

إنَّ القرآن الكريم هو أُعْجُوبَة الدَّهر، والكتاب الخالِد الذي لا تَبْلَى جِدَّتُه ولا تَفْنَى عجائبه ولا تنقَضِي عَطَايَاه، فهو يتجدَّد بِتَجدُّد العصور، ولا يعنِي ذلك أنَّ القرآن الكريم ينْزِلُ من جديد بِما لَم ينْزِل به من قبل، وإنَّما مع كونه اختُتِمَ إنزاله باختِتَام نُبُوَّةِ نبينا مُحمد ﷺ عندما انتَقَل إلى الرفيق الأعلى إلا أن عجائبَه تَسَع الحياة بأَسْرِهَا وعطاياه تَسَعُ أَطْوار الزمن وحُلُوله تَسْتَوْعِبُ مُشكلات الدهر، فَكُل مُشكِلَة من مُشكلات الدهر يكون حلُّها في القرآن، وهذا من إعجازه، ذلك لأنَّ الله تعالى أراد له الخُلُود، وأراد أن يكون عطاؤه غير مَحدود بزمن دون زمن ولا بِأُمة دون أُمة ولا بِمُحيطٍ من الأرض دون غيره، بل عَطاءُ القرآن الكريم يَتَّسِع للعالَمِين، لأنَّ الله أنزله على عبده ورسوله مُحمد ﷺ لِيَكون للعالَمين نذيراً، وقد وصفه بأنَّه ذكر للعالَمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فالقرآن الكريم كتاب عالَمِي وإعجازه مُتنوِّع مِن حيث الشَّكل ومن حيث المَضْمُون.

فَمِن حيث الشَّكل كوْنُه نزل باللسان العربي الذي كان لِساناً دَارِجاً عند العَرَب مَألُوفاً سواءً من حيث مُفرداته أو من حيث جُمله أو من حيث حُروفه، ولكن مع ذلك خَاطَب العرب بِهَذا اللسان فجاءهم بِما لَم يَأْلَفُوه من القول، وقد كانوا يَنْقَادُون لأَلْسِنَتِهم فاقْتَادَهُم من ألسنتهم، مع أن اللسان العربي قد

صَقَلَتْهُ الأجيال التي مرَّت جِيلاً بعد جِيل قبل نُزُول القرآن حتى وصل إلى ذروة سنام النَّصَاعَة والوُضُوح وقوة التعبير وصار لا يَرْقَى إلى شَأْوِهِ أيُّ لسان آخر تَهيئة لِأَن يكون هذا اللسان وِعاءً لِكَلام الله الـمُنَزَّل للتحدِّي والإعْجَاز، فلمَّا نزل القرآن بِهذا اللسان بَزَّ بلاغة البُلَغاء وتَحدَّاهم أن يأتوا بِمِثلِه فَعَجَزُوا، وتَحدَّاهم أن يأتوا بِعَشْر سُوَر من مثله فعجزوا، وتَحدَّاهم أن يأتوا بِسُورة من مثله فعجزوا، واستَنْفَر هِمَمَهم وَأَرْخَى لَهم العِنان بِحيث وَسَّع لَهم الـمَجَال أن يستَعِينُوا بِمَن شَاءوا مِن ظُهَرَائِهِم وأن يُجرِّبُوا مَلَكَاتِهِم بكل حَماس حتى يأتوا بِما يُشْبِه القرآن الكريم، ولكن مع ذلك وَقَفُوا حَيَارَى، ولا رَيْب أنَّ هذا التحدِّي مُستَمِر في كل عصر، فلا يُمْكِن أن يأتِيَ أَحَد بِمِثل القرآن الكريم في عِبَارَاتِه وفي حُسْن أدَائِه في أيِّ عصرٍ من العُصُور.

ومع ذلك فإن التَّطَوُّرات لَم تقف عند حَد، بل تتجدَّدُ مَعارِف وأحوال وتنْكَشف أمورٌ لَم تكن ظاهرة من قبل، ورغم ذلك فالقرآن الكريم يَسْبِق جَميع هذه الاكتشافات ويَسْبِق جَمِيعَ هَذِه الأطْوار.

وهو مِن حيث التشريع بَلَغ الأَوْج في مَتَانَته وعُمْقِه وقوته، فالقرآن الكريم جاء بِمَا يَعجِزُ عنه جَميع الناس ولو كان بعضُهُم لِبعضٍ ظهيراً، فلا يُمكن للبَشَر كيفما كانوا أن يأتُوا بِمِثل هذا التشريع الذي جاء به القرآن الكريم، مع أنَّ القرآن الكريم نَزَل في بيئة بِدَائِيَّة أُمِّية مَحدُودَة قَبَلِيَّة، لَم تكن ذات نظام سُلْطَانِي، أو أَمِيرِي، إذ لَم يكن هنالك أمير أو سلطان فضلاً عن أن يكون إمْبرَاطُوراً يَحكم جزءاً كبيراً من العالَم، وهذه البيئة التي نَزَل فيها القرآن ما كانت خَاضِعَة لِنظامٍ من هذه الأنظمة الـمَدنِيَّة الـمَعروفة آنذاك، والرَّجُل الذي نَزَل عليه القرآن لَم يكن يَتولَّى أُمُور الناس إذ لَم يكن مُتَأمِّراً على الناس يرجعون إليه في مشكلاتِهم وَحَلِّهَا، وإنَّمَا كان مِن هذه الناحية كَسَائِر الناس.

ولكن مع ذلك نَزَل القرآن الكريم بِمَا يَسَع العالَم ومُشكلاته التي تتجدَّد مع تطوُّرَات الزمن إذ كل طَـوْرٍ من هذه الأطوَار التي تَمُـرُّ بِهَا الحياة يُفْرِزُ مُشكلات عِدَّة، إلا أنَّ القرآن يَسْتَوْعِبُ هذه الـمُشكلات بِأَسْرِهَا، ويَحُلُّهَا حَلاً جذرِياً لا مَثِيلَ لَه قَطّ، فهناك مُشـكلات حَدَثَت في هذه القُـرُون الـمُتَأخِّرَة بعدما نزل القرآن بِنحو اثْنَيْ عشـر قَرْناً أو ثلاثة عشر قرناً أو أربعة عشر قرناً وإذا بِحُلُولِ هذه الـمُشْـكِلات في هذا القرآن الكتـاب العزيز الذي لا يأتِيهِ الباطل من بين يَدَيْهِ ولا مِن خَلْفِه.

ونَحن إنْ جِئْنَا إلى أيِّ مُشكلةٍ مِن الـمُشْكِلات الاجتماعية أو الاقتصادية أو التربوية أو غيرها من الـمُشـكلات نَجِد حلَّهَا في القـرآن الكريم، ومَعَ أَطْوَار الحياة ومع ما يكتَشِف الناس من أسـرَارها مِن خِلال التجارب التي تَمُرُّ بِهِم في أطوارها يَتَبَيَّنُونَ أنَّ القرآن الكريم هو حقٌّ مِن عِند الله سـبحانه، ولا يُمكن أن يكون صُنْعَ بَشَـر، وقد أنزل الله تعالى كتابه وِفْقَ مَا أَبْدَع عليه نظام هذا الوُجُود.

ونَحن نَرى أنَّ التشـريعات البشـرية تَمُرُّ بِأطوارٍ طويلـةِ الـمَدَى، فيها دِرَاسات نفسـية واجتماعية، وتتضافر عليها جهود الكثير من الـخُبَرَاء ذوي التخصُّصَات الـمُتنوِّعة النَّفسـية والاجتماعية وغيرها، ولكن مع هذا كُلِّه فإنَّ هذه التَّشريعات سُرْعَان ما يتَكَشَّفُ عُوَارُهَا ويَتَبَيَّنُ خَلَلُها ويبدُو أنَّها لا يُمْكِن أن تكون حلاً لِمُشْكِلات هذه الإنسانية بِخِلاف التشريع القرآني.

فلو جِئْنَا إلى التشـريع الرُّومَانِي نجد أنَّه نتيجة تَجربة ظَلَّت زُهَاءَ ثلاثة عشـر قرناً تَضَافرت عليها جُهُود كثيرٍ من الخبراء النفسِـيِّين والاجتماعِيِّين، ومع ذلك يحتاج هذا التشـريع بين حينٍ وآخر إلى أن يُطـوَّر ويُبدَّل ويُعدَّل بِخِلاف تشـريع القرآن الكريم، وعندما حَدَثَت الثورة الصناعية الكُبْرَى في العالَم الغربِي تَمَخَّضَت هذه الثورة عن ميلاد نظـام مَالِيٍّ جديد وهو النظام

الرأسْمَالِي الذي كان مُشكلةَ الـمشكلات في العالَم، وعانَى منه العالَم الكثير الكثير من الوَيْلات، وكانت الطَّبَقَات الكَادِحَة الفَقِيرَة تُجْهِدُ نَفْسَـهَا وتَصُبُّ عَرَقَهَا مِن أَجل أن يكون جَهدُها ثَمرةً سَـائِغة لأولئك الذين كان الـمَال دُولَة بينهم، وهذا مِمَّا أدَّى إلى الثورات التي تَمَخَّضَت عن النظام الشُّيُوعي الذي ظَنَّ الناس أنَّهُم سَـيَجِدون فيه مُشْـتَهَاهُم وأنَّه الفردوس الذي يَحلُمُون به، ولكن لَم تَمْضِ فترة من الزمن إلا وتَكشَّف عُوَارُ هذا النظام وأصبح جَحيماً لا يُطاق، وسـعيراً يأكل الأخضر واليابـس ويَلْتَهِمُ الطَّـارِف والتَّلِيد ويُهلِك الـحَرْثَ والنَّسل، وقد فَشل فَشَـلاً ذَرِيعاً، وهذا يعنِي أنَّ النظام الـمَالِي الذي يصلح لحياة الناس إنَّمَا هو النِّظَام الإسْلامي الذي جاء به القرآن الكريم.

وحَسْبُنَا أنْ نَجِد أنَّ مشـكلة الاقتصاد مَحلُولَة في جزء آية من كتاب الله، هذه الآية اشـتَمَلَت علـى حلِّ الكثير من الـمُشْـكلات سـواءً في الجانب الفِكْري أو الجانب الاجتماعي أو جَوَانِب أخـرى في هذه الحياة، ومِن بَيْن هذه الـمشكلات الـمشكلة الاقتصادية، فقد جاء حل هذه الـمُشكلات جَميعاً في آية واحدة وهي قَـوْلُ الله تعالـى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فعندما ننظُر إلى هذه الآيـة الكريمة نَجِد في بِدايَتها حَلا لِمُشـكِلَة التَّصَوُّر الضَّال الـمُنْحَرِف الذي كان عند الناس سـابقاً، ذلـك التصَوُّر الذي جَعَلَهم يتَّخِذُون مع الله آلِهَة أخرى، وجَعلهـم مَقطُوعِين عن عالَم الغَيب، فجاء حَلُّ هذه المشكلة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾.

ثم أتْبع ذلك حل المشكلة الاقتصادية عندما قال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾، وهذه حُقُوقٌ مِن غَير الزَّكاة بِدَليل أنَّ الزكاة عُطِفَت على هذه الحقُوق المَالِيَّة مع الصَّلاة عندما قال الله ـ تعالى ـ على أَثَرِ ذلك ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وهذا يعنِي أنَّ هَذِه الحقُوق مِن غَير الزكاة، ولذلك قال العلماء المُحقِّقُون بأنَّ في المَال حقّاً مِن غَيْر الزكاة يَختلف عن الزكاة مِن حَيث إنه لا يَنْحَصِر في نصابٍ مُعيَّن ولا في أصنافٍ مُعيَّنَة ولا يَحتَاج إلى أن يَمُرَّ عليه وقتٌ مُعيَّن، وإنَّما هو بِحَسْبِ الحاجة، فعندما يَجِدُ الإنسان مُضطَراً من إخوانه عليه أن يُوَاسِيَه بِمَا عنده من المَال، ومَن وجد مضطراً إلى الطعام وعنده فَضْل منه فعليه أن يُعْطِيَه منه بِقَدْرِ ما يَسُدُّ ضَرُورَتَه، مَن وجد مُضطراً إلى الكِسْوَة وعنده فَضْل مِنَها فعليه أن يَكْسُوَه، كذلك عندَمَا يكُون الإنسان في مُجتَمَعٍ لا يَجِدُ فيه سَكَناً لِنَفْسِه وهُنَاك مِن الناس مَن عندهم فَضل في السُّكْنَى فَعَلَيهم أن يؤوه ولا يَجوز لَهم أن يَترُكُوه في العَرَاء وهكذا، فهذا هو الحل الإسلامِي لِمُشْكِلَة الاقتصاد، ولا ريب أنَّ الإنسان يُدْرِك أنَّ هذا الحل حَلٌّ رَبَّانِي جاء لِتَرْبية النفوس على الأَخْلاق الحسَنَة في المُعَامَلة.

والمَال الذي بِيَدِ الإنسان مَالُ الله تعالى، لا يُخَوَّلُ الإنسان أن يتَصرَّف فيه كما تشتَهِيه نفسه وإنَّما يتصرَّف فيه وِفْقَ المَعَايِير التِي أنزلَهَا الله سبحانه، فالمَال مَال الله بِدَليل أنَّ الله تعالى يقول:

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، والإنسان مستخْلَفٌ فيه، ومعنَى الاستخلاف أنَّه مسؤولٌ عنه، وعليه أن يتصَرَّف فيه وِفْقَ أوامر ربِّه الذي استخْلَفَه فيه ومَكَّنَهُ منه، فالله ـ تعالى ـ يقُول: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، ولأَجْلِ ذَلك حَرَّمَ الله تعالى أن يُحَاوِلَ الإنسان

الإثْرَاءَ على حساب الآخَرِين، ولِذَلك حُرِّم الغِش في الإسلام، وحُرِّم الرِّبَا والسَّرقة والاحتيال والمُخَادَعَة وضُرُوبُ الغَرَر ومن بينها المُقَامَرَة، لأنَّ كل سبيل غير شريف لأخْذِ المال مُحرَّم في الإسلام، وإنَّمَا يُكتَسَب المَال بِالطُّرُق المشروعة التي أذِنَ الله تعالى أن يُكتَسَب منها المال.

والإسلام الحنيف نَجِدُهُ وَسَطاً بين أَمْرَين، فهو يَختلف عن الرأسْمَالية التي تُبِيحُ للإنسان أن يُثْرِيَ على حِسَاب الآخرين ولَو شَبِعَ على حساب البُطُون الجائعة أو اكْتَسَى على حِساب الأجساد العارِيَة ولو تَوفَّر له المَال على حِسَاب الطَّبَقات الفقيرة الكَادِحَة، فالإسلام لا يُبيحُ ذلك بل يأمُر الإنسان أن يكون في اكتسابه للمال على مَنهَجٍ ربَّانِي يَرْعَى حُرُمات الله ـ تعالى ـ ويَرعى حقوقه فيما يكتسبه من المال، وهو أيضاً يَختلف عن الشيوعية التي حرَّمَت التمَلُّك، مع أنَّه أمرٌ فِطْرِي، والإنسان بحاجة إليه، بينما الإسلام لَم يُبِحْ للإنسان أن يَمْنَع غيره من التَّمَلُّك، بل لِكُلِّ أحدٍ الحق في أن يتمَلَّك، لكن على أن يكون تَملُّكاً شريفاً مُؤَطَّراً في إطار الفضيلة والأخلاق.

وبَيَّن حَديث النبِي ﷺ أنَّ الإنسان مسؤُولٌ عن مَالِه سُؤالَيْن سؤالا عَن كَسْبِه وسؤالا آخر عن إنْفَاقه، فليس للإنسان أن يَتَصَرَّف في المَالِ كما تَهْوَى نفسه، بل يتَصَرَّف وِفْقَ المنهج الذي رَسَمَهُ الله تعالى لِعِبَاده، وهو منهج يَصُبُّ في مَصَبِّ الأخلاق، فالله تعالى يُحِبُّ من عباده الأخلاق الفاضلة، ولِذَلك وصف النبِي ﷺ بالخلُق عِنْدَمَا قَال﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

فالإسلام يدعُو الإنسان إلى إنفاق المَال في إطَار الفضيلة والأَخلاق، فليس له أن يتصرَّف كَمَا تُمْلِي عَلَيه شَهْوَةُ نَفْسِه، بل حتَّى في الخيْر عليه أن يكون وسطاً بين طرَفَيْ التَّبْذِير والتَّقْتِير، وإنَّما يُنْفِقُ بِقَدْرِ ما يُصْلِحُ شَأْنَ

الآخرين ولا يَضُرُّ بِنَفْسه، فالله ـ تعالى ـ يُوَجِّهُ إلى هذا النَّبِيَّ ﷺ وهو توجيه لِجَميع عباده إذ قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٢٩ - ٣٠]، والحق تعالى يأمر في إيتَاءِ ذَوِي الحقُوقِ حُقُوقَهُم أن يَكُون ذَلك مِن غَيْر خُروجٍ عن حُدُودِ الاعتدال إذ يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٢٧].

وفي نفس الوقت نَجِدُ أنَّ تناول الإنسان لِقُوتِه وشَرَابه إنَّمَا يكون في حُدُود الاعتدال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف٣١]، ولا يَجُوز أن يَخرُجَ الإنسان عن حُدُودِ الاعتدال في مَلْبَسِهِ ومَشْرَبِهِ ومَأكَلِهِ وأيِّ نفقةٍ يُنفِقها على نفسه، فالإنسان يُسأَل سُؤالَين عن المال، مِن أَين اكتسبه؟ وفِيم أَنفَقه؟، وهذا ما دَلَّ عليه حديثُ رسول الله ﷺ عندما قال: «لا تَزُولُ قَدَما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسْأَل عن خَمس: عن عمره فيم أَفْنَاه، وعن شبابه فيم أَبْلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عَمِلَ فيم عَلِم»[1].

ونَحنُ إذا جئنا إلى التشريعات القرآنية والنبويَّة فيما يتعلَّق بِحَيَاة الناس الاجتماعية نجد أنَّها تشريعات لا يُمكِن أن تُعادَلَ بأيِّ تشريعٍ آخر، ولا تُدَانُ بِعَدم تَطبِيق المسلمين لَهَا، فإذا كان هنالك تقصِير فليس في الإسلام وإنَّما هو تقصيرٌ في الـمَحْسُوبِين على الإسلام.

ولو جِئنا إلى قضية الـمَرأة فالقرآن بَوَّأَهَا الـمُبَوَّأَ اللائِقَ لَهَا مِن غَيْرِ إفْرَاطٍ ولا تَفريط، وأنزلَهَا الـمُنْزَلَ اللائِقَ بِهَا، وكَرَّمَها تكريماً لَم تُكرَّم مِثله في أيِّ

(١) رواه الترمذي (٢٦٠١).

نظام، فبالنسبة إلى العلاقة الزوجية جَعَل الحقوق مشترَكَة بين الزوجَيْن سواءً بِسَــواء إلا قضية القِوَامَة مراعاةً لِفِطْرَة المرأة وطَبيعَتِهَا، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهذا إِنْصَافٌ لَم تَجِد المــرأة مِثله في أيِّ نظام آخر، وجعل العلاقــة الزوجية علاقة انْدِمَاج ما بين الزوجين كأنَّما يُشكِّلان جَميعاً حقيقةً واحدة عندما قال تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، فكأنَّمَا اختلــط الزَّوْجَان وصَارَا حقِيقَــة واحِدَة الرجل بعض هذه الحقيقة والمرأة هي البعض الآخر.

كذلك لو جئنا إلى حُقُوق الأبوين وإلــى حُقُوق الأرحام والجِوار وبقية الحقُوق المشروعة في الإســلام نَجد أنَّ هذه الحقُوق لَم يُوجَد مِثلُها في أيِّ نظامٍ آخر.

فإن وُجِدَ الآن مَن يُنَادِي بِمِثْل هذه الحلــول التي جاء بِهَا القرآن فذلك لأنَّ الفطرة تَسُــوقُ الناس سَــوْقاً إلى القرآن رَضُوا بذلك أم أَبوا، والله تعالى يُبيِّن أنَّ هذا الإســلام إنَّما هُو فِطْرَة الله إذ يقــول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، والله أعلم.

هَلا بَيَّنْتُم لَنَا الإعجَاز التشــرِيعِي فِيمَــا يتعلَّق بالـحِفَاظ على الأُسْــرَة والسَّعي لِدَيْمُومَتِها في ظِلِّ الأَمَان والاستِقرَار؟

إنَّ التشــريع القرآنِي من جَميع وُجُوهه مُعجِز، فهو مُعجِز لأنه يأتي على الـمُشكلة البشــرية فَيحُلُّها حَلاً جذرياً، إذ يتَغَلْغَلُ في أعماقِها فَيُبَدِّدُهَا تَبْدِيداً بِعِلاجِه الشافي.

والإسلام أَعطى الأُسْرَة مكانَتَهَا لأنَّها نَواةٌ للمجتمع، فالإنسان مدنِيٌّ بِطَبْعه، ومِن مَدَنِيَّته التَّرابُط الأُسرِي بِحَيث إنَّ أفراد الأسرة الواحِدَة تشد بعضهم إلى بعض رابطة متينة فيشكلون في ترابطهم سلسلة محكمة الحلقات، كما أن الأسر في المجتمع تغدو كل أسرة في سلسلته حلقة موصولة بأخواتها بإتقان وإحكام.

وقِيام الأسرة هو الزَّواج الشرعي الذي رَغَّب الله تعالى فيه وامْتَنَّ به على عباده عندما قال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢]، وقال أيضاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] وقد امتَنَّ بِهَذِه النِّعْمة العَظِيمَة وجَعَلَها مِن آياتِه الدَّالَّة عليه عندمَا قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

نعم القرآن الكريم شَجَّعَ عَلَى هذه العلاقة الطَّاهِرة المُقدَّسَة التي تَكون بين الرجل والمَرأة لِئَلا ينْزِل الإنسان ـ الذي شرَّفَه الله تعالى بالعقل ومَيَّزَه بِمَا آتَاه مِن المَلَكَات الظَّاهِرَة والباطِنَة، وبَوَّأَهُ مُبَوَّأَ التَّكْريم إذ جَعَلَه خليفةً في هذه الأَرض ـ مُنْزَلَة الحيوانات العجم التي يَنْزُو بَعضُها على بعض من غير نِظام ولا رباط، إذ جَعَل الله تعالى قَضَاء الوَطَر ما بين الرَّجل والمرأة مُؤَطَّراً في إطار الفَضِيلَة وفي إطَار العَلاقة الاجتماعِيَّة التي لا تَشُدُّ الفَرْدَ إلى الفَرْد فَحَسْب ـ بِحيث تشُدُّ الرجل إلى المرأة وتشُدُّ المرأة إلى الرجل ـ وإنَّما بِجانب ذلك تشُدُّ الأسرة إلى الأسرة إذ تُوجِد الرِّباط بين أسرة الرجل وأسرة المرأة، فيكون بينهما الترابط والوئام والرحمة والحنان.

ونَجد أنَّ القــرآن الكريم أعطَى كُل ذي حقٍّ حقَّــه، فأعطى المرأة حقَّهَا كاملا غير مبخوس كما أنَّه أعطَى الرجــل أيضاً حقَّه وافرا، فقد أعطى المرأة حقَّها إذ جَعَلَهَا مَصُونَة مُكرَّمَة، وجعل هذه العلاقة مقدَّســة، على الرجل أن يَرْعَاهَا وأن يُحَافِظَ عليها، وقد أعطَى الـمَــرأة في الحقوق الزوجية ما أَعْطَاه الرَّجُل من غير تَمْيِيزٍ ما عدا القِوَامَة التي تَتَناســب مع طَبيعة الرجل وفِطْرَتِه التِي فَطَــرَهُ الله ـ تعالى ـ عليها، فالله ـ تعالى ـ يقــول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فلَهن مــن الحقوق على أزواجِهن ما عليهن من الحقُوق لأزواجِهن بالـمَعــروف، وإنَّما هنالك درجة القِوَامة التي جعلها الله ـ تعالى ـ للرَّجل بِسبب أنَّهَا هي التي تَتَناسب مع فِطْرَتِه، إذ المرأة مَع تَقلُّبَات فِكرهــا وتأثُّــرات عاطِفَتها لا تســتطيع أن تقُوم بِهَــذه القِوَامَة المشروعة فلذلك كانت القوامة من شَــأْنِ الرجل ولكن الحقوق مُشتَرَكة ما بين الجانِبَيْن.

وليس ذلك فَحَسْب بل الإسلام دَلَّ على أنَّ هذه العلاقة ما بين الزوجَيْن هي شركة يَشْــتَرِكَان فيها ويَمْتَزِجَان مَعاً بِحيث إنَّ مَشــاعِرَهُمَا وأحاسِيسَهُما وأهدافهما تكون وَاحدة، وبينهما التداخُل والامتزاج الذي لا يَحصُل ما بين غيرهِما، فالله تعالى يقــول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] فقد قال كيــف تأخُذُونَه وقد أفضى بعضُكم إلى بعض ولَم يقل: «وقد أَفضَيْتُــم إلَيهن» للإيــمَاء إلى هذه الشركة التي تَحصُل ما بين الزوجين وتَجْمَع ذَواتَهُمَا حتى تكون كأنَّها ذات واحدة تَجمَع الأحاسيس والـمَشاعِر والأهداف والتَّوَجُّه بِحيث يكونَانِ بِمَثَابة الشَّــخص الواحد، ومَعَ هذا يُشِــير إلى وُجُوبِ مُرَاعَاةِ ذلك الـمِيثَاق الغَلِيظ الذي أخذته المرأة على الرجــل، وقد قال كثير من الـمفســرين إنَّ الميثاق الغلِيظ هو مَا دَلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، أو

مَا دَلَّ عليه قولــه: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقـرة: ٢٢٩]، وأنَّ ذلك مِمَّا يُذكَر في عقد الزواج فيُجعَل مِن الـمِيثَاق المأخُوذُ على الرَّجل.

ولكن مِن المفســرين الـمُحقِّقِين مَن ذَهب مذهباً آخَــر في تَحديد هذا الـمِيثاق الغليظ، وهو أنَّه مِيثاقٌ فِطْرِيٌّ، ذلك لأنَّ المرأة تنْشَأ أوَّل ما تنْشَأ في كَنَفَ أســرة كريمة بين أبوَيْن حانيَيْن رؤُوفَيْن عطُوفَيْــن يرعَيَانِها ويَحرصان على مصلَحَتها، حتى إذا بلغت أشُدَّهَا نَازَعَتْها فطرتُها إلى الانتقال إلى كَنَفِ شخصٍ آخر لا تكون على مَعرفة به من قَبل فقد يكون من بلدٍ غير بلدِها، أو من شــعبٍ غير شــعبِها، أو مِنْ أَهلِ لُغَةٍ غيــر لُغَتِهَا، ولكن مــع ذلك تُؤْثِر الارتباط به وتَرَاه من الضرورة، فتَخرُج من عُشِّها الذي نشَأَت فيه ومِن كَنَف الأَبَوَيْن الحانِيَيْن الرَّؤُوفَيْن الرَّؤُومَيْن إلى شــخصٍ آخر لَم يَكن لَهَا بِهِ عهدٌ مِن قَبل، ومَا ذلك إلا لأجلِ نَوَازِعِ الفطرة التي في نفســها، فإسْلاسُهَا قِيَادَهَا له واتِّبَاعَها له وقبولَها بأن تكون في كَنَفِه وأن تنتقل إليه هو ميثاقٌ فطرِيٌّ بينه وبنيها، فيجِب عليه أن يرعاه وأن يُحافِظَ عليه.

والحق أن الميثاق المأخوذ على الرجل للمرأة هو مركب من ميثاق فطري وميثاق شرعي، وكلا الميثاقين في غاية القوة ومسؤليته من أعظم المسؤوليات.

والإســلام مِن كُلِّ ناحية من النَّواحِي يرَاعَي عواطف المرأة وأحاسِيسَها ومَشــاعرها، فالله تعالى مَنَعَ وَلِيَّ المرأة أن يعضُلَهَا مِنْ أن تَنْكِح الزوج الذي اخْتَارَتْهُ لِنَفســها، فالله ـ تعالى ـ يقــول: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقـرة: ٢٣٢]، والآيــة وإن كانت نَزَلَت فــي الـمُطلَّقَات اللَّواتي يُرِدْن أن يَرْجِعن إلى أزواجهــن الذين طلَّقُوهُنَّ بعد انقِضَاءِ العِدة مع عَضْلِ أَولِيائِهِنَّ لَهُن إلا أنَّ هذا الحكم ينطَبِقُ على كل امرأةٍ تزوَّجَت من قَبل أو لَم تتزوَّج، إذ لَهَا الحق في أن تَخْتَار شريك حياتِهَا، فلا تُجْبَر المرأة على

الزواج بِمَن لا تُريده، إذ رِضَاهَا شرطٌ مِن شروطِ صِحَّة العقد لأنَّهَا هي التي تُعاشِر الزوج، وتنتَقِلُ إلى كَنَفِه، وتُشَارِكُهُ الحياة والآمَال والآلامَ، فَجَديرٌ بهذه الشركة أن تكون عن رِضا منها وطَواعِيَّة لا أن تكون بإِكْرَاه، فليس لِوَلِيِّهَا أن يَجبُرَهَا على مَن لا تُريده، وإنَّمَا يَرعَاهَا بِحيث يَمْنَعُها مِن أن ترتَبِط بالشخص الذي ربَّمــا لا تَحمَد عاقبة الأمــر عِندما ترتبط به، لأنَّ المــرأة ذات عاطفة جَيَّاشَة وقد تدفَع بِها إلى أن ترتبط بشــخصٍ لا تَحمَدُ عاقبة أمره في الحياة الزوجية، فلِذَلك جُعِــلَ لِوَلِيِّها الحق في تَوجِيهِها وفي تَسْــدِيدها إلى ما هو خير لها من غير أن يقف في سبيل رَغْبَتِهَا.

وجُعِل لَهَا حقُّ الصداق الذي هو رَمْــزُ القِوَامَة، فالرجل يُعْطِيهَا الصَّداق لَهَا وليس لِوَلِيِّها قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، فليــس للولِي أن يتدخَّــل في ذلك، على أنَّه يجب أن يكون أمراً مُيَسَّراً لا أن يكون أمراً مُعسَّراً يُثْقِلُ كَوَاهِلَ الذين يريدون الزواج حتى يقف حَائِــلاً بينَهم وبين تَحقيق هذه الرَّغبة في نفوســهم وفي نفوس الفَتَيَاتِ اللَّواتي يَتَطَلَّعْنَ إليهم بأن يَكُونُوا شُــرَكَاء حَيَاتِهِن، فالصداق هو رمز القِوَامة التي للرَّجُل، كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

ولَيْسَ للرَّجُل أن يَرْزَأَ الــمَرأة شــيئاً من صداقها لو أراد أن يُطَلِّقها لِسببٍ من الأســباب فالله ـ تعالى ـ يقــول: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ويقول: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، ويقــول ســبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ

بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠-٢١]، ومعنى ذلك أنه لا يحل له أن يسترد منها شيئا مما آتاها كيف ما كان قدره إلا أن تكون المرأة كَارِهَة للرجل كُرْهاً مُتَغَلْغِلاً في أعماق نفسها مع رَغْبَة الرجل في استمرار العِشْرَة الزوجية بينه وبينها ولكن بِسَبب نَكَدِهَا وشِقَاقِهَا تَعُود الحياة بينهما جحيماً لا يُطاق فَفِي هذه الحالة أُبِيحَ له أن يأخُذَ مَا آتَاهَا أو بعضَ مَا آتَاهَا لِئَلا يَفْقِد المرأة والمال معاً.

ونَجِد أنَّ الله تعالى استجابة لِدَاعِي الفطرة ولِحَاجَة الناس إلى حلِّ مُشْكلاتِهم أباح الطلاق، ولكن مع ذلك أَطَّرَه في إطارٍ مِن الأحكام التي تَجعله لا يقَع إلا في حالات الضَّرُورة، فنَجد أنَّ الله تعالى رَغَّبَ في عَدم الطلاق، وذلك بما شرعه من الأحكام ودل عليه من الحلول التي تسبق قرار الطلاق حتى يكون الطلاق هو الحل الأخير الذي يلجأ إليه الرجل.

فقد وجه إلى أن يكون الرَّجل هو الذي يَحُلُّ المُشكلة بينه وبين زَوْجِه بِحَيث يُوجِّهُهَا ويَعِظُهَا ويُرْشِدُهَا ويهجرها في المضجع وإذا جَاوَز الأمر جَميع الحدُود فله أن يُعاقِبَها عِقَاباً بسيطاً لا يضُرُّ بِها ولكن يُوَجِّهُهَا إلى الخير كما قال تعالى ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٣٤].

فإنْ لَم يُفِد هذا العلاج وتَعسَّر الوِفاق بينهما فإنَّ الأسرتَيْنِ تَتدَخَّلان لحل شقاقهما كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٥]، فَتَحْكِيم الحكمَيْن لأجل تَفَادِي مُشْكِلَة الشِّقَاق ما بين الزَّوْجين حتى لا يُؤَدِّيَ إلى الطَّلاق.

فإن لَم يُجْدِ ذلك كله وتعذَّر الوفاق بينهما فَهُنَا يُشْـرَع الطلاق، ولكن الطَّلاق الـمَشْـرُوع ليس كما يَتصـرَّفُ النَّاس بِحيث يُطلِّقهـا بالثلاث أو بالـمِئَة أو بالألف أو بغير حساب، وإنَّما يشـرع له أن يُطَلِّقُها طَلْقةً واحدة رجعِيَّة، علـى أن تكون في طُهْرٍ لَم يُبَاشِـرْهَا فيه، ذلـك لأنَّ الطلاق إبَّانَ الحيض قَد يَكُون لِدَافعٍ يَدفَعُ الإنسـان إليه مع أنَّه في غير مَصْلَحته، ففي ذلك الوقت لا يَنْتَفِع من الـمـرأة بِمُرَادِه، فلِذَلك مُنِعَ من الطلاق، وبعد أن يَقْضِيَ وَطَرَهُ مِنها قد تكون نَفسُهُ شَبِعَتْ منها فَيُطلِّقُها لأَتْفَهِ الأَسْباب، ولكن عندما تَكُون طَاهِراً ولَم يُبَاشِرْها تكون نفسه تَوَّاقَة إليها فلا يُطلِّقها في هذه الحالة إلا لِضَرورة، وعندمـا يُطلِّقُها لا ريب أنَّه يُعطَى فُسْـحَة لإمكان ردِّ العلاقة بينَهُمَا وهي فترة العِدَّة الشـرْعِيَّة، ففي هذه الفترة يُرَاجِعُ كلٌّ منهما نفسـه، ويُجَرِّبُ حَيَاتَه مُنْفَرِداً عن الآخَر هل يُطِيقُ هَـذَا الإنفراد عمن كان شريكه في الحياة؟.

فإنْ كان الشِّـقَاق مِنهَا رُبَّما تَرَاجَعَت وطلبت من الـزَّوج أن يَرْجِعَ إليها وتَعَهَّدَت له بأن لا تُشَـاقَّه، وإن كان الشِّـقَاق مِن الزوج رَاجَعَ نفسه وجَرَّب حَيَاة الوِحْدَة عن هذه المرأة التي كانت شَـرِيكَة حَيَاتِه، وقد أُبِيح له في فترة العِدَّة أن يُرَاجِعَها، أمَّا بعد العِدَّة فَبِعَقدٍ شَـرْعي مع جَميع شُـروطه الشرعِيَّة، فإنْ طَلَّقَها بعد ذلك كان له أن يُرَاجِعَهـا، أمَّا إذا طَلَّقَها الثالثة فهنا يواجه من الحكم الشـرعي صرامة في أمره لِئَلا تُصبح المرأة عُرْضَـةً لِتَلاعُب الرجل بِحياتِها وبِمَشاعرها وبِمُستقبلها لذلك يمنع أن يَرْجِع إليها ويحال بينه وبين ذلك ولو ذاب من شـوقه إليها إلا بعد أَنْ تَتزوَّج زوجاً آخر زواجاً شـرعيّاً لا لأجل التحليل ولكن لأجل إنشـاء حياة زوجية ورَبْطِ الـمَصير بِالـمَصِير كَمَا هو شَـأْنُ الزَّوَاج، فإن طَلَّقَهَا أو خَرَجَت مِنْه بِوَفَاة بعد أن بَاشَرَهَا ودَخَل بِهَا وانتهت عدته منه تَحِلُّ للأوَّل بِعَقْدٍ جديد مع جَميع لوازمه الشرعِيَّة.

فهذه صور دالة على عمق التشريع القرآني وهي لم تأت من فَرَاغ، وإنَّما جاءت مِن خبيرٍ عليمٍ بِفِطَرِ البشر ومَصَالِحِهم فلذلك أُطِّر الزواج في هَذا الإطار، الذي لَم تَرْقَ إليه أيُّ تشريعات بشرِيَّة حتى تُحْفَظَ كَرامة المرأة وتُحْفَظ العلاقة الزوجِيَّة ما بين الزوجين، فَهَذَا مِن إعْجَاز القرآن في التَّشْرِيع، والله أعلم.

ما رأيكم في الإعجاز العددي للقرآن الكريم؟

إنّ إعجاز كتاب الله تعالى إعجاز يَتَجَدد، بحيث إنه يُكتشف في كل حين جانب منه، وهكذا شاء الله سبحانه أن يظل القرآن على مدى التاريخ منارة يسترشد بِها العَالَمُون لتظل حجته قائمة ومعجزته ظاهرة، بحيث لا تؤثر عليها المؤثرات من تطورات الحياة البشرية، وإنَّما هذه التطورات يتجدد بها إعجاز كتاب الله، إذ البشرية في كل حين تكتشف جوانب من هذا الإعجاز، والله تعالى قد أشعر العباد بذلك عندما قال عز من قائل: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٢ - ٥٤].

وبالنسبة إلى تجلي الإعجاز العددي نجد من العلماء من بحث بعضاً من هذه الجوانب قبل قرون كثيرة، فالزمخشري ـ مثلاً ـ في تفسيره «الكشاف» بحث هذا الجانب في تفسيره لأوائل السور أَي لفواتح السور في تفسيره لسورة البقرة وذلك عندما ذكر الوجه الذي يحمل فواتح السور على أنها إنما سيقت هذا المساق من أجل قرع العصا وتنبيه الغافلين بأن هذا القرآن نزل على نبي أمي لَم يكن يقرأ من قبله من كتاب ولا يَخُطُّه بيمينه

ومع ذلك فإنه أتى بهذه الكلمات في فواتح سور منه بطريقة لم يألفها إلا من كان يقرأ ويكتب، أما الأميون وهم الدهماء من العرب وقد كان النبي ﷺ من بينهم فما كانوا يعرفون هذه الكلمات أي أسماء الحروف التي ينطق بها للتهجي، ففي هذا تنبيه على أن القرآن جاء بغرابة لأنه نزل على نبي أمي في بيئة أمية وهؤلاء ما كانوا مشغولين بمثل هذه الكلمات، وإنما كان يُشغل بها من قرأ وكتب وقليل ما هم.

وذكر الزمخشري مع ذلك ما مفاده أن السور التي افتُتحت بهذه الفواتح إنما هي تسع وعشرون سورة بعدد حروف المعجم، والحروف المذكورة فيها أربعة عشر حرفاً أي ما يُقارب نصف حروف المعجم لا ينقص إلا نصف حرف فقط، ثم مع ذلك قُسّمت تقسيماً غريبا بحيث إنها وُزِّعت فيها حروف المعجم بحسب صفاتها، فمن الحروف الحلقية نصفها ومن الحروف الرَّخوة نصفها ومن الحروف الشديدة نصفها ومن الحروف المهموسة نصفها ومن الحروف المجهورة نصفها ومن حروف القلقلة نصفها وهكذا جاءت هذه الحروف موزعة هذا التوزيع الدقيق.

ومع هذا كله أيضاً فإن السورة التي تُفتتح بشيء من هذه الحروف يكون ذلك الحرف أكثر تَكَراراً فيها من غيره، كالألف واللام مثلاً.

هذا الذي ذكره الزمخشري، وقد قال السيد الجرجاني في حاشيته على «الكشاف» بأنه لعله لم ينتبه له قبل المصنف ـ أي الزمخشري ـ أحد من حذّاق العلماء المتبحرين ولكن وجدنا من العلماء من سبق الزمخشري إلى ذلك فمن بينهم القاضي الباقلاني الذي سبق في كتابه الذي يبحث عن إعجاز القرآن البياني بحيث بيّن مثل بيان الزمخشري، وإن كان الزمخشري توسع أكثر منه.

وذكر بعض العلماء بأن الباقلاني أيضاً قد سُبق إلى هذا، مما يعني أن العلماء المتقدمين بحثوا هذا الجانب.

ولكن جاء رجل في عصرنا ببحث شغل به الناس حيث تعاطى هذا الجانب بأسلوب فيه غرابة وزعم أنه لم يكتشفه غيره، وأنه استطاع أن يرصد من خلال الحاسوب هذه الحروف ويحسبها بدقة، وتوصل إلى أن فاتحة القرآن هي البسملة وهي تسعة عشر حرفا ومعنى ذلك أن القرآن كله يدور على هذا الرقم، رقم تسعة عشر، وأن عدد خزنة النار أيضاً تسعة عشر كما قال الله تعالى:

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]، وذكر أمثلة أخرى، ولكن العقلاء تفطنوا أن هذا الرجل ـ في الحقيقة ـ متلبس بما يدعو إلى الارتياب منه لأن تركيزه على هذا العدد إنما هو يتبع فيه طائفة خارجة عن الإسلام في تقديس عدد تسعة عشر.

ثم مع ذلك أخذ يُظهر من الضلالات الشيء العجاب، فقد حضرت في مؤتمر حضره هو بنفسه وأتى بأفكار غريبة عجيبة إذ أعلن إنكار ما عُلم من الدين بالضرورة، وقد انبرى الناس في التعقيب على كلامه، وكنت ممن تعقبه أيضاً، ثم بعد حين كشف عن حقيقة أمره حيث زعم أنه رسول من عند الله، وأنه يطالب الناس بأن يؤمنوا برسالته، وزعم أنه هو المشار إليه في آية ٨١ من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وادّعى أن معجزته تتمثل في هذا الاكتشاف الذي اكتشفه إذ قرن هذه الدعوة التي نشرها بين الناس بهذه الدراسة العددية التي يزعم من خلالها أنه توصل إلى ما لم يتوصل إليه غيره من علم أسرار القرآن.

ولكن شاء الله تعالى أن تُطوى صفحته، وأن ينتهي أمره، وأن يكفي المؤمنين فتنته، فقد بعث الله إليه من اغتاله في مأمنه، والحمد لله.

لذلك نحذر من الاغترار بمثل هذه النظريات التي تُلَابِسُها الرِّيب، وإنَّما على الناس أن يرجعوا إلى الحقائق، فالقرآن الكريم لا يتجلى إعجازه من حيث النظريات التي قد تكون مُصِيبة وقد تكون مخطئة، والتي دائماً ما تدخلها التعديلات والتغييرات فلذلك يجب أن لا يُفسر القرآن بها، وإنما يُفسر القرآن بالحقائق العِلمية، فنحن نؤمن أن القرآن اشتمل على حقائق الوجود التي لم تكن معروفة من قبل، وقد وعد الله أن يجليها للناس كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقد تبين من خلال نظر الناس واكتشافهم لآيات الله ـ تعالى ـ في الأنفس وفي الآفاق أن القرآن هو الحق من عند الله، واضطر غير المؤمنين إلى الاعتراف بهذا، وألفوا في هذا كتبا قبل أن يعلنوا إسلامهم كالدكتور «موريس بوكاي» الذي ألف كتاباً بعنوان «العلم في التوراة والإنجيل والقرآن»، وأثبت أن القرآن الكريم هو الكتاب الذي بقي كما أُنزِل لم تَطله أيدي المحرفين والمبدلين، وأن ما فيه من الآيات العلمية هي دالة بالقطع على أنه لا يمكن أن يكون ناتجاً عن فكر بشر، وإنما هو تنزيل من عند العليم الحميد الذي يعلم السر وأخفى، وقد انتشر كتابه هذا بلغات متعددة قبل أن يعلن إسلامه، ثم بعد حين أعلن إسلامه، وكذلك ألف كتاباً آخر بعنوان «الإنسان في القرآن» بيّن فيه إعجاز القرآن الكريم من حيث خلق الإنسان وبيانه لحقيقة الإنسان ومغاوره النفسية، فهذا من إعجاز القرآن الذي لا يُمَارَى فِيه.

ولكن ليس لنا أن نستجيب لكل ناعق، وأن نسارع إلى قبول النظريات التي قد تكون صادرة مِن أقوام لهم مقاصد ومآرب في إفساد هذه الأمة وطمس هداية كتابها، فعلينا أن نتنبه لذلك.

ونظراً إلى ما انكشف من أمر الرَّجل الذي زعم أنه توصل إلى ما توصل إليه من أمر الإعجاز العددي في القرآن الكريـــم وآل إلى إعلانه الضلالات التي تتنافى مع قطعيات هذا الدين ثم بجانب ذلك أعلن ـ أيضاً ـ أنه رسول من عند الله تكذيباً لكـــون النبي ﷺ لا نبي بعده كما نـــص عليه القرآن بأنه خاتم النبيين، نحذّر من التعلق بهذه النظريات، وندعو إلى الدراســـة المتأنية لكل نظرية منها حتى تمحص وتثبت صحتها أو زيفها.

وهناك وجوه متعددة يتجلى فيها إعجاز القرآن من غير هذا الوجه، منها الإعجـــاز العلمي والإعجـــاز التشـــريعي والإعجاز الأخلاقـــي والاجتماعي والإعجاز البياني والإعجاز الخبري وهذا واضح لمن تأمل كتاب الله تعالى، والله الموفق.

مُعجزة القرآن الكريـــم هي مُعجزة النبي ﷺ الخالدة، فهـــل مُعجزة القرآن تتغير في إعجازها بِحيث تُناســـب كل عصر بإعجـــاز مُعين فيه أكثر مِن غيره، فقد ظهر في هذه الفترة من الإعجازات ما لَم يكن معروفاً مِن قبل؟

لا شك أنَّ رســـول الله أرســـله الله تعالى بالهدى ودين الحق وأيّد دعوته بِمعجزة تَختلف عن مُعجزات النَّبِيين مِن قبل، لأنَّ مُعجزات النبيين مِن قبل كانت مَوقوتة كما أنَّ رِسَالاتِهم كانت مَوقوتة.

فَكُلُّ نَبِي جاء بِمعجزة كونية كان لَها أثرها في حياته ثم انتهى ذلك الأثر مِن بعده، إذ بإمكان الذي يأتِي مِن بعده أن يدفع دعوى وقوع تلكم المعجزة بتكذيبها، ولكن عندما تكون المعجزة قائمة أنّى يكون التكذيب؟

والنبي ﷺ وإن كان أُكرم مِن قبل الله بِمعجزات أُخرى كانت بِمثابة الكرامة له ـ عليه أفضل الصلاة والســـلام ـ كنبع الماء مِن بين أصابعه كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح وغير ذلك مِمَّا وقع، إلا أنَّها لَم تكن في مَقام التحدي.

أما في مَقام التحدي فـإنَّ الناس كانوا يُرَدّون إلى القـرآن الكريم، فالله تعالى قـال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طـه: ١٣٣]، ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبـوت: ٥١]، ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطـور: ٣٤] ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [هـود: ١٣]، ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]؛ كل ذلك إنَّما كان في مَقام التحدي، ذلـك لأنَّ الله تعالى أراد أن تكون هـذه المعجزة مُعجزة خالدة كخلود هذه الرسـالة التي كتب الله ـ تعالى ـ لَها البقاء إلى أن تنتهي دورة الحياة في هذا الكون ويُعيد الكون إلى العدم ثم يُنشئه نشأة أخرى.

ولَما كانت هـذه المعجزة مُعجزة تتحدى جَميـع الأمم وتتحدى جَميع العصور فإنَّها كانت صالِحة لِجميع العصور، فمـا مِن عصر مِن العصور إلا ويتجدد بروز إعجاز هذا السر الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ.

ففي عهد النبي ﷺ كان أبرز ما ظهر مِن هـذا الإعجاز البيان، ذلك لأنَّ اللغة العربيـة هَيَّأها الله ـ تعالى ـ لأن تكون وعـاء لكلامه المعجز، فارتقت إلى أوج البلاغة الشَّـامِخ، إذ هذبتها الألسـن التي طَورتْها طوراً بعد طور، وبلغ العرب مِن البلاغة شَـأْواً بعيداً لَم يبلغوه مِن قبل ولَم تبلغه أي أمة مِن الأمم في بيانِها.

ونزل القرآن وجزيـرة العرب كانت طافحة بالعـدد الـهَائل مِن الخطباء الـمَصَاقِع والشعراء البلغاء الذين لا يُشـق لَهم غُبار في ميدان الشعر والنثر، وإذا بِهذا القرآن الكريم يَقتادهم مِن أَلسـنتهم، فقد نزل بنفس هذا اللسـان العربي وبنفس الحروف التي يُرَكِّبُون منهـا كلماتِهم، وبنفس الكلمات التي يركّبون منها حديثهم، ولكن مع ذلك كانت فيه نَفخة غَيبية مِن سر الله تعالى حَوَّلته إلى شـيء آخر فلذلك لَم يسـتطيعوا أن يأتوا بِحديث مثله، مع أَنَّهم

أُرخي لَهم العِنان، فقد تُحدوا بأن يأتوا بِمثله فعجزوا، وتُحدوا بأن يأتوا بعشر سور مِن مثله فعجزوا، وتُحدوا بأن يأتوا بسورة مِن مثله فعجزوا.

هذا مع إفساح المجال لَهم لأن يستعينوا بِمن أرادوا مِن شهدائهم الذين يشهدون بشهادتِهم ويدَّعون أنَّ هذا القرآن باطل، ومع ذلك عجزوا جميعا، وجاء التصريح القرآني بأنَّ البشر جَميعاً بل الإنس والجن جَميعاً لو حاولوا أنْ يَجتمعوا على أن يأتوا بِحديث مثل هذا القرآن الكريم لعجزوا:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذا أمر عجب، فإنَّ إعجاز القرآن الكريم حارت فيه الألباب حتى وصل الأمر ببعض الناس أن يقولوا بأنَّ إعجازه بالصَّرْفَة[1]، وهؤلاء ـ كما يقول عنهم العلامة السيد: رشيد رضا في تفسيره «المنار» ـ عجزوا عن إجالة قدح الفكر في هذا الأمر فلذلك اكتفوا بأن يقولوا بأن إعجازه بالصَّرْفَة، وكذلك يقول أبو حيان المفسر الشهير في أمثالِهم.

ومِن العلماء مَن يرى أنَّ قولهم كان مِن أجل حب الإتيان بشيء جديد، فهؤلاء فهموا أنَّ القرآن الكريم كما تقول البراهمة في «فِيدَا» وهو الكتاب المقدس عندهم بأنَّهم بإمكانِهم أن يأتوا بِمثله ولكن «بَرَاهْمَا» منعهم مِن ذلك، وهل هذا المنع تَكويني أم تَشريعي؟ رَجَّحَ العلامة أبو زهرة ـ الذي يرى أنَّ هذا هو مَنشأ فكرة الصَّرْفَة ـ بأنَّ هذا المنع عند أولئك تكويني، فأخذ بِهذه الفكرة مَن اتبعها من هذه الأمة كالنَّظَّام مِن المعتزلة وابن حزم الظاهري مِن الظاهرية.

(١) تعني: صرف الله تعالى العرب عن معارضة القرآن.

ومِن العجيب أن تَجمع هــذه الفكرة بين مُعتزلــي يَعتمد على مَقاييس العقل في كل شــيء، وظاهري يرى تعطيل العقل والأخذ بظواهر النصوص فحســب؛ فقد كان اجتماعا ما بين طرفين مُتناقضين على فكرة عجيبة كمثل هذه الفكرة.

والباحثون في بلاغة القرآن اختلفوا منهم مَن قال بأنَّ الســر في ذلك أنَّ المعاني انقادت للكلمات، ومنهم مَن قال لا، بل الكلمات انقادت للمعاني؛ وهــذا إنَّما يرجع إلــى ترددهم ما بيــن المعاني والكلمات فــكل مِن ذلك بَهَرَهُم؛ فهم عندما ينظرون إلى المعاني يبهرهــم إعجازها، وعندما ينظرون إلى الكلمات ينسيهم ما يرونه من إعجازها ما بهرهم من غيرها.

والحقيقة أن إعجاز القرآن في نِظامه الذي لَم يستطع البشر أن يأتوا بِمثله، فهو مُنسجم انسجاماً عجيباً سواءً مِن ناحية المعاني أو مِن ناحية العبارات.

فلو جئنا إلى عباراته فإنَّ حــروف القرآن الكريم رُكِّبــت تركيباً عجيباً، يراعي ما في تلك الحروف مِن خصائص ســواءً مِن حيث المخارج، أو مِن حيث النوع كأن تكون حروفاً شديدة أو رخوة، أو مستفلة أو مستعلية، أو من حيث الإيحاءات بِحســب اختــلاف أنواع هــذه الحروف وتنوع أجراســها واختــلاف تأثيراتها، وجاءت كلماته مُنســجمة بحســب تراكيــب حروفها ودلالات إيحاءاتها انســجاماً عجيباً، فلو حاول أحد أن يقلد القرآن بأن يأتي بِمثل هذا الكلام بِحيث تكون الحروف مُنســجمة هذا الانســجام مِن حيث المخارج والأنواع والإيحاءات الصوتية والإيحاءات النفسية فسيؤدي به الأمر إلى أن يُهمل المعاني ولا تكــون لكلماته والحروف التــي تتركب منها أَيَّةُ معان؛ أما الجمع بيــن المعاني وبين هذه الخصائص الصوتية فإنَّه متعذر في غير كلام الله تعالى.

ونَحن نرى كيف جاءت الحروف حتى مِن حيث تراكيبها مُوحية بالمعانِي التي تشتمل عليها الكلمات التي تركبت منها في القرآن الكريم، فنجد مثلاً في قول الله تعالى فيما يَحكيه عن إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، كيف اجتمعت الحروف الشديدة هذا الاجتماع مما يوحي بانزعاجهم مِن تحسر أبيهم على يوسف، فمثل هذا لا يُمكن أن يَجتمع في كلام آخر فلذلك حار العرب في بيانه.

أما لو جئنا مِن ناحية مَضامين هذه الكلمات لوجدنا أمراً عجباً، فإنَّ القرآن الكريم اشتمل على التشريع المتقن العجيب مع أنَّه نزل على أُمِّي لَم يكن يقرأ مِن قبله مِن كتاب ولا يَخطه بيمينه، فكيف ذلك جاء بِهذا التشريع الذي يسع العالَم بأسره، ويسع أطوار الحياة لولا أنه من عند الله الذي يعلم الخفايا كالظواهر ويحيط بالدقائق كالجلائل مع أنَّه مِن المعروف في تاريخ التشريع البشري أنَّ التشاريع البشرية تَمر بِمراحل كثيرة وبتجارب مُختلفة وبدراسات مُتنوعة: نفسية واجتماعية، ومع ذلك تكون هذه التشريعات دائماً فاشلة بِحيث لا يَمر عليها زَمَنٌ إلا ويتبين عُوَارُها وينكشف خللها.

وحسبكم أنَّ التشريع الرومانِي كان تَجربة زُهَاء ثلاثة عشر قرناً، واجتمع على وضعه الخبراء المتخصصون، وصحبت ذلك دراسات نفسية واجتماعية، وأين هو مِن التشريع القرآني الذي عجزت ملكات البشر جَميعاً أن تأتِي بِمثله، سواء مِن الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السلمية أو الحربية، أو مِن أي ناحية مِن النواحي، بل الناس جَميعاً يُضطرون إلى أن يرجعوا إلى القرآن وأن يعترفوا بِه، حتى أنَّ كَاسْتْرُو الشيوعي الراديكالي المتعصب قال قبل بضع سنوات: «ما بقي أمام العالَم الآن إلا النَّمُوذَجُ القرآني»، وهذا اعتراف بالحقيقة، ولذا يُنادي العقلاء في كل مكان بضرورة الاستفادة مِن القرآن.

نَجد أيضاً أن الإعجاز الخبـري تَحار منه الألباب، بل نَجـد أنَّ الله تعالى أخبر بأشـياء لَم تكن تدور بِخَلَد أي أحد مِن النـاس وإذا بالأمر يأتِي طبق ما أخبر به القـرآن، ناهيكم بِما أخبـر الله ـ تعالى ـ به مِما يُنْبِـئ عما وصل إليه الصدام المسـلح بين الروم والفـرس، وأنَّ الروم هُزموا أمـام جحافل الفرس، ولكن ستنقلب الموازيين في خلال بضع سنين حتى يتحول الغالب إلى مغلوب والمغلوب إلى غالب كما قال تعالى﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٢ - ٥]، وهذا كان في العـام الخامس مِن بعثة النبـي ﷺ، عندما تَمكـن إمبراطور فارس مِن إمبراطور الروم حتى ما بقي عند إمبراطور الروم إلا العاصمة القسـطنطينية فقط وإذا بالأمور تنقلب رأسـاً على عقب، فيتمكن هِرَقْل أن يَخرج مِن عاصمته بعد حيلة احتال بِها فاستطاع أن يُلَمْلِمُ مِن الديار التي احتُلت منه جيشاً ويذهب إلى عاصمة الفرس «المدائن» ويدخلها ويغرز علـم النصر على قصورها، ويأخذ ابن كسرى ويَحلق رأسـه، وكانت هذه إِهَانَة كبيرة عندهم، وإذا بالأمور تنقلب كلها رأسـاً على عقب؛ فهذا لا يُمكن أن يكون مِن حديث البشر، إنَّما ذلك كما يقول أحد المفكرين: هذا الحديث لَم ينزل إلا مِمَّن يُولِج الليل في النهار ويُولِج النهار في الليل، فهو القادر على أنْ يُحوّل الغالب إلى مغلوب والمغلوب إلى غالب.

ونحن نرى فـي عصرنا هذا أصحـاب الخبرات المختلفة والدراسـات المتنوعة والإمكانات التي بَهرت العالَم نراهم يتحدثون بِحديث ويأتِي القدر بعكس ذلك تَماماً، وأذكر أنَّه لَما كانت المعارضة في إيران ضد الشَّـاه أدلى كَارْتَرْ الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت بتصريح قال فيه بأنَّ المؤشرات تدل على أنَّ الشَّاه سـينتصر على المعارضة، ولَم يأت شهر بعد هذا التصريح إلا وخرج الشاه مهزوماً على حسب ما هو معروف.

فهذا دليل على أنَّ البشر لا يُمكن أبداً أن يتحدثوا عن المستقبل حديث الجازم القاطع وأن يكون الواقع كما يتحدثون، لأنَّ الغيب لله تعالى وحده، فهذا مِن أسرار القرآن الكريم.

ثم أخذ اكتشاف الناس لإعجاز القرآن يتطور طوراً بعد طور، فمع تطور المعارف ـ وزيادة الاكتشافات العجيبة التي اكتشفها الناس مِن حقائق هذا الوجود وأسراره التي لَم تكن تدور ببال أحد من قبل ـ انتصب نوع آخر مِن إعجاز القرآن تَجلى للناس، فظهرت به مَنارة القرآن الكريم شَاهِقَة، وهذا ما أَنْبَأ الله تعالى به عندما أنزل القرآن حيث قال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٢ ـ ٥٤]، فالله ـ تعالى ـ يَعد هنا بأنَّه سيكشف آياته للناس في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لَهم أنَّ هذا القرآن حق مِن عند الله، وهذا الذي وقع فعلاً واعترف المعترفون به.

فقبل عقود مِن السنين ظهر أحد الأطباء الفرنسيين بكتاب سماه: «العلم في التوراة والإنجيل والقرآن»، وهو الدكتور مُوريس بُوكَاي وهو جَرَّاح فرنسي أراد أن يدرس العربية فدرس القرآن الكريم، وهاله ما وجده في القرآن مِن الإعجاز، فأراد أن يعرف هل مثل ذلك يُوجد في ما نزل مِن الكتب السابقة، فرجع إلى العهدين: العهد القديم والعهد الجديد ودرسهما واستعان بالخبراء في شتى المجالات، فقد اعتمد على خبرته الطبية لأنَّه طبيب، واعتمد في بقية المجالات على خُبراء الفلك والجيولوجيا والزراعة وغيرهم، ووجد ما في القرآن يتفق تَمام الاتفاق مع مُعطيات العلم الحديث واكتشافاته، وعندما رجع إلى العهدين: تبين له أنَّ ما فيهما مِن الحديث عن

الحقائق الكونية قليل، ومع هذه القلة فإنَّه يتصادم مع هذه الحقائق المكتشفة، وهذا أوصله إلى قناعة بأنَّ القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي بقي كما أنزله الله، لَم تطله أيدي المحرفين والمبدلين، وصرح بذلك في كتابه هذا الذي سَماه: «العلم في التوراة والإنجيل والقرآن»، وقد ألفه باللغة الفرنسية ثم تُرجم إلى الإنجليزية ثم تُرجم إلى العربية وانتشر هذا الكتاب انتشاراً كبيراً، وأَلف كتاباً آخر بعنوان «الإنسان في القرآن» وكان ذلك قبل إسلامه، ثم أسلم بعد سنين مِن هذا.

ونحن يكفينا أن نشير إلى أن الناس ما كانوا يتصورون قبل نحو قرنين مِن الزمن أنَّ الجنين يتكون مِن نطفة الرجل ونطفة المرأة، حتى أنَّهم كانوا يتصورون قبل نحو ثلاثة قرون مِن السنين أنَّ نطفة الرجل التي يقذفها تشتمل على إنسان مُصغر في هذه النُّطفة بكل جوارحه، ثم ينمو بعدما يُقذف في الرحم، والقرآن بَيَّن خلاف ذلك قبل أربعة عشر قرناً أو أكثر مِن الآن، وقبل اثني عشر قرناً مِن هذا الاكتشاف.

فالقرآن الكريم بَيَّن أنَّ الإنسان خُلق مِن نطفة أَمْشَاجٍ، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ومعنى أَمْشَاجٍ أخلاط، أي هو مُختلط، فيه مِن ماء الرجل وفيه مِن ماء المرأة، وهو أصله الذي تتكون منه الخلية الأولى ثم تتبعها الخلايا التي تتكون مِن ماء الرجل ومن ماء المرأة فيتكون هذا الإنسان أَمْشَاجاً.

كذلك مِن حيث الإخبار عن المراحل التي يَمر بِها الجنين، فالله تعالى يقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا

﴿ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]؛ مَن كان يعرف هذه الأطوار التي يَمر بِها الجنين؟ بل مَن كان يستطيع أن يتصور الرحم كما هو بحيث إنَّ الله ـ تعالى ـ وصفه بأنَّه قَرار مَكين، فالقرار مكان الاستقرار والمكين مِن المكانة، وهكذا طبيعة الرحم سواء مِن حيث ما جعله الله تعالى مُحيطاً به مِن طبيعة تَمنع إصابة الجنين بِما عسى أن يُصيب الأم مِن اللكمات أو الهزات، وما على باب الرحم مِن إفرازات تقضي على الجراثيم التي لولاها لتسربت إلى داخل الرحم وأودت بِهذا الجنين، فهذه مِن الأسرار الغريبة.

وكذلك أمر التمييز بين العلقة والمضغة، وهو ما حار منه لُبُّ الدكتور «مُوريس بُوكَاي» أَوَّل الأمر فإنَّه عجز عن تصور التفرقة بين العلقة والمضغة، ورجع إلى كتب اللغة فلم تشف له غليلا ورجع إلى التفاسير فلم تشف له غليلا، ولكن عندما رجع إلى فقه اللغة الذي فيه الإخبار عن أسرار اللغة، وجد ما يدل على أنَّ العلقة مُشتقة مِن العُلوق، والمضغة من حيث الأصل هي بِمعنى الممضوغ، فوصل إلى الحقيقة مِن خلال ذلك وهي أنَّ الجنين في مرحلة كونه علقة يكون لاصقاً بِجدار الرحم، لأنَّ باب الرحم يكون مفتوحاً، فلو لَم يلتصق بِجدار الرحم لأدى به ذلك إلى الخروج، وبعد ذلك يَنْسد الباب وعندئذ يكون بِمثابة المضغة أي اللقمة التي تُمضغ لأنَّه يتردد بين جوانب الرحم، فتوصل إلى هذا السر العجيب، وهذا كله مِن دلائل إعجاز القرآن.

كذلك مِن حيث الإخبار عن نِظام هذا الوجود وأسراره، فالله تعالى أخبر عن الكون بأسره في كلمات قليلة عندما قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، هذه الآيات تشتمل على نظام الكون مِن الذرات الدقيقة

بل مِمَّا تشـتمل عليه الذرات مِن الالكترونات والنيترونات وغيرها، فإن كل شيء من ذلك إنَّما هو بِمقدار، فالذرات مقدرة تقديراً عجيباً، ولذلك تَختلف العناصر باختلاف المقادير مـا بين هذه الأجزاء الدقيقـة، ثم الجزيئات ثم العناصر ثم المركبات، كل ذلك يكون بتقدير عجيب، حتى أنَّ الكون بأسره جعله الله تعالى مُتناسقاً هذا التناسـق العجيب بسبب هذا التقدير الذي يبدأ مِن ذراته الدقيقة إلى مجراته الواسـعة؛ فهذا مِن إعجاز القرآن الكريم حيث إنَّه أخبر بِحقائق لَم تكن تتصور للأفهام، ولذلك عندما اكتشف المكتشفون هذه الحقائق وجدوا مِن ذلك أمراً عجبا، والله أعلم.

هناك مَن ينادي بضرورة البحث عن معجزة رقمية تتناسب مع هذا العصر وهو عصر التكنولوجيـا الرقمية، ما رأيكم في مثل هـذه النداءات التي تسعى في مثل هذا النوع مِن البحث للوصول إلى إقناع الآخرين؟

هذا الأمر فيه خطورة كبيرة، ولذلك ينبغي للناس ألّا يَغْتَرُّوا به وأَنْ يقفوا منه موقف الحذر حتى يَسْبُرُوهُ مِن جميع نواحيه، فقد وَصَلَ إليّ بَحْث فيما يتعلق بإعجاز القرآن مِن حيث الأرقام ذكـر فيه الباحث أن القرآن أينما ذكر «قوم لوط» يذكرهم بهذا اللفظ إلا في قول الله: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [قَ: ١٣] وذلك لأجل المحافظة على عدد القافات في سـورة «قَ» بِحَسـب مـا يتلاءم مع فاتِحَتِهـا «قَ»، والناس أُعْجِبـوا كثيرا بهذا الذي وصل إليـه، والتقيت بهذا الرجل في أحد المؤتَمَرات قبل عقود من السنين وقد أَبَانَ في هذا اللقاء عنْ مَكْنُونِ نفسه بِحيث حاول نَقْضِ كثير مِن الأحكام الشرعية والاعتراض على السنّة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ وكان في كلامه خطورة بالغة وقد رَدَّ عليه الرَّادُّون ولَم تَمُر فترة مِن الزمن حتى كشـف الرجل عن خَبِيئَة أمره إذ ادعى فيما بعد بأنه رسـول مِنْ عند الله ووَزَّعَ رسـالة اطّلعت

عليها بنفسي زعم فيها أنه رسول الله وأَنَّ معجزته هو ما اكتشفه مِن هذه الأرقام في القرآن الكريم فلكل نَبِيٍ معجزة وهذه هي معجزته.

وذكر أنه هو المعني بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] وقال إنه هو الرسول المُبَشَّر به الذي يَجِب أن يُؤْمَنَ به وأن يُنَاصَر وهذا كلام يُعَدُّ خروجا عن الإسلام وارتدادا عنه وكفرا بالنبوة الخاتِمَة، ومهما وُجد في كلامه شيء مِما يُوَافِق الحقيقة لكن يجب أن يكون التعامل مع هذه البحوث والاكتشافات على حذر.

ونحن نرى أنّ كثيرا مِن الناس بسبب عاطفتهم الجَيَّاشَة في نفوسهم يَحْرِصون على أن يُخْضعوا كل نظرية علمية لدلالة قرآنية أو بالأحرى أن يُخضعوا دلالات القرآن للنظريات العلمية بحيث يفسرون آيات القرآن بِمَا يَتَّفِق مع هذه النظريات، وأنا لا أُنْكِر أنَّ القرآن مِن معالِم إعجازه الجانب العلمي وهو جانب مُهِم في بيان إعجاز القرآن الكريم ولكن مع ذلك يَجِب أنْ يكون التعامل مع هذا ببصيرة وبوعي لا بعاطفة جَيَّاشَة تدفع الإنسان إلى أنْ يندفع اندفاعا يؤدي به إلى التَرَدِّي في مَهَاوي لا يدري غايتها وسُحْقَها إلا الله تبارك وتعالى، فلذلك كان مِنَ الضرورة بِمكان أنْ يقف الإنسان موقف المستبصر.

وهنالك فرق ما بين الحقائق العلمية التي لا تقبل الجدل ولا تقبل الشك والتي هي واضحة للعيان بِحَيْث تُوصِّل إلى يقين فيها مع الدلالة الظاهرة للقرآن عليها كمثل كروية الأرض فما مِن أحد الآن عرف حقيقة الأرض أو سافر في هذه الأرض إلا ويعرف أنَّ الأرض كروية، والقرآن الكريم دلَّ على ذلك فما علينا مِن حرج أنْ نفسر قول الله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ

﴿حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] بأن الليل يسعى وراء النهار أو النهار يسعى وراء الليل كل واحد منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا لأنّ الليل يَحِل مَحل النهار بدورانه المستمر على الكرة الأرضية، وكذلك قول سبحانه الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣] فإنه يدل على أنّ كل واحد منهما يَلِجُ مَوْلِج الآخر فالليل يدخل في النهار عندما يَحل بدلا منه والنهار يلج في الليل أيضاً عندما يحل بدلا منه وكذلك قول الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] ومعنى ذلك أنَّ هذا التكوير كَكُورِ العمامة يجعل كل واحد منهما يُكَوَّر فوق الآخَر فهذا مما يَدُل على كروية الأرض.

وقصة ذي القرنين أيضاً تدل على ذلك إذ لا يعقل بأنّ ذا القرنين يذهب إلى أقصى الغرب ثُمَّ يعود بعد ذلك إلى أقصى الشرق ثُمَّ ينتقل بعد ذلك إلى مكان السد وإنَّما ذهب إلى الغرب ولَفَّ على الكرة الأرضية حتى طلع مِن الشرق فقصّة ذي القرنين تدل أيضاً على هذه الحقيقة.

ولكن قد تكون هنالك نظريات تتناسخ فإن فسّرنا القرآن بنظرية مِن النظريات قبل الاستيقان من ثبوتها علميا وحملنا عليها النص القرآني ثم جاء بعد ذلك ما ينسخ تلك النظرية وَقَعْنَا في أمر مريج، ومِن ذلك ما شاع عند كثير مِن الناس أنَّ قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠] بأنّ هذا دليل على أنّ المجموعة الشمسية كانت شيئا واحدا ثم تَفَتَّقَتْ هذه المجموعة بحيث استقَلَّتِ الشمس بنفسها وكذلك سائر الأجرام ومِنْ بينها الأرض فالأرض منفصلة عن الكتلة الشمسية.

ثم جاءت بعد ذلك النظرية الأخرى التي هي عكس هذه النظرية وهي أنّ الكون كان سَدِيما وجميع هذه الأجرام الفلكية خُلِقَت مِن السديم الذي تَوَزَّعَ إلى هذه الأجرام التي استقل كل واحد منها بنفسه ولعل هذه النظرية

أقرب إلى مدلول الآية الكريمة، إذ نَجد أيضاً في آية أخرى أنّ الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١١] فوصف السماء بأنَّها دخان لكنه ليس هو دخان نار وإنما المراد به السديم لأنه يشبه الدخان، فإذن هذه النظرية أقرب إلى تفسير الآية والقرآن يفسر بعضه بعضا وإن كنا لا نقطع بذلك، فلا ينبغي للإنسان أنْ يحمل الآيات القرآنية بحسب النظريات التي هي قابلة للتعديل والتبديل والتغيير، أما بالنسبة إلى الإعجاز الرقمي وغيره فهذه أمور ليست مقطوعا بها فلذلك يجب على الإنسان أن يتعامل معها بِحَذر، والله أعلم.

يحكي الله عن فرعون في سورة يونس: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩١ - ٩٢] وقد ذكر بأن هناك من يقول أن فرعون موجود في أحد المتاحف المصرية، ما قولكم في هذا؟

هذا ليس كلام فرعون وإنما المحكي عن فرعون قوله: ﴿ ءَامَنتُ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، وما ذكره السائل كان ردا على هذا القول من فرعون، حيث وبخ على فساده من قبل، والله أعلم.

مما لفت انتباه المترجم إيرونيه الذي ترجم القرآن للإيطالية أن القرآن استخدم ست وظائف للغة هي: الإخبارية والعاطفية والأمرية والانتباهية في تحويل الضمائر والإيضاحات اللغوية للمصطلحات والجمالية، وذكر إعجابه بمستوى الدمج بين الإخبارية والعاطفية بحيث لا يطغى الإخبار على العاطفة ولا العاطفة على الإخبار، ولكن في ذكره الجمالية يرى أن الجمالية أشبه ما تكون بالنقوشات التي لا أثر لها على صلب المفهوم

بقدر ما تشكل جمالا، فهل هذا ما يعبِّر عنه أهل اللغة تأدبا مع القرآن بأنه صلة وهل توافقون وجود هذه الوظيفة في القرآن الكريم؟

من ميزة القرآن أنه يخاطب العقل والعاطفة معا، أما كلام الناس فقد يكون فيه خطاب العقل وحده أو خطاب العاطفة وحدها فحكمة الحكماء إنما هي خطاب للعقل الذي يستوعب هذه الحكمة ولا أثر للعاطفة في ذلك وشِعْرُ الشعراء هو خطاب للعاطفة، فالحكماء يقولون مثلاً: «الحكم على الشيء فَرْعُ تصوره» وهذا كلام مُسَلَّم وكل ذي عقل يَتَقَبَّله ويؤمن به ويراه أنه هو الذي ينبغي أنْ يُعَول عليه ويؤخذ به ولكنه لا يَهُزُّ أوتار العاطفة ولا يَشُدُّها بخلاف شعر الشعراء فنجد ـ مثلاً ـ قول امرئ القيس «قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل» هذا الشطر مِنَ البيت يهُزُّ أوتار العاطفة هزاً فإنه يلِجُ إلى أعماق القلب ويُؤثر على النفس البشرية تأثيرا بالغا، ولكن مع ذلك كله لو فَتَّش العقل عن غذاء له مِن خلاله فإنه لن يجد شيئاً.

أما القرآن الكريم فقد جاء بالدَّمْجِ ما بين الجانب العقلي والجانب العاطفي في الخطاب، فخطاب واحد يهُزُّ أوتار النفس هزاً وفي نَفْسِ هذا الخطاب إقناع للعقل مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤] فيَجِد العقل هنا بُغْيَتَهُ مع كَوْنِ العاطفة تتأثر تأثرا بالغا بهذا الخطاب.

ومِثْلُ ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] فهذا خطاب للعقل وللعاطفة معا لأنه خطاب الله الذي خلق عاطفة

البشر وخلق عقولهم فهو يخاطبهم مِنْ خلال ما يتأثرون به في الجانب العقلي والجانب الوجداني.

كذلك بالنسبة إلى عبارات القرآن الكريم مِنْ حيث النظر إلى الحروف وإيحَاءَاتِها والتنَاسُق الذي بينها باعتبار مَخارجها وباعتبار أوصافها، وهذا لا يكاد يوجد في أي كلام آخر وهو مِمَّا يدخل فيما ذكروه مِنْ أنه أشبه بالنقوش ـ ولله المثل الأعلى ـ فنحن نجد كيف اجتمعت الحروف الشديدة فيما يحكيه الله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام أنَّهم قالوا في مقام الإحراج الذي أُحْرِجُوا به في مُخَاطَبَة أبيهم لهم عندما يسألهم عن يوسف: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] وهذا مِنْ جملة ما يُعتبر بمثابة النقوش الجمالية للتعبير القرآني، والله أعلم.

ما ذكره القرآن على لسان الكفار عندما يقولون للنبي ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، ماذا يقتضي مثل هذا الطلب؟

لقد جاء القرآن للكفار بِما لَم يألفوه بِحيث إنَّهم كانوا يتخذون آلهة مع الله سبحانه، فجاء القرآن ليسفه أحلامهم، ويبدّد شُبههم التي كانوا يستمسكون بِها، وجاء بالحجة الدامغة التي تُدحض ما كانوا عليه مِن كفر وضلال فلذلك قالوا للنبي ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يونس:، لأنَّه شَق عليهم هذا القرآن بِما فيه مِمَّا ينقض الأسس التي كان عليها آباؤهم الأقدمون فلذلك شق عليهم أن يُسفهوا ويسفه آباؤهم وأقوامهم الذين كانوا يعبدون هذه الآلهة، فطلبوا مِن النبي ﷺ ذلك، وهو مِن ضروب التحدي التي قابلوا بِها الرسول عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، والله أعلم.

في سورة طه يقول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ﴾ [طه: ٧٠]، ما الحكمة في تقديم هَارون على موسى في هذه الآية؟

في هذه الآية رِعَاية الفاصلة، التي تُزين الكلام، فجيئ بها حتى تَنسجِم الآيات القرآنية في فواصلها في هذه السورة المباركة وفي هذا الموضع بالذات جيء بذكر هارون قبل موسى عليهما السلام.

ما المقْصُود بِالإعجاز التّشرِيعِي في القرآن الكريم؟

الإعجاز التّشرِيعي هو بيانُ كوْنِ الشريعةِ التي أَنْزَلَها الله تعالى في هذا القرآن شرِيعة مُنسَجِمَة تَمامَ الانسِجام مع المصالِحِ البَشَرِية.

فالتشريعُ عندما يكون ناتِجا عن عقول البشر يكون ناتِجا عن تَجاربِهم، ومُمَارستهم للحياة، ودراستهم لها مِن جوانبها كلِّها سواءً مِن الناحيةِ النفسية أو مِن الناحية الاجتماعية، فهي تَمر بسلسلةٍ مِن الدراسات البشرية النفسية والاجتماعية.

فالتشريع الروماني هو نتيجة تَجربة دَامت زُهاء ثلاثة عشر قرنا تَضَافَرَ عليها الكثيرُ مِن ذوي الخبْرَات المختلِفة، ومع ذلك يَتَكَشَّفُ عُوارُه في كل وقت، وفي كلِّ حين يَحتاج إلى التبديل والتغيير والترقيع، بينما القرآن الكريم نزل في ظرف ثلاثةٍ وعشرين عاما على نَبِي أُمِي لَم يكن يقرأ مِن كتابٍ ولا يَخطه بيمينه، وفي بيئة أمية بدائية قَبَلِية، إذ لَم يكن النظام الدوْلي مَعروفا في المجتمَع الذي نَزَلَ فيه القرآن على قلبِ النبي ﷺ، فلَم تكن تَحكُمُ مكةَ المكرمة دوْلةٌ مِن الدوَل حتى يَكونَ لِها نظامٌ تَسِيرُ عليه في حياتِها وتَشرِيعٌ تَعتَمِدُ عليه في أحكامِها، وإنَّما كانتْ كسائِرِ البيئاتِ العربية الضيّقَة البَدَوِية التي لا تَعْدُو أن تَكونَ بيئاتٍ قَبَلِية فحسْب.

ومع هذا فإنَّ النبي ﷺ لَم يُمارِس إمارةً مِن قَبْل، إذ لَم يَكن أميرا في قومِه ومُجتمَعِه، وإنَّما كان ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ كسائرِ الناس، ولَم تَكن نفسُه تَطمَح إلى البُرُوز والسيادَة والمشارَكَة في القراراتِ القَبَلِية التي كانتْ تُتّخَذُ في مُجتمعِه، إذ لَم يُشارِك ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ إلا في حِلْفِ الفُضُول لِما دَعاه إليه مِن خدمةِ مَصالِحِ المستضعَفِين في ذلك المجتمَع، فلذلك كان ﷺ بعيدا كلَّ البُعد عن الإطلاعِ على الأَنظمة الدولية ومجرَيَات أمورِ الناس وما تَتَطَلَّبُه حياتُهم الاجتماعية والتشريعية، ومع ذلك نَزَلَ هذا القرآن عليه صلوات الله وسلامه مُوَفِّيا لِحاجةِ الإنسانية فوَضَعَ كلَّ شيْءٍ مَوْضِعَه وَبَوَّأَه مُبَوَّأَه، فأقامَ العلاقاتِ الاجتماعية، ووَضَعَ نِظاما ماليا لَم يَرْقَ إليه فِكْرُ بَشَرٍ قَط، إذ لَم يَصِل فِكْرُ بَشَرٍ إلى مِثل هذا النظام الذي جاء به القرآنُ الكريم، وهو دَلِيلٌ على أنَّه مِن عندِ الله الذي يَعلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى.

فنحنُ إذا جِئنا إلى نظامِ القرآن المالِي نَجِد العَجَب العُجاب، فهو يَنسَجِم تَمامَ الانسِجام مع الفِطْرَةِ البَشَرِية، إذ لَم يَحْرِم الفَرْد مِن التّمَلُّك ولكن جَعَلَ هذه الملكِية مُقَيَّدَة غيْرَ مُطْلَقَة فهو يُخالِفُ بِهذا النظام الاشتِراكِي الذي يُذِيبُ الفَرْدَ في بوتَقَةِ المجتمَع، ويُخالِفُ أيضاً النظام الرأسمالِي الذي يُعْطِي الفَرْدَ مُرادَه ولو كان ذلك على حِسابِ المجتمَع.

فالقرآن الكريم أَثْقَل الإنسان بِالتكاليفِ المالية مع إطلاقِ يَدِه لِلاكتِساب بل دعاه إليه وزاد ذلك تأكيدا إذ قَرَنَ بيْن الاكتِسابِ والعِبادَة، كما في قولِه تعالى:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقَرَنَ ـ أيضاً ـ بيْن الاكتِساب وبيْن عبادةِ الحج في قولِه تعالى: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقَرَن ما بيْن الاكتِسابِ وبيْن الجهادِ في سبِيلِ الله، حيثُ قال:

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

فهذا كلُّه دَلِيل على أنَّ القرآنَ الكريم يَحُث الناس على الكسْب ولكن مع هذا كلِّه جَعَلَ هذا الكسْب مُؤَطَّرا في إطارٍ سلِيم، إذ ليْس لِلإنسانِ أن يَكتَسِبَ المال مِن أيِّ وَجْهٍ كان.

فقد حَرَّمَ الله تعالى جَميعَ الوسائل غيْر النظيفة في اكتِسابِ المال، من الربا والرشْوة والاحتِيال والسَّرِقَة، وفرض على صاحِب المال أنواعاً مِن التكاليف المالِية.

فقَدْ فَرَضَ حُقوقا في المال لِذوِي القُربَى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كما في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهذه الحقوق مِن غيْرِ الزكاة، بِدليلِ قولِه: ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

كذلِك إذا جئْنا إلى العلاقاتِ الاجتماعية، سواءً كانتْ بيْن الزوْجيْن أو كانتْ بيْن الأقارِب.

فالحقوقُ الزوجية شُرِعَتْ مُؤَطَّرَة في إطارٍ مِن العدالة بِحيثُ أُعْطِيَ كلُّ واحد مِن الزوْجيْن حقَّه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].. أي دَرجة القِوامَة، نظرا إلى أنَّ الفِطْرَة تَقتَضِي ذلك.

وكذلك يَقولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١].

وجَعَلَ الله تعالى الطلاق مشروعا في الإسلام لأجْلِ القضاءِ على المشكِلات عندَما تَنجُم بيْن الزوْجين وتَتَحَوَّل حياتُهما إلى جَحِيمٍ لا يُطاق، ولكن مع ذلك يُتَفادَى الطلاق بِكلِّ الوسائل التي يُمكِنُ مِن خِلالِها عِلاج

المشكلات الزوْجية سواءً كان ذلك فيما بيْن الزوْجيْن نفسَيْهما أو كان ذلك فيما بيْن أُسْرَتَيْهما، كما قال تعالى:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء: ٣٤-٣٥] والطلاق أيضاً أُطِّرَ بإطار في مُنتَهَى الدِّقَّة ولَم يُبَحْ لِلإنسانِ أن يُطَلِّقَ في أيِّ وقْت يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق: ١] فلَم يُبَحْ لِلرَّجُلِ أن يُطَلِّقَ امرأتَه في حيْضِها، ولا في طُهْرٍ باشَرَها فيه، وإنَّما يُطَلِّقُها في طُهْرٍ لَم يُباشِرْها فيه، وهذا لِحِكْمَة، وهي أنَّ فترةَ الحيْض تَكونُ المرأةُ فيها عَصَبية لا تَحْتَمِل الرَّجُل بِسبَبِ ضيْقِها النفْسِي، ومن جانب آخر فإنَّ هذه الفترة قد تَكونُ دافعةً لِلرَّجُل إلى أن يَزْهَدَ في المرأة بِسبَبِ عدمِ انتِفاعِه بِما يُرِيدُه منها إبان حيضها وإن كانت في طُهْرٍ باشَرَها فيه قد تَكونُ نفسُه بَشِمَتْ منها، إذ قَضَى منها وَطَرَه وأصابَ نهمَتَه، فلذلك مُنِعَ في هاتيْن الحالتيْن مِن الطلاق، وإنَّما أُبِيحَ الطلاقُ في طُهْرٍ لَم يُباشِرْها فيه، لأنَّ النفْسَ تَكونُ تَوَّاقَةً إليها في هذه الحالة مع إمكانِه أن يَنْتَفِعَ بِما يُرِيدُه منها.

ومع هذا كله لَم يُتْرَكْ لِلرَّجُل أن يَتَلاعَب بالطلاق كما شاء، وإنَّما يُطَلِّقُ طَلْقَة مِن غيْرِ أن يُضِيفَ إليها طَلْقَةً أخرى، فإذا انْتَهَت العِدَّة كانتْ أَمْلَكَ بِنفسِها، وفي أثناءِ العِدّة له أن يُراجِعَها، ثم بعدَ ذلك إذا تَكَرَّرَ الطلاقُ مرّةً

أخرى فكذلك، وإذا طَلَّقَها الثالثة عندَئذٍ يُمنَع مِن أن يَعُودَ إليها حتى يَتَزَوَّجَها زوْجٌ آخَر ويَدخُـلَ بِها، كل ذلك لأجْـلِ تَأْدِيبِ هذا الرَّجُـل الذي يَتَلاعَب بِالطّلاق إن كان سـبَبُه ناشِـئا عن هَوَاه، ولأجْلِ تَأْدِيبِ المرأةِ إن كانَتْ هِيَ السبب في إلْجَاءِ الرَّجُل إلى أن يُطَلِّقَها عندَما تَنْتَقِلُ إلى لوْنٍ آخَر مِن الحياة في كَنَفِ زوْجٍ آخَر غيْـر الزوْج الأَوَّل، وبعدَ أن يُطَلِّقَها ذلك الزّوْج يُمكِن أن تَعُودَ إلى الزّوْجِ الأَوَّل بِعَقْدٍ جدِيدٍ مع جَمِيعِ لَوازِمِه الشرْعِية.

كذلك إذا جِئْنا إلى الأحكام نَجِـد أنَّ الأحكامَ في القرآن هِيَ في مُنتَهَى العدالَة، فهي تَسُـد حَاجَةَ الناس وتُضْفِي عليهم الطّمَأْنِينَة والاستِقرار والأَمْن في حياتِهم.

ولا أَدَلَّ على ذلك مِمَّا كان عليه الوَضْع في إبَّانِ تَطبِيقِ أحكامِ الشـريعةِ الإسلامية في عهد الخلافةِ الراشِدَة، فقد كانتْ الدّوْلة الإسلامية تَحْكُم جُزْءاً كبِيراً مِن الأرض مِن أَقْصَى أَرْضِ فارِس في الشّـرْق إلى شَـمال إفريقيا في الغَرْب ولكن مع ذلك كانت النّفُوس مُطْمَئِنة، وكان الأمْنُ ضافِيا على جَمِيعِ الناس، ولا يَجِدُ الإنسان ما يُقْلِقُ أَمْنَه في ليْلِه ونَهارِه بل يَطمَئِن بِسبَبِ عدالةِ الحق الذي أَنزَلَه الله تعالى بشرط ألّا تُحَكَّمَ العواطِف في أَمْرِ الأحكام، وإنَّما يُحَكَّمُ العدْل كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥]، و ـ كذلك ـ يَقولُ الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

فهذا كلُّه مِن التشرِيعِ القرآني العادِل، فكيف يَرْقَى إليه فَهْمُ إنسانٍ عاشَ في بيْئةٍ بدائِية لَم يَكُن فيها نظام يَحكُمُها؟! بل نَجِد التشـريعاتِ البَشَـرِية

لا تَرْقَى بِحال إلى هذا مع كَوْنِها مَرَّتْ بِسِلْسِلَةٍ مِن التجارِب والدراسات النفسية والاجتماعية التي تَضَافَرَتْ عليها جُهُود الكثِيرِ مِن الخبراء وإذا بِها يَتَكَشَّفُ عُوارُها بيْن حِينٍ وآخَر، والله أعلم.

ما حقيقة الإعجاز العددي في القرآن؟ وهل يصح القول به؟

الذي قال بالإعجاز العددي في القرآن الكريم ونشر هذه المقالة رجل أفاك خبيث مكذب برسول الله ﷺ ولقد سمعت بأنه كان في خطبه يحط من قدره ﷺ بل يتهجم عليه هذا سمعته من بعض الناس الذين أثق بكلامهم، وقد سمعت منه شخصياً إنكار الرجم، وقال: من قال بالرجم فقد كذّب القرآن الكريم، لأنه خلاف ما دل عليه قول الله تعالى:

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ١-٢]، وبناءً على ذلك زعم أن من قال بالرجم فهو منكر أن تكون هذه السورة منزلة مفروضة وأن آياتها بينات كم زعم: بأن المسلمين بسبب قولهم بالرجم وتكذيبهم بالقرآن الكريم ـ حسب زعمه ـ أصيبوا بما أصيبوا به من استيلاء اليهود على مقدساتهم، وكان هذا القول منه علناً في مؤتمر فيه الألوف من الناس، وقد رددت عليه: بأن المسلمين عندما كانوا يطبقون حد الرجم وغيره من الحدود الشرعية لم يتغلب عليهم اليهود ولم يستولوا على مقدساتهم، ولكن عندما أضاعوا الرجم وأضاعوا سائر الحدود الشرعية ـ التي فرضها الله ﷻ ـ مكن الله اليهود منهم، وبما أن هذا الضال المضل هو أساس هذه الفكرة فلا يؤخذ بالإعجاز العددي فإنه لا أصل له، ولا نعتمد عليه، ناهيك أن هذا القائل بالإعجاز العددي تمادى في القول بخلاف نصوص القرآن حتى وصل به الأمر إلى تحديد السنة التي تقوم فيها الساعة بالتاريخين الهجري

والميلادي، والله ﷻ يقول: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فأنى لأحد أن يعلم وقت قيام الساعة وقد طوى الله علمها عن الناس وجميع الخلق واستأثر به وحده، فهذا نفسه تكذيب بالقرآن الكريم، ثم إن نظرية «تسعة عشر» التي بنى عليها هذا الأفاك زعمه هي مستمدة من البهائيين، لأنهم هم الذين يقدسون رقم تسعة عشر، فإن شهرهم تسعة عشر يوماً وعامهم تسعة عشر شهراً فهم يقدسون هذا الرقم، فما لنا ولمعتقداتهم والله أعلم.

هل الله ﷻ هو الذي أعجز الناس أن يأتو بمثل القرآن، أو أن الإنسان بطبيعته عاجز؟

الإنسان هو من صنع الله وقد خلقه الله عاجزاً إلّا على ما منحه القدرة عليه، والعجز طبيعة بشرية وذلك راجع إلى أمر الله، لأن الطبيعة هي من صنع الله ﷻ، وهو تعالى لم يجعل الإنسان قادراً على ما لم يمنحه الله سبحانه القدرة عليه والله أعلم.

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز كثيراً من الآيات على لسان بعض خلقه، ومنها ما ذكر عن إخوة يوسف من قولهم لأبيهم: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥]، فهل هذا التركيب بعينه جاء بألسنتهم، أم هو من عند الله ﷻ؟

الله ﷻ حكى في كتابه أقوال الناس على اختلاف لغاتهم، فمنهم العبرانيون والسريانيون وغيرهم، ممن تحدثوا بلغات متعددة، وبأساليب مختلفة، ولكن مع ذلك جمع الله ﷻ كلامهم في كتابه الكريم، بهذا الأسلوب البليغ، وحتى العرب ـ أنفسهم ـ الذين حكى الله سبحانه عنهم ما حكى، إنما حكى عنهم ما حكاه بأبلغ أسلوب، فهذه العبارة ليست عبارة

إخوة يوسف عليهم السلام، وما كانت لغتهم العربية وإنما كانوا يتحدثون بلغة أخرى، ولذلك تجد في قصص القرآن عبارات مختلفة ألفاظها متحدة معانيها مع أن المحكّي واحد، والله أعلم.

سؤال عن قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١] فأمثال هذه الآيات كثيرة في كتابه العزيز، هل يمكننا من هذه الآيات أن نفهم أن جميع العلوم سواء منها الإنسانية أو العلمية موجودة في القرآن الكريم سواء علمناها أو لم نعلمها؟

القرآن الكريم لم ينزله الله ﷻ ليكون كتاباً علمياً يتناول جانباً من جوانب العلوم، كعلم الهندسة أو علم الفلك أو علم الأحياء أو علم التاريخ، فما جاء القرآن الكريم لأجل أن يعلم الناس هذه العلوم، فإنها علوم تجريبية، لأنها تتوقف على الدراسة، وقد هيأ الله ﷻ لخلقه أسباب هذه الدراسة، وقد أخبر الله ﷻ عن وظيفة القرآن ورسالته إلى البشر بقوله:

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالقرآن إنما جاء ليهدي هذه العقول الضالة الشاردة ويردها إلى بارئها، ولكنه يخاطب الفطرة الإنسانية، والفطرة لا ريب أنها متلبسة بأحوال الكون ولذلك فهو في معرِض خطابه لهذه الفطرة يوقظها من سباتها بهذه اللمسات التي يضعها على هذه العلوم المختلفة المتعددة، ولا يعني ذلك أن القرآن الكريم جاء ليدرسنا علم الهندسة بدقائقه وبجزئياته، أو ليدرسنا علم الطب بدقائقه وجزئياته، أو علم الفلك أو غيرها، فإن الإنسان ابن بيئته ويخاطب من خلال ما يعرفه في هذه البيئة.

وقد جعل الله ﷻ هذا الكون بأسره مسرحاً لاعتبار الإنسان، ومعرضاً لنظره وتفكيره، وبذلك يقيم الله ﷻ على العبد حججه من خلال هذه الآيات

الموجودة في نفسه، وفي هذا الكون من حوله، أما كون القرآن الكريم فيه تفصيل كل شيء، فلا يعني ذلك هذه الإحاطة الدقيقة التي قد يبالغ بعض الناس فيها عندما يزعمون أن القرآن الكريم ينطوي عليها جميعاً، ولكن فيه تفصيل كل شيء فيما يعني الإنسان ويحتاج إليه، واللفظ العام يخصص بمخصصات مختلفة ـ ومنها مخصص العقل ومخصص الحس وذلك معهود في كتاب الله تعالى، فإن الله ﷻ قال في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، مع أنها لا تدمر الكون بأسره فلم تدمر السموات والأرض والجبال، وقال الله ﷻ في بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، مع أنها لم تؤت من العوالم كلها، فلم تؤت شيئاً من السماوات، ولا شيئاً من العالم العلوي، وإنما ذلك في حدود ما يقتضيه هذا الخطاب، وفي حدود ما يوحي به المقام من معنى الخطاب، فكذلك تفصيل كل شيء، إنما هو بالنسبة إلى الذي نحتاجه من هداية الله ﷻ، والله أعلم.

هل هناك ترابط بين فن البلاغة والسجع الذي يستعمله الكهان، فإن كانت هناك علاقة فلماذا كُره السجع وجوزت البلاغة؟

السجع ليس هو عين البلاغة ولا تتوقف هي عليه، فقد يكون الكلام مسجعاً وهو غير بليغ، وإنما البلاغة ترجع إلى أمرين، هما: عمق التصور، ودقة التصوير، فإن عمق التصور هو الذي يجعل المعبر يستحضر المعاني البليغة وتترتب في نفسه من غير تنافر ولا تضاد وإنما تتجانس وتنسجم كالماء السلسال، غير أن ذلك لا يكفي فلا بدَّ معه من توفر ملكة بيانية يعبر بها عن هذه المعاني البليغة بأبلغ العبارات التي تتلاءم مع سمو هذه المعاني، وإنما مما يجب علينا أن ندركه بأن العبارات مهما كانت متانتها وجزالتها وسلاستها فهي تقصر بالنسبة للإنسان عن استحضاره للمعاني، فإن

المعاني التي يستحضرها غالباً تكون أعمق من العبارات التي يُصور بها تلك المعاني، فالدقة في التصوير لا يملكها الإنسان كما يملك التفكر في المعاني البليغة التي يدركها بعقله، ومن هنا كان كلام الله ﷻ متميزاً عن سائر الكلام، فإن كلام الله ﷻ صادر عمن يعلم السر وأخفى، ولا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، لذلك جاء شاملاً لكل ما يخطُر في النفوس من خواطر، بحيث لا تكون هناك خاطرة من الخواطر التي تطرى على الذهن إلا وقد استوفتها عبارة القرآن، أما كلام البشر فإنه مهما رقى في أوج البلاغة وازدان بجمال التعبير يظل قاصراً عن استيفاء الخواطر فقد تكون لسامعه خواطر متعددة لم يستوفها، وذلك راجع إلى القصور الذي جبل عليه البشر، فالسجع ليس هو من البلاغة، فقد يكون الكلام بليغاً بلا سجع، وقد يكون السجع مذموماً، عندما يؤدي إلى الملل، وأحياناً يكون فيه تكلف. تشمئز منه النفس، فكلام الكهان سجع بلا بلاغة وهو مذموم والله أعلم.

سؤال عن قول الله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] ما المقصود بكلمة التقوى في الآية؟ وكيف يستعاذ بالرحمن ممن كان تقياً؟ وما وجه الإعجاز البياني لورود كلمة التقوى في الآية دون غيرها من الكلمات؟

كلمة «تقي» هنا تحتمل معنيين، قيل ـ وهذا ما لم أجد دليلاً عليه ـ بأن جبريل عليه السلام جاءها في صورة شاب كان يسمى تقياً، وقيل: تعني بقولها إن كنت تقيا، إن كنت تخشى الله، فإن الذي يخشى الله عزوجل إذا سمع هذه الاستعاذة بالله ﷻ من فعل السوء، تثور في نفسه مشاعر التقوى، فتحول بينه وبين الوقوع في المحارم، وفي هذا ما يكفي الإنسان دليلاً على أن هذه الكلمة وضعت موضعها، فإن للتقوى معنى واسع. لشمول معناها الشرعي

فعل كل خير وتجنب كل شـــر، فإنها وإن كانت في أصلها اللغوي دالة على الاجتناب والترك، لأن اتقـــى مطاوع وقي يقال: وقيته أقيـــه فاتقاه أي جنبته أُجنبه فتجنبه، لأن فاء الكلمـــة واو، والفعل الذي فاؤه واو أو ميم أو نون أو راء يأتي مطاوعه على افتعل:

وفعـــل افتعلـــت قـــد يطـــاوع وحيث لـــم نـــروِ بفاه شـــائع

إذا كان حرف من الحروف الخمســـة التي يجمعها قول القائل «لم نرو» هو فاء الكلمة فإنه يكون المطاوع على وزن افتعل، كوقيته أقيه فاتقاه ولأمته فالتأم ونظمته فانتظم، ومحقته فامتحق، ورميته فارتمى، فمدلول كلمة التقوى من حيث اللغة ســـلبي، لأنها موضوعـــة للترك، إلّا أنها مـــن حيث المفهوم الشرعي تدل على جانب سلبي وهو ترك المحارم وجانب إيجابي وهو إتيان الفرائض، لأن في كل ذلك اتقاءً لسخط الله، فاتقاء سخط الله تعالى هو المراد بتقوى الله، لأن ذات الله ﷻ لا تتقى أي لا تجتنب وتترك، وإنما يُتقي سخطه بفعل الواجبات واجتناب المنهيات، فالكلمة جاءت في موضعها إذ لا تســـد مسدها كلمة أخرى، والله أعلم.

لقد احتوت آيات القرآن الكريم كثيراً مـــن القصص القرآنية، ومع تكرر بعض هذه القصص في عدة ســـور إلا أن الأســـلوب التعبيري أو البياني يختلف من سورة إلى أخرى فما السر في ذلك؟

نحن لا نقول بالتكرار في القصص القرآنية، فالقصة الواحدة تُعرض في سور متعددة بأساليب مختلفة، لأن القرآن الكريم ليس كتاباً قصصياً، ولم ينزل للتســـلية بذكر القصص الماضية أو القصص الخيالية المفتعلة، لا والله، وإنما هو كتاب أنـــزل ليكون هدى للناس، وأنزل للعظة والعبرة، فتأتي الآية القرآنية في مقام التذكير، وفي مقام الأمر وفي مقام التخويف،

وفي مقامات متعددة، فيُعرض من كل قصة من هذه القصص جانب منها في السورة بحسب ما يتلاءم مع جو السورة، وبحسب ما يتلاءم مع ما نزلت من أجله السورة من أمر أو نهي أو تخويف أو تذكير أو ردع عن شئ أو نحو ذلك. فالقصة هي واحدة، ولكن تعرض في مقامات متعددة، ويعرض في كل مقام من هذه المقامات جانب منها، ولا تعرض كلها، فقصة موسى عليه السلام مثلاً جاءت في الكثير من السور القرآنية، ولكن مع ذلك ما جاءت على وتيرة واحدة، وليس المعروض في جميع هذه السور شيئاً واحداً، وإنما عُرض جوانب منها، فيعرض جانب في سورة بحسب ملاءمة جو هذه السورة، وجانب آخر في سورة أخرى بحسب ملاءمة جو تلك السورة الأخرى أيضاً، وقد يذكر في هذه السورة شيء مما ذكر في السورة الأخرى لأجل اقتضاء المقام ذكر ذلك، ولا يعد ذلك تكراراً، والله أعلم.

نجد في كثير من آيات القرآن الكريم تقديم صفة السمع على صفة البصر، وكذلك السمع يذكر مفرداً والبصر يذكر بصيغة الجمع. فهل صفة السمع أنفع للإنسان من صفة البصر؟

كثير من الناس فضلوا السمع على البصر، ونسأل الله العافية في السمع والبصر، والله سبحانه وتعالى هو الذي أنعم علينا بموهبة السمع وبموهبة البصر، وكلُّ نعمة يدري الإنسان قيمتها إذا فقدها، وإذا أردتم أن تعرفوا قيمة السمع فاسألوا الصم، وإذا أردتم أن تعرفوا قيمة البصر فاسألوا العُمْي، ومجيء السمع مفرداً في القرآن مع جمع الأبصار في كثير من الآيات، لأن السمع يأتي على وتيرة واحدة بخلاف المبصرات فإنها تتنوع، ولذلك يُجمع البصر وُيفرد السمع والله أعلم.

يقال الأرض كروية، فهل ورد في القرآن الكريم ما يثبت ذلك؟

نعم، ورد في القرآن ما يشير إلى ذلك، لأن الله تعالى جعل خطاب القرآن صالحاً لكل زمان ومكان، وعلى تحول الأحوال واختلاف البيئات والثقافات والأفكار فالله ﷻ قال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١]، أي يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل، فهذا إنما يكون مع دوران الأرض، فالليل يلج إلى حيث كان النهار والنهار يلج إلى حيث كان الليل، والله سبحانه يقول: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤] فكلٌ من الليل والنهار يغشى أحدهما الآخر ويسعى وراءه سعياً حثيثاً، وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، وكما قالوا ككور العمامة، وهذه الحالة تناسب الكروية، فالنهار أشبه ما يكون بالقاعدة تحت الليل والليل يكون أعلى منه، والنهار يكون فوق الليل أيضاً ككور العمامة والليل يكون أسفل من النهار وذلك باعتبار الجهات وتقدير الأسفل والأعلى فيها إذ هو أمر لا يعدو أن يكون اعتبارياً نظراً إلى طبيعة الأرض الكروية، فهذه الآيات كلها تدل على كروية الأرض، وأكثر شيء دلالة على ذلك قصة ذي القرنين، فإن ذا القرنين أخبر القرآن عنه أنه أتبع سبباً حتى بلغ مغرب الشمس ـ أي أقصى بقعة معمورة تجاه الغرب ـ، ثم كذلك أتبع سبباً حتى بلغ مشرق الشمس، ومعنى ذلك أنه واصل السير إلى الغرب، حتى خرج من الشرق، ثم بعد ذلك واصل السير حتى وصل إلى بين السدّين، وليس معنى ذلك أنه عاد من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، والله أعلم.

في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] هل تشير هذه الآية إلى ما نجده من مبتكرات جديدة في العصر الحاضر؟

تدل على كل ما يحدث مما لا يعلمه الإنسان، سواء في ذلك الوقت أو بعد ذلك الوقت، فتدخل جميع المبتكرات والله أعلم.

هل يفسر القرآن في ضوء الحقائق أم الحقائق تفسر في ضوء القرآن الكريم، وهل يمكن اعتبار القرآن كتاباً علمياً بحتاً؟

القرآن الكريم هو منهاج هداية، وصراط رشد، وميزان قسط، أنزله الله سبحانه ليقوّم انحراف الإنسان، ولم ينزله لأجل البحث عن حقائق علمية معينة، أو لأجل التوسع في البحث العلمي، وإنما هذه أشياء جانبية تأتي في القرآن وليست هي المقصودة به أصالة. وإذا خاطب القرآن الناس من خلال هذه الحقائق العلمية فإنما يخاطبهم لأجل إقامة الحجة عليهم، ولأجل بيان ما يسترشدون به في فهم حقائق هذا الكون المسخر بأمر الله، الذي تَسبِّح كل ذرة منه بحمده وتخضع ساجدة لجلاله. فلا يمكن أن نعتبر القرآن الكريم كتاباً علمياً ولا نقول إن كل حقيقة علمية يجب علينا أن نعرضها على القرآن الكريم. هل توجد آية تدل عليها أو لا؟ فإن لم تكن هناك آية تدل عليها نقول بأنها مرفوضة، فإن هذا يؤدي بنا إلى أن نرفض الحقائق العلمية هكذا بدون حجة. ولكن الذي نقوله إن الحقيقة العلمية الثابتة لا تتصادم مع القرآن الكريم.

أما النظريات فهي قد تتصادم مع القرآن، لأن الحقائق العلمية تكشف عن نواميس الله في هذا الكون، والقرآن منزّل من عند الله، فلا يمكن أن يكون هذا الكون الذي خلقه الله يتصادم مع ما دل عليه كلامه تعالى، والله أعلم.

تحدثتم عن موضوع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بشكل عام، وقد تعرضتم في حديثكم لذكر المفسرين في القديم والحديث الذي تحدثوا عن تفسير الآيات العلمية في القرآن الكريم؟ فهل تعتبر كتب التفاسير القديمة حجة، ويجب الاعتماد عليها، مثل تفسير القرطبي والطبري وغيرهما، نرجو توضيح ذلك وشكراً.

لا يكون كلام أحد من الناس حجة إلا كلام الرسول ﷺ المعصوم، الذي برَّاه الله تعالى من الخطأ في تبليغ الدعوة إلى الناس، فالرسول ﷺ وحده كلامه هو الحجة، أما من عداه فكلٌ في كلامه مقبول ومردود، وفي رأيه صواب وخطأ، وأولى ما يفسر به القرآن الكريم القرآن نفسه، فإذا وُجد تفسير آية من كتاب الله تعالى ضمن آية أخرى اعتمد على ذلك. والرسول ﷺ ـ أيضاً ـ يبين مجملات القرآن، وبما أن نصوص القرآن نصوص قطعية لا شك فيها كان بيان القرآن مقدماً، ثم بعد ذلك أحاديث الرسول ﷺ، لأن هناك روايات عن الرسول ﷺ لم يصح إسنادها إليه، فلذلك مرتبة السُّنَّة تأتي بعد مرتبة القرآن، ثم كلام الصحابة يأتي بعد ذلك فهو أولى من غيره من كلام سائر الناس بالاعتبار والاعتماد في فهم ما غمض من معاني القرآن الكريم، ولا يعني ذلك تقليد الصحابة فيما لم يجمعوا عليه، فإنهم أنفسهم اختلفوا في تفسير القرآن كما اختلفوا في غيره، فنجد لابن عباس رأياً ولابن مسعود رأياً آخر، وهكذا سائر الصحابة رضوان الله عليهم لأن كل واحد منهم كان يجتهد ببذل وسعه، فإذا وجدنا دليلاً أقوى من قول الصحابي اعتمدنا عليه.

أما هذه التفاسير الأخرى ففيها الكثير الكثير من الإسرائيليات التي ما ثبتت نسبتها إلى الرسول ﷺ، فنجد مثلاً من جملة ما في تفسير الطبري بأن هذا السحاب غربال للماء الذي يتنزل من السماوات، وذكر الاختلاف في هذا الماء هل هو ينزل من شجرة من تحت الجنة أو ينزل من مكان آخر، ثم ينزل بعد ذلك في حجم الجمال فيقع على السحاب ويتفرق هناك فينزل إلى الأرض قطرات. فهذا الكلام في تفسير الطبري، ولا يبعد أن يكون هناك كلام مثله في تفسير القرطبي، وكذلك ذكر القرطبي في حديثه عن هذه الأرض بأنها مستقرة على قرن دابة، وهذه الدابة وسوس لها الشيطان بأن

تقذف بهذه الأرض ومن عليها وما عليها، فأرسل الله سبحانه طائراً صغيراً فدخل في منخرها فآذاها، فتراجعت عن اتباع الوسوسة التي وسوسها الشيطان لها، وكان ذلك الطائر لها بالمرصاد يحاول أن يدخل في منخرها كلما حاول الشيطان أن يوسوس لها... إلخ ما قاله، فهذا كلام غير مقبول أبداً، فإذاً من غير المعقول أن نجعل تفسير البشر كله صواب، سواء كان من المتقدمين أو المتأخرين فكل أحد معرّض للخطأ والصواب إلا المعصوم، ولا عصمة إلا لرسول الله ﷺ، والله أعلم.

الحقيقة والمجاز في القرآن

يَتَفَاوَت الناس في تَعامُلِهم مع القرآن الكريم فمِنهم مَن يَتَمَسَّك بِظاهِرِ النصوص ومِنهم مَن يُوغِل أيضاً في إعطاء اللفْظ القرآني مَعانِي قَد تَكون أَكبَر مِمَّا يَتَّسِعها ذلك اللفْظ في مَفهُومِه، فما هو المنهَج الذي تَرَوْنَه مُناسِبا في تَعامُلِ الناس مع القرآن الكريم؟

القرآن الكريم نَزَلَ بِاللّسانِ العربِي الذي فيه الحقيقةُ والمَجاز، والصرِيحُ والكِنايَة، وجاءتْ كلِماتُه مُنسَجِمةً مع هذا الأسْلوب العربِي في التّعبِير، فمِن كلِماتِه ما يَجِبُ أن يُحمَلَ على حقِيقَتِه لِعدَمِ إمكانِ صَرْفِه عن الحقيقةِ إلى المَجاز، ومِن كلماتِه ما يَتَعَيَّنُ أن يُحمَلَ على المَجاز لأجْلِ وُجُودِ القَرائِن التي تَمنَعُ مِن إرادةِ الحقيقة.

والجمود على ظَواهِرِ الألفاظ دونِ غَوْصٍ في المعانِي حتى يَصِلَ الإنسان إلى مُرادِ هذه العباراتِ القرآنية يُعَدُّ في الحقيقة تَجَنِّيا على القرآنِ الكريم، بل قد يُؤدِّي بِالإنسان إلى أنَّ يظن أن في القرآنِ تَناقُضاً تَقَدَّسَ القرآن عن ذلك.

فمِن ذلك إذا قَرَأَ الإنسان قَوْلَ الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].. ماذا عَسى أن يَقول إن جَمَدَ على ظَواهِرِ الألفاظ، ففي أَوَّل هذه العبارة نَفْي الرّمْي عن النبي ﷺ وفي وَسَطِها إِثْبات الرَّمْي له وفي آخِرِها إِسْنادُ الرَّمْي إلى الله تعالى، فيَجِب أن يُحْمَلَ كلُّ لفْظٍ على معناه الذي أُرِيدَ بِه فقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أي ما سَدَّدْتَ الرَّمْي وقوله تعالى ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي إذ قُمْتَ بِالرَّمْي بِحسْب ظاهِرِ الفِعْل، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي أن الله تعالى هو الذي سَدَّدَ هذا الرَّمْي.

كذلك نحو قولِ الله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله:

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] ففي هاتين الآيتين إِسنادُ النسيان إلى الله ـ تعالى الله عن النسيان وهو سبحانه يقول فِي آيةٍ أخرى فيما يَحكِيه الله ـ تعالى ـ عن موسى عليه السلام: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، ويَقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] فلا ريْب أنَّ النسيان بِالمعنى الحقيقِي مُستَحِيلٌ على الله تعالى إذ كيف يَكون الله ـ تعالى ـ ناسيا وهو سبحانه الذي لا يَعزُبُ عن عِلمِه شيء؟! كما أن علمه تعالى عِلمٌ ذَاتِي إذ يَعلَم كلَّ شيْءٍ، وإنَّما المراد بِقولِه: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ [الجاثية: ٣٤] أي «اليَوْمَ نُهْمِلُكُمْ»، وكذلك: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] يُرادُ به أَهْمَلَهُم الله تعالى وخَذَلَهم ولَم يُوفِّقْهُم لِلْخَيْر، فإذن لا بد مِن أن تُحْمَلَ الألْفاظ على مَعانِيها الصحِيحَة.

كما أن إِعطاء الكلمات القرآنية مَعانِيَ لا تَحتَمِلُها تَجَنٍّ على القرآن الكريم أيضاً.

ولا بد مِن الاستِهْداء بِأمْريْن اثْنيْن في فَهْمِ مَعانِي القرآن:

الأول: الاستِهْداء بِالعقْل الذي يُرْشِدُ الإنسانَ إلى المعنى الصحِيح، ولِذلِك نَجِدُ في القرآنِ الكرِيم أنَّ الله تعالى يُبَيِّن أنَّ هذه الآيات التي أَنْزَلَها

إنَّما هِيَ لِقَــوْمٍ يَعْقِلُون فالله تعالى ســبحانه يَقُول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وكثيراً ما قال: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، و: ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [النحل: ٦٥]، و: ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٨]، و: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣]، و: ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣]، فلا بد مِن إعْمالِ الفِكْر واستِخْدامِه لِلوُصُول إلى حقيقةِ مَضامِينِ مَعانِي كلمات القرآن الكريم.

ومع هــذا نَجِد أنَّ كثيرا مِن النــاس يُغَلِّفُون عُقولَهــم، ويَحرِصُون على تَعامِيهِم عن حقائِقِ معانِي القرآن، بِحيثُ لا يَأخُذُون إلا الظّواهِر مِن غيْرِ أن يَغُوصُوا في الأعماق.

والعقْل لا يُعْطَى أَكْثَرَ مِن حَجْمِه إذ هو كســائِر الطاقاتِ البَشَــرِية إذ إن طاقَتُه مَحْدُودَة، وكما أنَّ الإنســان لا يَنْفُــذ بِبَصَرِه إلى مــا وراءَ الـحُجُب، فكذلِــك العَقْل لا يَنْفُــذُ به إلى مــا وراءَ الـحُجُــب الـمَعْنَوِية، وهــو يَتَأَثَّرُ بِالـمُؤثِّرات الكثيرة النَفْسِية والاجتماعية.

والثاني: هو اللغــةُ العرَبِية فالقرآن نَزَلَ بِاللّســانِ العربِي، فلا يُحَمَّلُ مِن المعانِي إلّا مَا تَحْتَمِلُه هذه اللغة العرَبِية التي نَزَلَ بِها والله أعلم.

وجوب الإيمان بالقرآن

هل الكلام الموجود في القرآن هو عين كلام الله؟

نعم هو كلام الله فقد قــال تعالــى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] ولا إشكال في ذلك والله أعلم.

الزيادة في القرآن أو النقص منه كفر. فهل الذي ذهب إليه بعض العلماء من أن البسملة ليست آية من القرآن، يعتبر كفراً؟

هناك غلط وقع فيه بعض المفسرين وغيرهم من الكتَّاب، فقد رووا عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: بأن البسملة ليست قرآناً؛ وهذا غير صحيح، فهو ينفي أن تكون آيةً من الفاتحة ومن السور التي كتبت قبلها، ولا ينفي قرآنيتها، لأن البسملة جاءت في سورة النمل، فلم يقل أحد بأن البسملة ليست قرءاناً؛ وإنما قال من قال بإنها ليست من الفاتحة؛ وهذه المسألة فيها شبهة، فلأجل الشبهة لا يصل الأمر إلى التكفير ولا إلى التفسيق، وقد ذكرت ذلك في التفسير[1] مع بيان أن الصحيح بأنها آية من الفاتحة الشريفة، والله أعلم.

ما المراد بالإيمان بالقرآن الكريم؟

أن يؤمن الإنسان بأن القرآن هو كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، وأنَّه اختتم الله ـ تعالى ـ به وحيه المنْزَل على أنبيائه كما اختتم أنبياءه ورسله بِمحمد ﷺ، وأن كُلَّ ما في هذا القرآن إنَّما هو حق مِن عند الله، على أن هذا الإيمان يَجب أن يتجسد في الواقع بِحيث تكون الأعمال مُتَنَاغِيَة ومُتَجَاوِبَة معه، فلا يَعْمل أيَّ عمل مِن الأعمال إلا وَهو تَجْسِيد لِهذا الإيمان كما يَدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٥ - ١٦]، و ـ كذلك ـ يَدلُّ عليه أن الله تعالى قال في بَنِي إسرائيل الذي أخذوا ما حلَا لَهم مِن التَّوراة وأعرضوا عما لَم يَحلُ لَهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، والآية الكريمة وإن كانت في بني إسرائيل إلا أن معنَاها ينطبق على هذه الأمة

(١) جواهر التفسير لسماحة الشيخ، ج١.

عندما تُعْرِض عما لَم يَحلُ لَهَا مِن القــرآن الكريم، ويَدُل على هذا ـ أيضاً ـ حديث أم المؤمنين عائشــة رضي الله تعالى عنها عندما أبصرت امرأة وقد لبست الرَّقيق من الثياب فقالت: «ما آمنت بسورة النور امرأة تلبس هذه الثياب»، فهذا كُلُّه مِمَّا يدل على أن الإيمان الحق بالقرآن يجب أن يتجســد في حياة المؤمن؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

مكانة القرآن

صَدَرَ كتاب باسم «الفُرقان الحق» وسَــلَّطَت بعض الـمجلات الضَّوء عليــه وبَيَّنَت هيكلته وما يتعــرَّض له، فقد جاء في طرحه بأســلوب لِجمع الأديان الثلاثة ويسمى مصحف الســلام الذي يُمكن أن يَجمع الأديان الثلاثة، ولعله يشــير إلى الإســلام والنصرانيــة واليهودية فهو يبتدئ بالفاتِحَة وأيضاً فيه ســورة اسْــمها الـمحبة وأخرى الـمســيح وأخرى الثالوث وأخرى الزنا والماكريــن والإنجيل ونحو ذلك، وفيه آيات يُطْلَق عليها لَفظ آيات ومِنها ما هو مُجْتَزَئ في بعضه من ألفاظ القرآن، ﴿يــا أيها الناس لقد كنتــم أمواتا فأحييناكم والذين اشــتروا الضلالة وأكرهوا عبادنا بالســيف ليكفروا بالحق ويؤمنوا بالباطل﴾.. ونحو ذلك، ما هو تعليقك على مثل هذه الإصدارات التي تُحَاكِي في مضمونِها وفي مَظْهَرها كتابا مقدَّسا كالقرآن؟

هذا تَصَــرُّف غنِي عن التعليق، فإنَّه لا يدل إلا علــى حَماقة الذين صَدَرَ منهم مثل هذا الكتــاب، فهم يُحارِبُــون الله من خلال مُحَاوَلَــة لَبْسِ الحق بالباطل، والدَّمْجِ بين الهدى والضلال، والجمع بين الرُّشْدِ والغَيّ، وهذا أمر مستحيل.

كتاب الله هو كلامه الذي صَانَهُ تعالى من أيـدي الـمُحرِّفِين وضلالات الـمضلِّلِين وفساد الـمُفْسِدِين، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، نَزَّلَهُ الله لِيَبْقَى مَصُوناً مِن أَيْدِي العابثين إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، وقد حاول مَن حَاول عبر التاريخ أن يَخْلِطَ ما بين القرآن وغيره، وأن يُثِيرَ الشُّـبَه حول القرآن الكريم ولكن مع ذلك كله ارْتَدَّ هؤلاء خَاسِئِين.

فعلى الذين يُحاولون الآن مثل هذه الـمحـاولات أن يُوَفِّرُوا مالَهم، وجهدهم، لأنه جهد ضائـع، وهذا الـمال الـذي يَصْرِفُونَه في هذا الأمر مال ضائع، إنَّما هـو كما قال الله تعالـى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فهـم ينفقون الأموال الطائلة من أجل الصَّدِّ عن سـبيل الله، ومن أجـل مُحاربَة الله ومُحاربة دينه ورسـوله ﷺ وكتابه الحق وعباده المؤمنين، ولكن مع ذلـك فإنَّ هذه النفقات الطَّائِلَة التي ينفقونَها لن تعود عليهم بالجدوى وإنَّما سـتعود عليهم بِالخَسـارة وهكذا سَيَظَلُّون يتحسَّرُون، بِسَبب أنَّ الإسـلام يَمتد شُعَاعه وينفُذُ نوره، وينتشر خيره في أَرْجَاء الأرض، يهدي الله به قلوباً غُلْفا، ويُبَصِّر به عُيُوناً عُمْيا، ويُسمِع به آذَاناً صُمّا، ويُخرج الله بِه الناس مِن الظلمات إلى النور ومن الباطل إلى الحق ومن الضلال إلى الهدى، فكم مِن إنسانٍ يَسْتَبْصِرُ بالإسلام الآن في هذا العالَم بعدما صار هذا الضَّجِيج ضد الإسلام وضد المسلمين وأُلصِقَ ما أُلصِقَ بكتاب الله وبِنَبِيِّ الإسلام مُحمد ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسـلام ـ وبِتَعَالِيم الحق التي جاءت مِنَ الله فقد ألصق بذلك كله مِن الشُّبَه والأكاذيب ما يهد الجبال ويزلزل الأرض ومع ذلك كله فالإسلام ينتشـر والحق يَتَجَلْجَلُ صوته لا يُخْفِتُه ضجيج

الجاهلية الحديثة العمياء التي تريد أن تُخْرِج الناس عن منهج الحق، وأن تَصُدَّ الناس عن سبيله، فصَوْته يَصِل إلى أَعْمَاق فِطَر الناس لأنَّه في الحقيقة صوت الفطرة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد ذَكَر الله مُحَاوَلات هؤلاء في سورة التوبة في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣]، وقال في سورة الصف: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨-٩]، فمهما كان كُرْهُهُم ومُحاولاتُهم وعزيمتهم وإرادتُهم فإنَّهم لا بد من أن يرْتَدُّوا خاسئين، ونَحن نَرَى في تاريخ الأُمَم التي حاربت الإسلام إلى أَيْنَ وصلت هذه المحاربة التي قامت بِها، ويكفي ما حدث أخيراً من مُحاوَلَة صَدِّ الناس فقبل ما يَقْرُب من قَرن مِن الزمن كانت مُحاولة زْوِيمَر[1] ومن معه أن يُنَصِّرُوا المسلمين في مدة خَمس وعشرين سنة، وأن يَقْضُوا على الإسلام في أيِّ بقعة من الأرض، وكان قد تعهَّد بذلك، واجتمعوا في مصر في منْزل عَرَابِي بَاشَا في باب اللُّوق في عام ١٩٠٦م، مِن أَجل مُحاوَلَة القضاء على الإسلام في مدة خَمس وعشرين سنة، وإذا بِهَذا الإسلام يَنْبَعِث من جديد، وإذا بِزْوِيمَر يَمتد به العمر حتى يَرى نُور الله تعالى يَسْطَع في بقاع الأرض، ويرى نفسه قد

(١) صموئيل زويمر أمريكي ١٨٦٧ - ١٩٥٢ اطلق عليه اسم الرسول إلى الإسلام وقد اعترف بفشله في التنصير في الجزيرة العربية خلال ربع قرن في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م.

خَسِر خُسْرَاناً مُبِينا وضاعت جُهُوده، وهكذا هؤلاء سَتَضِيع جهودهم بإذن الله مهما ضُوعِفَت ومهما أُنْفِق فيها من مال، وستَتَفَطَّرُ مِن ذلك أكبادهم وتَذُوبُ قلوبُهم عندما يَرَوْنَ دِين الله يَسْطَعُ في أرجاء الأرض ويُجَلْجِلُ صَوْتُه في جَنَبَات الوُجود، والله الموفق.

كيف يكون القرآن معجزة للعامة وقد جاء بلسان عربي مُبِين وفي الأمة مَنْ لا ينطق بهذا اللسان؟

إنَّ الله تعالى أرسل رُسُله تَتْرَى وأنزل كُتُبه تُتْلَى ليهلك مَنْ هلك عن بيِّنَة ويَحْيَا مَنْ حَيِيَ عن بَيِّنَة وقد اقْتَضَت حِكْمَتُه تعالى مِنْ أجل البيان أَنْ يُرسل كل رسول بلسان قومه ليبَيِّن لَهُم فقد قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] فقد أرسل موسى باللسان العِبْرِي وهكذا كانت دعوة عيسى عليه السلام وكذلك الرسل المُتقدمون مِنْ قبل إنما كانت ألسنتهم ألسنة أقوامهم، ولكن هذه الدعوة التي بُعث بِها رسول الله ﷺ مُصَدِّقة لدعوات المرسلين مِن قَبْل لم تكن محصورة في أمّة بِعَيْنِها، وإنما هي شاملة لجميع الناس على اختلاف ألسنتهم وعلى اختلاف أجناسهم وعصورهم منذ تِلْكُم البعثة الشريفة وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، فالناس جميعا مُخَاطبون بهذه الرسالة.

وقد هَيَّأَ الله سبحانه اللسان العربي لأن يكون لسانا يشتَمِلُ على هذه الرسالة المقدَّسَة إذ كان وعاء لَها حيث كان وعاء لكتاب الله الذي أنزله الله بلسان عربي مبين، وهذا اللسان هُذِّبَ بالأطوار التي مرت به طوْرا بعد طور حتى ارتقى إلى هذا الأَوْجِ الشامخ وَوَصَل إلى هذه الذِّرْوَة الرفيعة إذ كان هو اللسان المُتَهَيِّئ لأن يشتمل على هذه الرسالة المقدسة بِجميع أبعادها

وجَميع أسرارها ومزاياها فقد تميز بهذه الخصائص وقد هَيَّأَ الله تعالى الناس لِفهمه بحسب ما أراد الله أن يُيَسِّر القرآن لعباده وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧] فتيسير القرآن للذكر يعني تيسيرا للسان العربي ونحن نَجِد أنَّ الذين عُنُوا بالعربية عناية بالغة مُعْظَمهم كانوا مِنْ غير العرب حيث إنَّهم كانوا هم الذين فتَّشُوا عن أسرار اللغة العربية وسَبَرُوا أغْوَارَهَا ودخلوا في مَكَامِنِهَا وعرفوا ما تشتمل عليه مِن حكم بالغة وما تَنْطَوِي عليه مِن أبعاد سحيقة فجاؤوا بالخير الكثير.

ونَجد غير العرب يُشَرِّفُهُم أَنْ يكون هذا اللسان لسانهم حتى أنَّ الزمخشري وهو أعجمي يقول في فاتحة كتابه المفصل (الله أحْمَد على أن شَرَّفَنِي بأن جعلني مِن علماء العربية) فهو يَحمد الله ـ تعالى ـ على هذه النعمة نعمة تشريفه بِأَنْ جَعَلَهُ مِنْ علماء العربية مِن أجل الحفاظ على القرآن الكريم، وقد تيَسَّر لهم حفظ القرآن ووصلوا إلى ما وصلوا إليه مِن فهم معانيه وإدراك أسراره، فكان كثير مِنَ المفسرين بل أكثر المفسرين عجما، فالطبري والرازي والزمخشري والنيسابوري وغيرهم مِنْ أئمة العربية إنما كانوا مِنْ بلاد العجم سواء كانت أصولهم عربية أو مِن أصل أعجمي.

ومع هذا كله فإنّ الله تعالى يَسَّرَ أيضاً لغير العرب إدراك كثير مِنْ أسرار القرآن ـ وليس جميع أسرار القرآن ـ مِنْ خلال ترجمة معاني القرآن الكريم وإن كانت في الحقيقة لا تَفِي بِمَعاني القرآن أيُّ لغة إلا اللغة الخاصة به التي أنزله الله تعالى بها ولذلك عندما كُلِّفَ أحد المستشرقين الفرنسيين بأَنْ يُتَرجِم اثنتين وستين سورة مِن سور القرآن الكريم مِن قِبَلِ وزارتي التربية والخارجية في وقته وعُنِيَ بهذه الترجمة كَتَبَ مقدمة لترجَمَته جاء فيها ما معناه: «إنّ القرآن لا يُمْكن أن تَفِيَ

بِمعانيه لغة مثل لغته الخاصة ولا أسلوب إلا أسلوبه الخاص فهو أسلوب إلَهي ولذلك أعجز البشر بسحر بيانه».

وهذا يَدُلُّ على أنّ الإنسان إذا حاول أن يَسْبُرَ معاني القرآن الكريم مِنْ خلال ترجَمَة هذه المعاني إلى اللغات الأخرى لا يَتَوَصَّل إلى ما يتوصَّل إليه عندما يدرس اللسان العربي أوَّلا ثم يدرس القرآن بهذا اللسان العربي، ولكن مع ذلك اتَّضَحَ للناس مع هذه الترجمات الكثير الكثير مِنْ إعجاز القرآن الكريم وفهموا ذلك ولذلك نجد الكاتبين الذين كتبوا في إعجاز القرآن الكريم قد يكون بعضهم غير مُتَضَلِّعٍ في علوم العربية وغير قادر على استيعاب المعاني مِن خلال هذه اللغة بنفسها مِن غير ترجَمةٍ إلى اللغات الأخرى ولكن مع ذلك كله وصلُوا إلى أسرار القرآن التي وصلوا إليها واعترفوا بذلك وتَحَدَّثوا به وكم مِن كاتب كَتَب عن هذا السر الغيبي في هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل مِنْ بَين يديه ولا مِن خلفه، والله أعلم.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، هل يُمكن أن يُستنتج مِن هذه الآية أنَّ الناس قد هجروا القرآن الكريم؟

أنزل القرآن الكريم ليتلى وليعمل به، لا ليتلى فحسب، فإن تُركت تلاوته كان ذلك هَجراً له، وإن تُرك العمل به كان ذلك هَجراً له أيضاً، والله تعالى يقول لأهل الكتاب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وإذا كان أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يُقيموا التوراة والإنْجيل فإنَّ أمة القرآن ليست على شيء حتى تُقيم القرآن.

والله تعالى يقول: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[الجمعة: ٥]، وهـذه الآية تنطبق على هذه الأمة عندمـا لا تتحمل أمانة القرآن التي حُمِلَتّها ؟.

وقد بين الله ـ سبحانه ـ في آيات الكتاب العزيز وجوب الحكم بِما أنزل، والعمل به، فالله تعالى يُخاطب بَنِي إسـرائيل فيقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقـرة: ٨٢ - ٨٥]، فجعل الإعراض عما لَـم يتحملوه مِن وصايا الله تعالـى كفراً بالكتاب الذي أنزل إليهم، فكذلك هذه الأمة عندما لا تطبق أحكام القرآن الكريم تكون غير مؤمنة حقاً به، ولذلك عندما رأت أم المؤمنين عائشـة رضي الله تعالى عنها امرأة عليها ثياب رقاق قالت: «ما آمنت بسورة النور امرأة تلبس هذا».

ويقول الله سـبحانه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائـدة: ٤٤]، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [المائـدة: ٤٧]، ثم يقول: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائـدة: ٥٠]، ويقول خطاباً لنبيه:

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩]، هكذا يُخاطب الله نبيه، والأمة المسلمة فرّطت في هذا الكتاب العزيز، وقد كان الواجب عليها أنْ يكون نصب عينيها ومصدر أحكامها، وعباداتِها، وعقيدتِها وفكرها، وأخلاقها، ومصدر جَميع تصرفاتِها في حياتِها، وعندما تَحتكم إلى القرآن احتكاماً تاماً تكون مُستمسكة به حقا غير هاجرة له والله أعلم.

هل يجوز إعطاء المصحف المترجم إلى اللغة الإنجليزية للهندوس؟

المترجم ليس هو عين القرآن، فالقرآن أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين، هذا المترجم لا يمكن أن نقرأه في الصلاة، ولا نضفي له صفة القداسة الموجودة في القرآن، وإنما هي ترجمة للمعاني وليس ترجمة للنصوص، إذ نصوص القرآن لا يمكن أن تترجم قط، وإنما تترجم معانيه لأجل تقريبها إلى الأفهام، والله أعلم.

بعض أصوات التنبيه في الهواتف لاستقبال المكالمات عبارة عن أذان أو آيات قرآنية ويضْطَر مُتَلَقِّي المكالمة حتى يُبَاشر الحديث معها أن يَقْطَع هذا الأذان أو هذه الآية، فهل يصح وضع مثل هذه المنَبِّهَات في الهواتف؟

ينبغي أن يُصَان القرآن وأن يُصَان ذكر الله تعالى عن مثل هذه الأشياء، نعم لِذِكر الله ـ تعالى ـ مَجالات، لكن أن يكون وسيلة للتنبيه على وصول مكالَمَة بِحيث يقطع الإنسان الآية ولربَّما قَطَعَها في مكان وقف قبيح فذلك مِمَّا ينبغي أن يُصَان القرآن عنه والله أعلم.

يزعم بعض النحاة أن هناك بعض الزيادات في القرآن الكريم في الحروف، مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] يقول: إن الباء هنا زائدة، وقوله تعالى ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] والكاف هنا زائدة، فما منشأ هذه الأقوال وكيف الرد عليهم؟

هذه الزيادة إنما هي زيادة اصطلاحية ـ أي في مصطلح النحاة ـ ؛ فهم يعترفون أن لهذه الباء في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ معنى زائداً على ما لو ركب الإسناد دونها، فهي تؤكد نسبة المسند للمسند إليه، وإن كانت لو لم تأت في التركيب لكان الكلام سليما، فلذلك قالوا بأنها زائدة، مع كونها تفيد معنىً لولا وجودها ما أُستفيد، فهي من حيث المعنى غير زائدة، وإن اصطلحوا على وصفها بالزيادة، وهكذا يّطَّرِد هذا الحكم في كل الحروف التي وصفوها بالزيادة والله أعلم.

يقول أناس: إن القرآن مناقض بعضُه بعضاً، فما حكم هؤلاء، هل هم باقون على ملة الإسلام؟

لا، ليسوا باقين على ملّة الإسلام، فمن ادعى التناقض في القرآن فقد كذَّب القرآن. فالله تعالى نفى عنه التناقض حيث قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فالقرآن مَنفيٌ عنه التناقض بالعقلِ والنقلِ. لأن العقلَ يقتضي أنه لو تناقض لكان ذلك مشككاً في صحة نسبته إلى الله ﷻ، إذ يقضي العقل باستحالة أن يتناقض ما جاء من عند الله ﷻ، فإن الله ﷻ لا يخفى عليه شيء في وقت من الأوقات، فيقول فيه شيئاً، ثم يتبين له غيره فيقول فيه شيئاً آخر يخالف ما قاله من قبل، لأن علم الله علم أزلي قديم ليس بحادث ولا فان، والتناقض إنما هو نتيجة الجهل أو النسيان وكلاهما مستحيلان على الله ﷻ.

وأما اختلاف الأوامر وذلك بأن يؤمر بشيء تارةً ثم يؤمر بما يخالفه تارةً أخرى فهو نسخ، وليس هذا بتناقض ولا هو ببداء، فالبداء مستحيل على الله ﷻ، لأن الله لو كان تبدو له البدوات لكان كالخلق في جهلهم بالمآلات. أما النسخ فلأجل المصلحة التي هي معلومة لله تعالى أزلاً وأبداً، فهو يعلم صلاحية كلٍّ من الناسخ والمنسوخ في ميقاته، وقد قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فتبين بهذا أنه لأجل رعاية مصلحة العباد، فقد تكون مصلحة العباد منوطة بحكم، ثم تكون في وقت آخر منوطة بحكم آخر مخالف لذلك الحكم، ولذلك تختلف الشرائع مع اتفاق العقيدة التي بعث بها المرسلون، أما الأخبار فلا يمكن أن تختلف أبداً، وأما الدليل من النقل على عدم تناقضه فهو ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ والله أعلم.

قراءة القرآن وتدبره

يسأل عن النسيان الذي ورد في قوله ـ تعالى ـ في سورة طه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦].

النِّسيان هُنَا هو الإعراض فالله تَعَالى يقول:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] أي أعرضت عنها ولم تعمل بها، لأنَّ الذِّكْر جاء من الله تعالى ليُعمَل به وليُؤخَذ به في كل شئون الحياة، وما جاء لِمُجَرَّد التلاوة.

ولا ريب أنَّ الإنسان مأمور بأن يتَعَهَّدَ القرآن، بالعمل وبالحفظ لأنَّ الحديث عن النبي ﷺ: «من تعلَّم القرآن ثُم نَسِيَه حُشِرَ يوم القيامة أَجْذَم»[1]، وجاء في تفسير الأَجْذَم بأنَّه مقطوع اليد أي مقطُوع الأطراف.

واختلف العلماء في المُراد بالنسيان:

منهم من قال: المراد بالنسيان هو نسيان ألفاظه وذلك بأن يهمل تلاوة القرآن حتى ينساه فلا يستطيع أن يتْلُوَه كما كان يتلُوه من قَبل، فهذا النسيان يُتوعَّد عليه هذا الوعيد.

وقيل: المُراد بالنسيان هو ترك العمل به بِدَلالة الآية السابقة.

ومنهم من قال بأنَّه إنْ نَسِيه من غير ترك لِتِلاوته، وإنَّمَا كان نسيانُه لِمَرضٍ طَرَأَ عليه فلا حرج.

ومنهم من قال بأنَّه إن كان يُفرِّق بينه وبين الشِّعْر فلا حرج، وقال قطب الأئمة رَحِمَهُ اللَّهُ بأنَّ الأَولَى أن يُقَال: إن كان يُفَرِّقُ بينه وبين غيره.

والعلماء بين مُشدِّدٍ وبين مُرخِّصٍ في هذا، لكن إذا تَقَادَم حفظه للقرآن الكريم من غير قصدٍ لِتَرك تلاوته فَنَسِيَ شيئاً منه لا يُحمَل نسيانه على هذا الوعيد، وإنما مع ذلك يُؤمَر بأن يُحاوِل جهده بأن يَسْتَذكر ما نَسِيَ من القرآن، وأن يستمِرَّ على تلاوته، فنسيان القرآن لا ينبغي لأنَّه يُعَد إعراضاً عن القرآن، وإن كان الإعراض بِتَرْك العمل به هو أَعظم من الإعْرَاض بِتَرك تلاوته فحسب؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

كيف يُمكن أن يُربِّي المسلم نفسه على الارتباط بالقرآن الكريم بِحيث يستشعر الوجود بين سُطور آياته؟

(١) رواه الربيع (٦).

ذلك عندما يتعمق إيمانه بالقرآن، فإنَّ القرآن الكريم ليس كسائر الكلام، إنَّما هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه.

فعلى المسلم أن يشعر بأنَّ القرآن الكريم هو مَصدر هدايته، وأنَّه هو الترجمة الصادقة لنظام الكون ونَواميسه، وأنَّه المرآة الناصعة التي تنعكس عليها حقائق هذا الوجود، وأنَّه المنهج السليم الذي مَن سَلكه وصل إلى سلامة الدنيا وسعادة العقبى.

فعندما يتغلغل هذا الإيمان في أعماق النفس، ويقرأ الإنسان القرآن بتدبر وإمعان بِحيث يقف عند آياته، فيتأمل وعده ووعيده وأمره ونَهيه وحِكمه وأمثاله وحُكمه وإرشاده لا ريب أنَّه يتفاعل بذلك مع القرآن تفاعلاً ينغرس معه القرآن في نفسه حتى يَتَكَيَّف وفق تعاليمه في أخلاقه وفي معاملاته وفي كل تصرفاته وأحواله، والله أعلم.

المتأمِّل يجد أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ تبيّن فضل تلاوة القرآن الكريم، من ذلك ما ورد أنّ الحرف بعشر حسنات.. هل هذا الثواب هو للتلاوة المجرّدة أم للتلاوة بشرط التفكّر؟

لا ريب أنّ الإنسان لا يُطلَب منه أن يَتلو القرآن لاهيا غافلا فإن هذه التلاوة ليست لها قيمة وليست فيها روح، وهي بمثابة الجسم المتعفِّن الذي لا حَراك له ولا أثر له بل ربما يضرّ ولا ينفع، لأنّ تعفّنه يؤدي إلى نَتْنِ رائحته وإضراره بالناس، فكذلك شأنُ العبادة الفاقدة للروح، كالصلاة التي تفقد الخشوع، وكذلك تلاوة القرآن عندما لا يكون هنالك تدبّر وإمعان، ولا ريب أنّ كل أحد تعتريه الوسوسة، وتعتريه الغفلة، ويُحاول الشيطان أن يَلْبِسَ عليه أمره وأن يُبعِدَه عن التفكّر والإمعان لكن عليه

مغالبة ذلك وأن يحرص على أن يعالِج نفسه ويداوي أدواءه بهذا القرآن الكريم عندما يتلوه والله أعلم.

كيف يكون هجر القرآن الكريم..؟!

هجر القرآن الذي ذكره الله في قوله ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠] يصدق على ترك العمل به، كما يصدق أيضاً على الإعراض عن تلاوته، فإن كلا من ذلك هو هجر للقرآن، والذين يعملون بالقوانين والأنظمة والتشريعات المخالفة للقرآن الكريم اتخذوا هذا القرآن مهجوراً والله أعلم.

ما هو التغني بالقرآن وهل هو جائز مع العلم بأني قرأت حديث أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «اذا قرأت القرآن فرتله ترتيلاً ولا تغنوا به فإن الله يحب أن تسمع الملائكة لذكره»[(١)]، ولكني قرأت حديثاً لا أعلم صحته جاء فيه عن أبي لبابة بشير بن عبد المنذر أن النبي ﷺ قال: «من لم يتغن بالقرآن فليس منا»[(٢)]، فما الفرق بين الحديثين أرجو من سماحتكم الإجابة ؟

التغني الممنوع في حديث أبي هريرة عند الربيع محمول على تلاوة القرآن بالتطريب كألحان الغناء، فإن القرآن الكريم يجب تنزيهه عن ذلك، أما التغني به في الحديث الآخر فهو محمول على الاستغناء، لأن تغنى واستغنى يترادفان كتكبر واستكبر كما نص عليه الجوهري والهروي وغيرهما من أئمة اللغة، وعلى هذا حمله القرطبي في تفسيره، والله أعلم.

---

(١) رواه الربيع (٤).

(٢) رواه البخاري (٧٠٨٩).

الإيمان بالرسل



الإيمان بالرسل وأثره في حياة المسلمين

الإيمان بالرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان حسب تسلسلها في حديث جبريل عليه السلام، والإيمان برسل الله ـ سبحانه ـ واجب بنصوص الكتاب العزيز فلا يسع أحدا التردد في ذلك، فالله يقول:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ويقول ـ سبحانه ـ:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ورسل الله ـ سبحانه ـ المعنيون هنا هم الذين اصطفاهم لحمل رسالته وهم من جنس البشر، تنتظمهم الصفات البشرية العامة، فهم موصوفون بما يوصف به غيرهم من البشر، من الهم والحزن والفرح والسرور، والنوم واليقظة، والأكل والشرب، والمشي في الطرق، وجميع الصفات البشرية العامة، ولكنهم مع ذلك يختلفون عن سائر البشر من حيث إن الله ـ سبحانه ـ جعل صفاتهم أرقى من صفات البشر، فهم أوفر البشر عقلا وأحسنهم سيرة وأصفاهم سريرة، وأنورهم بصيرة، وأحسنهم سلوكا وأقومهم طريقا، لأن الله صنعهم على عينه وهيأهم لحمل أمانته واصطفاهم لأن يكونوا وعاء لنوره وهداة لخلقه، هؤلاء الرسل أرسلهم الله ـ سبحانه ـ للدعوة إلى توحيده وعدم إشراك أحد معه في عبادته قال ﷻ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل الرسل جاؤوا يدعون إلى عبادة الله ـ سبحانه ـ وعدم إشراك غيره في هذه العبادة ورسالاتهم تختلف من حيث

سعتها وضيقها، فقد يرسل الرسول إلى قومه خاصة وقد يرسل إلى ملأ أوسع من قومه، وقد تكون رسالة الرسول تعالج مشكلة بعينها بجانب مشكلة العقيدة كما هو معروف من شأن نبي الله ـ تعالى ـ لوط عليه السلام الذي كان يعالج مشكلة خلقية اجتماعية بجانب دعوته إلى عبادة الله ـ سبحانه ـ وعدم إشراك غيره في العبادة، وكذلك نبي الله شعيب عليه السلام كان يدعو قومه إلى عدم تطفيف المكاييل والموازين بجانب دعوته إياهم أن يعبدوا الله وحده وألا يشركوا معه أحدا من خلقه، ولا ريب أن أوسع هذه الرسالات جميعا من حيث انتظامها للبشر جميعا ومن حيث اشتمالها على حلول جميع المشكلات البشرية كلها رسالة محمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ الذي بعثه الله ـ تعالى ـ على فترة من الرسل خاتما للنبيين ومصدقا لما جاؤوا به من قبل، فالإيمان بما جاء به محمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ يعني الإيمان بما في تلك الرسالات السابقة كلها، لأننا تعبدنا باتباعه ونحن وإن كنا يجب علينا أن نؤمن بجميع أولئك الرسل من غير أن نفرق بين رسول وآخر منهم، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض فإنه يجب علينا أن نشخص رسول الله محمدا ﷺ من بينهم في إيماننا حيث لا يسعنا أن ندرجه معهم في الإيمان الإجمالي، وإنما علينا أن نخصه من بينهم، وإذا قامت علينا الحجة بمعرفة أحد بعينه من سائر الرسل علينا أيضاً أن نشخصه في إيماننا، كما إذا قامت علينا الحجة بمعرفة الرسل المذكورين في القرآن الكريم كنوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل، فإن علينا أن نؤمن بهؤلاء الرسل أنهم أرسلوا حقا من عند الله، ولكن الاتباع إنما يجب علينا أن نتبع نبينا محمدا ﷺ لأنه وإن كان بعث بما بعثوا به من قبل من الدين وهو توحيد الله وعدم إشراك غيره في العبادة إلا أن شريعته نسخت شرائعهم فلربما كانت هناك أشياء مشروعة في

رسالاتهم من قبل وكان ذلك تشـريعا آنيا موقوتا، أما التشريع الذي جاء به رسول الله ﷺ بعدما اسـتقر على ما هو عليه فهو تشـريع ثابت لا يأتي من بعده ما يرفعه من الشـرائع الأخرى، وإيماننا برسل الله وبعلو قدرهم ورفعة منزلتهم لا يعني أن نخرجهم من طور البشرية أو من صفات المخلوقين، فلا يجوز أبدا أن نصف أي أحد منهم بصفات الألوهية والربوبية، كما لا يجوز أبدا أن نعتقد أن أي أحـد منهم ابنٌ لله، فإن الله ما اتخـذ صاحبة ولا ولدا، فرفعة قدرهم لا تخرجهم عن طـور العبودية، بل هم عباد لله ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وقد وصف الله عبده ورسـوله محمدا ﷺ الذي هو خير الرسـل وأفضلهم بإجماع الأمة بصفة العبودية في مواضع متعددة، فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال سبحانه:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقـال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، فرسـالات هـؤلاء المرسـلين لا ترفعهم إلى مسـتوى فوق مسـتوى العبودية لله ـ سبحانه ـ، ولكنهم عبـاد أكرمهم الله بما أسـبغه عليهم من النعم وبمـا خصهم به من المزايا وبما وهبهم من المنايح.

هذا، وإيماننا بأولئك المرسـلين ليس هو إيمانا شكليا صوريا وإنما هو إيمان جوهري عميق يسـتولي على مشـاعر النفس ويجعل الإنسان يحبهم محبة تفوق محبته للناس أجمعين لأنهم مؤهلون لهذه المحبة من حيث إنهم جاؤوا بالهداية من عند الله، ومن شـأن الإنسان أن يحب من أسـبغ عليه نعمة ومن شـأنه أيضاً أن يحب من يراه يفوقـه في المنزلة والرفعة، ورسـل الله ـ تعالى ـ يفوقون الناس جميعا في المنزلة والرفعة

كما أنهم أيضاً جاؤوا بنعمة كبرى وقاموا بجهد كبير حتى وصل إلينا هذا الدين الحنيف ورسخت عندنا هذه العقيدة، فيدهم يد بيضاء على الإنسانية كلها ولذلك كانت محبتهم أمرا يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر، وبدون محبة هؤلاء الرسل لا يرقى الإنسان إلى أوج الإيمان، والنبي ﷺ يقول: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[1] ويقول أيضاً: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)[2]، فالإيمان الحق يقتضي حب رسل الله ومن بينهم نبينا محمد ﷺ حبا جما يجعل الإنسان يترسم خطواتهم ويتبع آثارهم ويقفو نهجهم ولا يخرج عن شريعتهم، ثم لا بد من أن يتجسد هذا الحب وهذا الإيمان في السلوك، فإن الإيمان والحب ليس مجرد دعوى، بل يقتضي اتباع المؤمن من آمن به، والحب يقتضي أيضاً تفاني المحب في هوى من أحب، ومتابعة الرسول ﷺ تعني اتباع سائر الرسل لأنه جاء بما جاؤوا به على أحسن الوجوه وأوسع الأبواب، وأشمل الأحكام، فمتابعة الرسول ﷺ من مقتضيات الإيمان برسالته، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمتابعة الرسول ﷺ والتأسي به من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، ويقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] فجميع رسل الله بعثوا بوجوب الطاعة لهم حيث إنهم يبلغون عن الله ـ سبحانه ـ، ويقول تعالى:

---

(١) رواه البخاري (١٥).

(٢) رواه البخاري (١٤).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ويقول ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، هذا هو الإيمان الحق بالرسل وهو أن ينقاد الإنسان لرسل الله كما ينقاد لله ﷻ، لأن الرسل مبلغون عن الله، فهم لا ينطقون عن هواهم وإنما ينطقون عن وحي الله، ولا يصل الإنسان إلى حقيقة الإيمان حتى يحكم رسول الله ﷺ تحكيما مطلقا ثم لا يجد أي حرج فيما قضاه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ لأن ذلك من قضاء الله، فلا بد من التسليم التام لما جاء به الرسول ﷺ من الأحكام والإذعان لها كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ويدل على هذا قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وهذا وعيد ليس بعده وعيد وتهديد ليس من بعده تهديد فهو ينذر الذين يخالفون أوامر الرسول ﷺ بأن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، وكثير من الناس ممن يدعي الإيمان بالله واليوم الآخر وبكتبه وبرسله إذا خوطبوا بشيء مما جاء به رسول الله ﷺ يقولون ليس هذا في القرآن، وهات دليلا من القرآن عليه، ومن أين لكم أن هذا أمر لازم مع أن القرآن لم ينصَّ عليه، أوليس في كتاب الله تعالى وجوب اتباع الرسول ﷺ وإلا فما معنى قوله ﷻ:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وما معنى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وما معنى قوله

ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وفي تقديم الجار والمجرور وهو قوله: ﴿فِي رَسُولِ﴾ إيذان بأن القدوة المطلقة لا تكون إلا في شخص الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ لأنه معصوم من عند الله ـ سبحانه ـ فأفعاله لا تخرج عن كونها تشريعا لأمته بخلاف أفعال غيره، فقد تؤثر على غيره المؤثرات الكثيرة بينما هو عليه أفضل الصلاة والسلام بخلاف الناس لأن أفعاله بلاغ عن الله كأقواله، وهي بيان لهذه الأمة فيما يأتون وما يذرون، ومن أجل ذلك وجب عليهم أن يتأسوا به، أما التأسي بغيره ﷺ فهو فيما وافق منهجه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، إذ أفعال غيره ﷺ لا تكون تشريعا لهذه الأمة بخلاف أفعاله ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، والرسل السابقون وإن كانوا أيضاً مبلغين عن الله، وأفعالهم لا تخرج عن دائرة الحق والصواب فإن شريعتهم أو شرائعهم قد نسخت بشريعة الرسول ﷺ ولذلك لم نتعبد باتباعهم إلا فيما جاء النص بوجوب اتباعنا لهم فيه، كما في قوله تعالى:﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]. يعني الله ـ سبحانه ـ بهذا أن فيما كان من إبراهيم عليه السلام تجاه أبيه وتجاه قومه من البراءة من أعمالهم المخالفة للحق أسوة حسنة لنا يجب أن نتأسى به في ذلك، إلا في قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، فإن هذا الاستغفار لمن كان على غير ملة الإسلام لا يجوز لنا، وإنما كان استغفار إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم، ثم أتبع الله ذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦]. تأكيداً لنا على وجوب هذا التأسي بهم، ومعنى ذلك أن من لم يتأس بهم في ذلك ليس هو ممن

يرجو الله واليوم الآخر، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤] أي من أعرض عن ذلك وانصرف عنه ولم يتأس بهم في ذلك فإن الله تعالى غني عنه، وهو كلام خارج مخرج التهديد كما في قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فالتأسي بأولئك الرسل السابقين قبل محمد ﷺ إنما يجب علينا فيما بين الله ـ تبارك وتعالى ـ مشروعية التأسي بهم فيه وإلا فلهم أعمال وصفات وأحوال، لا يمكن أن نكون مثلهم فيها لنسخ شرائعهم بشريعة نبينا محمد ﷺ، فقد قص الله ـ تعالى ـ علينا بعض الأنباء التي لا يمكننا أن نتأسى بهم فيها كمحاولة إبراهيم عليه السلام ذبح ابنه إسماعيل عندما رأى في المنام أنه يذبحه، وكذلك ما أخبرنا الله ـ تعالى ـ به من قصة يونس عليه السلام أنه ساهم فكان من المدحضين فلا يجوز لأحد منا أن يساهم على نفسه ويرمي بنفسه في البحر فتلك شريعة لسنا متعبدين بها وإنما حكى الله ـ تبارك وتعالى ـ ما حكى من شأنهم على سبيل القصص للاعتبار وأخذ الزاد الفكري من أحوالهم ومما كانوا عليه، فلا يجوز لنا أن نتأسى بهم في كل ذلك، فلا يجوز لأحدنا إذا رأى في المنام أنه يذبح ولده أن يحاول ذبحه ولا أن يساهم على نفسه كما كان من نبي الله يونس عليه السلام، أما نبينا محمد ﷺ فنحن متعبدون باتباعه في جميع أحواله إلا فيما قامت الحجة الشرعية على أنه مخصوص به، فإن للرسول ﷺ أيضاً خصوصيات لا يجوز لنا أن نتأسى به فيها، كجواز زواج أكثر من أربع نساء، فتلك خصوصية له ﷺ بالإجماع، أما ما لم تقم الحجة فيه بأنه مخصوص به ﷺ فإننا متعبدون بالتأسي به، إذ أفعاله ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ لا تخرج عن كونها مشروعة إما أن تكون واجبة وإما أن تكون مندوبة وإما أن تكون مباحة، فيجب علينا أن

نتأسى به في الواجب ويندب لنا أن نتأسى به في المندوب ويباح لنا أن نتأسى به في المباح وهو خير لناوالله أعلم

الإيمان بالرسل

لِماذا قُرنت دعوة النبي إبراهيم عليه السلام بدعوة النبي محمد ﷺ وكذلك في ابتداء الدعاء له مع أنَّ كل الأنبياء متساوون في الدعوة؟

هل يعني السائل بِهذا الدعاء، وهو الصلاة على محمد وعلى إبراهيم كما جاء في الحديث: (قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم)[١].

أو يعني بالدعوة هنا الدعاء الذي جاء في قول الله تعالى فيما يَحكيه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] إشارة إلى النبي ﷺ، ولذلك قال عليه أفضل الصلاة والسلام: (أَنَا دَعوة أَبِي إبراهيم)[٢]؟

فإنْ كان مراده الصلاةَ على الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وعلى إبراهيم وهي الصيغة المعروفة بالصيغة الإبراهيمية، فإنَّه قُرن بينه ﷺ وبين إبراهيم عليه السلام لأنَّه مِن أجداد النبي صلوات الله وسلامه عليه مِن ناحية، ولأنَّ الدعوة التي دعا بِها النبي وقام بِها إنَّما هي امتداد مِن حيث الأصول ومِن

(١) رواه الربيع (٥٠٥) والبخاري (٣١٨٩) ومسلم (٩٣٤).
(٢) رواه ابن حبان (٦٤٠٤).

حيث كثير مِن الفروع للدعوة التي قام بِها إبراهيم، وإن كانت دعوته أَعَمّ ومُهيمنة على دعوات المرسلين مِن قبل إلا أنَّها كانت تتفق في كثير مِن الفروع فضلاً عن الأصول مع دعوة إبراهيم.

أما الأصول فمِن حيث المعتقدات فإنَّ جَميع الأنبياء جاءوا بِمعتقد واحد، إذ لَم يكن هنالك تَناقض بين دَعوات الأنبياء، فكل رسول دعا قومه إلى عبادة الله كما يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ويقول: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وحَكى الله ـ تعالى ـ عن نوح وهود وصالِح وشعيب عليهم السلام أنَّهم جَميعاً قالوا لقومهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وحَكى الله ـ سبحانه ـ عن المسيح عليه السلام أنَّه قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ [المائدة: ٧٢].

فمن حيث الأصول تتفق الدعوات، ولكن هناك اختلاف في الفروع، فعبادات المرسلين يختلف بعضها عن بعض، فالمرسلون الذين سبقوا تُعبدوا بالصلاة وتُعبدوا بالزكاة، ولكن تَختلف صلاتُهم عن صلاتنا، وقبلتهم عن قبلتنا إلا إبراهيم، فقد تُعبد بأن يتوجه إلى هذه القبلة، ولذلك تَجدد بناء البيت الحرام في عهده ونادى في الناس بالحج إلى بيت الله الحرام، فالمناسك التي تُطبقها هذه الأمة هي مِن مَواريث هدي إبراهيم، فلذلك تَميز بأن كان يُصلى عليه مع نبينا صلوات الله وسلامه عليهما وعلى آلِهما.

ومع هذا أيضاً فإن إبراهيم دعا بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقد استجاب الله دعاءه فجعل الله له هذا اللسان لسان الصدق بِحيث يُذكر مع نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام استجابة لدعائه، وكل ذلك إنَّما كان مِن المزايا التي كانت من خصوصيات إبراهيم عليه السلام.

أما إذا كان مِن حيث إنَّه دعا مع ولده إسماعيل عليهما السلام أن يبعث الله في ذريتهما نبياً فهذا لأنَّ كل أحد يريد الخير لذريته وينظر إلى أنَّ حياته تَمتد بعده في حياتها لذلك يحرص على صلاحها وهداها إن كان من أهل الصلاح والهداية، فهو تَطلّع منهما إلى أن يغمر الله تعالى عباده بِخير يكون هذا الخير على يدي أحد مِن ذريتهما وكان ذلك هو رسول الله ﷺ والله أعلم.

ما الفرق بين النبي والرسول؟

الفرق بين النبي والرسول ـ حسب ما هو شائع ـ أنَّ النبي مَن أوحي إليه بشرع ولو لَم يُؤمر بتبليغه، والرسول مَن أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وعلى هذا فالفرق بينهما أنَّ الرسول أعم من النبي، إذ كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

ومنهم مَن لَم ير فرقاً بينهما، وجعل كل رسول نبيا وكل نبي رسولا والله أعلم.

عُزير هل هو نَبِي أو رسول أو ولي؟

في نبوة عُزير خلاف، وإنَّما أعاد الله تعالى على يديه التوراة إلى بني إسرائيل بعدما افتقدوها، وبذلك رُفع مِن شأنه ومُجِّد حتى غلا فيه مَن غلا إلى أنْ قال: بأنَّه ابن الله ـ تعالى الله عن أن يكون له ولد أو تكون له صاحبة ـ والله أعلم.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] معناها جماعات ولكن لماذا لم يكن معنى ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] جماعات أيضاً؟

القرائن هي التي تميز معاني الألفاظ بحسب اختلاف سياقها وللأمة معانٍ وقد دلت القرينة على أن المقصود بالأمة هنا الطائفة من الناس التي تمر عليها فترة من الزمن، فهذه الطائفة لا بد من أن يرسل إليها نذير يذكرها لتبقى دعوة الله إليها دائبة وحجته قائمة على العباد والله أعلم.

السائل يقول: ـ أنت قلت إن العقل محدود مثل باقي الحواس الأخرى، فهل عقل الرسل محدود؟ وعليه فهل تكون الرسل حجة لنا بعقولهم، أم بما أتوا به من شريعة من عند الله؟

الرسل هم مخلوقون كسائر الخلق، ولا ريب أن علمهم محدود وعقلهم محدود وطاقاتهم كلها محدودة وليست هناك صفة مطلقة إلا صفات الله تبارك وتعالى، فالله تعالى هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، أما المخلوق ـ أياً كان ـ فجميع طاقاته محدودة، وإلا لكان هناك شبه بين الخالق والمخلوق ـ تعالى الله عن ذلك ـ. فالرسل عقولهم محدودة، لا يدركون بها كل شيء ناهيك بما أمر الله به من كان أرفعهم قدراً وأجلّهم رتبة في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فالله ﷻ يأمر رسوله الأعظم ﷺ ـ في هذه الآية ـ أن يعلن أنه لا يعلم الغيب، فلا يمكن أن تكون هناك طاقة مطلقة في مخلوق أبداً، وليست هناك صفة مطلقة ـ كصفة العلم أو صفة القدرة ـ في المخلوق، ولكن بجانب ذلك فإن الرسل هم أوفر البشر عقلاً، وأسلمهم فطرة، وأطهرهم سريرة وأنورهم بصيرة، وأقومهم سيرة، لأن الله تعالى أعدهم لحمل هذه الرسالة فهم لو قيسوا بسائر الخلق لكانوا أسمى من جميع الناس، إلا أنهم لا يمكن أن يقاسوا بالله تبارك وتعالى الذي لا حد له في ذاته ولا في صفاته والله أعلم.

هل بعث الله رسلاً خلال الفترة بين النبي موسى والنبي عيسى عليهما السلام وكذلك بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد ﷺ؟

بعد نبي الله موسى عليه السلام أرسل الله سبحانه وتعالى أنبياء من بني إسرائيل يؤدون إلى بني إسرائيل نفس الرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام، ويدعون إلى العمل بالتوراة قال تعالى

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وأما بعد سيدنا عيسى عليه السلام فليس هناك ما يدل على أن الله تعالى أرسل رسولاً قبل نبينا عليه الصلاة والسلام، وإنما رسوله كان عيسى عليه السلام، وبين المسيح عليه السلام والنبي ﷺ ما يقارب ستة قرون، لأن النبي ﷺ ولد حسبما يقول الكثير من الكتّاب في شهر إبريل عام ٥٧٠ للميلاد، ومنهم من قال بأنه ولد ﷺ عام ٧٧١ للميلاد، وبالمقارنة يتبين أنه ولد في عام٥٧٢ للميلاد، لأن الرسول ﷺ بُعث في عام٦١١ بدليل أن الله سبحانه وتعالى أنزل عليه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ في العام الخامس للبعثة قوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝١ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٢-٥]، كما ذكر ذلك المفسرون وغيرهم، وكان هذا بعد الانتصار الساحق للفرس على الروم، وكان هذا الانتصار سنة ٦١٦ للميلاد فإذا بعث النبي ﷺ في العام الحادي عشر بعد الستمائة للميلاد، وبعث الله سبحانه وتعالى سيدنا محمد ﷺ على رأس الأربعين من السنين القمرية، فيترتب على هذا أن يكون عمره آنذاك تسعة وثلاثين عاماً من السنين الشمسية كما هو معهود في التفاوت بين السنين الشمسية والقمرية، فتبين من هذا أنه مولود عام ٥٧٢ للميلاد والله أعلم.

هل شيت ودانيال نبيان؟

قال ذلك بعض المفسرين، ولكن ليس لدينا نص قاطع نعتمد عليه، والنبوة إنما تثبت بالنصوص القطعية، والله أعلم.

السائل يسأل عن القراءة التي في الآية «لقد جاءكم رسول من أَنفَسِكُم»؟

قرئ بذلك. وهي تعني أن الرسول ﷺ من أنْفَسِ البطون في الشرف والله أعلم.

عندما يذكر النبي ـ محمد صلى عليه وسلم ـ يقال: «صلى الله عليه وسلم»، بينما عندما يذكر أحد الأنبياء يقال: «عليه السلام»، ما السبب في ذلك؟ وهل من حرج إذا قيل: «صلى الله عليه وسلم» عند ذكر أحد الأنبياء؟

يجوز الكل في الكل[١]، وإنما خص نبينا ﷺ. بذلك للأمر به في القرآن ولعظم منزلته، والله أعلم.

معلوم أن الأنبياء والمرسلين جاءوا مبشرين ومنذرين، وقد علمنا من خلال بعض الكتب ما قيل عما أصاب النبي أيوب عليه السلام من مرض وصل به إلى أن يأكل الدود من لحمه، ومعلوم أن هذا منفر ولا يتفق مع كونه مبلغاً، وقد رد هذا بعض العلماء وقالوا إنه من الإسرائيليات فما قولكم في ذلك؟

ثبت بنص الكتاب ابتلاء أيوب عليه السلام، وشكواه إلى الله من الشيطان أنه أخذه بنصب وعذاب، وشكواه إلى الله أنه مسه الضر، كما ثبت في الحديث أن أشد الناس بلاءً الأنبياء، وأن المؤمن يبتلى بقدر إيمانه[٢]، فلا عجب في

---

(١) يجوز قول عليه السلام في ذكر النبي محمد والأنبياء والرسل جميعاً كما يجوز أن تقول عند ذكر بقية الأنبياء صلى الله عليهم وسلم.

(٢) رواه النسائي (٧٤٨١).

أن يصاب نبي من الأنبياء بما يثقل على النفوس، وليس في ذلك تنفير لمن كان ذا لب، على أننا لا نحدد نوع البلاء الذي ابتلي به أيوب وإنما نوقن أنه بلاء جسماني أرهقه، وقد ابتلي يعقوب عليه السلام بفقدان ولده وذهاب بصره وطول حزنه وأسفه، وهو مما نص عليه القرآن، فهل يقال إنه من الإسرائيليات؟ والله المستعان.

ما حكم تصوير الأنبياء في بعض الكتب، بقصد ترسيخ قصة النبي والأحداث للأطفال، ولتعليم الأمي بقصص الأنبياء؟

يجب تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن تصويرهم أو تمثيلهم، ولذلك نجد فتاوى العلماء مطبقة على أن تصوير الأنبياء عليهم السلام حرام وكذلك تمثيلهم، ومن المعلوم أن الطفل عندما تعرض عليه صورة على أنها صورة أحد الأنبياء يرسخ في نفسه أن تلك هي صورة ذلك النبي، وفي هذا من المحاذير ما لا يخفى، وكفى بما فيه من الزور، فمن الذي أخبر المصور أن تلك هي صورته؟ والله تعالى أعلم.

هل يجوز تمثيل السيدة مريم عليها السلام أو الصحابة والصحابيات؟ وما حكم النظر إلى مثل هذه المسلسلات؟

هذه قضية خطيرة جداً نظراً إلى أن هذه المسلسلات يراها العاقل والجاهل، والفطن والغبي، والكيس والأحمق، والكبير والصغير، ومن المعلوم أن الطفل الصغير أو الشخص الذي ليست فيه كياسة ونباهة عندما يرى هذه المسلسلات ترتسم في مخيلته تلك الصورة ويحسبها هي عين صورة الممثَّل، فقد يظن أن تلك الممثلة هي مريم عليها السلام نفسها، وقد يتصور عندما يشاهد تمثيل الأنبياء أو الصحابة أن ذلك الممثل هو نفس النبي أو نفس الصحابي اللذين يمثلهما، فلذلك ننصح بترك هذا النوع من التمثيل،

ولو وقــع ذلك فإنا ننصح بعدم متابعته والنظر إليه خشــية أن يؤثر ذلك في الأطفال أو غيرهم، والله ـ تعالى ـ المستعان.

يقول الله سبحانه في وصف نبيه ﷺ ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فهل معنى أن الرسول أميّ: أنه لا يقرأ ولا يكتب، أم أنه مجرد لقب للرسول لأنه أرســل إلى قوم أميين، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

الرســول ﷺ لم يكن يقرأ ولا يكتــب، ودليله من القــرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ - ٤٩]، فهذا نص على أمية النبي ﷺ وبيان لهذه الأميــة بأن معناها عدم القراءة والكتابة، وتواترت الأخبار بذلك، وأجمعت الأمة عليه بلا خلاف، إلا من ظهر من الزنادقة من الذين أخذوا يدّجلون على الناس، ويزعمون أن النبي ﷺ كان يكتب ويقرأ، ولو كان الرسول ﷺ يقرأ أو يكتب شــيئاً لأُحتفظَ بشيء من كتابته، مع أن كل شــيء له علاقة بالرســول ﷺ ما زال يُحتفظ به، حتى شــعره ما يزال يحتفظ به، فكيف لا يُحتفظ بكتابته، والله أعلم.

هل سيدنا إبراهيم ولوط عليهما السلام بُعِثَا في زَمَن واحد، وإذَا كانا كذلك فَهل هُمَا في مَكَان مُتَقَارب؟

نعم، كان بَعْثُ إبراهيم ســابقاً عَلَــى بَعْثِ لوط، وبَعْــثُ لُوط في وقت إبراهيم عليه السلام، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى عِندَمَا ذَكَر دعوة إبراهيم عليه السلام قَوْمَه أن يَنْبُذُوا عبادة الأصنام، وأن يَتْرُكُوا مــا كانوا عليه مِن أَمْر الجاهليــة، أَتْبَع ذَلك قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وَمَعْنَــى ذلــك أن لوطــاً عليه السلام قبل أن يُشــرَّف

بالرِّسَالَة آمن بإبراهيم عليه السلام، ثُمَّ يَدُل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢]، فإبراهيم عليه السلام ذَكَرَ أنَّ فِي تِلْكُم القَرْيَة لُوطاً وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اتِّحاد زَمَنِهما وَتَقَارُب مَكَانِهما، والجميع كانوا ببلاد الشَّام، وإبراهيم عليه السلام كان في الأرض المقَدَّسَة، ولوط عليه السلام كان في جانب منها وتدل الشواهد على أن قريته طمى عليها البحر الميت والله ـ تعالى ـ أعلم.

وجوب طاعة الرسول ﷺ

هل يُعتبَر عَمل العالِم حُجّة؟

ليس عمل أحدٍ حُجَّة إلا الرسول ﷺ، فالله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فقدَّم ﴿فِي رَسُولِ﴾ على ﴿أُسْوَةٌ﴾، ومعنى ذلك أنَّ التأسِّي يَجب أن يكون بالرسول وحده.

نعم يُستَأنَس بِفِعل العالِم إذا كان ورعا نزيها مُتيَقِّظا مُتبيِّنا عندما يقْدم على فعل، أمَّا أن يكون حُجَّة فلا لأن الحجة في فِعل الرسول ﷺ، فهو المَحْفُوفُ بالعِصمَة الذي لا يَنطِق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحَى، لذلك يَجب أن تُحصَر الأُسْوَة فيه وحده ﷺ كما يُؤذِن بذلك تقديم المعمُول في الآية الكريمة.

ونَحن نَجد أنَّ الله عندما أراد أن يَحُثَّ الأمة على التأسِّي بإبراهيم ومَن مَعه بَيَّن الأمر الذي يُتأسَّى فيه بإبراهيم لأنَّ النبي ﷺ بعدما بُعِث بِهذه المِلَّة الحنيفِيَّة كانت شَريعته هي التي يَجب تطبيقها، وعَمله هو الذي يَجب أن يُقتَدَى به، فقد قال سبحانه:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]. أَي إلا هَذا الاستغفار الذي استغفَره إبراهيم لأبيه ليس لنا أنْ نَتأسَّى به فيه، فلا نستغفِر لأحدٍ مِن الكفار، كيف ونَبِّي الله ـ تعالى ـ نوح عليه السلام الذي لَبِث في قومه ألف سنة إلا خَمسين عاماً يَدعُوهُم إلى الله ويأمُرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُبيِّن لَهم مَعالِم الحق ويُقيم لَهم دَلائل التوحيد، عندما قال كلمة واحدة في ابنه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]، عُوتِبَ على ذلك، ورَدَّ عليه ربنا تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، فَلِكَوْنِه عَمِل عملاً غير صالِح لَم يَجُز أنْ يَجعله مِن أهله وأن يستغفر له مع أن استغفار نوح كان بِمجرد التعريض لا بكلمة صريحة حيث قال:

﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، وقرأ الكسائي مِن القُرَّاء السَّبْعَة: (إنه عَمِل غير صالح)، وهذه القراءة قرأ بِها أربعة مِن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ وهم عَلي وعائشة وأبو هريرة وأنَس بن مالك، وفي هذا إيذَان بأنَّ صاحِب العمل غير الصَّالِح يُترَك وشَأنه فلا يُستغفر له، لذلك قال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٥]، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦] على أن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان لسبب بينه تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، فالاستغفار كان لأجل الحرص على أنْ يُوفي بِوعده وأن لا يُخلف أباه ما وعده، فَلِذَلك استغفَر له، ولَمَّا تَبيَّن لَه أنَّه عدو لله تبَرَّأ منه:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، فالتأسي إنَّما هو بالرسول في كل دقيقة وجَلِيلَة إلا ما تبيَّن أنَّ ذَلك خَاص به ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بِحيث دلَّ الدليل الشرعي على أنَّنَا لسنا مِثله في حُكمِه ﷺ في ذلك الأمر خاصة؛ والله أعلم.

هل يعتبر الإنسان ناقص الإيمان إذا كان لا يعمل بسنة رسول الله ويقول إنه سنة والسُّنَّة غير واجبة؟

سنة رسول الله ﷺ إما أن تبين أمراً واجباً، أو تفرض على الإنسان أمراً جازماً، وذلك أن تدل على مؤاخذة تارك امتثالها أو حرمانه من الخير فهذه سنة لا بد من اتباعها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] فالرسول ﷺ إذا قال: افعلوا كذا ولم تكن هناك قرينة تصرف هذا الأمر من الوجوب إلى الندب أو غيره، أو قال: لا تفعلوا كذا ولم تكن هناك قرينة تصرف هذا النهي من التحريم إلى غيره فهنا يجب الامتثال، أما في الفضائل فإذا تركها ولم يقصد الإعراض عن سنة رسول الله ﷺ فلا حرج عليه، ولا يقال إنه خلع ربقة الإيمان من عنقه أو إنه نقص إيمانه.

هذا وقد بيّن الرسول ﷺ أشياء كثيرة واجبة على الناس، فمثلاً نص على مخالفة المشركين في أمور كثيرة، وبعض الأعمال فرضها على المسلمين وجعلها من السمات التي يتميز بها المسلم عن غيره، فهنا لا بد من امتثال ذلك، ولكن الناس انجرفوا وراء التيارات انجرافاً، مع أن الله ﷻ يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢] فبين الله في هذه الآيات أن الذين

يوالون هؤلاء مصابون بمرض نفسي، ومن هذه الموالاة الاتباع والتقليد، وقد بلغ الأمر بالرسول من الدقة في هذه الناحية أنه كان يأمر أصحابه بمخالفة الكفار حتى في الأمور العادية، فقد مر على رسول الله ﷺ وأصحابه يهودي وهم كانوا في حال دفن ميت وكانوا قياما، فقال اليهودي: هكذا تصنع أحبارنا، فقعد رسول الله ﷺ وأمر الرسول أصحابه بالقعود مخالفة لليهود[1] والله أعلم.

ما هو السبب في تأخر المسلمين عن الحلق في غزوة الحديبية؟

تأخر المسلمين عن الحلق للتحلل من عمرتهم عندما أمرهم الرسول ﷺ بذلك لا يعتبر شكاً في أوامر الرسول ﷺ ولكن تلك جِبِلَّة بشرية، فقد كانوا يتطلعون بكل لهفة وشوق إلى رؤية بيت الله الحرام، وقد صدوا عنه وحيل بينهم وبين اكتحال مآقيهم برؤيته وما بينهم وبينه إلا أميال، وقد عدوا هذه مصيبة عظيمة على حسب ما كانوا يأملون، فغلبتهم في هذه الناحية الطباع البشرية، وبقوا منتظرين بسبب هذا التلهف، ولا يعني هذا شكاً في كلام الرسول ﷺ أبداً والله أعلم.

عصمة الرسل

يَضُجُّ العالَم الإسلامي استِنْكَاراً على ما صَدَرَ مِن إِحدى الصُّحُف النرويجيَّة مِن رَسْم صُوَر تُخِل بِمَكَانةِ النبي ﷺ ونَوَدُّ تَعلِيقَكم حِيَال هذا الأَمر.

إنَّ مَقَامَ النبوَّة مَقَامٌ عَظيم فهو مقامُ اصْطفاءٍ من الله تعالى، الذي اصطَفَى مِن خَلْقِه أولئك الصَّفْوَة الكرام الذين حَمَّلهم أمانَتَه، وجَعَلَهم مستودَعاً

(١) رواه أبو داود (٣٧٨) الترمذي (١٠٣٦).

لرسالته، وجعلهم هُدَاةً للعالَمين، يُخرِجون الناس من الباطل إلى الحق، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الغَيِّ إلى الرُّشْد، ومن التشتُّتِ إلى الاجتماع.

وقد أَتَمَّ الله على عباده النعمة، وأكمَل لَهم الدِّين إذ بَعَث فيهم عبده ورسوله مُحمداً مُصدِّقاً لِرِسَالات جَمِيع المرسلين من قَبله ومُهَيْمِناً عليها جَميعاً بِما أُنزل عليه من رسالة جامِعَة لكل ما تَفَرَّق في تلكم الرسالات مِن خير، وقد كانت رسالته ﷺ مُتميِّزة بِمَزَايا متعدِّدة، مِن بينها الشمُولِيَّة والدَّوَام، وأنَّ مُعجزتَها تَكْمُن فيها، فهي المعجزة التي لا تَرْقَى إليها أيَّة معجزة من المعجزات، كما أنَّها مُعْجِزة خَالِدَة خُلُود هذه الرسالة نفسها.

ومن المعلوم أنَّ الإسلام يَجْعَل أيَّ اجْتِرَاء يُخِلُّ بِمقام هؤلاء الصَّفْوَة الذين اصطفاهم الله تعالى مُخِلًّا بالعقيدة ومُخرِجاً للإنسان من الإيمان إلى الكفر ومِن الحق إلى الباطل، فالإنسان المسلم يُطالَب أن يُعظِّم جَميع رُسل الله فكيف بالرسول مُحمد ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام ـ الذي اصْطَفَاه الله واختاره لِحَمْلِ هذه الرسالة الجامعة المَانِعَة التي جاءت رحمة للعالمين كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وأيُّ اجْتِرَاء من أيِّ أحد في أيِّ بقعة من العالَم على هذا المقام العظيم مَقام النبوَّة يعنِي ذلك اجتراءً على الأمة الإسلامية كُلِّها في أعظم مُقَدَّسَاتِها، ولا يَجوز للأُمَّة المسلمة أن تَسْكُت على هذا الأمر، إنَّ جَميع المسلِمين مطالَبُون بأن يقفوا وقفَة واحدة تِجَاهه، وأن يُعْلِنُوا سَخَطَهُم على هذا الواقع، وأن يُواجِهُوا هذا التحدِّي العظيم الذي تحدوا به في أَقْدَسِ معتقداتِهم، ثُم إنَّه مِنَ المَعلُوم أن المسلم لا يرضى بِمثل هذا في أيِّ نبِي من الأنبياء، إذ عقيدة الإسلام إنَّما تقُومُ على

الإيمان بِجميع النُّبُوَّات والرسالات وبِجميع ما أُنزِل على أولئك المرسلين من غير تَفْرِقَة، فنحن نؤمن بالتوراة المنْزَلة على موسى عليه السلام التي لا تَحْرِيف فيها ولا تبدِيل، ونؤمن بالإنْجيل المنْزَل على عيسى من غير تَحريف ولا تبديل، ونؤمن بِصُحُف موسى وإبراهيم عليهما السلام، وكل ما أُنْزِل على المرسلين قَبْل النبي ﷺ ولا نُفَرِّق بين هؤلاء المرسلين، فلا يَجوز أبداً أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإنَّ الله تعالى يقول:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ثم يقول: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ويقول سبحانه: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤]، ويقول تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالمسلم يؤمِن بِجميع هذه الرسالات مِن غير أن يُفَرِّق بين رسول ورسول بِحيث يؤمن ببعض ويكفر ببعض، لأنَّ الكفر بأحَدٍ من أولئك النبيِّين كالكفرِ بالجميع، والكفر ببعض ما أنزله الله على أيِّ نَبِي من الأنبياء يعتبَر كفراً بِجميع ما أنزله الله على جَميع المرسلين، لذلك يقول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

وإذا كنا نَحن نُقدِّس جَميع هذه الرسالات ولا نَجْتَرِئُ على رِسَالة سَماوِيَّة من رسالات الله تعالى، ونُؤمن بِجميع أولئك المُرسلين ونعتَبِرهم لنا أَئِمَّة في الهُدَى وقدوة في الاهتداء فإنَّ على كل مَن آمن برسالة سَمَاوِيَّة فيما يزعم أن يُشَارِكَنا في هذا الأمر، وألا يَجْتَرئ على أيِّ شيء مِن مقدَّسَاتِنا، وألا يَجتَرِئ على النَّيْل من مَقَام هذه الرسالة التي بُعِث بِها الرسول ﷺ ولا مِن قَدْرِ المُرسَل عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.

ثُم مع ذلك نَحن نَجد أنَّ هذا الكتاب الخاتِم الذي أنزَلَه الله على نبيِّه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ جعل لأَهل الكتاب مَكَانَة خَاصة، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، بل وَصَل الأمر إلى أن يفْرَحَ المسلمون بِانْتِصَار الروم النصارى على الفرس المَجُوس عندما كانت الحرب الضَّرُوس تدور بين الإمبراطوريتَيْن الكُبْرَيَيْن اللتين كانتا تتقاسَمَان مُعظَم العالَم المتحضِّر في ذلك الوقت، فقد حزن المسلمون عندما هُزِم الروم النصارى بِسَبَب كَوْنِهِم أهل كتاب، وقد أنزل الله في ذلك ما يدُلُّ على أنَّ المقاييس ستَنْقَلب، وأن الموازيين ستتبدَّل، وأنَّ الغالب سيكون مَغْلُوبا، والمنتصِر سيكون منتصَرا عليه، والمنتصَر عليه سيكون منتصِرا وذلك في قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [الروم: ٢-٥]، فهذا مِمَّا يَجب أن يعتبِر به الآخرون، وأن يُدْرِكُوا أنَّ الإسلام لا ينال من أيِّ رسالة مِن رسالات الله بل يَفْرِضُ الإيمان بِها جَميعاً على أتباعه، فَمِن هُنَا كانت المعاملة بالمثل ضرورة مُلِحَّة، ولا نرضى بالاجْتِرَاء على أي شيء من مقدَّسَاتِنا، ولا نَقر ذلك أبداً والله المستعان.

هُنَا بَعضُ المقُولات مِن كُتَّاب وفَلاسِفَة مِنها مَقُولة لدكتور مِن النمسا إذ يَقول: «إنَّ البشرية لَتفتخِر بِانتساب رَجُلٍ كَمُحمد إليها إذ إنَّه رغم أمِّيته استطاع قبلَ بضعة عشر قرْنا أن يأتي بتشريع سَنَكُون نَحن الأوربيين أَسْعَدَ ما نَكون إذا تَوصَّلْنا إلى قِمَّتِه»، وَوِيلز ـ البريطاني ـ يَقول في كتابِه «معالِم تاريخ الإنسانية»: «كلُّ دِينٍ لا يَسِيرُ مع المدَنِية فاضرِب به عُرْضَ الحائط ولَم أَجِد دِينا يَسِير مع المدَنِية أَنَّى سارَتْ سِوى دِين الإسلام»، وآخر رُوسِي وهو الفيلسوف تُولِسْتوِي يَقول: «ومِمَّا لا ريْبَ فيه أنَّ النبي مُحمدا كان مِن عِظام الرِّجال المصلِحين الذين خَدَموا المجتمَع الإنساني خِدمةً جلِيلَة، ويَكفِيه فخْرا أنه هَدَى أُمَّةً بِرُمَّتِها إلى نورِ الحق وجَعَلَها تَجنَح لِلسكينةِ والسلام وتُؤثِر عِيشةَ الزُّهد ومَنَعَها مِن سَفْكِ الدماء وتَقدِيم الضَّحايا البَشَرية وفَتَحَ لَها طرِيقَ الرقي والمدَنِية، وهو عَمَلٌ عَظِيم لا يَقُومُ بِه إلا شخصٌ أُوتِيَ قُوَّة، وَرَجُلٌ مثلُ هذا جَدِير بِالاحترام والإكرام»، ما تَعلِيقُكم على مثلِ هذه الكتابات والانطباعات في مُقابِل ما نَجِد مِن التصرِيحَات الحالِية؟

هذه الكتابات لا ريب أنَّها تَصْدُر من قومٍ أدرَكُوا بِعُقولِهم مكان النبي ﷺ وعِظَم الرسالة التي جاء بِها والدِّين الذي بعثه الله تعالى به.

فالنبي ﷺ ما اخْتَارَه الله ـ تعالى ـ لِحَمْلِ هذه الرسالة العُظْمَى التي اجتمع فيها ما تَفَرَّق في الرسالات الأخرى مِن خَير، والتي كتب الله ـ تعالى ـ لَهَا الخلود إلى قيام الساعة؛ وذلك لأنَّ الله أَهَّلَه لأنْ يكون الرسول الذي اجتمَعَت فيه خصائص المُرسلين جَميعاً، فهو ﷺ يتميز بِما فَطَره الله عليه من خير، وما آتاه من مَواهب، وما رَفَعَه إليه من مَكَانَة، وحَسبُكُم أنَّ الله تعالى يقول في وصفه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فهذا وصف تتقطَّع دونه الأَلْسُن، وتَجِفُّ دونه الأقلام، فلا يستطيع أحد أن يأتي

بِمثله في وصف أحد مِن خلق الله أَيّاً كان، وهذا يعنِي عِظَمَ شَأْن الرسول ﷺ إذ رسالته رحْمَة للعالَمين جَمِيعاً، والعالَمون جَمع عالَم، والعالَم يَصدُق على كل ما كان علامةً ودليلاً على وجود الله تعالى.

ثم إنَّ الذي وصف النبي ﷺ بِمِثل هذه الأَوصاف أَدْرَك كيف كان تأثير الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ في حَيَاة البَشَر، إذ أَخْرَجَ هذه الأمة مِمَّا كانت فيه وعليه من الضلالة والفساد والانْحِطَاط والجهل إلى مَا انْتَقَلت إليه من الهدى والرُّقَي والعِلم والاجتماع والمعرفة حتى صَارَت خير أُمة أُخرِجت للناس.

إنَّ تاريخ البشرية يدُلُّ على أنَّ المصلحين الذين يحاولون إصلاح جوانب من حياة الناس يظَلُّون فترة طويلة وهم يعالِجُون مُشكلات البشر التي يَنُوؤُون بِعِلاجها، ثم يَخلُفُهم مَن بعدهم مِمَّن يسير على خطواتِهم، وبعد قُرُون وقُرُون تكون النتيجة فيَحصل شيء مِن التحوُّل في حياة الناس إلى شيءٍ من الخير.

وانتقال أمة بأسرها في ظرف عِقْدَيْن من السنين مِمَّا كانت فيه وعَلَيه من الانْحطاط والفساد والضلال إلى ما انْتَقَلَت إليه من الرُّقَي والصَّلاح والهدَى لَيس بالأمر اليسير بل هو أَمر عَسير، وكما يقول أَحَدُ علماء الاجتماع الغربِيِّين: «ما عَرَف التاريخ فاتِحا أَرْحَم مِن العَرَب» نَعم مَا كَان العرب كذلك، إنَّما كانوا في مُؤخِّرة الأمم، فهم كما يصفهم الأستاذ الرافعي في كتابه: «كانوا بين رَاعٍ للغنم، ودَاعٍ للصَّنَم، وعالِم على وهم، وجاهل على فهم، وإنسان كأنه من شره آلة لِفَنَاء الإنسان، وشيطان كأنه من خُبْثِه مادة لِوُجُود الشيطان» ولكن تَحوَّلوا إلى أمّة أخرى بتأثير هذه الهداية وتأثير هذا الكِتاب الذي بُعِث به الرسول ﷺ، وتأثير الشريعة السَّمْحَة، والعقيدة الصافية النقِية التي جاء بِها

عليه أفضل الصلاة والسلام، فجدير بشخصٍ هكذا أن يُوَقِّره أصحاب العُقُول، بل جدير بكل من أراد لنفسه الخير أن يُؤْمِن به ويتَّبِعَ رُشْده ويستمسك بالحبل الذي استمسك به ويُقَدِّسَ دِينَه الذي بُعِث به حتى يَحْشُرَه الله تعالى في زُمْرَة أتْبَاعِ النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.

وكما قال مَن قال بِأنَّ دِين الإسلام إنَّمَا يسير مع المَدَنِية، بل المدنية تسير معه، لأنَّ دِين الإسلام هو دِين الفطرة كما يقول تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

ولا يعني هذا أنَّ مَا جَاء به المرسلون من قَبل كان مُخالفاً لِهذا الدين الذي بُعث به عليه أفضل الصلاة والسلام، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يقول:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] وبَيَّن ـ سبحانه ـ في آيات كثيرة أَنَّ المرسلين كانوا على هذا الدِّين، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣١] ثم بَيَّن أنَّ هذا الدِّين كان وَصِية إبراهيم ويعقوب لأولادهما، فقد قال ﷻ: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢ - ١٣٤]،

وقال تعالى قبل ذلك فيما يَحكِيه عن إبراهيم وإسْمَاعيل عليهما السلام مِن دُعَائِهما عندما كانا يرفعان قَوَاعِد البيت العتيق قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وكذلك حَكى عن نوح عليه السلام أنَّه قال:

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] وقال في أهل الكتاب الذين استمسَكُوا بالكتاب ولَم يُفرِّطوا فيه ولَم يَحِيدوا عنه ولَم يُبدِّلُوه ولَم يُحرِّفوه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٣]، وكذلك يقول سبحانه وتعالى في التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال في قرية لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، وحكى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وكذلك حكى عن سَحَرَة فرعون أنَّهم دعوا الله وقالوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وحكى عن فرعون نفسه أنَّه ادَّعَى الإسلام عندما أدركه الغرق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، وهكذا تتكرَّر الآيات لِتَدُلَّ على هذا المعنَى، والله أعلم.

ورد أن رسول الله ﷺ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فما هي الذنوب التي فعلها رسول الله ﷺ مع أنه مطهر ومنزه عن ارتكاب الذنوب؟

مقام النبي ﷺ مقام عظيم وقدره قدرٌ رفيع، وبقدر علو القدر يحاسب المرء، فالحاكم مثلاً يحاسب من كان أرفع عنده منزله من رعاياه الذين يختصهم بشؤونه أكثر من محاسبة غيرهم من بقية الرعية، وبما أن النبي ﷺ

أرفع الناس قدراً، فقد يعاتبه الله ﷻ على شيء لا يعاتب عليه غيره، ومع ذلك فإن الله ﷻ له أن يعبر كيفما أراد، فقد يعبر الله ﷻ عن مخالفة الأولى بالذنب، ونحن لا نستطيع من تلقاء أنفسنا أن نسمي ذلك في حق الرسول ﷺ ذنباً، ولكن نقول كان منه ترك ما هو أولى، فعاتبه الله تعالى على ذلك، كما كان من خطاب الله لرسوله ﷺ في أسارى بدر والله أعلم.

ما الذي جعل العقيدة الإسلامية تتقبل ما يأتي به الآخرون الذين دخلوا في الإسلام وحملوا أفكاراً مختلفة من عقائدهم السابقة، هل يعني ذلك أن العقيدة الإسلامية فيها فراغات وفيها هوامش لم يملأها المسلمون جيداً، أم ماذا يعني ذلك؟

العقيدة الإسلامية لم تكن مستوحاة من المسلمين، وإنما هي وحي الله تعالى، والله تعالى ما فرَّط في الكتاب من شيء، ولكن بدأت الأمور بتفاسير لنصوص الكتاب من حيث إن الكتاب العزيز تحدث عن كثير من أخبار الأمم السابقة وعن كثير من أحوال الكون، وهناك من دخل في الإسلام وهو يحفظ بعض القصص عن بعض الأمم السابقة، وعنده بعض التصورات عن نظام هذا الكون فألحق بتفسير القرآن ما ألحق من أمثال هذه الأشياء، وبدأ الغزو من هذه الناحية شيئاً فشيئاً يدب في هذه الأمة مع أن هذا الغزو متصادم مع الكتاب العزيز ومع السُّنَّة النبوية الصحيحة الثابتة التي لا يحوم حولها أي ريب.

ولكن مع ذلك عجبنا كيف وجد من يروج لمثل هذا الفكر حتى راج في أوساط الأمة، فنجد مثلاً من التحريفات الموجودة في التوراة المحرفة وصف الأنبياء بأفحش الصفات، كوصفهم بأنهم كانوا قساة قتلة وأنهم شهوانيون حساد وأنهم وأنهم إلى آخره، فقد وصف لوط عليه السلام بأنه سكر

وزنى بابنته وحملتا منه، أعوذ بالله من هذا الكفر؛ كيف يوصف نبي من أنبياء الله بهذه الفحشاء العظيمة ؟! والله المستعان.

ونجد مع الأسف الشديد أن هذه الأفكار انتقلت إلى تفسير كتاب الله، فنجد مثلا في كتاب الله تعالى آيات هي بحاجة إلى ما يبينها، وبيانها واضح من نفس الكتاب، ومن الروايات الصحيحة، كما يؤخذ بالمقارنة والنظر في الأدلة، ولكن مع ذلك أسلس الناس القياد للروايات الباطلة الضعيفة التي دسها من دسها، وأهملوا النظر في الأدلة الشرعية الدالة على زيف تلكم الروايات.

وذلك كما تجد في التفاسير من أنواع الخيالات التي حبكها الشيطان وأوحاها إلى من أوحاها فتلقاها كثير من المفسرين مع ما فيها الإفك البين الذي ألصق بأنبياء الله تعالى، وهم عباده المصطفون الذين صنعوا على عينه وزكوا بعنايته، ناهيك بما نسب إلى يوسف عليه السلام الذي برأه الله سبحانه حتى من الحوم حول الفاحشة في قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقد حكى الله تبارك وتعالى عنه قوله:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقوله سبحانه وتعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، إلى غير ذلك من الأدلة التي تدل على براءته عليه السلام.

لكن وجدنا من المفسرين من يقول بأن يوسف عليه السلام عندما دعته امرأة العزيز إلى نفسها وعرضت عليه الوقوع في الفحشاء استجاب لها حتى جلس بين رجليها مجلس الرجل من امرأته، وحل تكة سراويله ولم ينهنه عنها إلا رؤيته آية تردعه عن مقارفة ما دعته إليه، فقد ذكر بعضهم أنه رأى كفاً مكتوباً

عليها كيف تصنع فعل السفهاء وأنت معدود في الأنبياء؟ ومنهم من قال إنه رأى يعقوب عليه السلام عاضاً على يده، إلى غير ذلك مما تضمنته تلك الأكاذيب التي حشيت بها التفاسير، وهي جميعا من افتراءات بني إسرائيل الذين كانوا من ديدنهم وصم الأنبياء بأفحش عيوب السفهاء.

وقد أجاد الفخر الرازي عندما قال: بأن من قال مثل هذا الإفك في يوسف عليه السلام فقد كذّب الله تعالى، وكذّب يوسف عليه السلام، وكذّب امرأة العزيز، وكذّب النسوة، وكذّب إبليس، أما تكذيبه لله تعالى فإن الله تعالى برأه مما عزوه إليه حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وأما تكذيبه ليوسف عليه السلام فإنه عليه السلام حكى الله تعالى عنه قوله تعالى:﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وأما تكذيبه لامرأة العزيز فإنها قالت:

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] ومعنى استعصم امتنع، وأما تكذيبه للنسوة فإن الله سبحانه وتعالى حكى عنهن أنهن قلن:

﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ [يوسف: ٥١]، وأما تكذيبه لإبليس فإن الله ذكر عنه أنه قال:

﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، ويوسف عليه السلام بشهادة الله تعالى هو من عباد الله المخلصين، فأنى تصل إليه هذه الغواية!!!

وما قيل من أن المراد بقول الله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤].

أنه هم بفعل الفاحشة فهو غير صحيح، فإن الهم هنا لا يعني قصد ارتكاب الفحشاء، وإنما لما عرضت عليه ما عرضت امتنع امتناعاً آيسها من نيل مرادها منه فكبر عليها ذلك لأنه لا يعدو أن يكون غلاماً مملوكاً، وقد جاء به سيده

إليها وجعله تحت تصرفها، وهي تعرض عليه ما جبلت النفوس على الميل إليه، وليس في ذلك ما يشق عليه من حيث الطبيعة البشرية التواقة إلى الورد من مثل هذه الموارد ومع ذلك أصر على الإباء بعد بوحها له بمطمعها فيه وشغفها به، فهمت أن تعاقبه بالضرب، وهم أن يرد عليها بمثل ما همت به لولا أن رأى من البرهان ما يمنعه منه؛ إذ لو فعل ذلك لظهر عليها أثر الضرب وكان ذلك مما يقوي دعواها عليه، فولى هارباً فاجتذبته من قميصه فقدته من دبر فكان ذلك حجة له عليها كما شهد به شاهد من أهلها.

هذا هو التفسير الصحيح الذي يتلاءم مع الأدلة العقلية والشرعية، كما يتلاءم مع الدلالة اللغوية لكلمة «الهم» لأن المرأة لا تهم بالمجامعة إذ هي مفعول بها، وليست فاعلة فهي لا تقوم بدور فعلي في المعاشرة، وإنما دورها التمكين ليفعل الرجل ما يريد بها، أما الرجل فهو الذي يقوم بعملية المعاشرة، وهو دليل على أن همها به إنما هو هم عقاب لرفضه ما عرضته عليه، وقد ساق القدر الإلٰهي هذه الأحداث في سياقها الذي أراده الله لتتحقق بذلك براءته ولتتكشف الحقيقة حتى تضطر امرأة العزيز إلى الاعتراف بها، وهكذا ينصر الله أولياءه فتتجلى للناس براءتهم مما عسى أن يلصق بهم من الإفك ولو بعد حين، والحمد لله.

نزول عيسى وخروج الدجال

سؤال عن معنى قوله تعالى في المسيح عليه السلام: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]،

إن الله سبحانه صان المسيح عليه السلام أن تصل إليه أيدي خصومه لتبطش به وتناله بالسوء، وإنما شبه لهم غيره فقتلوا من اشتبه به وظنوا أنهم بلغوا من

ذلك المراد، ففاخروا بقتله، وقد اختلف العلماء في الذي اشتبه به فقتل دونه، قيل هو أحد حواريه اشترى الجنة بفدائه لعيسى عليه السلام فألقي عليه شبهه فقتل، وقيل هو الذي دلهم عليه في مقابل دراهم معدودة أخذها منهم، وقد نص بعضهم على أنه يهوذا الأسخريوطي، وقيل إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أنه اشتبه عليهم الأمر فظنوا أنهم قتلوه ولم يفعلوا شيئا، وهذا رأي بعض المتأخرين من المفسرين، وهذه الآراء منها ما بني على النظر، ومنها ما نبي على الدلالة اللغوية كهذا القول الأخير، ومنها ما بني على روايات لبعض أهل الكتاب، وبما أنه لم يتبين الراجح منها بدليل يمكن أن نعتمد عليه نكل علم ذلك إلى الله تعالى. والله المستعان.

السائل يسأل عن المسيح عليه السلام وما رُوي من روايات أنه سيأتي ويقتل المسيح الدجال هل ذلك صحيح ؟

الروايات في نزول المسيح عليه السلام متضافرة يشد بعضها بعضاً غير أنها لم تصل إلى التواتر القطعي، وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن الله سبحانه وتعالى رفعه إليه، وجاء ما يشير إلى أنه من أعلام الساعة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، وكل من ذلك يحتمل وجوهاً من التأويل، ونحن نؤمن بكل ما أخبر به الله وأخبر به رسول الله ﷺ ونكل تفصيل إجماله إلى الله والله أعلم.

قد تلقيت بيد الشكر والتقدير رسالتكم الكريمة المتضمنة سؤالين:
أحدهما: عن نزول المسيح عليه السلام هل من دليل يدل عليه من الكتاب العزيز؟
ثانيهما: عن الدجال، هل من دليل يدل على ظهوره؟

وإليك الجواب عنهما بحسب ترتيبهما:

١ ـ ليس في القرآن نص على نزول المسيح عليه السلام وإنما تأول ذلك بعض المفسرين في بعض ما أنزل الله من الآيات، وحمل ذلك غيرهم على محامل أخرى، ومن ذلك قوله سبحانه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، فإن في الضمير الموصول بموته قولين، قيل يرجع إلى عيسى نفسه عليه السلام، ومعنى ذلك أنه ينزل إلى الأرض فيؤمن به أهل الكتاب جميعا سواء اليهود منهم والنصارى، إذ يمحو كل ملة إلا ملة الإسلام، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن جماعة من التابعين منهم الحسن وقتادة، وقيل يرجع إلى أهل الكتاب أنفسهم، ومعناه: أن كل كتابي يؤمن به قبل أن يموت بما يراه من الآيات التي تضطره إلى الإيمان به، وهو أيضاً مروي عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وروي عن الحسن وابن سيرين وعكرمة ومجاهد وجويبر، وروي عن أبي رضى الله عنه أنه قرأ «قبل موتهم».

وقيل بأن الضمير يرجع إلى رسول الله ﷺ، ومعنى ذلك أن كل كتابي يضطر إلى الإيمان به قبل موته وهو مروي عن عكرمة.

وذهب العلامة صاحب «المنار» إلى ترجيح القول بعود الضمير إلى الكتابي وعززه بكثير من الأدلة، وإليك ما قاله بنصه: «وإن من أهل الكتاب أي: وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به أي: ليؤمنن بعيسى إيمانا صحيحا، وهو أنه عبد الله ورسوله، وآيته للناس قبل موته أي قبل موت ذلك الأحد الذي هو نكرة في سياق النفي، فيفيد العموم. وحاصل المعنى أن كل أحد من أهل الكتاب، عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وغيره من أمر الإيمان فيؤمن بعيسى إيمانا صحيحا: فاليهودي يعلم أنه رسول صادق غير دعي ولا كذاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله، فلا هو إلٰه، ولا ابن الله.

ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا يشهد عليهم بما تظهر به حقيقة أمره معهم، ومنه ما حكاه الله عنه في آخر سورة المائدة ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقد يشهد للمؤمن منهم، في حال الاختيار والتكليف، بإيمانه، وعلى الكافر بكفره:

لأنه مبعوث إليهم، وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وذهب بعضهم إلى أن المراد أن كل أحد من أهل الكتاب يؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وهذا مبني على القول بأن عيسى لما يمت، وأنه رفع إلى السماء قبل وفاته، وهم الذين أولوا قوله سبحانه تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وهم على هذا يحتاجون إلى تأويل النفي العام هنا بتخصيصه بمن يكون منهم حيا عند نزوله، فيقولون: المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب الذين ينزل المسيح من السماء إلى الأرض وهم أحياء، إلا ليؤمنن به، ويتبعنه، والمتبادر من الآية المعنى الأول، وهذا التخصيص لا دليل عليه، وهو مبني على شيء لا نص عليه في القرآن حتى يكون قرينة له، والأخبار التي وردت فيه لم ترد مفسرة للآية.

أما المعنى الأول الذي هو الظاهر المتبادر من النظم البليغ، فيؤيده ما ورد من اطلاع الناس قبل موتهم، على منازلهم في الآخرة، ومن كونهم يبشرون برضوان الله وكرامته، أو بعذابه وعقوبته، ففي حديث عبادة بن الصامت في الصحيحين: إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، وإن الكافر إذا حضر، بضم الحاء: أي حضره الموت، بشر بعذاب الله وعقوبته.

وروى أحمد، والنسائي من حديث أنس وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت. وعن عائشة زيادة في حديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» الذي في الصحيحين وغيرهما، وهي أنهم

قالوا: يا رسول الله كلنا نكره الموت، فقال: «ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه، وإن الفاجر إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه من الشر، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه[1]».

وروى ابن مردويه وابن منده، بسند ضعيف عن ابن عباس: «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار» وروى مثله ابن أبي الدنيا عن رجل لم يسم، عن علي مرفوعا. فهذه الأحاديث تؤيد ما روي عن ابن عباس وغيره في تفسير الآية: من كون الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه، بحقيقة أمر المسيح، مع الإنكار الشديد والتقبيح، ومما يؤيد هذه الحقيقة النص في سورة يونس على تصريح فرعون بالإيمان حين أدركه الغرق. ولها دلائل أخرى كالأحاديث الواردة في عدم قبول التوبة عند الغرغرة. والله أعلم. اهـ

واختار العلامة ابن عاشور أن الضمير في «موته» يعود إلى الكتابي، وأن الضمير في «به» يعود إلى الرفع المفهوم من قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وهاك نص قوله: «عندي أن ضمير به راجع إلى الرفع المأخوذ من فعل ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾، ويعم قوله أهل الكتاب اليهود، والنصارى، حيث استووا مع اليهود في اعتقاد وقوع الصلب.

والظاهر أن الله يقذف في نفوس أهل الكتابين الشك في صحة الصلب، فلا يزال الشك يخالج قلوبهم ويقوى حتى يبلغ مبلغ العلم بعدم صحة الصلب في آخر أعمارهم تصديقاً لما جاء به النبي ﷺ حيث كذب أحبارهم فنفى الصلب عن عيسى عليه السلام». اهـ

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ومسلم (٦٩٩٦).

وأنت إذا تأملت دلالة الآية الكريمة على نزوله آخر الزمن وجدتها بعيدة عن النصيـــة، بل لا تقوى علـــى أن تكون ظاهرة في ذلـــك، لأن احتمالات أخرى تزاحمها، ومنها ما هو أقوى منها في دلالته.

واستدل أيضاً لهذا بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، حيث جعلوا الضمير راجعا إليه سلام الله عليه لتقدم ذكره قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وممن روي عنه هذا القول ابن عباس والحســـن وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي وحملوا ذلك على معنى نزوله بين يدي الساعة.

وأنت تدري أن هذه الدلالة بعيدة عن النصية، على أنه قيل بأن الضمير يعود إلى القرآن، وهو أيضاً معزو إلى قتادة والحسن، وعزاه قتادة إلى ناس، ومعناه بناء على هذا التفســـير أن القرآن فيه علم الســـاعة بما تحدث به عن أحوالها وأهوالها.

وهذا القول صدره العلامة ابن عاشور في تفســـيره الآية الكريمة، وقواه بما ذكره من دلائل تعـــززه، وهذا نص كلامه: «وضميـــر المذكر الغائب في قولـــه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ مراد به القـــرآن وبذلك فسَّـــرَهُ الحســـن وقتادة وسعيد بن جبير فيكون هذا ثناء ثامناً على القرآن، فالثناء على القرآن استمرّ متصلاً من أول الســـورة آخـــذاً بعضه بحُجـــز بعض متخلّـــلاً بالمعترضات والمستطردات ومتخلصاً إلى هذا الثناء الأخير بأن القرآن أعلم الناس بوقوع الساعة.

ويفسره ما تقدم من قوله: ﴿بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ [الزخرف: ٤٣] ويبينه قوله بعده ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [الزخرف: ٦١] على أن ورود مثل هذا الضمير في القرآن مرادا به القرآن كثير معلوم من غير معاد فضلاً على وجود معاده».

ثم قال: «ومعنى تحقيق أن القرآن عِلْم للساعة أنه جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلا انتظار انتهاء العالم. ورود مثل هذا الضمير في القرآن مراداً به القرآن كثير معلوم من وهذا معنَى ما روي من قول الرسول ﷺ: «بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين، وقرن بين السبابة والوسطى مشيراً إليهما»[1]، والمشابهة في عدم الفصل بينهما

قال: «وإسناد «عِلمٌ للساعة» إلى ضمير القرآن إسناد مجازيّ لأن القرآن سبب العلم بوقوع الساعة إذ فيه الدلائل المتنوعة على إمكان البعث ووقوعه. ويجوز أن يكون إطلاق العلم بمعنى المُعْلِم، من استعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل مبالغة في كونه محصلاً للعلم بالساعة إذ لم يقاربه في ذلك كتاب من كتب الأنبياء».

قال: «وقد ناسب هذا المجازَ أو المبالغة التفريع في قوله:

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لأن القرآن لم يُبقِ لأحدٍ مِرية في أن البعث واقع».

وقال بعد هذا: «وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن الضمير لعيسى، وتأولوه بأن نزول عيسى عليه السلام علامة الساعة، أي سبب علم بالساعة، أي بقربها، وهو تأويل بعيد فإن تقدير مضاف وهو نزول لا دليل عليه ويُؤكده إظهار اسم عيسى في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾: الخ. ويجوز عندي أن يكون ضمير (إن) ضميرَ شأن، أي إن الأمر المهمّ لَعِلم الناسِ بوقوع الساعة».اهـ

ومما يوهن إعادة الضمير على عيسى عليه السلام في الآية الفصل بين ذكره وبينها بأجنبي لا مناسبة لذكره بناء على أن المراد به عيسى عليه السلام، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠].

(١) رواه البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١).

وبهذا يتبين أنه لا دلالة في آيات القرآن يمكن أن يعتمد عليها في إثبات نزول المسيح عليه السلام عند قيام الساعة، وإنما عول القائلون به على الروايات وهي ـ وإن تعددت ـ لم تبلغ مبلغ التواتر حتى يعول عليها في إثبات قضية عقدية كهذه مع ثبوت النص القطعي بأن النبي ﷺ هو خاتم النبيين، وهو مما يتبادر معه أنه لن يأتي من بعده نبي سواء كان مبعثه من جديد أو أنه أوحي إليه من قبله عليهم الصلاة والسلام، لأن ختام النبوة إنما هو سدٌ لبابها، وإن ذهب الذين أثبتوا نزوله عليه السلام إلى أنه لا يحكم بشرعه وإنما يحكم بشرع النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام.

لهذا كان أصحابنا المشارقة بين ناف لنزوله عليه السلام أو واقف عن إثباته، بخلاف المغاربة منهم، فإنهم أثبتوه كما أثبته جمهور الأمة.

على أننا عندما نرجع إلى نصوص القرآن نجد نصين صريحين دالين على وفاته عليه السلام:

أولهما: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ثانيهما: قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام فيما يرد به على سؤال الله تعالى إياه يوم القيامة عن عبادة الناس له ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

ومن الواضح أن المختلفين في هذا نظروا إلى جانبين، إلى جانب التوفي الذي يعزز أنه مات كما مات غيره من الأنبياء، وجانب الرفع الذي قد يتصور منه أنه نقل حسي له بجسمه وروحه من الأرض إلى الملأ الأعلى، ولما كان جمهور المفسرين تأثروا بالروايات الكثيرة الدالة على أنه الآن مع الملأ الأعلى وقد طبع بطبعهم، وأنه سينزل إلى الأرض بين يدي الساعة

ليحكم فيها بالقسط ويجدد فيها ما أبلته أيام الجور والضلال من العدل والهدى، فإنهم تأولوا توفيه بأنه وفي ما كتب له أن يعيشه في هذه الأرض وكان رفعه إلى السماء في حكم التوفي لغيره بإماتته.

وذهب آخرون من المفسرين على حمل التوفي على ما يدل عليه ظاهر لفظه، من أنه عليه السلام وفاه الله أجله وقبضه كما قبض من قبله من الأنبياء، وأن رفعه إليه إنما هو رفع مقامه وقدره، وهذا الذي عول عليه الإمام محمد عبده وتلميذه العلامة السيد محمد رشيد رضا والعلامة ابن عاشور.

أما الإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا فقد تضمن موقفهما من هذه القضية ما جاء في «تفسير المنار»، وإليكه بنصه: «والتوفي في اللغة: أخذ الشيء وافيا تاما، ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة قال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١] فالمتبادر من الآية: إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي، كما قال في إدريس عليه السلام:

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧]، والله ـ تعالى ـ يضيف اليه ما يكون فيه من عالم الغيب قبل البعث وبعده كما قال في الشهداء ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ آل عمران وقال ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

وأما تطهيره من الذين كفروا فهو: إنجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرومونه منه ويريدونه به من الشر. هذا ما يفهمه القارئ الخالي الذهن من الروايات والأقوال: لأنه هو المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من الآيات، ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع إلى السماء بجسده، وهاك ما قاله الأستاذ الإمام في ذلك:

يقول بعض المفسرين: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، أي: منومك، وبعضهم: إني قابضك من الأرض بروحك وجسدك ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ بيان لهذا التوفي، وبعضهم: إني أنجيك من هؤلاء المعتدين، فلا يتمكنون من قتلك، وأميتك حتف أنفك ثم أرفعك إلي، ونسب هذا القول إلى الجمهور، وقال: للعلماء ها هنا طريقتان إحداهما ـ وهي المشهورة ـ أنه رفع حيا بجسمه وروحه، وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى.

ولهم في حياته الثانية على الأرض كلام طويل معروف، وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن في تقديم الرفع على التوفي بأن الواو لا تفيد ترتيبا.

أقول: وفاتهم أن مخالفة الترتيب في الذكر للترتيب في الوجود لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، ولا نكتة هنا لتقديم التوفي على الرفع: إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة.

(قال): والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها، وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية، وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح، ولا بدع في إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه، فإن الروح هي حقيقة الإنسان، والجسد كالثوب المستعار فإنه يزيد وينقص ويتغير، والإنسان إنسان لأن روحه هي هي.

(قال): ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان:

أحدهما: أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي: لأن المطلوب فيها هو اليقين، وليس في الباب حديث متواتر.

وثانيهما: تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس، وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها، وهو حكمتها وما شرعت لأجله: فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام، ويوقفهم على فقهها والمراد منها، ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب، أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبرا عن رأيه وفهمه، وكان ذلك مزهقا لروحها ذاهبا بحكمتها كان لا بد لهم من إصلاح عيسوي يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقي، وكل ذلك مطوي في القرآن الذي حجبوا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق وعدو الدين في كل زمان.

فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر.

هذا ما قاله الأستاذ الإمام في الدرس مع بسط وإيضاح، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه، ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث، والناقل للمعنى ينقل ما فهمه» اهـ.

وأما ابن عاشور فقد أبان عن موقفه بقوله:

«وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ظاهر معناه: إنّي مميتك، هذا هو معنى هذا الفعل في مواقع استعماله لأنّ أصل فعل توفَّى الشيءَ أنه قَبَضه تاماً واستوفاه. فيقال: توفاه اللهَ أي قدّر موته، ويقال: توفاه ملك الموت أي أنفذ إرادة الله

بموته، ويطلق التوفّي على النوم مجازاً بعلاقة المشابهة في نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]. أي وأما التي لم تمت الموت المعروف فيميتها في منامها موتاً شبيهاً بالموت التام كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، فالكل إماتة في التحقيق، وإنما فَصَل بينهما العرف والاستعمال، ولذلك فرّع بالبيان بقوله: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فالكلام منتظم غاية الانتظام، وقد اشتبه نظمه على بعض الأفهام. وأصرح من هذه الآية آية المائدة: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ لأنه دل على أنه قد توفّى الوفاة المعروفة التي تحول بين المرء وبين علم ما يقع في الأرض، وحملُها على النوم بالنسبة لِعيسى لا معنى له؛ لأنهُ إذا أراد رفعَه لم يلزم أن ينام؛ ولأنّ النوم حينئذ وسيلة للرفع فلا ينبغي الاهتمام بذكره وترك ذكر المقصد، فالقول بأنها بمعنى الرفع عن هذا العالم إيجاد معنى جديد للوفاة في اللغة بدون حجة، ولذلك قال ابن عباس، ووهب بن منبه: إنها وفاة موت وهو ظاهر قول مالك في جامع العتبية، قال مالك: مات عيسى وهو ابن إحدى وثلاثين سنة قال ابن رشد في «البيان والتحصيل»: «يحتمل أنّ قوله: مات وهو ابن ثلاث وثلاثين على الحقيقة لا على المجاز».

ثم قال: «الوجه أن يحمل قوله تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ على حقيقته، وهو الظاهر، وأن تؤوّل الأخبار التي يفيد ظاهرها أنه حيّ على معنى حياة كرامة عند الله، كحياة الشهداء وأقوى». اهـ

وقال في تفسير قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]: «أي: فلما قضيت بوفاتي، لأن مباشر الوفاة هو ملك الموت. والوفاة الموت، وتوفاه الله أماته، أي قضى به وتوفاه ملك الموت قبض روحه وأماته». اهـ

وأنت تدري أن انتظار المسيح عقيدة لها جذور عند أهل الكتاب فيما سبق، فاليهود ينتظرون مسيحا غير المسيح ابن مريم!!؛ لأنهم كفروا به عندما أتاهم، والنصارى ينتظرون عودته إلى الأرض مرة أخرى ليحقق ما لم يحققه من قبل في وجوده الأول بها!!.

ولا ريب أن من أسلم من أهل الكتاب كان لهم أثر في تكييف منهجية الرواية عند المسلمين وفق الأفكار التي سيطرت عليهم، فلا غرو أن نجد كما هائلا من الروايات يغلب عليها هذا الاتجاه، وإنما يجب في تمحيص هذه الروايات وتأويلها أن لا ننسى الجانب القرآني الذي فيه تبيان كل شيء.

وبالرجوع إلى القرآن نتبين أن الأقرب إلى الحقيقة هو ما ذهب إليه الإمام محمد عبده وتلميذه السيد محمد رشيد رضا والعلامة ابن عاشور، وهو الذي يفهم من كلام من تقدم من علمائنا المشارقة وهو أن المسيح عليه السلام كغيره من الأنبياء الذين أناروا الأرض بهدايتهم ثم قبض الله أرواحهم، وأنهم يبعثون يوم البعث كما يبعث جميع الموتى، وإنما اختصهم الله تعالى بالتكريم ورفع الدرجات، ولهم في عالم البرزخ نوع حياة أرقى مما أكرم الله به الشهداء، ويعزز ذلك قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

على أننا مع هذا لا نخطئ من يخالف هذا الرأي ويتأول رفع المسيح إلى الله على أنه بمعنى رفعه رفعا حسيا بجسمه وروحه إلى السماء، ويعتقد نزوله بين يدي الساعة إلى الأرض تعويلا على الروايات التي جاءت بذلك

ما دام يعتقد أنه لا يأتي بشرع جديد ولا يحكم بشريعة سابقة، وإنما يتبع شريعة نبينا ﷺ فيكون كواحد من أمته، والله تعالى أعلم.

٢ـ أما الدجال فقد جاءت به روايات عن النبي ﷺ، منها ما رواه الربيع عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[(١)].

وما رواه من طريق ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أراني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما إن يرى من آدم الرجال له لمة كأحسن ما إن يرى من اللمم قد رجلها وهي تقطر ماء متكئا على عواتق رجلين يطوف بالكعبة فسألت من هذا فقيل لي المسيح بن مريم عليه السلام ثم إذا أنا برجل جعد قطط أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية فسألت من هذا فقيل لي المسيح الدجال»[(٢)].

وقد استفاضت الروايات الدالة على ظهور المسيح الدجال عند أهل الحديث حتى جاوزت المائتين، وخلاصتها أنها دالة على ظهوره، أما ما زاد على ذلك مما جاء في كثير منها من أنه يأمر السماء فتمطر، ويأمر الأرض فتنبت، وتنفعل له الأشياء انفعالا تاما فإنه يحتاج إلى تمحيص وبحث، ولا نقوى على إقراره، وإنما نؤمن بظهور دجال من الدجاجلة حذر منه الرسول ﷺ، ولا ندري أظهر فيما مضى من الزمان أم أنه سيظهر في المستقبل، وعلينا أن نستعيذ بالله من شره وشر أتباعه، ولا ندري أكثر من هذا، ونسكت عما ذكره أهل الحديث في وصفه ونكل علمه إلى الله تعالى.

---

(١) رواه الربيع (٤٥).

(٢) رواه الربيع (٥٤).

وفي هذا غنية عن التكلف والبحث عما لم يفرض علينا بحثه، والله تعالى ولي التوفيق، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هل في كتاب الله وسنة الرسول ﷺ دليل على ثبوت نزول عيسى عليه السلام ؟

نزول عيسى عليه السلام لم ينص عليه القرآن، وإنما أشير إليه ـ على رأي جماعة من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، وقد استفاضت بهذا الروايات، والله أعلم.

هل صحيح بأن المسيح عيسى عليه السلام لم يمت؟ وأنه سيأتي في آخر الزمان؟ وكيف تأوّل الآيات التي تبين أنه مرفوع والآيات التي تبين أنه متوفى لتتوافق مع بعضها؟ مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ [المائدة: ١١٧] ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧]؟

الأدلة على حياته ضعيفة، ولا يمكن القطع بها ولا بأضدادها، والله أعلم.

ما مدى صحة القول الذي يقول بنزول سيدنا عيسى عليه السلام في آخر الزمان؟

جاءت به أحاديث كثيرة، ولكنها لا تصل حدَّ التواتر، فنكل علم ذلك إلى الله، والله أعلم.

سماحة الشيخ.. ورد في «تمهيد قواعد الإيمان» قول الشيخ ناصر بن أبي نبهان رحمه الله في أشراط الساعة بما يلي: ـ

«أمّا ما ذكره في أشراط الساعة من طلوع الشمس من مغربها وخروج

الدجال وغير ذلك، ما خلا ما ذكره الله تعالى في كتابه في فتح يأجوج ومأجوج وخروج الدابة فلم يأت به تنزيل ولا قامت الحجة بصحته عن النبي ﷺ، ولا ينعقد فيه إجماع يلزم قبوله إلا بصحة الرواية أو صحة تأويل التنزيل، ولم يصح إجماع بذلك، وأما إجماع اجتماع العلماء على صحة ذلك بغير دليل إلٰهي ولا صحة رواية نبوية فلا ينعقد إجماع ديني لأنه لا مخرج له عن الظن إلى اليقين»[١].

وقد وافقه الشيخ المحقق سعيد بن خلفان الخليلي رَحِمَهُ اللَّهُ على أنه لم يقم الإجماع من الأمة على ذلك.

قال الشيخ عبدالعزيز الثميني رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن أشراط الساعة، كثيرة ونذكر منها العشرة التي تضافرت الأحاديث الصحاح عليها، ورواها موافق ومخالف فيجب الإيمان بها لما أنها أخبرها الصادق..»[٢] أ. هـ.

واستدل الشيخ الثميني رَحِمَهُ اللَّهُ بالحديث الذي رواه حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال: «ما تذكرون فقلنا نذكر الساعة» قال: إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[٣].

---

(١) تمهيد قواعد الإيمان ج ١ ص ٩٠.

(٢) معالم الدين ج ١ ص ١٧٠.

(٣) رواه مسلم (٥١٦٢).

أما بالنسبة لحجة الإسلام الشيخ أبي طاهر الجيطالي فقد أسهب في شرح بعض هذه الأشراط في قناطره وأورد الأحاديث الكثيرة بشأنها، من هنا وقفت أمام هذه الآراء فمنهم من يأخذ بالأحاديث الواردة باعتبارها صحيحة ومنهم من لا يأخذ بها؟

أشراط الساعة بعضها مما يدخل في التواتر القطعي، وأهم ذلك ما نص عليه القرآن الكريم وهو فتح يأجوج ومأجوج والدابة، ومنه ما هو مشهور كقول النبي ﷺ في حديث جبريل عندما سأله عن أشراطها: «**أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الأعراب الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان**»[1]، ومثله أحاديث الدجال ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ومنها ما جاءت به روايات آحادية، وربما كانت غير خالية من الضعف كحديث نار عدن والخسف، **فالقسم الأول** يجب الإيمان به وجوباً قطعياً بحيث لو أنكره أحد من غير تأويل كفر كفراً مِلّياً، **والقسم الثاني** هو دون ذلك بحيث لا يضلل منكره لعدم وصول الروايات الواردة به إلى درجة التواتر، فهو آحادي الأصل وإن اشتهر من بعد، **وأمّا القسم الثالث** فهو مما يجوز التصديق به من غير دينونة، لأن الدينونة لا تبنى على الظن، والروايات الآحادية أقصى ما تفيده الظن، ولذلك قال المحققون من علماء الأمة إن الروايات الآحادية تفيد وجوب العمل دون العلم، وذلك أن العلم ثمرة اليقين، فشدّ يدك على هذا الأصل تصل إلى بر الأمان ـ إن شاء الله ـ والله أعلم.

(١) رواه مسلم (٩).

الوحي والنبوة وأقسامها

عن قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨] ما المقصود بالإيحاء ؟

الإيحاء هنا هو الإلهام، والله أعلم.

في الرؤيا والأحلام، ما الذي يَحكيه الإنسان لمن يثق فيه، هل إذا رَأى رُؤيا يُخبر بِها كل أحد أم يقتصر في إخباره على أشخاص مُعينين، وهناك برامج في قنوات متعددة تعنى بتفسير الأحلام والرؤى فتنشر أمام الناس جميعاً، فهل ذلك جيد؟

الرؤيا تختلف، فإن كانت بشارة لجميع المسلمين فينبغي للرائي أن يعلنها لأنَّها بشارة تعود على الكل بالخير، والمسلمون شُركاء فيها، وإن كانت خاصة بالرائي فإنَّه يتخير مَن يتحدث إليه بِها حتى يتجنب ما عسى أن يحدث، فرُبَّما يُحسد وهذا كما حدث مِن قبل يعقوب عليه السلام عندما نصح ابنه يوسف عليه السلام ألا يقص على إخوته ما رآه في منامه مِن سجود الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له، والله أعلم.

هل الرُّؤيا إشارة وقوع أم إشارة تَحذير ؟

أؤمن أنَّ الرُّؤيا حق، وهي جزء مِن النُّبُوَّة على اختلاف الروايات هل هِي جُزْء مِن ستَّة وأربعين جزءاً أو أقل مِن ذَلِك أو أكثر كَما جاء في الروايات الكَّثِيرة عن النبي ﷺ وليست هي النُّبوة بالمعنى المفهوم إذ لا نُبُوَّة بعد النَّبي ﷺ، ولكن أبقاها الله تعالى كَرَامَة لِهذه الأمة بِحيث يرى الإنسان في منامه ما يُفتّح له آفاق المستقبل، ومع هذا إنَّنِي أعترف

بأنني لست خبيراً في أَمْر الرُّؤْيا، وإن كنت أحياناً قد أرى الرُّؤْيا واستبشر بِها ويتحقق الخير الذي استبشر به، فالرُّؤيا تُفَتِّح للإنسان آفاقاً يَنْفُذ منها إلى معرفة المستقبل وإن لَم تكن قطعية، إذْ التَّعبير لا يَلْزَم أن يكون قطعياً، ولكن مَعَ ذَلك كلِّه فإن الإنسان يطمئن إلى الرؤيا الصالحة التي تُبشر بِمستقبل صالح، والله أعلم.

ابنة تركت مبلغاً قدره ألف ريال عماني عند والدتها، وتركت الأم مبلغاً وقدره ثلاثة آلاف عند ابنها ليضعه في البنك في حسابه أمانة، ومن ضمنه مبلغ ابنتها، وتوفيت الوالدة فجأة وكان الابن يعلم بأنه يوجد لأخته مبلغ ألف ريال عماني من ضمن المبلغ الموجود عنه لوالدته، وأنكر بأن والدته قد تركت مبلغ ثلاثة آلاف ريال وأقر بوجود خمسمائة ريال عماني عنده فقط، هنا تسأل الابنة تقول بأنّ أمها تزوروها في المنام عدة مرات وتطلب منها أن تأخذ حقها من أخيها، هل والدتها في هذه الحالة تُعذب في قبرها بسبب المال الذي لها عند أخيها ؟

الغيب لله تعالى، فهي في عالم الغيب، ونحن لا نخوض في أمر عالم الغيب ولانستطيع اقتحامه وإنما نعلم ما كان ظاهراً لنا، والإنسان إذا مات أفضى إلى ربه سبحانه، وهو العليم بسعادته وشقاوته، والعليم بنعيمه وعذابه، وليس للإنسان أن يخوض في ذلك، ولا يستدل بالرؤى على شيء معين فيقطع به، وإنما قد يستأنس ببعض الرؤى بحيث تدل على أن الميت ينعم أو يعذب، ولكن من غير أن يقطع الإنسان بالحالة التي تدل عليها رؤياه؛ والله ـ تعالى ـ المستعان.

الأولياء والصالحون

جرت العادة عند بعض الناس على زيارة القبور والدعاء لها وقد يصحب ذلك تدافع فيه اختلاط بين الجنْسَيْن، فما هو توجيهكم؟

زيارة القُبُور لا يُتَّخذ لَها مَوْسِم، لأنَّ زيارة القبور فإنَّما شرعت للعِظَة وللعبرة، وليست عبادة، ولذلك نَهَى النبي ﷺ عن اتّخاذ القبور مساجد، وقال: (لعن الله اليهود اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[١]، **وقال**: (لا تَجعلوا قَبْرِي عيدا)[٢]، وشدَّدَ النبي ﷺ أوَّل الأمر في زيارة القبور مُطلقاً حيث مَنعها لأجل قرب الناس بعهد الجاهلية، ثم لَمّا استقرّت العقيدة وقَوِيَ الإيمان وصار الناس مَوْصُولِين بالله تعالى أباح لَهم زيارتَها، وقال: (كنت نَهيتكم عن زيارة القبور ألا فزورها ولا تقولوا هُجْرا)[٣]، فزيارة القبور لا تُتَّخذ عادة في يوم مُعيَّن كأيام العيد ونَحوها، وإن كان قصْد الناس بزيارتِها في أيام العيد أن يكونوا مُذَّكِرِين بِحيث يستشعرون أنَّهم وإن كانوا في فرحة فإنَّ الموت بالمرصاد لَهم فلا حرج في ذلك ولكن مع ذلك يَجب أن يتجنَّبُوا كل ما فيه حُرْمَة، ومِن ذلك أن لا تُتَّخذ زيارة القبور وسيلة لأَمْر مُحَرَّم كدعاء الميت واستِغَاثَتِه والتَّضَرُّع إليه، فإنَّ الله تعالى وحده هو قَاضي الحاجات، ولا يُمكن لأحد في الأرض ولا في السماء أن يقضي حاجة أَحَد، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، ويقول:

---

(١) رواه البخاري (٤٠٨٧).

(٢) رواه أبو داود (٢٠٤٤).

(٣) رواه الربيع (٤٨١).

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]،

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، ويقول جل شأنه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، فَمِنْ ضَلال العقول أَن يأتي الإنسان إلى قَبْرٍ لأجل طلب قضاء حاجة مِن صاحب القبر، مع أنَّ صاحب القبر لا يَملك لنفسه نفعاً ولا ضرا فقد أصبح في حكم الجماد الذي لا حَراك له، وعندما كان حياً مِلء ثيابه لَم يكن قادراً على تحقيق منفعة ولا دفع مَضَرة إلا بإذن الله.

والله تعالى يُخاطب عبده ورسوله ﷺ وهو أشْرف الخلق جميعا وأعظمهم منزلة وأجلهم مكانة ورسالته رحْمَة للعالَمين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ومع ذلك يُخاطبه بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فكيف بغيره ﷺ؟ بل كيف بالأموات في قبورهم أنَّى لَهم أن يُحققوا منفعة أو أن يدفعوا مضرة؟

ومِن المنكرات التي يَجب تفاديها هذا الاختلاط بين الرجال والنساء، فإنّ في الاختلاط فتنة، لأنه يؤدي إلى إسقاط الحُرَم التي أمر الله تعالى بالمحافظة عليها.

ومع هذا كله فإن نفس ذهاب النساء ولو وحدهن إلى زيارة القبور أمر فيه رَيب، لأنَّ النبي ﷺ نَهى النساء عن زيارة القبور، وذلك لأنَّ المرأة تتأثَّر بسرعة، إذ سرعان ما تَهِيج عاطفتها، فقد تأتي بالأمر الذي لا يُحْمَد كالعويل وغيره، أو تَنُوح بتأثير حضورها إلى المقبرة، وشهودها قبور الذين يعزون عليها، فلذلك مُنِعت مِن زيارة القبور، لئلا تكون مُهَيِّجة لعاطفتها ودافعة لَها إلى ارتكاب ما لا يُحمد، وهذا لا ينافي ما كان مِن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها مِن زيارتِها لقبر أخيها لأنَّها كانت واثقة مِن نفسها أنَّها لن يَصْدُر مِنها ذلك، وقد أدركت الحكمة مِن نَهي النبي ﷺ للنساء عن زيارة القبور، فَهُن مَنهيات عن زيارة القبور لأجل هذه العلَّة، والمعْلُول ينتفي بانتفاء علَّته، ولما كانت واثقة مِن نفسها استباحَت أن تزور قبر أخيها لأنَّها لَم تكن لتفعل شيئاً مِمّا يُحَرِّمه الله تعالى عليها كالعويل ونَحوه.

ويَجب تفادي هذا الاندفاع الذي يَجمع بين الرجال والنساء وهم يتدافعون جميعاً إلى القبور في ذلك اليوم، وعليهم أن يتقوا الله، وأن يقولوا قولاً سديداً؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

قد يرافِق في بعض الأحيان هذه العادة عادة أخرى وهي أنهم عندما يزورون القبور يأخذون معهم باقة مِن الورود يضعونَها على ذلك القبْر ؟

أعوذ بالله.. هذه مِن عادات أهل الجاهلية المعاصرة، ومِن المنكرات التي يَجب النهي عنها، وماذا ينفع الميت أن تُوضَع على قبره هذه الزهور وهذه الورود ؟! مع أنَّه لا ينفعه إلا العمل الصالِح الذي عمله، والله أعلم.

ما الكرامة عندنا؟ وما حكمها؟ وهل هي تأييد وامتداد لمعجزات النبي ﷺ؟ وما حدودها؟

الكرامة شأن يكرم الله به أولياءه من خلقه، وقد تخرج عن معهود البشر من نواميس الكون، كالقصة المحكية عن عمر رضي الله عنه أنه كوشف بحال جيش المسلمين في فارس وهو بالمدينة، وخشي إحاطة العدو به فنادى من هناك قائده: (يا سارية! الجبل الجبل) فأسمع الله صوته سارية فلجأ إلى الجبل. ومثل هذه القصة قصص جمة تحكى عن الصالحين، وناهيكم ما حكاه الله سبحانه في كتابه من نقل الذي عنده علم من الكتاب عرش بلقيس من مقره إلى حيث كان سليمان عليه السلام في لحظة عين، ولم تكن تلك معجزة لسليمان، لأنها لم تضف إليه، وإنما أضيفت إلى الذي عنده علم من الكتاب.

والحق أن عدم استساغة العقول لخوارق العادات ناشئ عن كون تلك العقول ألفت تلك العادات إلى أن أصبحت لا تعي من أمر الحياة إلا ما يتفق معها، ولأنها لم تطلع على أسرار هذا الوجود، وإلا فإن نواميس الوجود نفسها لو أخبر بها من لم يعهدها لوجدها أمراً يخرج عن حدود عقله، فخلق الإنسان من طين وما يتبعه من نقله من طور إلى آخر إلى أن تنفخ فيه الروح ويتحول إلى خلق آخر فيه من عجائب الصنع وغرائب الفعل ما لا يدخل تحت الحصر، وهذه كلها أمور لو لم يشهدها الإنسان بنفسه لكانت بعيدة عن مدارك عقله. على أننا مع معايشتنا للتطور العلمي والصناعي ندرك كثيراً من الحقائق التي لم نكن نتصورها من قبل، ولم تكن عقولنا قابلة لتصورها، فهل كنا نتصور في سالف عهدنا إمكان نقل رسالة من أقصى مشارق الأرض إلى أقصى مغاربها في أسرع من لحظة عين، بمجرد أن توضع في آلة هنا لتظهر صورتها في مثل تلك الآلة هناك، ويتم الإرسال والاستقبال في ثواني معدودة من غير إخلال بشيء من

حروفها، فهل كانت العقول تصدق مثل ذلك من قبل ؟!. فضلاً عن نقل الأصوات والصور لمشاهد نائية كأنها في مجلس المشاهد، إلى غير ذلك من الأمور التي لم تكن العقول تستسيغها في القرون الخالية بل وفي قرننا الذي عشنا فيه، وناهيكم أن أحد مشايخنا عندما سئل عن العمل بخبر الإذاعة والهاتف كان من جوابه فيما بلغني: لا، لا يعقل أن يتحدث أحد بالمشرق فيسمعه من بالمغرب اللهم إلا أن تكون تلك معجزة نبي أو كرامة ولي. فهل تراه لو عاش في هذا العصر وشاهد هذا التقدم العلمي كان يقول ذلك ؟!. كلا وألف كلا، وإنما الواقع كما قال الشاعر:

والجهل بالشيء في عين البصير عمى

ولا ريب أن مرد ذلك كله إلى قدرة الخالق العظيم، فمن أيقن أن قدرته وسعت كل شيء وأنه يختص من يشاء من خلقه بما يشاء من مواهبه لم يشكل عليه فهم ذلك وتصديقه، ففي الغيب عجائب لم تصل إليها عقولنا القاصرة، والله أعلم.

الإسراء والمعراج

قُلتُم بأنَّ الإسراء ثبت بِنَصِّ الكتاب العزيز أمَّا بالنسبة للمعراج فَثبت بإشارة القرآن الكريم، ما هو البُعْد العَقَائِدِي لِحادثة الإسراء والمعراج، بِمَعنَى هل تقع حادثَتَا الإسراء والمعراج ضِمْنَ دَائِرَة المعلوم من الدين بالضَّرورة ؟

أمَّا الإسراء فهو مما علم من الدين بالضرورة لأَجْلِ النَّصِّ القَطْعِي في سورة الإسراء، وأمَّا المعراج فلا يصل إلى هذا الحكم وإنما هو مما اشتهر وعلم بالتأويل مِن الإشارة إليه التي تَكَاد تكون صريحة في سورة النجم،

مَعَ الأحاديث الـمُسْتَفِيضَة، ولِذلك قالوا بأنَّ مَن أنكر الإسراء فهو كافر كُفر شرك ومَن أَنْكَر المعراج فهو فَاسق، والله أعلم.

ما هي أوصاف دابة البراق؟ وهل صحيح أنها طلبت من الرسول الشفاعة؟

هذه الأوصاف إنما تتوقف على الأدلة الصحيحة الثابتة، وهذه أمور هي من الغيبيات التي نحن لم نُكلَّف تفاصيلها، فلا داعي إلى التساؤل عنها أو الخوض فيها، إذ الإنسان في هذه الأمور الغيبية لا يتحدث إلا بدليل قاطع يُعتمد عليه، أما الأدلة الضعيفة بل حتى الأدلة الصحيحة التي هي غير قطعية لا يعوّل عليها في مثل هذه القضايا، إنما يُعوّل على الأدلة القطيعة؛ لأنها أمور غيبية.

هل كانت رحلته ﷺ بالروح أو بالروح والجسد؟

أما الإسراء فهو بالجسد والروح، ولذلك لو كان بمجرد الروح لما كان هنالك داع لتعجب قريش وإنكارهم وضجيجهم، ولكان ذلك مثل الرؤيا المنامية التي يراها، ولكن هذا الضجيج الذي أثاروه بسبب أنه قال بأنه انتقل، وانتقاله يعني بنفسه وجسده، وهذا ما يؤذن به قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، فالعبد يشمل الجسد والروح معاً، ولا يكون خاصاً بالروح دون الجسد.

أما بالنسبة إلى المعراج فمن المحتمل أن تكون هذه الرحلة روحانية فحسب، ومن المحتمل أيضاً أن تكون روحانية جسدية، فالله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير، ولا ريب أن في مثل هذه الحالات ـ عندما يكون العروج بالجسم والروح ـ تكون الشفافية للروح، ويغلب الجانب الروحاني على

الجانب الجسماني حتى يكاد يتلاشى الجانب الجسماني في الجانب الروحاني، فيخفّ الجسم ويعرج حيث يريد الله ـ تعالى ـ عروجه والله أعلم.

من الكتب التي يستقي بعض المسلمين تصوراتهم منها عن ليلة الإسراء والمعراج وما حدث فيها من أحداث والمشاهد التي رآها النبي ﷺ كتاب (المعراج) لابن عباس، وهو كتاب مليء بالقصص الخرافية مما وضعه القصّاص بقصد جذب انتباه السامعين بالقصص الغريبة والأحاديث العجيبة، هل من كلمة تودّون قولها حول هذا الكتاب؟ وهل تصح نسبته إلى ابن عباس؟

نسبة هذا الكتاب إلى ابن عباس رضي الله عنهما لا تصحّ، ولا يمكن لابن عباس أن يقول مثل ذلك الكلام السخيف، فابن عباس هو ترجمان القرآن، وهو حبر الأمة الذي دعا له النبي ﷺ ربه ﷻ أن يعلمه التأويل وأن يفقّهه في الدين[1]، فليس من المعقول أن ينحدر ابن عباس وهو بهذا القدر العظيم عند ربه ﷻ وعند رسوله ﷺ إلى هذا المستوى السخيف حتى يقصّ من الأنباء ما هو في مستوى الجهلة العوام الذين لا يفرّقون بين الذئب والحمل، ولا بين التمرة والجمرة، إنما ابن عباس هو أسمى من ذلك بكثير، فهو حبر هذه الأمة وترجمان كتاب ربها ﷻ، فكيف ينحدر إلى هذا المستوى.

ثم مع ذلك الأمورُ يجب أن تعرض على الأدلة، والأدلة متنوّعة منها ما هو عقلي، ومنها ما هو نقلي، والله ـ تبارك وتعالى ـ منح عباده عقولاً، هذه العقول يمكنهم بها أن يميّزوا بين الكثير مما يقال، بين صحيحه وفاسده، بين ثابته وغير الثابت، ذلك لأن الله ﷻ جعل العقل هادياً إلى كثير من

(١) رواه الحاكم (٦٢٨٠).

الحقائق، أنا لا أقول بأن العقل هو كل شيء وأنه يعتمد عليه في كل شيء؛ لأن العقل هو طاقة محدودة، ولكن بقدر ما أعطى الله ـ تعالى ـ عباده هذه الطاقة وجعلها محدودة؛ جعل فيها من القدرة على اكتناه كثير من الحقائق، ولذلك نجد أن الله ـ سبحانه تعالى ـ يبيّن أن هذه الآيات إنما هي لقوم يعقلون ولقوم يتفكرون، فيُطلب من الإنسان أن يستعمل فكره، وأن يستعمل عقله في كثير من القضايا.

أما لو تصادم العقل مع الدليل القطعي من الكتاب أو السُّنَّة المتواترة فلا مجال هنا لجعل العقل يرد النص القطعي لأن هذا كلام لا يُقبل، ففي هذا المقام يُتهم العقل، ولكن بالنسبة إلى الروايات التي تأتي من الناس من غير أن تثبت فإن العقل يُرجع إليه فيها.

وأما لو جئنا إلى النقل الذي هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإننا نجد أن هذه الروايات تتعارض تمام التعارض مع ما جاء في كتاب الله ومع ما ثبت في سنة رسول الله ﷺ، فكيف يُعوّل عليها؟!

على أنه كما يقول بعض العلماء المحققين: لئن كان من أسباب الحكم على الحديث بالضعف وحطّه من مرتبة الصحيح معارضته لما هو أقوى منه من الروايات، فكيف إذا عارض الحديث النص القطعي من القرآن أو الحديث المتواتر، كيف يمكن لهذه الرواية أن يحكم بصحتها؟! وهكذا بالنسبة إلى ما يروى عن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ أو يروى عن غيرهم من التابعين وغيرهم مهما كانت منزلة من يروى عنه ذلك.

ثم إنه ليس كلّ ما يُروى عن أحد بثابتٍ عنه فضلاً عن كون المرويّ عنه ـ إن كان غير معصوم ـ عرضة للنسيان وغيره، فهذا مما يجب أن يُتفطّن له.

والنـــاس مطالبون بـــأن يعتبـــروا بالقصص التي فـــي القـــرآن، وأن يعتبروا بالقصص الثابتة في حديث الرسول ﷺ وفي سيرته ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، لا أن يُعوِّلـــوا على الخرافات، فـــإن بناء الدين على الخرافـــة يؤدي إلى عدم إيمان الناس بهذا الدين عندما تنكشف هذه الخرافة عن حقيقتها والله المستعان.

البعض يشكك في الروايات التي حول حادثة المعراج ويقول إنها بعيدة عن التصديق من خلال تحليـــل متون تلك الروايات، فما حكم من أنكر المعراج استناداً إلى مثل تلك التحليلات؟

نحن كما ـ قلنا ســـابقاً ـ نعوّل على قول من قـــال بأن من أنكر المعراج يُفسَّق؛ لأن الإشارة إليه واضحة في القرآن الكريم، ومن أنكر الإسراء يُشرَّك.

أما بالنســـبة إلى الروايات فليست متونها كلها متســـاوية، فقد يكون في بعض المتون ما يدعو إلى النظر ويدعو إلى التأمل، ولكن هي في مجموعها قوية وتدل على ثبوت ما جاءت دالة عليه بمجموعها، فيعوّل على مثل هذه الرواية مع استفاضة هذه الروايات وشد بعضها أزر بعض.

يرى بعض العلماء أن المعراج حدث مرتين، ويستدلون على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣ ـ ١٤]، فما هو رأيكم سماحة الشيخ؟

هذا كلام من لم يطّلع على الحديث أو من تجاهل الحديث؛ لأن حديث النبي ﷺ يقول بأن «ذلك جبريل لم أره فـــي صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض»[(١)].

(١) رواه الترمذي (٣٣٤٧) ومسلم (٤٥٧).

فالمرة الأولى التي رأى فيها النبي ﷺ جبريل كهيئته التي خلقه الله ـ تعالى ـ عليها إنما كانت في بداية الوحي عندما ناداه من السماء فرفع بصره إليه فرآه في السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض، فرجع النبي ﷺ وهو ترجف بوادره[1] مما ألمّ به من الخوف الطبيعي الذي ينتاب كل أحد عندما يرى أمراً كهذا الأمر الذي هو خارج عن المألوف، فهذا بطبيعة الحال روّع النبي ﷺ ورجع إلى أهله وقال: «زمّلوني زمّلوني»[2] كما ثبت ذلك، وأنزل الله ـ تعالى ـ فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، و﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] إلى آخره.

والمرة الثانية هي هذه المرة التي وقع فيها هذا الحدث كما أخبر الله ـ تعالى ـ فيها بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٨]. فهذا مما دل عليه القرآن، والسُّنَّة جاءت موضحة لما أجمله القرآن الكريم، فيعوّل على ذلك.

أما أن يقال بأن الحدث تكرر مرتين فالمرة الثانية متى كانت؟! هل بعدما فتح النبي ﷺ مكة؟! أو عندما سار في عمرة القضية بعدما صُدَّ عن الحديبية؟! لا، فإن كان هذا الحدث قد وقع قبل الهجرة فليس هنالك دليل على وقوعه مرة أخرى، فالقرآن لم يذكر ذلك إلا مرة واحدة، في سورة النجم التي هي سورة مكية، وفي سورة الإسراء التي هي أيضاً سورة مكية، فكيف يقال بأن هذا الحدث وقع مرة بالمدينة ومرة بمكة؟! ليس هنالك من دليل على هذا قط والله أعلم.

---

(١) البوادر: جمع بادرة، والبادرة من الإنسان وغيره اللحمة التي بين المنكب والعنق. (ابن منظور، لسان العرب، مادة بدر).

(٢) رواه البخاري (٣) ومسلم (٤٢٢).

هل صلى النبي ﷺ بالأنبياء إماماً؟ وهل معنى ذلك أنهم أُحيوا؟

ورد ذلك في بعض الروايات، وإن كانت هذه الروايات لم تبلغ مبلغ التواتر، ولذلك لا يُقطع بهذا الأمر، ولكن مهما يكن فإنه لا يجوز لأحد أن يقدم على ردِّ ذلك، فمن المحتمل أن يكون الله ـ تبارك وتعالى مثّل له أرواحهم، والأنبياء لا بدّ أن يعتقد الإنسان أن منزلتهم فوق منزل الشهداء، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فمنزلة النبيين أكبر من هذه المنزلة، هم ماتوا بطبيعة الحال كما قال الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، لكن هذا لا يمنع أن يكون هنالك لهم إحساس، وأن يكون لهم شيء من الطبيعة التي هي تتميز عن طبيعة غيرهم، فالله ـ تعالى ـ قادر على كل شيء، كما أخبر ـ سبحانه ـ أنه أحيا الذي أماته مائة عام، أليس قادراً على أن يحيي هؤلاء، وأن يجمعهم بالنبي ﷺ، أو أن تتمثّل له أرواحهم وهم يصلون وراءه ﷺ؟ إن الله على كل شيء قدير، والقدرة الإلٰهية قدرة مطلقة، قدرة لا يحدّها شيء، وصفات الله ـ تعالى ـ صفات مطلقة، فكما أن علم الله ـ تعالى ـ مطلق أحاط بكل شيء فإن قدرة الله ﷻ قدرة مطلقة أحاطت بكل شيء، فهو على كل شيء قدير، كما أنه ﷻ بكل شيء عليم.

فليس هنالك ما يمنع من هذا، ولا يجوز لأحد أن يردّ مثل هذه الأخبار لمجرد خيال في نفسه بأن هذا يتصادم مع الواقع أو يتصادم مع المألوف عن الموتى، فالله ﷻ أخبر عن المسيح عليه السلام أنه من معجزته أنه كان يحيي الموتى، هذا مما نصّ عليه القرآن الكريم، وأمر الله ـ تعالى ـ أعظم شأناً، وما كان على يدي المسيح إنما هو من باب رفع قدره وإعلاء شأنه والدلالة على صدق قوله فيما يبلّغه عن ربه، فكيف بالقدرة المطلقة لله ﷻ؟! والله أعلم.

ما هو المعراج؟

المعراج يقصد به العروج إلى المقامات العلى، وأصل مِعْراج مِفْعال، ومِفْعال يُطلق على الآلة، ولكن يراد به هنا العروج والله أعلم.

ما هي وسيلة المعراج؟

نحن نعلم أن الله ـ تعالى ـ يصنع ما يشاء ويفعل ما يريد، فالله ـ تبارك وتعالى ـ يدّبر هذا الكون كما يريده، ينقل الشمس من مكان إلى مكان، وكما يقول العلماء الآن بأنها تقطع في الثانية الواحدة اثني عشر ميلاً، والشمس هي أكبر من الأرض بمليون ضعف ومع ذلك تقطع هذه المسافة، فما هي الوسيلة؟ إنما هي قدرة الله ـ تعالى ـ التي أحاطت بكل شيء، فضلاً عن الأجرام الفلكية الأخرى التي هي أكبر من الشمس بكثير، وهي أسرع من الشمس بكثير، كل ذلك مما يدل على أن الله على كل شيء قدير.

فهل الله ﷻ يعجزه أن يعرج بعبده ورسوله ﷺ من غير وسيلة؟! وهل هو بحاجة إلى الوسيلة؟! إنما علينا أن نسلّم الأمر لله ـ تبارك وتعالى وأن لا نخوض في ذلك والله أعلم.

ما حكم من أنكر المعراج؟

من أنكر الإسراء فإنكاره للإسراء يعتبر ردّة عن الإسلام، أما من أنكر المعراج فإنكاره للمعراج إنما يعتبر فسوقاً، ولكن مع هذا كله نقول إنْ تأوّل المعراج بأنه عروج بالروح فإنه لا يفضي به الأمر إلى أن يقال بأنه فاسق والله أعلم.

الفهرس

مقدمة ٥

مدخل إلى علم العقيدة ٧

الجملة وتفسيرها ٤٠

الإسلام والإيمان ٤٩

مدلول الإيمان ٥٠

الفرق بين الإيمان والإسلام ٥١

زيادة الإيمان ونقصانه ٥٤

الإكراه على الدين ٥٦

لا تزر وازرة وزر أخرى ٦١

العمل الصالح وأهميته ٦٢

سماحة الإسلام ٦٧

شبهات حول الإسلام ٧٤

الردة عن الإسلام ٨٣

صفات المؤمن ٨٧

الخوف والرجاء ١٠٠

مكانة الإسلام ١٠٣

النفس الإنسانية ١٠٤

الفطرة ١٠٤

الوسواس ١١٠

محاسبة النفس ١٢٢

خلق الإنسان ١٢٤
حياة الأمم السابقة ١٢٥

قيام الحجة ١٣٣
التكليف الشرعي وأحكامه ١٣٤
الهداية ١٣٧
ما يسع جهله وما لا يسع ١٤١
الحاكم هو الشرع ١٤٣
أصحاب الفترة ١٤٩
عبارات عقدية شائعة ١٥٢
الاجتهاد ١٥٥
العقل ومكانته في التشريع الإسلامي ١٦٨

الإيمان بالله ١٧١
أدلة وجود الله ١٧٢
رؤية الله تعالى ٢٠٥
ما يجوز على الله وما لا يجوز ٢١٧
الآيات الكونية ٢٢٠
صفات الله ٢٤٣
حب الله ورسوله ٢٦٠
حسن الظن بالله ٢٦١

الإيمان بالملائكة ٢٦٣
الإيمان بالملائكة ٢٦٤

الإيمان بالكتب السماوية ٢٩١
الكتب السماوية ٢٩٢
أسماء الكتب المنزلة ٣٠٠
المعجزة ٣٠١
الإعجاز القرآني ٣١٣
الحقيقة والمجاز في القرآن ٣٦٥
وجوب الإيمان بالقرآن ٣٦٧
مكانة القرآن ٣٦٩
قراءة القرآن وتدبره ٣٧٨

الإيمان بالرسل ٣٨٣
الإيمان بالرسل وأثره في حياة المسلمين ٣٨٤
الإيمان بالرسل ٣٩١
وجوب طاعة الرسول ﷺ ٣٩٩
عصمة الرسل ٤٠٢
نزول عيسى وخروج الدجال ٤١٣
الوحي والنبوة وأقسامها ٤٣٠
الأولياء والصالحون ٤٣٢
الإسراء والمعراج ٤٣٦

الفهرس ٤٤٥